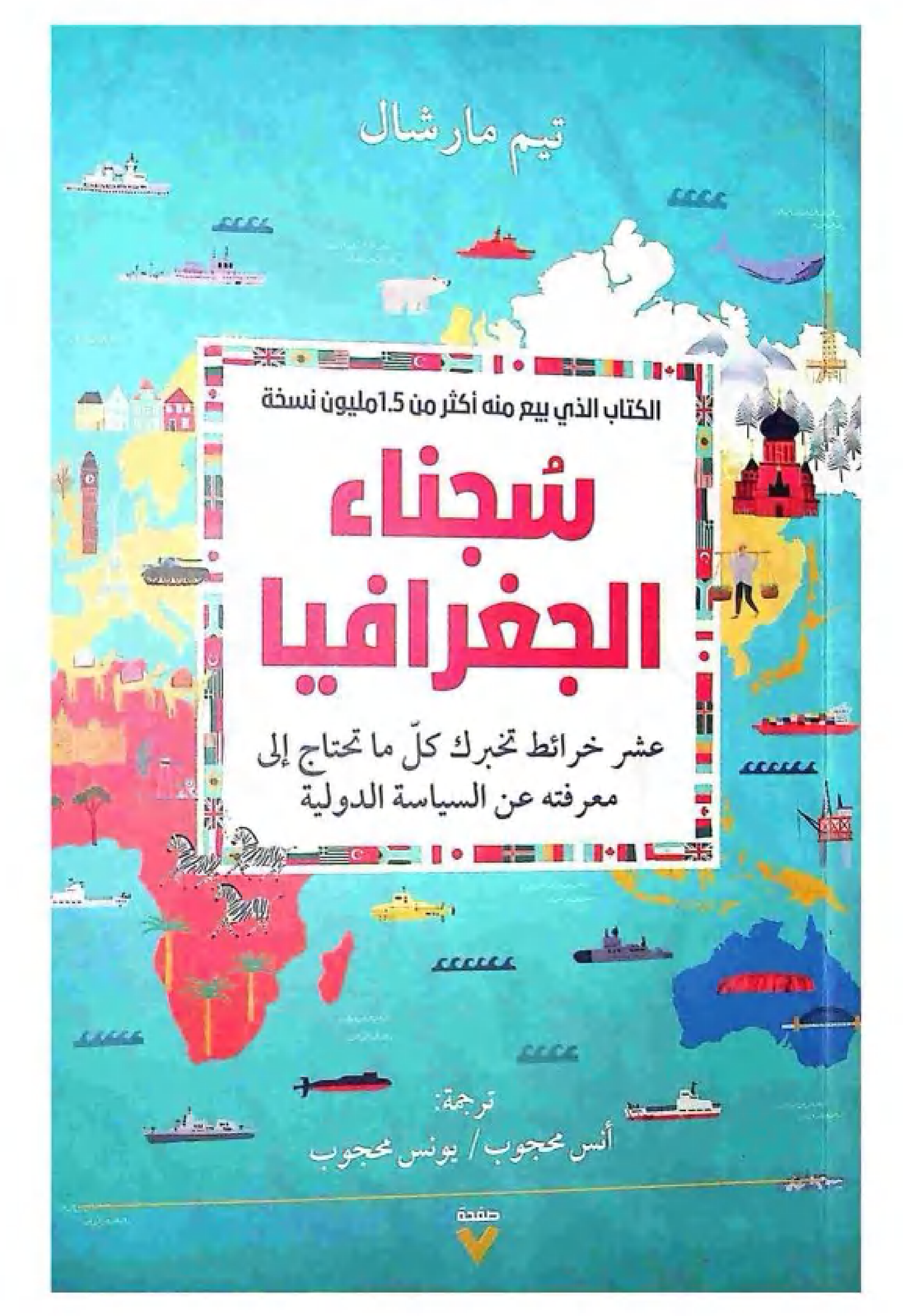

تيم مارشال
الكتاب الذي بيع منه أكثر من 1.5 مليون نسخة
سُجناء الجغرافيا
عشر خرائط تخبرك كلّ ما تحتاج إلى
معرفته عن السياسة الدولية
ترجمة:
أنس محجوب / يونس محجوب
صفحة
7


مكتبة العولقي
– شبوة اليمن –



سجناء الجغرافيا

عشر خرائط تخبرك كلّ ما تحتاج إلى معرفته عن السياسة الدولية

Prisoners of Geography

Ten Maps That Tell You Everything about Global Politics

Tim Marshall

سجناء الجغرافيا

عشر خرائط تخبرك كلّ ما تحتاج إلى معرفته عن السياسة الدولية

تيم مارشال

ترجمة: أنس محجوب ويونس محجوب

مراجعة وتحرير: عبدالمنعم المحجوب





كتاب
سجناء الجغرافيا
المؤلّف
تيم مارشال

الطّبعة الأولى: 2022
التّرقيم الدّوليّ
978-603-8387-24-5
رقم الإيداع
1444/4335

PRISONERS OF GEOGRAPHY

This translation of PRISONERS OF GEOGRAPHY is published by arrangement with Elliott and Thompson Limited.

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

الفهرس

تقديم المترجم 7

تقديم جون سكارليت 19

مقدمة 23

الفصل الأول: روسيا 35

الفصل الثاني: الصين.................... 81

الفصل الثالث: الولايات المتحدة الأمريكية.......... 125

الفصل الرابع: أوروبا الغربية................ 165

الفصل الخامس: أفريقيا.................. 201

الفصل السادس: الشرق الأوسط 241

الفصل السابع: الهند وباكستان 299

الفصل الثامن: كوريا واليابان.............. 337

الفصل التاسع: أمريكا الجنوبية.............. 371

الفصل العاشر: القطب الشمالي 409

المراجع 443

تقديم

بقلم: عبد المنعم المحجوب

إن العالم يتقلّب ولا يتغير، ولا يجب أن ننسى أثناء ذلك أن عدم الاستقرار هو الثابت الأساسيّ في معادلات الجغرافيا السياسية التي قد تكون أداةً لتسريع الوتائر وتفاقمها، أو تصبح أداة لتهدئتها وتخفيفها. إن الأمر برمّته يعتمد على إدارة هذه الطبيعة المزدوجة، إتقاناً أو إخفاقاً.

لكي تكون في عمق الجغرافيا السياسية يتعيّن عليك أن تتشبّه بـ«يانوس»، إله الزمن في الميثولوجيا الرومانية، أعني أن تكون ذا وجهين مثله، فهو ينظر إلى الأمام، ولكنه لا يكفّ عن النظر إلى الخلف، في الوقت نفسه. ومثل يانوس أيضاً، أنت في حاجة إلى أن تكون بأربعة أوجه في الكثير من الأحيان، إذا فكّرتَ في الاتجاهات الأربعة التي ينفتح عليها العالم.

الالتفات إلى الخلف يجعلك مؤرّخاً، نوعاً ما، تتحلّى بالقدرة على استخلاص العناصر القديمة التي ما زالت تعمل في الوقت الحالي، ودمجها بعناصر جديدة، مشتقة أو متوارثة أو مبتكرة. كما يجعلك التطلّع إلى الأمام متنبئاً خبيراً في دراسات المستقبل، فتستطيع رؤية

الكيفية التي تتولّد بها الأحداث وتستجيب لها الأمكنة. أما التدقيق في الأرجاء، هنا وهناك، فإنه يضعك في «قلب الحدث» كما يحب المراسلون الحربيون أن يقولوا.

لكن خللاً كبيراً يصيب هذا التسلسل ويعطّل نتيجته، إذا اكتفينا بجزء واحد منه. العاملون في الجغرافيا السياسية ليسوا محللين سياسيين لا يرون أبعد من أنوفهم، كما يحدث في الكثير من الأحيان عندما نشاهد بعض وسائل الإعلام العربية والعالمية. إنهم قبل أن يبدؤوا النظر إلى الأمام والتطلّع إلى الأفق، يجب أن يكونوا قد اكتفوا من النظر إلى الوراء، فإذا أرادوا الذهاب إلى المستقبل - كما يجب أن يفعلوا حقاً - فإنهم يجرّون وراءهم عالماً قديماً لم يُستنفَد بعد، يساعدهم على رؤية ما يعتمل على سطح الأرض، وربما تحته.

حسناً، هذا تقريباً ما يمكن أن نصف به هذا الكتاب الذي لا يخلوا من الجديّة، والمتعة أيضاً، إذا استثنينا بعضاً مما يعمد المؤلف إلى إقحامه من رؤى أحاديَّة، وتفسيرات موجّهة، أو مما يغفله في أحيان كثيرة من حقائق واقعية كان لها دور كبير في تأثيث المشهد العالمي الحالي. وباختصار، فإننا قد نتفق غالباً مع تيم مارشال في ما يذكره من معطيات مسبقة، ولكننا سنختلف معه، في أكثر من موقع، بالنسبة إلى الوجهة المختارة قُدماً. سوف أجمل وجهة نظري في الملاحظات والأمثلة التالية.

قبل كل شيء، لعل أفضل ما قام به مارشال في هذا الكتاب أنه عمّم معرفة الجغرافيا السياسية بأن أخرجها من صرامتها المنهجية،

ومنَحَها نبضاً حيًّا نستطيع أن نعيشه ونتنفّس هواءه الذي يتردّد في كل مكان حولنا؛ من الأحداث المتفاقمة التي تنقلها نشرات الأخبار فتشي دائماً بأن العالم صار أكثر جنوناً من أي وقت مضى، إلى الأمل الضئيل الذي يظلّ يحدونا في أن نرى هذا العالم أهدأ وأكثر إنسانيةً. نعم، نستطيع بنيّة حسنةٍ أن نتضامن مع المؤلف في إدانة الحروب والاحتلال ونهب الموارد وتحقير «الآخر»، ولكننا سنرفضه حتماً، دون تردّد، عندما نراه يستثني الحروب التي شنّتها الولايات المتحدة والدول الغربية للسيطرة على موارد الآخرين أو دفاعاً عن مصالحها، أو يبرّر احتلال أفريقيا، مثلاً، ونهب ثرواتها، أو يعمد إلى تحقير غير الغربيين، من آسيويين وأفارقة وأمريكيين جنوبيين، أو يهين الروس أو الصينيين أو العرب أو غيرهم. إن المتابعات الدقيقة والذكية التي يقدمها مارشال تتلاشى أحياناً في ظل نبرةٍ من التشفّي لا يتردّد في إعلانها كلما تحدّث عن أعداء أو خصوم أوروبا و/ أو الولايات المتحدة. فالعالم من منظوره هذا ينقسم إلى خيّرين وأشرار، ومتقدمين ومتخلّفين، وأذكياء وأغبياء... إلى آخر المتقابلات. ذلك يعني في خلفية أطروحته أن «الغرب أولاً، ثم تأتي بقية العالم... إذا أتت»، إنه النموذج القديم المستهلَك الذي ينعكس على الكثير من الأدبيات السياسية في الغرب، تلك التي أنتجتها فلسفة التمايز العرقي منذ البلينيين إلى الهيغليين، وما زالت تلقي بظلالها المريعة على بعض أنماط التفكير في الغرب المعاصر.

أما من جهة الأهداف في سياق الكتاب العام، أو لنقل «رسالته»،

فإن تيم مارشال «ينبش» مكامن الشرّ بين الأمم، ويزيح الغبار المتراكم طوال قرون عن المشكلات المتخلّدة بين البشر ضمن حدودهم القديمة. يستطيع أن يقنعنا بأن «جميع الدول الكبرى تقضي أوقات السلم وهي تستعدّ ليوم تندلع فيه الحرب»، ولكنه يفعل ذلك دون أن يشير إلى الأمل في التعايش والمشاركة والسعي إلى خير العالم، وجميع سيناريوهاته، الواقعية أو المتخيَّلة، لا تميل إلى استخلاص أي نتيجة إيجابية يمكنها أن تنقذ العالم من الانحدار. علينا أن ننتظر حتى خاتمة الكتاب لنقرأ فقرات قليلة عن مثل هذا الأمل، وهي في تقديري جمل إنشائية رومانسية عابرة لا ترقى إلى مستوى الرسالة التي أراد المؤلف استخلاصها من تحليلاته. سأكون أكثر قسوة إذ أقول: إنه كتاب ينتمي إلى عقلية قديمة عمادها الأثرة والفتنة وخراب العالم والتكالب على ما تبقى من موارد طبيعية لم تُحتكر بعد.

«سجناء الجغرافيا»، إذن، يدور في فلك الاستراتيجيات القديمة، وهو يتعامل في معظم الأحيان مع الجغرافيا العسكرية بوصفها تعالج سطحاً أفقياً ذا بعد واحد محدّداً مسبقاً، دون أن يولي مفهوم «الجغرافيا المرنة» أي قدر من الاهتمام، بل إنه لا يكاد يعرج على التقنيات الحديثة التي تدعم هذا المفهوم إلا لماماً، فهو يعترف بها في مقدمة الكتاب وخاتمته، دون أن يخصّص لها حيزاً يُذكر في متنه.

لم يكن المؤلف كذلك وفيًا دائماً للمنهج الجغرافي، أو لنقل إنَّه انتقائيّ بالنسبة إلى عرض أفكاره! فقضايا مثل الحدود بين

الأمريكيتين الشمالية والجنوبية، مثلاً، يعالجها باستبدال الجغرافيا الطبيعية بجغرافيا الأنثروبولوجيا السياسية، دون أن يثيره هذا التصنيف كثيراً. الأمريكيتان من الناحية الجغرافية الطبيعية تفصل بينهما أمريكا الوسطى بداية من بليز وغواتيمالا شمالاً حتى بنما جنوباً (ما لم نشأ أن نجعل شبه جزيرة أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى ودول البحر الكاريبي حسب رأي بعض الجغرافيين كتلةً واحدة تضم ثلاثة وعشرين بلداً)، ولكن التصنيف السياسي الغربي السائد، وهو ما يستخدمه مارشال، ينتهي بحدود أمريكا الشمالية مع بداية المكسيك شمالاً وشرقاً، بصرف النظر عن انثيال الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة وراء جزء كبير من شمال المكسيك. وباختصار فإن المؤلف يصرّ على انتزاع المكسيك من خريطة أمريكا الشمالية ليلقي بها في أمريكا الجنوبية، دون أن يهمل تأكيد تبعية المكسيك سياسياً وخضوعها للولايات المتحدة (انظر الفصل التاسع). إن تصنيفه أنثروبوسياسيّ أساساً، وهذا ما يجنّبه في بعض الأحيان التصدّي بعمق لإشكاليات كثيرة في خريطة العالم، مكتفياً بترديد مفاهيم سياسية عامة منتقاة، الأمر الذي يُفقد الكتاب جزءاً واضحاً من صدقيّته. فبقدر ما يسعى المؤلف إلى إعادة استظهار قواعد الجغرافيا السياسية الأساسية وعواملها المؤسسة، إلا أنه لا يقوم في بعض الأحيان سوى بالتعبير عن آراء سياسية مؤقتة، أو هي نتاج أحداث غير مؤثرة سرعان ما تتغيّر ويطويها النِّسيان. إنه من هذه الناحية يتردّد بين استلهام دورس الجغرافيا السياسية الكبرى وبين التحليل الصحفي السياسي العابر، وفي هذه المنطقة الفضفاضة

الواسعة يمكن تصنيف كتاب «سجناء الجغرافيا».

وبالرغم من أن المؤلف يفرد فصلين متصلين للحديث عن الغرب، ممثلاً في الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، إلا أنَّ هذا الكتاب موجّه أساساً ضد خصوم الغرب التاريخيين: روسيا، الصين، الهند، ثم بشكل أساسي العرب والمسلمون حيثما كانوا، في أفراسيا (الوطن العربي) أو في أي مكان آخر من العالم (انظر الفصلين الخامس والسادس). ولكن تجب الإشارة هنا إلى أنه يكشف الكثير من الآليات التي استخدمها الفرنسيون والبريطانيون في بسط نفوذهم وهيمنتهم على أجزاء متفرقة من العالم (البلدان العربية والأفريقية أساساً)، ويشرح بوجهة نظر محددة تأثير المكوّنات الجغرافية السابقة على خلق وتنظيم الكيانات السياسية اللاحقة، ولكن مثل هذه المعايير لم تكن لتؤخذ بعين الاعتبار دائماً خاصة عندما نعرف المصائر الكارثية التي جلبها الأوروبيون بمجرد استخدام المسطرة والقلم لرسم الحدود الإقليمية، وخاصة بين الدول العربية في آسيا وأفريقيا، أو بين دول أفريقيا السوداء.

هذا الكتاب من ناحية أخرى كتابٌ عن الصين! أو هو كتابان في كتاب، أحدهما عن الصين. قد يتفاجأ القارئ بذلك، ولكنه سيقبل هذا الوصف عندما يواصل التنقل بين خرائط العالم العشر وهو يرى مدى الحيّز الذي تشغله الصين. سنرى كيف «يلاحق» مارشال الصين في مواضع كثيرة من تحليلاته، في جميع أنحاء العالم تقريباً،

كاشفاً عن تدخلاتها واستثماراتها و«نواياها». إنها في جميع الفصول دون استثناء. وهو لا يتوقف عن لوم الصينيين على تعميم ما لديهم من «حقائق واقعية» وجعلها «حقائق عالمية»؛ حسناً، مَن يمكن استثناؤه من ذلك؟ الولايات المتحدة! أوروبا! روسيا! لا أحد في الواقع سيُحْجِم عن الإقدام على ذلك إذا كان الأمر في مصلحته. وبالنظر إلى توجّهه الغربيّ الصرف فإن المؤلف لا يتوانى عن إطلاق جرس الإنذار صراحةً منبهاً الولايات المتحدة و/ أو الدول الغربية عمّا يمكن أن تؤول إليه الأمور في أصقاع بعيدة عنهم، لأن الصين حاضرةً دائماً هناك، وهي تهدّد أجنداتهم الخارجية أو تمس أمنهم القومي في أفريقيا أو آسيا أو أمريكا الجنوبية، وربما في أوراسيا التي تحصّنها روسيا ضدّهم! وتظلّ الصين في هذا الكتاب كتلة غامضة لم يستطع المؤلف تفكيك الديناميكيات الداخلية التي تتظافر في كيانها، والعوامل التي تساعدها على النمو والتقدم باضطراد، وبالرغم من أنه يلجأ إلى البحث عن تبايناتها الإقليمية، الجغرافية والديموغرافية والثقافية والاقتصادية، لكي يؤكّد إمكانية تقويضها واحتمالات انهيارها من داخلها، إلا أنه لا يعثر على شيء يقيني يقدّمه أو يستطيع إثباته، فيعود إلى مقارنة الصين («القوة المنغلقة التي يتزايد نموّها») بأمريكا («القوة العظمى، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، التي تتمتع بمرونة هائلة»)، ويجعلنا «نكتشف» أن المواطنين الأمريكيين يتمتعون بحقوق فردية وينظرون إلى حياتهم وحريتهم وسعيهم إلى الرخاء بمنتهى الجديّة لذلك يحرصون على اختيار حكوماتهم، أما المواطنون الصينيون فتغلب عليهم الجماعية

التي تطغى على حقوق الأفراد وهم لا ينظرون إلى حريتهم وسعيهم إلى الرخاء إلا بما تمنحه لهم الدولة التي لا يستطيعون تغيير حكومتها، أو حتى مجرد انتقادها. إن ما لا يريد المؤلف الاعتراف به هو اختلاف أنماط إدارة الحياة وتباين الاختيارات في بقاع الأرض، إذ لا شيء -من وجهة نظره- يعادل النموذج الغربي إنسانيةً، مثلما لا دولة باستثناء الولايات المتحدة تستحق الهيمنة على العالم!

يستخدم الكاتب في أحيان كثيرة مفردات الجغرافيا السياسية كما استقرت في أدبيات الاستراتيجية الغربية، وكما تتردّد في وسائل الإعلام الغربية. هكذا - على سبيل المثال - فإن محاولة الأرجنتين استرداد جزر «مالفيناس» في جنوب المحيط الأطلسي، يسميها المؤلف «غزواً» أمر به «النظام الديكتاتوري العسكري الأرجنتيني» كما يقول، ولكن القوات البريطانية استطاعت دحره وسيطرت على الجزر! إن ما يسميه المؤلف «الغزو الأرجنتيني» عام 1982، مسألة ردُّ اعتبارٍ تاريخيّ بعد قرابة 150 سنة من الاحتلال، فمالفيناس التي تتكون من جزيرتين رئيسيتين تنتشر حولهما 776 جزيرة صغيرة، قد صارت تحت الاحتلال البريطاني منذ عام 1833، وما زالت حتى وقتنا هذا مسألة عالقة ينقسم العالم بشأنها إلى قسمين مختلفين، فهي تؤكّد تقسيماً جغرافياً سياسياً بديلاً هو «شمال-غرب» في مقابل «جنوب-شرق»، وهذا تصنيف غنيّ جداً بأدبياته في مختلف أرجاء العالم، لكن المؤلف ينسى هنا الأسس الجغراسياسية الطبيعية التي دافع عنها وطالب باعتمادها في الفصول السابقة، وأولها وحدة الحيّز

الجغرافي، وذلك ما تمثله حقيقة أن جزر مالفيناس تبعد 480 كم عن الشواطئ الأرجنتينية، بينما تبعد عن بريطانيا حوالي 13000 كم. بالرغم من أن وحدة الحيز الدغرافي كان مبدأ تحليلاته في مثال آخر هو العلاقة بين الصين وتايوان، فهذه الأخيرة تقع على بعد 140 ميلاً من ساحل الصين فقط، بينما تبعد عنها الولايات المتحدة 6400 ميلًا، الأمر الذي يرجّح كفة الصينيين في مطالبهم «الوطنية»، ويجعل الأمريكيين مجرد دخلاء على نزاع حدودي إقليمي لا صلة فعلية لهم به. أما عندما يتعلق الأمر بالمملكة المتحدة، بلده، فإنه لا يكتفي بإهمال هذه القاعدة في التحليل بل يصدح بنبرة عالية من الحميّة الوطنية التي احتكر ادّعاءها ونزع حقها عن «الآخر»، وهي الأرجنتين في هذا المثال، ويعود بذلك إلى مهنته الأصليّة، فيتحوّل إلى مجرّد معلّق صحفي ينقل تطوّرات الأحداث، ثم لا يتردّد في السخرية من شعب بأسره والتهكم عليه، لأنه سعى إلى استرداد ما يعتبره حقاً طبيعياً منحته له الجغرافيا.

على مستوى الاصطلاح، من الضروري أن ينتبه القراء إلى الدلالات المختلفة التي قد تعبر عنها المفردات نفسها في استخدامات المؤلف، ما ينتج تباعاً تقديرات مختلفة، وأحياناً متناقضة، في صلب القضايا التي يعالجها. فهو يمزج مثلاً بين مصطلحين من أهم مفردات الجغرافيا السياسية هما «الدولة» و«الأمة»، ولكنه يعني غالباً «كيان الدولة» كلما استخدمهما، ما لم يميّز شعباً أو عرقاً ما بمفهوم «الأمة»، أو يتحدث مباشرةً عن

لدولة القومية أو الدولة-الأمة Nation state التي يمكن تمييزها عن أنماط أخرى في تشكّلات الدول، أما ما نعرفه بالقومية أو الانتماء القومي فلا يرد لديه إلا بصيغة واحدة هي العرق (أو الإثنية)، كما في حديثه مثلاً عن المنتمية إلى العرق الروسي، مؤكّداً أنه «مصطلح يصعب تعريفه». وفي كل الأحوال فإن مفهوم «الأمة» لا يحظى في الكتابات الجيوسياسية بتلك المسحة «الترانسندنتالية» المفارقة التي دأبت على إضفائها الأدبيات الإنسانية، بل يحل فيه مفهوم «الدولة» بحضوره الكيانيّ ذي الحدود الواضحة المعترف بها، فيتطابق المفهومان بالنتيجة.

إن استعمال nationalism قد يدل على «الوطنية» أو «القومية»، بحسب السياق، ونلاحظ أن المؤلف إذا أراد التعبير عن القومية العربية، بمفهومها الشامل، فإنه يستخدم pan-Arab nationalism، أما حديثه عن «الدولة القومية» national state فإننا نحيله إلى «الدولة الوطنية» كلما تعلّق الأمر بالدول العربية. وفي هذا الباب، نراه يهمل الكثير من العوامل المؤسّسة للكيانات العربية الإقليمية (التي يسميها دولاً قومية)، مثل الانتماء القومي الواحد، والرابطة الاجتماعية التاريخية، واللغة والدين والتاريخ؛ إنه يهمل كل شيء يشير أو يدلّ على المعنى الأساسي في كلمات مثل العرب أو الدولة العربية. فلا عجب إذن أن يكون العرب من وجهة نظره أمماً شتّى، بينما نجده مصرّاً على أن البشتون أو الأكراد، على سبيل المثال، شعب واحد فصلت بينه حدود إقليمية اخترعها الغرب! ولكنه مع

ذلك قد يكون أكثر دقّة في بعض الأحيان، حتى وإن لم ينتبه إلى التباين الذي ينتج عن استخدامه بعض المفردات، فنراه مثلاً عندما يتحدث عن أفريقيا (الفصل الخامس) يعيد الحروب والصراعات العرقية التي شهدها السودان والصومال وكينيا وأنغولا وجمهورية الكونغو الديمقراطية ونيجيريا ومالي وأماكن أخرى إلى اصطناع الخرائط السياسية كما رسمها الأوربيون ارتجالاً دون أن يقفوا كثيراً على حقيقة تركيبة أفريقيا السكانية، مؤكداً أن تلك الصراعات والحروب الأهلية تعود إلى أن «المستعمرين أخبروا الأمم (الاثنيات) المختلفة أنهم أمة واحدة في دولة واحدة، وبعد طرد المستعمرين ظهر شعب مهيمن داخل كل دولة وأراد أن يحكمها بأسرها، وتولّد العنف تباعاً»، وهكذا بالنسبة إلى الأمم الأخرى، والأقليات التي تنتمي إلى أمم مشتتة... إلا إذا جاء حديثه عن العرب فإنه يعمد إلى فرضيات وآراء لا معيار تستند إليه، وقد يذهب في تعميماته إلى أقصى الحدود فيقول: «إن البلدان العربية محاصرة بأحكام مسبقة متحيزة، بل هي في الواقع أحقاد وضغائن لا يعرف عنها الغربيون العاديون سوى القليل، إلى درجة أنهم لا يميلون إلى تصديقها حتى وهي أمام أعينهم ويستطيعون قراءتها»! أو «يعدّ التعبير الروتيني عن كراهية «الآخرين» أمراً شائعاً في العالم العربي حتى أنه لا يكاد يستثير التعليقات»! بل إن الكتاب ينقلب محتواه عندما يتحدث عن الشرق الأوسط العربي فيصبح مجرد آراء وتحليلات في الأوضاع الداخلية، لا علاقة لها بالجغرافيا السياسية الدولية كما هو متوقّع. فضلاً عن تشويه بعض الحقائق التاريخية أو

اجتزائها أو إعادة صوغها بطريقة مريبة... إلى آخر ذلك مما سيطالعه القارئ في هذا الكتاب.

لقد سقتُ المثال الأخير وما تلاه من ملاحظات لكي أقترح على القراء العرب، وهم يتابعون حصيلة المؤلف مما يعرضه عليهم من معطيات (جغرافية وتاريخية وسياسية واقتصادية)، أن يكتفوا بتلك المعطيات (دون أن يتخلوا عن شكّهم فيها)، وأن يعيدوا ترتيبها بأنفسهم في تحليلاتهم الخاصة، أي دون أن يعتمدوا على تحليلات المؤلف، لأنه غالباً ما يوظّف تلك المعطيات ويقودها إلى ما يراه صحيحاً من وجهة نظره المسبقة، وهو أمر لا أنصح بالوثوق به دائماً.

تقديم

بقلم: جون سكارليت[1]

صار من البداهة التفكير والقول بأننا نعيش في أوقات غير مستقرة على نحو استثنائي، وأن العالم - كما يقال لنا - لم يكن متقلّباً وغير قابل للتنبؤ به على هذا النحو من قبل. مثل هذه التصريحات تستدعي استجابة حذرة، وربما متشككة، ومن الصواب توخّي الحذر. لقد كان العالم غير مستقر دائماً، كما أن المستقبل، بحكم تعريفه، لا يمكن التنبؤ به. من المؤكد أن مخاوفنا الحالية يمكن أن تكون أسوأ بكثير، وإذا لم يكن هناك شيء آخر، فإن الذكرى المئوية لعام 1914[2] جديرة بأن تذكرنا بذلك.

هناك بالتأكيد تغييرات أساسية جارية، وهي تحمل معنًى حقيقياً لمستقبلنا ومستقبل أطفالنا أينما كنّا نعيش. التغييرات الاقتصادية والديموغرافية، وهي مرتبطة بالتغير التكنولوجي السريع، لها آثار عالمية قد تميّز الأوقات التي نعيشها الآن عن تلك التي مرّت بنا من قبل، وقد يكون هذا هو السبب في أننا نتحدث كثيراً عن «عدم يقين

1. رئيس جهاز المخابرات السرية (MI6)، 2004- 2009.
2. يشير إلى بداية الحرب العالمية الأولى.

استثنائي»، وعن السبب الذي جعل التعليقات «الجيوسياسية» صناعة نامية.

تيم مارشال مؤهل جيّداً، من الناحيتين الشخصية والمهنية، وعلى نحو غير معتاد، للمساهمة في هذا النقاش. لقد شارك مباشرةً في العديد من أكثر التطورات حدّةً خلال الخمسة والعشرين عاماً الماضية. وقد كان - كما تذكّرنا مقدمته - على خطوط المواجهة في البلقان وأفغانستان وسوريا، ورأى كيف أن القرارات والأحداث والنزاعات الدولية والحروب الأهلية لا يمكن فهمها إلا من خلال مراعاة الآمال والمخاوف والتصورات المسبقة التي شكّلها التاريخ وكيف أنها متأثرة بالضرورة بالمحيط المادي، أي الجغرافيا التي تطوّر فيها الأفراد والمجتمعات والبلدان.

من هنا، فإن هذا الكتاب زاخر بتصورات أُحسِن تقديرها وهي ذات صلة مباشرة بأمننا ورفاهنا. ما الذي أثر على العمل الروسي في أوكرانيا؟ هل فشلنا (أعني الغرب) في توقّع ذلك؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا؟ إلى أي مدى ستندفع موسكو الآن؟ هل تشعر الصين أخيراً بالأمان ضمن ما تعدّه حدوداً برية طبيعية، وكيف سيؤثر ذلك على توجهات بكين نحو القوة البحرية والولايات المتحدة؟ ماذا يعني هذا بالنسبة إلى دول أخرى في المنطقة، بما في ذلك الهند واليابان؟ لقد استفادت الولايات المتحدة، لأكثر من مائتي عام، من الظروف الجغرافية المواتية تماماً، ومن حصيلة الموارد الطبيعية، ولديها الآن من النفط والغاز ما لم تكن تحظى به سابقاً، فهل سيؤثر

هذا على سياستها العالمية؟ إن الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع بقوة ومرونة هائلتين، فلماذا إذن يتردّد الكثير من الحديث عن تدهور الولايات المتحدة؟ هل الانقسامات والأحقاد الدفينة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا مستعصية على الحل حقاً، أم يمكننا استبانة بعض الأمل في المستقبل؟ أخيراً، ولعل هذا هو الأهم بالنسبة إلى بلادنا، أي المملكة المتحدة، التي تعد واحدة من أكبر الاقتصادات وأكثرها انتشاراً عالمياً: كيف تتفاعل أوروبا مع حالات الريبة وعدم اليقين والصراعات القريبة وغير القريبة؟ لقد اعتادت أوروبا -كما يشير تيم- على مدار السبعين عاماً الماضية (وخاصة منذ عام 1991) على السلام والازدهار، فهل نجازف الآن إذا عددنا ذلك أمراً مسلّماً به؟ هل ما زلنا نفهم ما يدور حولنا؟

إذا كنت تريد التفكير في هذه الأسئلة، فاقرأ هذا الكتاب.

مقدمة

يقول **فلاديمير بوتين إنّه رجل متديّن**، وأنه مؤيد كبير للكنيسة الأرثوذكسية الروسية... إذا كان الأمر كذلك، فلابد أنه يذهب إلى الفراش كل ليلة، وهو يصلي سائلاً الله: «لماذا لم تضع بعض الجبال في أوكرانيا؟»

إذا كان الله قد خلق جبالاً في أوكرانيا، فلن يكون امتداد المِهاد[3] الكبير الذي يكوّن السهل الأوروبي الشمالي، منطقةً تشجّع على مهاجمة روسيا مراراً وتكراراً. وكما هو الحال، فلا خيار أمام بوتين: يجب أن يحاول على الأقل السيطرة على هذا المهاد الواقع غرباً. هذا هو الحال أيضاً مع كل الدول، سواء كانت كبيرة أم صغيرة. إن التضاريس الطبيعية تسجن قادتهم، الأمر الذي يمنحهم خيارات أقل ومساحة أضيق للمناورة مما قد يُعتقد. كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى الإمبراطورية الأثينية والفرس والبابليين والأمم التي سبقتهم، كما كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى كل قائد يبحث عن أرض مرتفعة يحمي بها قبيلته.

لطالما شكّلتنا الأرض التي نعيش عليها، فهي التي كوّنت الحروب والقوى والسياسة والتنمية الاجتماعية بالنسبة إلى

---

3. المهاد: الأرض المنبسطة.

الشعوب التي تتوطّن الآن كلّ جزء من الأرض تقريباً. قد تبدو التكنولوجيا قادرة على قهر المسافات التي تفصل بيننا في كل من الفضائين العقلي والمادي، ولكن من السهل أن ننسى أن الأرض التي نعيش فيها ونعمل، ونربي أطفالنا، لها أهمية عظيمة، وأن اختيارات أولئك الذين يقودون 7.5 مليار نسمة على هذا الكوكب سوف تنتج إلى حد ما عن طبيعة الأنهار والجبال والصحاري والبحيرات والبحار التي تحيط بنا وتقيدنا جميعاً، كما كانت تفعل دائماً.

لا يوجد -بوجه عام- عامل جغرافيّ واحد أكثر أهمية العوامل الأخرى، فما الجبال بأكثر أهمية من الصحاري، ولا الأنهار أهم من الأدغال. وتعدّ الخصائص الجغرافية المختلفة، في مختلف أنحاء الكوكب، من بين العوامل المهيمنة بالنسبة إلى تحديد ما يمكن، أو ما لا يمكن، للناس فعله.

إذا تحدثنا بطريقة أعم، فإن الجغرافيا السياسية تهتمّ بالطرائق التي يمكن من خلالها فهم الشؤون الدولية بدلالة العوامل الجغرافية، لا بالعوامل الطبيعية فحسب، أي الحواجز الطبيعية التي تصنعها الجبال أو تقاطعات شبكات الأنهار، على سبيل المثال، ولكن هناك أيضاً المناخ والتركيبة السكانية والمناطق الثقافية واستخدام الموارد الطبيعية. إن مثل هذه العوامل يمكن أن يكون لها تأثير مهم على العديد من الجوانب المختلفة في حضارتنا، من الاستراتيجية السياسية والعسكرية إلى التنمية الاجتماعية البشرية، بما في ذلك

اللغة والتجارة والدين.

غالبًا ما يتم تجاهل الحقائق الطبيعية التي تقوم عليها السياسات الوطنية والدولية سواء في الكتابة عن التاريخ أو في التقارير المعاصرة عن الشؤون العالمية. من الواضح أن الجغرافيا جزء أساسي من معرفة الوقائع والأحداث وبحث أسبابها. قد لا تكون هي العامل الأساسي، ولكن من المؤكّد أنها الأكثر اعتباراً. خذ الصين والهند على سبيل المثال، إنهما دولتان كبيرتان بعدد ضخم من السكان تشتركان في حدود طويلة جداً، ولكنهما غير متحالفتين سياسياً أو ثقافياً، ولن يكون من المستغرب أن يتصارع هذان العملاقان ويخوضا عدة حروب، ولكنّهما في الواقع، لم يفعلا ذلك قط، باستثناء معركة بينهما وقعت عام 1962، واستمرت شهراً واحداً. لماذا؟ لأن أعلى سلسلة جبال في العالم تفصل بينهما، ومن المستحيل عملياً أن تتقدم أرتال عسكرية ضخمة عبر جبال الهيمالايا، ونظراً لأن التكنولوجيا أصبحت أكثر تطوراً وتعقيداً، بالطبع، يمكن التغلّب على هذه العقبة، لكن الحاجز الطبيعي يظل رادعاً، ولهذا السبب يركّز البَلَدان سياستهما الخارجية على مناطق أخرى مع توجّس كل منهما من الآخر على نحو دائم.

يلعب القادة الأفراد، وكذلك الأفكار والتكنولوجيا وعوامل أخرى، دوراً في تكوين الأحداث، لكن هذه عوامل مؤقتة، حيث يظل كل جيل جديد في مواجهة العوائق الطبيعية التي صنعتها جبال

هندوكوش[4] والهيمالايا، حيث تظهر التحديات الناجمة عن موسم الأمطار، ومساوئ الوصول المحدود إلى المعادن الطبيعية أو مصادر الغذاء.

لقد اهتممت بهذا الموضوع أول مرة عند تغطية حروب البلقان في تسعينيات القرن. راقبت عن كثب زعماء شعوب مختلفة، سواء كانوا من الصرب أو الكروات أو البوسنة، قاموا بتذكير «قبائلهم» عمداً بالانقسامات القديمة، وكذلك الشكوك البالية في منطقة تكتظ بالتنوع، وعندما تمكنوا من فصل الشعوب عن بعضها بعضاً، لم يعد الأمر يحتاج إلى كبير عناء حتى ينقضّ كل منها على الآخر.

نهر إيبار[5] في كوسوفو هو مثال واضح لذلك، فقد توطّد الحكم العثماني في صربيا عن طريق معركة كوسوفو بولي سنة 1389 التي دارت حيث يتدفق إيبار عبر مدينة ميتروفيتشا[6]. وعلى مدى القرون التالية، أخذ السكان الصرب ينسحبون إلى ما وراء إيبار وانحدر الألبان المسلمون تدريجياً من منطقة ماليجا (ماليسيجا)[7] الجبلية إلى كوسوفو، إلى أن صاروا يمثّلون أغلبية السكان بحلول منتصف القرن الثامن عشر.

---

4. هندوكوش Hindu Kush: سلسلة جبال في أفغانستان وشمال غرب باكستان وهي امتداد لجبال الهمالايا.

5. إيبار Ibar: نهر يتدفق عبر شرق الجبل الأسود وشمال كوسوفو ووسط صربيا، بطول 272 كم.

6. ميتروفيتشا Mitrovica: مدينة في كوسوفو على ضفاف نهري إيبار وستنيكا.

7. ماليجا (ماليسيجا) Malesija: منطقة تاريخية إثنية في شمال ألبانيا، وشرق ووسط الجبل الأسود.

بحلول القرن العشرين كان لا يزال هناك انقسام عرقي- ديني واضح يفصل النهر تقريباً بين جزئيه. وفي 1999، تراجعت القوات اليوغوسلافية (الصربية) عبر نهر إيبار، بعد أن قصفها حلف شمال الأطلسي من الجو ودهمها جيش تحرير كوسوفو على الأرض، وسرعان ما تبعها معظم السكان الصرب المتبقّين. وهكذا أصبح النهر بحكم الأمر الواقع خطًّا حدودياً لما تعترف به بعض الدول الآن على أنها دولة كوسوفو المستقلة.

كانت ميتروفيتشا أيضاً هي المكان الذي توقف عنده تقدّم قوات حلف شمال الأطلسي البرية. وخلال تلك الحرب التي استمرت ثلاثة أشهر، سادت تهديدات مبطّنة بأن الناتو يعتزم غزو صربيا بأكملها. أما من الناحية العملية فإن قيود الجغرافيا والسياسة كانت تعني أن قادة الناتو لم يكن لديهم هذا الخيار فعلياً. كانت المجر قد أوضحت أنها لن تسمح بانطلاق الغزو من أراضيها، لأنها تخشى الانتقام من 350.000 مجريّ يقيمون في شمال صربيا، فكان البديل هو انطلاق الغزو من الجنوب، وكان من شأن ذلك أن يوصلهم إلى إيبار بسرعة مضاعفة، لكن الناتو آنذاك كان سيواجه سلسلة من الجبال.

كنت أعمل مع فريق من الصرب في بلغراد آنذاك، وسألت عما سيحدث إذا جاء الناتو؟ وكان الرد: «سنضع كاميراتنا جانباً، يا «تيم»، ونستخدم الأسلحة». كانوا أصدقائي المقرّبين من الصرب الليبراليين الذين يعارضون حكومتهم، وقد عرضوا الخرائط أمامي

ليروني أين سيدافع الصرب عن أراضيهم في الجبال، وأين ستتوقف قوات حلف شمال الأطلسي. كان من المربح أن تتلقّى درساً في الجغرافيا حول سبب محدودية خيارات الناتو أكثر مما تفعلهُ «ماكنة» العلاقات العامة في بروكسل.[8]

لقد جعلني فهم مدى أهمية المعالم الطبيعية في نقل أخبار البلقان أتخذ موقفاً جيداً في السنوات التي تلت ذلك. ففي عام 2001 على سبيل المثال، وبعد أسابيع قليلة من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، رأيت عرضاً عن الكيفية التي ما زال بها المناخ، حتى في ظل التكنولوجيا الحديثة اليوم، يفرض الإمكانات العسكرية بالنسبة إلى أقوى الجيوش في العالم. كنت في شمال أفغانستان، بعد أن عبرت النهر الحدودي من طاجيكستان على طوافة، من أجل الالتحاق بقوات «التحالف الشمالي»[9] التي كانت تقاتل طالبان.

كانت الطائرات المقاتلة والقاذفات الأمريكية تسيطر بالفعل على مواقع طالبان والقاعدة، على السهول والتلال الباردة التي يعلوها الغبار شرق مزار الشريف، لتمهيد الطريق والتقدم نحو كابول. بعد بضعة أسابيع، كان من الواضح أن التحالف الشمالي يستعدُّ للتحرك جنوباً، ثم تغيرت المعادلة فجأةً.

---

8. أو The Brussels Propaganda Machine أي دائرة الدعاية والإعلان في الاتحاد الأوروبي.

9. التحالف الشمالي Northern Alliance (NA): الجبهة التي تشكلت في شمال أفغانستان ضد طالبان عام 1996، وتكونت من قوات حزبية أو مستقلة، وكانت بقيادة أحمد شاه مسعود.

هبّت أعنف عاصفة رملية رأيتها، وحوّلت كل شيء إلى لون الخردل الأصفر. حتى الهواء من حولنا اتخذ هذا الشكل، وصار كثيفاً مفعماً بجزيئات الرمل. لم يتحرك شيء لمدة ستة وثلاثين ساعة ما عدا الرمال، ولم يكن بإمكانك في ذروة العاصفة أن ترى أكثر من بضع ياردات أمامك، أما الشيء الوحيد الذي كان واضحاً فهو أن تقدّم القوات يجب أن ينتظر تغيّر المناخ.

كانت تكنولوجيا الأقمار الصناعية الأمريكية المتقدّمة، عاجزة وعمياء في مواجهة مناخ هذه البراري. وكان على الجميع الانتظار، من الرئيس بوش وهيئة الأركان المشتركة إلى قوات التحالف الشمالي في مواقعها على الأرض. ثم هطل المطر وتحوّل الرمل الذي هدأ وسكنَ إلى طين موحل خاضه الجميع وغرقوا فيه. أمطرت السماء بغزارة حتى بدت الأكواخ الطينية التي كنا نعيش فيها كأنها تذوب. كان من الواضح، مرة أخرى، أن التحرك جنوباً يظلّ معلقاً حتى تنتهي الجغرافيا من درسها. إن قواعد الجغرافيا التي عرفها حنبعل وسون تزو والإسكندر الأكبر، ما زالت تتحكّم في قادة اليوم.

في الآونة الأخيرة، من عام 2012، تلقيت درساً آخر في الاستراتيجية الجغرافية: عندما انحدرت سوريا إلى حرب أهلية شاملة، كنت أقف على قمة تلّ مطلّ على واد جنوب مدينة حماة، ورأيت ضيعة تحترق على مسافة ليست بعيدة. أشار أصدقاء سوريون إلى قرية أكبر بكثير على بعد حوالي ميل واحد، قائلين إنّ

الهجوم أتى من هناك، ثم أوضحوا لي أنه إذا تمكن أحد الجانبين من دفع عدد كافٍ من الناس من الجانب الآخر إلى خارج الوادي، فيمكن عندئذٍ ضم الوادي إلى أرض أخرى تؤدي إلى الطريق السريع الوحيد في البلاد، وسيكون ذلك مفيداً بالتالي في «اقتطاع» جزء من الأراضي الحيوية المجاورة التي يمكن استخدامها يوماً ما لإنشاء دويلة صغيرة إذا لم تتمكن سوريا من إعادة توحيد أجزائها. لم أكن قبل أن أرى تلك الضيعة المحترقة، قادراً على إدراك أهميتها الاستراتيجية، وفهم كيف تتشكّل الحقائق السياسية من خلال الحقائق الطبيعية الأساسية.

تؤثر الجغرافيا السياسية على كل دولة، سواء كانت في حالة حرب، كما في الأمثلة التي ذكرناها، أو في حالة سلم، وفي كل منطقة هناك حالات يمكنك تسميتها. في هذه الصفحات لا يمكنني استكشاف كل واحدة منها، مثل كندا وأستراليا وإندونيسيا، من بين دول أخرى، ولن أذكر أكثر من موجز عنها، على الرغم من أنه يمكن تخصيص كتاب كامل لأستراليا وحدها والطرق التي شكّلت بها الجغرافيا روابطها مع أجزاء العالم الأخرى، طبيعياً وثقافياً. وقد ركّزت بدلاً من ذلك، على القوى والمناطق التي توضح بشكل أفضل النقاط الرئيسية التي يعنى بها الكتاب، بما في ذلك إرث الجغرافيا السياسية من الماضي (تكوين الدولة-الأمة)، والمواقف الأكثر إلحاحاً التي نواجهها اليوم (الاضطرابات المستمرة في أوكرانيا، وتأثير الصين المتزايد)، والتطلّع إلى المستقبل (المنافسة

المتزايدة في القطب الشمالي).

نرى في روسيا تأثير القطب الشمالي، وكيف يحدّ مناخه المتجمّد من قدرة روسيا على أن تكون قوة عالمية حقيقية. أما في الصين، فنرى حدود القوة من دون قوات بحرية عالمية، وقد أصبحت السرعة التي تسعى بها الصين إلى تغيير هذا الأمر واضحة في وقتنا الحالي. ويوضح الفصل الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية كيف أن القرارات الحكيمة لتوسيع أراضيها في مناطق رئيسية سمحت لها بتحقيق مصيرها الحديث بوصفها قوة عظمى بين المحيطين الأطلسي والهادئ. أما أوروبا فتوضح لنا قيمة الأراضي المنبسطة والأنهار الملاحية في ربط المناطق ببعضها بعضاً وإنتاج ثقافة قادرة على الانتساب إلى العالم الحديث، في حين أن أفريقيا هي مثال واضح لآثار العزلة.

يوضح الفصل الخاص بالشرق الأوسط لماذا وقع رسم خطوط الخرائط وتجاهل تضاريس الطوبوغرافيا، مع الإبقاء على الثقافات الجغرافية في بعض المناطق وصفةً لإثارة القلاقل. سوف نستمر في مشاهدة تلك القلاقل في هذا القرن، ويظهر الموضوع نفسه في الفصول الخاصة بأفريقيا، والهند وباكستان. لقد رسمت القوى الاستعمارية حدوداً مصطنعة على الورق، متجاهلةً كلياً ما في المنطقة من حقائق طبيعية، وتجري الآن محاولات عنيفة لإعادة رسمها، وهذه المحاولات ستستمر لعدة سنوات، وبعد ذلك لن تبدو خريطة الدول القومية كما هي الآن.

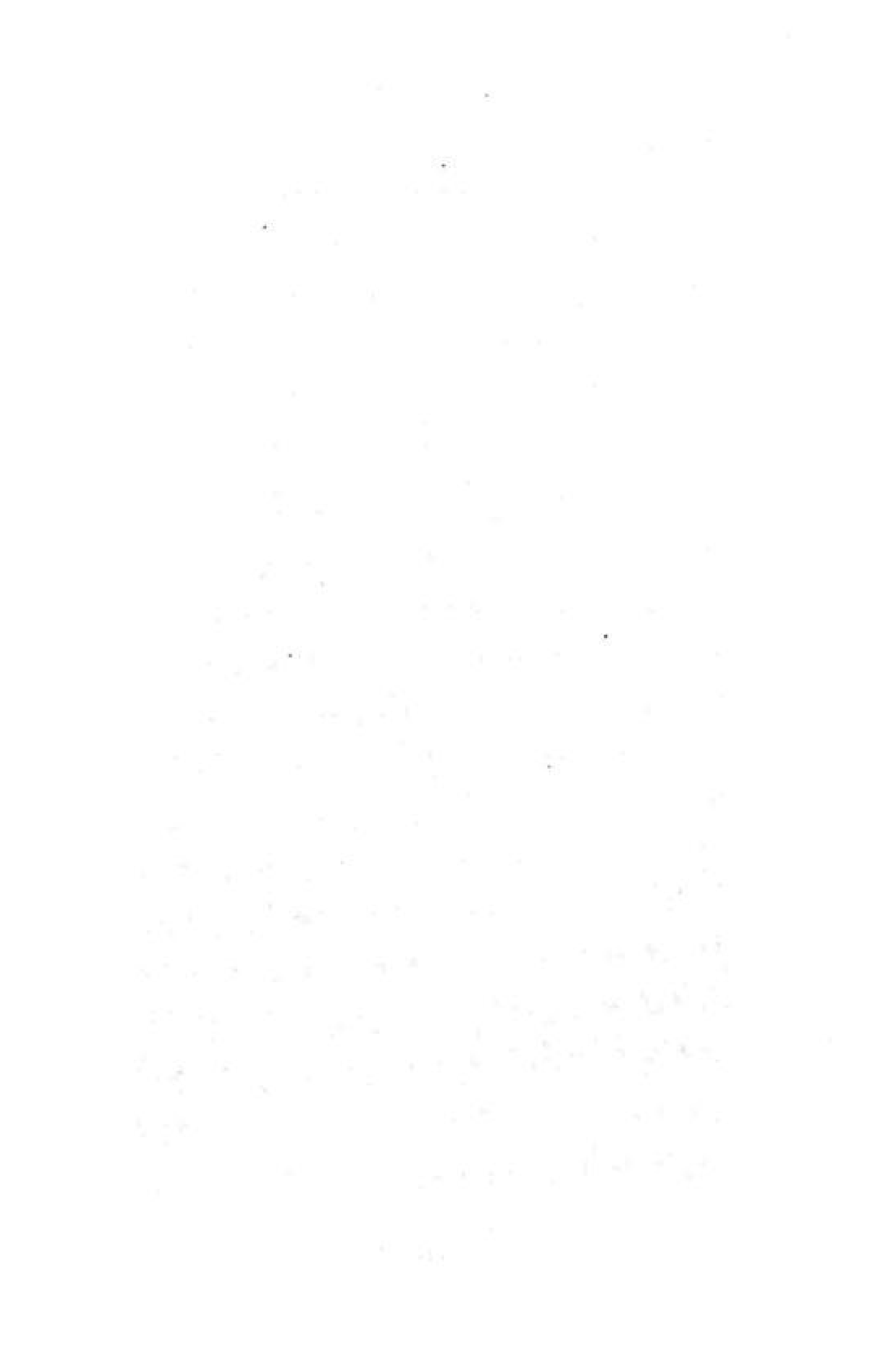
تختلف اليابان وكوريا اختلافاً كبيراً عن مثالي كوسوفو أو سوريا، فمعظمهما متجانس إثنياً، لكن لديهما مشكلات من طبيعة أخرى، فاليابان دولة جزريّة خالية من الموارد الطبيعية، بينما تقسيم الكوريتين مشكلة لا تزال تنتظر الحل. في غضون ذلك، نرى أمريكا الجنوبية حالة شاذة، فهي معزولة عن العالم الخارجي في أقصى جنوبها، ويصعب تصورها منخرطةً في التجارة العالمية، أما جغرافيتها الداخلية فتشكل حاجزاً أمام إنشاء كتلة تجارية ناجحة مثل الاتحاد الأوروبي.

ثم نأتي أخيراً إلى القطب الشمالي، وهو أحد أكثر الأماكن غير الصالحة للسكن على وجه الأرض. لقد تجاهله البشر في معظم فترات التاريخ، لكننا وجدنا فيه مصدراً للطاقة في القرن العشرين، وستحدّد دبلوماسية القرن الحادي والعشرين من يملك هذا المورد ويبيعه.

يمكن تفسير رؤية الجغرافيا بوصفها عاملاً حاسماً في مسار التاريخ البشري على أنها نظرة قاتمة للعالم، ولهذا السبب تتجنّبها بعض الدوائر الفكرية. إنها تشير إلى أن الطبيعة أقوى من الإنسان، وأننا لا نستطيع إلا أن نذهب بعيداً في تقرير مصيرنا. ومع ذلك، فمن الواضح أن هناك عوامل أخرى مؤثرة على الأحداث أيضاً. يمكن لأي شخص عاقل أن يرى أن التكنولوجيا الحديثة تحوّر الآن قواعد الجغرافيا الصارمة، وقد وجدت أساليب تمكّنها من تجاوز بعض الحواجز أو المرور تحتها أو عبرها. يستطيع الأمريكيون الآن

قيادة طائرة على امتداد المسافة من ميزوري إلى الموصل في مهمة قصف دون الحاجة إلى التزود بالوقود. هذا إلى جانب حاملات الطائرات الكبيرة المكتفية ذاتياً تقريباً، أي أنه لا يتعيّن عليهم إطلاقاً أن يستعينوا بحليف أو مستعمرة من أجل توسيع نطاق تدخلهم في أي مكان في جميع أنحاء العالم. أما إذا كانت لديهم قاعدة جوية في جزيرة دييغو غارسيا، أو منفذ دائم إلى ميناء البحرين، فسيكون لديهم بالطبع المزيد من الخيارات، وإن كانت أقل أهمية.

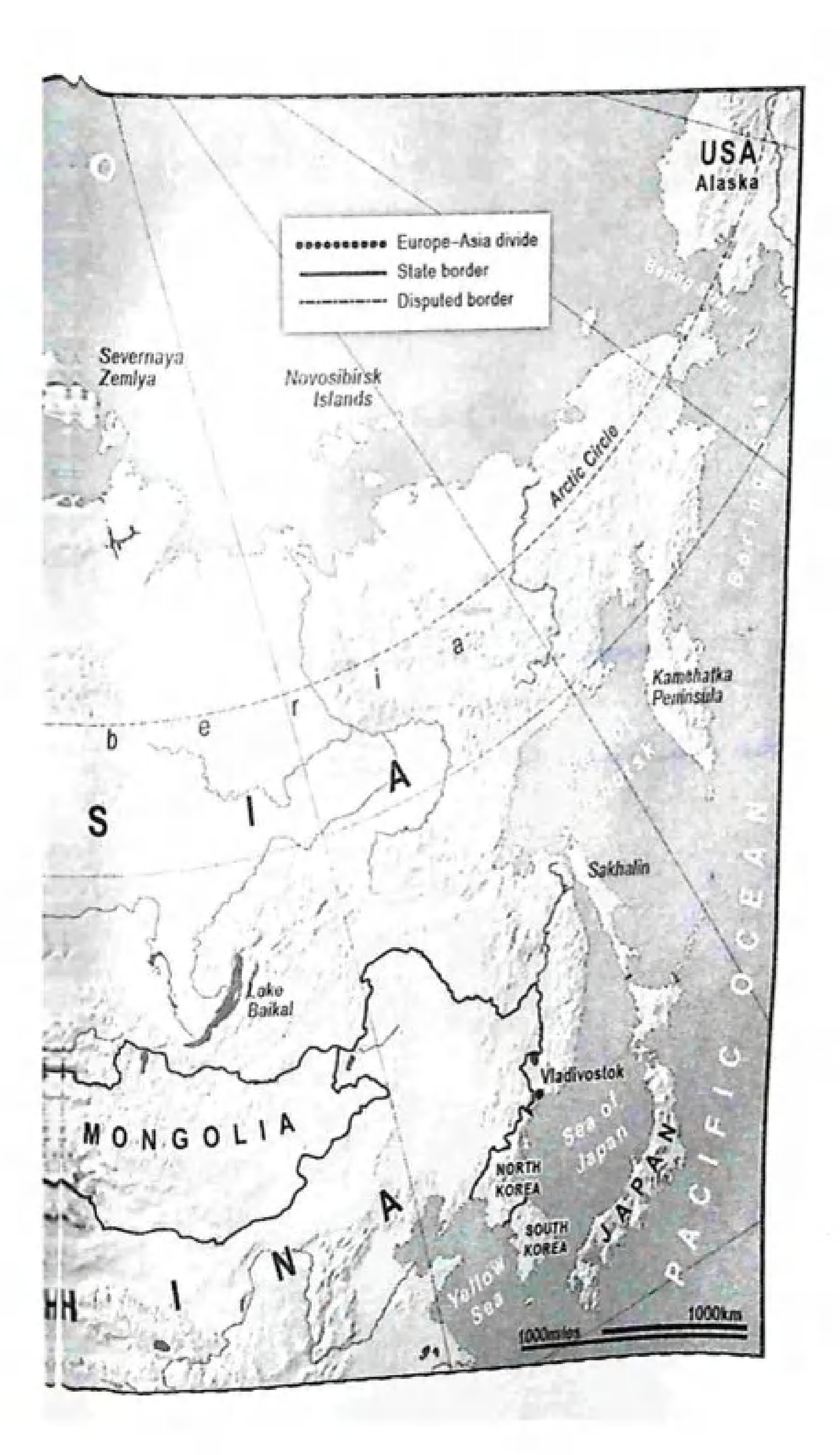
لمثل هذه الأسباب غيّرت القوة الجوية طبيعة القواعد، تماماً كما فعلت الإنترنت بطريقة مختلفة. لكن الجغرافيا، والتاريخ الذي وطّنت به الدول نفسها في هذه الجغرافيا، لا يزالان ضروريان في فهمنا لعالم اليوم وفهم مستقبلنا. إن الصراع في العراق وسوريا متجذّر في تجاهل القوى الاستعمارية لقواعد الجغرافيا، في حين أن احتلال الصين للتبت متجذّر في الرضوخ لها. أما سياسة أمريكا الخارجية العالمية، في ظل العبقرية التكنولوجية وتدابير القوة بالنسبة إلى آخر قوة عظمى باقية حتى الآن، فلا يمكن إلا أن تحدّ من تلك القواعد التي أوجدتها الطبيعة أو خلقها الله. ما هي تلك القواعد؟ إن المكان الذي يجب البدء منه هو الأرض التي يصعب على القوة أن تدافع عنها، والتي قام قادتها لعدة قرون بتعويضها عن طريق الدفع بالصراع إلى الخارج. إنها الأرض التي لا جبال تحميها غرباً: روسيا.



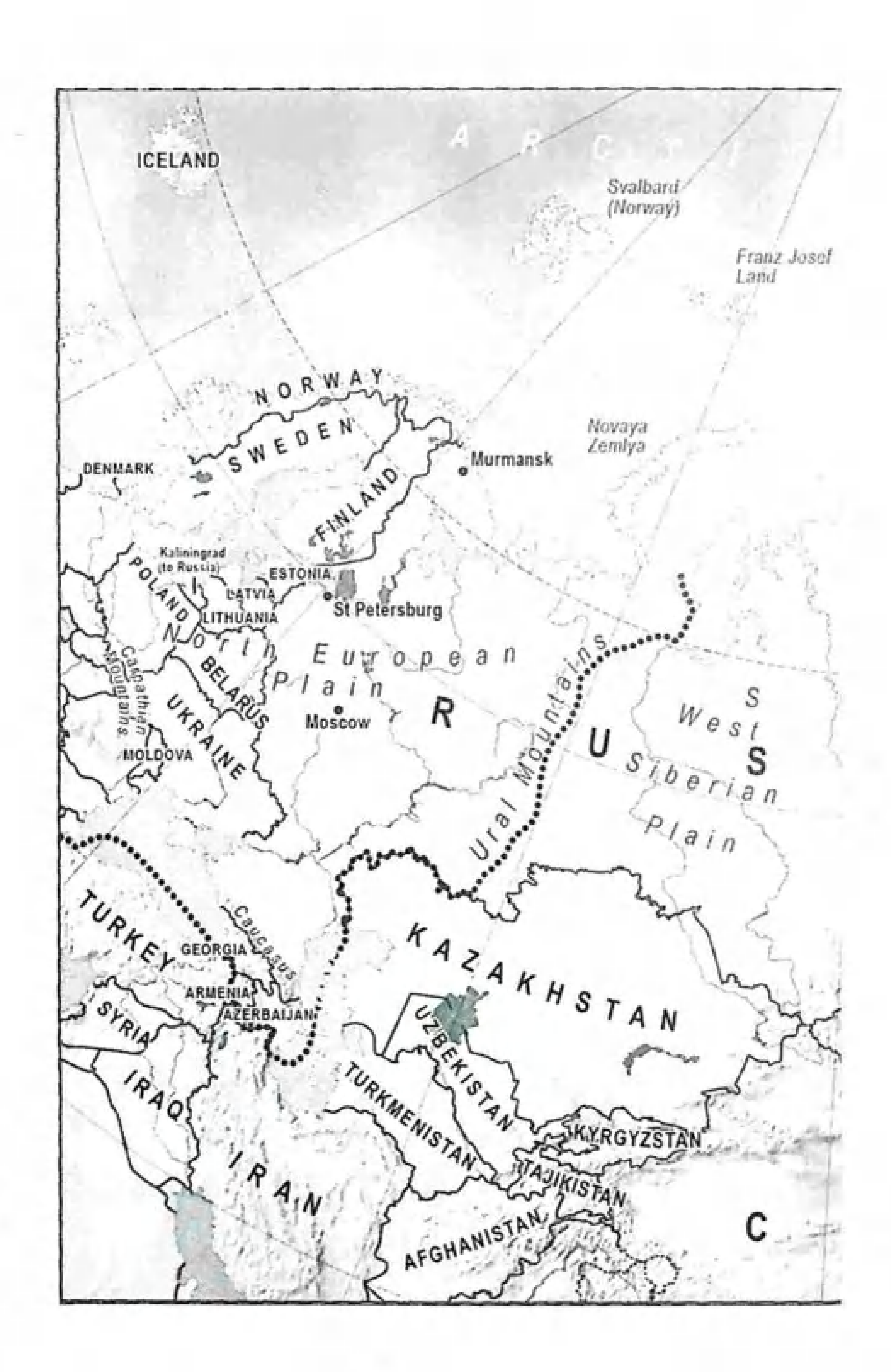
الفصل الأول

روسيا

شسع (الصفة: شاسع، أكثر شساعةً): مساحة واسعة، أو مسافة هائلة.



USA
Alaska
Europe–Asia divide
State border
Disputed border
Severnaya Zemlya
Novosibirsk Islands
Arctic Circle
Kamchatka Peninsula
Sakhalin
Lake Baikal
Vladivostok
MONGOLIA
NORTH KOREA
SOUTH KOREA
Sea of Japan
JAPAN
Yellow Sea
PACIFIC OCEAN
1000miles
1000km



ICELAND
A R C
Svalbard (Norway)
Franz Josef Land
NORWAY
SWEDEN
FINLAND
Murmansk
Novaya Zemlya
DENMARK
Kaliningrad (to Russia)
POLAND
ESTONIA
LATVIA
LITHUANIA
St Petersburg
North European Plain
Carpathian Mountains
BELARUS
UKRAINE
Moscow
MOLDOVA
R
U
S
Ural Mountains
West Siberian Plain
TURKEY
Caucasus
GEORGIA
ARMENIA
AZERBAIJAN
SYRIA
IRAQ
IRAN
KAZAKHSTAN
UZBEKISTAN
TURKMENISTAN
KYRGYZSTAN
TAJIKISTAN
AFGHANISTAN
C



روسيا شاسعةٌ، بل هي الأكثر شساعة، فهي هائلة الحجم، تبلغ مساحتها ستة ملايين ميل مربع، على امتداد 11 منطقة زمنية. إنها أكبر دولة في العالم. غاباتها، وبحيراتها، وأنهارها، وأقاليمها المتجمدة، وسهوبها، وأحراشها، وجبالها... كلها شاسعة. لقد تسرّب هذا الحجم منذ زمن طويل إلى وعينا الجماعي. فروسيا توجد حيثما كنا، وسواء في الشرق أو الغرب، في الشمال أو الجنوب، فإننا نرى الدب الروسي.

ليس من قبيل المصادفة أن الدب هو رمز هذه الأمة العملاقة. إنه يجلس هناك، يكون في سبات أحياناً، ويزمجر أحياناً، وهو مهيب، وشرس أيضاً. الدبّ كلمة روسية، لكن الروس يتجنبون تسمية هذا الحيوان باسمه، خشية استحضار الجانب المظلم من طبيعته، وهم يسمونه Medved: «محبّ العسل».

يعيش ما لا يقل عن 120.000 من هذه الدببة في بلد يفوق أوروبا وآسيا. تقع روسيا الأوروبية إلى الغرب من جبال الأورال، وإلى شرقها تقع سيبيريا التي تمتد حتى بحر بيرنغ والمحيط الهادئ، ولعبورها يستغرق القطار، حتى في القرن الحادي والعشرين، رحلة تستمر ستة أيام. يجب على قادة روسيا النظر عبر هذه المسافات بما

تنضوي عليه من اختلافات، ويصوغوا سياساتهم وفقاً لذلك. لقد كانوا ينظرون في كل الاتجاهات منذ عدة قرون، لكنهم يركّزون أنظارهم في الغالب باتجاه الغرب.

عندما يسعى الكتّاب إلى الوصول إلى قلب الدب، فإنهم غالباً ما يستخدمون ملاحظة ونستون تشرشل الشهيرة عن روسيا، وكان قد ذكرها عام 1939: «إنها أحجية محاطة بلغز داخل طلسم»، لكن القليل منهم يكمل الجملة التي تنتهي بقوله: «ربما يكون هناك مفتاح، وهذا المفتاح هو مصلحة روسيا الوطنية». بعد سبع سنوات استخدم تشرشل هذا المفتاح وقدّم إجابته عن تلك الأحجية، مؤكداً: «أنا مقتنع بأنه لا يوجد شيء يوقرونه أكثر من القوة، كما لا يوجد شيء يحتقرونه أقل من الضعف، وخاصة الضعف العسكري». كان من الممكن أن يتحدث عن القيادة الروسية الحالية، والتي على الرغم من كونها تتلفّع الآن بعباءة الديمقراطية، إلا أنها لا تزال استبدادية بطبيعتها مع بقاء المصلحة الوطنية في جوهرها.

عندما لا يفكر فلاديمير بوتين في الله، وفي الجبال، فإنه يفكر في البيتزا، أو شكل شريحة البيتزا على وجه التحديد، أي الإسفين. الطرف المسنّن في الإسفين هو بولندا. هنا، يمتد السهل الأوروبي الشمالي الشاسع الممتد من فرنسا إلى جبال الأورال بعرض 300 ميل فقط (ويمتد 1000 ميل من الجنوب إلى الشمال، ويشكّل حدّاً طبيعياً بين أوروبا وآسيا). إنه يمتدّ من بحر البلطيق في الشمال إلى

جبال الكاربات في الجنوب، ويشمل السهل الأوروبي الشمالي كل غرب وشمال فرنسا وبلجيكا وهولندا وشمال ألمانيا وكل بولندا تقريباً.

من منظور روسي، يعدّ ذلك سيفاً ذا حدّين. فبولندا تمثل ممراً ضيقاً نسبياً يمكن لروسيا أن تقود فيه قواتها المسلحة عند الضرورة، وتمنع العدو بالتالي من التقدّم نحو موسكو. لكن من هذه النقطة يبدأ «الإسفين» في الاتساع، وعندما يصل إلى حدود روسيا، يبلغ عرضه أكثر من 2000 ميل، وذلك على شكل مِهاد (أرض منبسطة) على امتداد الطريق إلى موسكو وما وراءها. وحتى مع وجود جيش كبير، يمكن التعرّض لضغوط شديدة تستدعي الدفاع بقوة طوال هذا الخط. ومع ذلك، لم يتم غزو روسيا أبداً من هذا الاتجاه، ويرجع ذلك جزئياً إلى عمقها الاستراتيجي، أما عندما يقترب الجيش من موسكو، فيكون لديه فعلياً خطوط إمداد طويلة غير مستدامة، وهو الخطأ الذي ارتكبه نابليون عام 1812، وكرّره هتلر عام 1941.

وبالمثل، فإن جغرافيا الشرق الأقصى الروسي التي تحمي روسيا، تجعل من الصعب نقل الجيش من آسيا إلى روسيا الآسيوية. ليس هناك الكثير لمهاجمته سوى الثلج، كما لا يمكن الوصول إلّا إلى ما دون جبال الأورال، وسينتهي الأمر بعد ذلك بالاحتفاظ برقعة ضخمة من الأرض، في ظروف صعبة، مع خطوط إمداد طويلة وخطر دائم من هجوم مضاد.

قد يعتقد المرء أن لا أحد ينوي غزو روسيا، لكن هذا ليس ما يظنه الروس، فلأسباب وجيهة، جرى غزوهم عدة مرات من الغرب، في السنوات الخمسمائة الماضية. جاء البولنديون عبر السهل الأوروبي الشمالي عام 1605، وتبعهم السويديون تحت حكم تشارلز الثاني عشر عام 1708، ثم الفرنسيون تحت حكم نابليون عام 1812، ثم الألمان لمرتين، في كلتا الحربين العالميتين، عامي 1914 و1941. إذا نظرنا إلى هذا التاريخ من زاوية أخرى، وبدأنا بغزو نابليون عام 1812، ثم حرب القرم بين 1853-1856، والحربين العالميتين حتى عام 1945، نجد أن الروس كانوا يخوضون حرباً في السهل الأوروبي الشمالي أو حوله بمعدّل مرة كل ثلاثة وثلاثين عاماً. في نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945، سيطر الروس على الأراضي التي احتلتها ألمانيا في وسط أوروبا وشرقها، وهي الأراضي التي أصبح بعضها جزءاً من الاتحاد السوفيتي الذي صار أشبه بالإمبراطورية الروسية القديمة. في عام 1949 كوّن اتحاد دول أوروبا وأمريكا الشمالية منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) للدفاع عن أوروبا وشمال المحيط الأطلسي ضد خطر العدوان السوفيتي. ورداً على ذلك، كوّنت معظم الدول الشيوعية في أوروبا، تحت القيادة الروسية، حلف وارسو عام 1955، وهو معاهدة للدفاع العسكري والتعاون المشترك. كان من المفترض أن يكون الحلف حديدياً، ولكن بحلول أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، علاه الصدأ، وبعد سقوط جدار برلين في عام 1989 انهار تماماً.

ليس الرئيس بوتين من المعجبين بميخائيل غورباتشوف، آخر رئيس سوفياتي، وهو يحمّله مسؤولية تقويض الأمن الروسي، وكان قد أشار إلى تفكّك الاتحاد السوفيتي السابق خلال التسعينيات بوصفه «كارثة القرن الجيوسياسية الكبرى».

منذ ذلك الحين، راقب الروس بقلق حلف الناتو وهو يزحف بثبات ويقترب أكثر فأكثر، ضاماً الدول التي تقول روسيا إنها وعدت بعدم الانضمام إلى الناتو: جمهورية التشيك والمجر وبولندا في 1999، وبلغاريا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا ورومانيا وسلوفاكيا في 2004. وألبانيا في 2009، ولكن الناتو يقول إنّ مثل هذه الوعود لم تُقدّم وهي غير مؤكدة.

إن روسيا، مثل كل القوى العظمى، تفكر في الـ 100 عام القادمة، وتدرك أنه حتى ذلك الوقت يمكن أن يحدث أي شيء. من كان يتصور قبل قرن من الزمان أن القوات المسلحة الأمريكية ستتمركز على بعد بضع مئات من الأميال من موسكو في بولندا ودول البلطيق؟ بحلول عام 2004، بعد خمسة عشر عاماً فقط من عام 1989، صارت كل دولة من دول حلف وارسو السابقة، باستثناء روسيا، عضواً في الناتو أو الاتحاد الأوروبي. وقد صارت عقلية الكرملين في موسكو أكثر تركيزاً بسبب ذلك، وبسبب تاريخ روسيا.

يعود مفهوم روسيا إلى القرن التاسع، عندما تكوّن اتحاد فضفاض من القبائل السلافية الشرقية المعروف باسم «روس

الكييفية»[10]، وكان مقره في كييف ومدن أخرى على امتداد نهر دنيبر[11]، في ما يعرف الآن بأوكرانيا. هاجم المغول، وهم يقومون بتوسيع إمبراطوريتهم، هذه المنطقة باستمرار من الجنوب والشرق، وتمكنوا من اجتياحها في القرن الثالث عشر. ثم أعادت روسيا الناشئة تموضعها إلى الشمال الشرقي داخل وحول مدينة موسكو. كانت روسيا المبكرة هذه، والمعروفة باسم «إمارة موسكوفا الكبرى»، غير محصّنة ولا يمكن الدفاع عنها، فلم تكن هناك جبال ولا صحارٍ تحيط بها، وهناك القليل من الأنهار، بينما كانت الأراضي المنبسطة في جميع الاتجاهات، وكان المغول يسيطرون على السهوب إلى الجنوب والشرق، أي إن الغزاة كان بإمكانهم أن يتقدموا من أي مكان يختارونه، ولن يكون أمامهم إذّاك سوى عدد قليل من المواقع الدفاعية الطبيعية التي يجب احتلالها.

عندما جاء القيصر الأول، إيڤان الرهيب، قام بتطبيق مفهوم «الهجوم دفاعاً»، أي البدء بالتوسع عن طريق إضافة التعزيزات الداخلية ثم التحرك إلى الخارج. وهذا ما أدى إلى الشعور بحالة من العظمة. لقد كان رجلاً يدعم النظرية القائلة بأن الأفراد يمكن أن يغيروا التاريخ، ولولا شخصيته التي تتسم بالفظاظة التامة

---

10. روس الكييفية Kievan Rus': دولة اتحادية في شرق وشمال أوروبا من أواخر القرن التاسع إلى منتصف القرن الثالث عشر. ضمت مجموعة متنوعة من الأنظمة السياسية والشعوب، بما في ذلك السلافيين الشرقيين والنورس والفينيك، وقد حكمتها سلالة روريك الفارانجية.

11. دنيبر Dnieper: أحد الأنهار الرئيسية العابرة للحدود في أوروبا، يرتفع في تلال فالداي بالقرب من سمولينسك في روسيا، ثم يتدفق عبر بيلاروسيا وأوكرانيا إلى البحر الأسود. وهو أطول نهر في أوكرانيا وبيلاروسيا ورابع أطول نهر في أوروبا.

والبصيرة الثاقبة في الوقت نفسه، لكان التاريخ الروسي مختلفاً تماماً.

كانت روسيا الناشئة قد بدأت توسعاً معتدلاً في عهد جدّ إيڤان، الملقّب بإيڤان العظيم، لكن هذا التوسع تسارع بعد أن تُوّج إيڤان الأصغر قيصرَ روسيا وأميرها الأكبر عام 1547. في ذلك الوقت توغلت روسيا شرقاً لتضم جبال الأورال، وجنوباً إلى بحر قزوين، وشمالاً باتجاه الدائرة القطبية الشمالية. تمكّنت من الوصول إلى بحر قزوين أولاً، ثم البحر الأسود لاحقاً، مستفيدة بذلك من جبال القوقاز باعتبارها حاجزاً جزئياً يفصل بينها وبين المغول، وبُنيت قاعدة عسكرية في الشيشان لردع أي مهاجمين محتملين، سواء كانوا من قبيلة المغول الذهبية أو الإمبراطورية العثمانية أو الفرس. كانت هناك بعض الانتكاسات، ولكن في القرن التالي، تخطّت روسيا جبال الأورال وزحفت نحو سيبيريا، ودمجت في نهاية المطاف كل الأراضي وصولاً إلى ساحل المحيط الهادئ في أقصى الشرق. ولدى الروس الآن منطقة عازلة جزئية ومنطقة داخلية تشكلان عمقاً استراتيجياً يمكن اللجوء إليه في حالة الغزو. لم يكن بإمكان أحد أن يهاجم الروس بقوة من البحر المتجمد الشمالي، أو أن يجتاز جبال الأورال ليصل إليهم، وأصبحت أرضهم هي التي نعرفها الآن باسم روسيا، ولكي تصل إليها من الجنوب أو الجنوب الشرقي لابد لك من تسيير جيش ضخم، بخط إمداد طويل جداً، يواجه في طريقه مختلف المواقع الدفاعية.

في القرن الثامن عشر، وتحت حكم بطرس الأكبر، مؤسّس

الإمبراطورية الروسية عام 1721، ثم الإمبراطورة كاثرين العظيمة، توجهت روسيا بأنظارها إلى الغرب، ووسّعت الإمبراطورية لتصبح واحدة من القوى العظمى في أوروبا، يدفعها عاملان بوجه خاص هما التجارة والقومية. أصبحت روسيا الأكثر أماناً وقوة قادرة الآن على احتلال أوكرانيا والوصول إلى جبال الكاربات، واستحوذت على معظم ما نعرفه الآن باسم دول البلطيق، ليتوانيا ولاتفيا وإستونيا. وهكذا صارت محميّة من أي توغل برّي من هذا الجانب أو من بحر البلطيق.

كانت هناك حلقة ضخمة تحيط بموسكو، وسط البلاد الحيوي، بدءاً من القطب الشمالي، نزولاً عبر منطقة البلطيق، ثم أوكرانيا، فجبال الكاربات والبحر الأسود والقوقاز وبحر قزوين، ثم العودة مرة أخرى إلى جبال الأورال التي تمتدّ حتى الدائرة القطبية الشمالية.

في القرن العشرين، أنشأت روسيا الشيوعية الاتحاد السوفيتي. ووراء شعار «يا عمال العالم اتحدوا»، صار الاتحاد السوفياتي ببساطة هو الإمبراطورية الروسية على نطاق أوسع. بعد الحرب العالمية الثانية، امتد الاتحاد السوفياتي من المحيط الهادئ إلى برلين، ومن القطب الشمالي إلى حدود أفغانستان، وصار قوة عظمى اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، لا منافس لها إلا الولايات المتحدة الأمريكية.

روسيا هي أكبر دول العالم، فهي ضعف مساحة الولايات المتحدة أو الصين، وخمسة أضعاف مساحة الهند، تتخطّى حجم المملكة المتحدة بسبعين ضعفاً. ومع ذلك فإن عدد سكانها صغير

نسبياً إذ يبلغ حوالي 144 مليون نسمة، أي أقل من عدد سكان نيجيريا أو باكستان. إن موسم الزراعة فيها قصير، وهي تكابد من أجل توزيع ما يزرع حول المناطق الزمنية الإحدى عشرة التي تحكمها موسكو توزيعاً مناسباً.

روسيا حتى جبال الأورال، هي قوة أوروبية بقدر ما تتاخم الكتلة البرية الأوروبية، لكنها ليست قوة آسيوية على الرغم من حدودها مع كازاخستان ومنغوليا والصين وكوريا الشمالية، كما أن لها من ناحية أخرى حدودًا بحرية مع العديد من الدول بما في ذلك اليابان والولايات المتحدة الأمريكية.

تعرضت المرشحة السابقة لنائب الرئيس الأمريكي سارة بالين للسخرية عندما نُقل عنها قولها: «يمكنك فعلياً رؤية روسيا من اليابسة هنا في ألاسكا»، وهو سطر تحول في التغطية الإعلامية إلى «يمكنني رؤية روسيا من منزلي». أما ما قالته حقاً فقد كان: «يمكنك رؤية روسيا من اليابسة، هنا في ألاسكا، من جزيرة في ألاسكا». وكانت محقة في ذلك، إذ أن هناك جزيرة روسية تقع في مضيق بيرينغ على بعد ميلين ونصف من جزيرة أمريكية في المضيق، وهي جزيرة ديوميدي الصغيرة التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة. يمكننا بالفعل رؤية روسيا من أمريكا.

توجد في أعالي جبال الأورال نقطة تقاطع تشير إلى المكان الذي تتوقف فيه أوروبا وتبدأ آسيا. عندما تكون السماء صافية في هذه البقعة الجميلة يمكننا أن نرى لعدة أميال باتجاه الشرق عبر أشجار

التنّوب، أما في الشتاء فيكسوها الثلج، كما هو الحال في سهل سيبيريا الذي يبدو في الخريطة ممتداً نحو مدينة يكاترينبورغ[12]. يجب السوّاح زيارة هذا المكان ليضعوا قدماً في أوروبا والأخرى في آسيا. إنه تذكار بمدى حجم روسيا عندما تدرك أن التقاطع يقع بعد انقضاء ربع المسافة من البلاد لا غير. ربما تكون قد سافرت 1500 ميل من سان بطرسبرغ، عبر غرب روسيا، للوصول إلى جبال الأورال، لكن لا يزال أمامك 4500 ميل أخرى قبل أن تصل إلى مضيق بيرينغ، مع احتمال أن ترى السيدة بالين، على الجانب الآخر من ألاسكا في الولايات المتحدة الأمريكية.

بعد وقت قصير من سقوط الاتحاد السوفيتي، كنتُ في جبال الأورال، في النقطة التي تصبح فيها أوروبا هي آسيا، برفقة طاقم تصوير روسي. كان المصوّر صموتاً، صبوراً، خبيراً في التصوير، وكان ابن مصور الجيش الأحمر الذي صوّر عدداً كبيراً من اللقطات أثناء حصار ألمانيا ستالينغراد. سألته: «إذن، هل أنت أوروبي أم آسيوي؟»، فكّر لبضع ثوان، ثم أجاب: «لا هذا ولا ذاك... أنا روسي».

بغض النظر عن مؤهلاتها الأوروبية، فإن روسيا ليست قوة آسيوية لعدة أسباب، فعلى الرغم من أن 75 في المائة من أراضيها تقع في آسيا، إلا أن 22 في المائة فقط من سكانها يعيشون هناك. قد تكون سيبيريا «صندوق كنز» بالنسبة إلى روسيا، حيث تحتوي على

---

12. يكاتريلبورغ Yekaterinburg: مدينة روسية تقع شرق جبال الأورال.

غالبية الثروة المعدنية والنفط والغاز، لكنها أرض قاسية تظلّ متجمّدة لأشهر متتالية، مع غابات التايغا[13] الكبيرة وتربة فقيرة زراعياً، ومساحات شاسعة من المستنقعات. وتعمل شبكتا سكك حديدية فقط من الغرب إلى الشرق، عبر خط سيبيريا وخط بايكال-أمور الرئيسي، وهناك عدد قليل من طرق النقل المؤدية من الشمال إلى الجنوب، ولا توجد بالتالي طريقة سهلة أمام روسيا لإبراز قوتها جنوباً في الصين أو منغوليا الحديثة، لأنها تفتقر إلى الموارد البشرية وخطوط الإمداد للقيام بذلك.

قد تتحكم الصين في نهاية المطاف في أجزاء من سيبيريا في المستقبل على المدى الطويل، ولكن هذا سيكون من خلال انخفاض معدل المواليد في روسيا وتدفّق الهجرة الصينية باتجاه الشمال. وبالفعل، ففي أقصى الغرب مثل سهل غرب سيبيريا المستنقعي، بين جبال الأورال في الغرب ونهر ينيسي[14] على بعد 1000 ميل إلى الشرق، يمكنك رؤية المطاعم الصينية في معظم البلدات والمدن. العديد من مشاريع العمل المختلفة سوف تفد، ومن المرجح أن تخضع المساحات الفارغة الخالية من السكان في شرق روسيا الأقصى لسيطرة ثقافية وسياسية صينية في نهاية الأمر.

عندما تنتقل خارج المنطقة الحيوية في روسيا، تجد أن الكثير من

---

13. التايغا Taiga: غابات ثلجية، تكسوها الأشجار الصنوبرية مثل الصنوبر والتنوب واللاركس.

14. ونهر ينيسي Yenisei: خامس أطول نهر في العالم، يصب في المحيط المتجمد الشمالي.

سكان الاتحاد الروسي ليسوا روساً من الناحية العرقية، ولا يُبدون سوى القليل من الولاء لموسكو، ما ينتج عنه نظام أمني عدواني يشبه الحقبة السوفييتية التي كانت فيها روسيا فعلياً قوة استعمارية تحكم أمماً وشعوباً تشعر أن لا شيء مشترك يجمعها مع سادة الكيان، ولا تزال أجزاء من الاتحاد الروسي، مثل الشيشان وداغستان في القوقاز، تحمل الشعور نفسه.

في أواخر القرن الماضي، كان الإفراط في التوسع، وإنفاق أكثر مما كان متاحاً من الأموال، والاقتصاديات المتهورة في أرض غير مصمّمة لمصلحة شعبها، بالإضافة إلى الهزيمة في جبال أفغانستان، قد أدى إلى سقوط الاتحاد السوفيتي. تراجعت الإمبراطورية الروسية مرة أخرى إلى شكل من أشكال حقبة ما قبل الشيوعية إلى حد ما، حيث صارت حدودها الأوروبية تنتهي في إستونيا ولاتفيا وبيلاروسيا وأوكرانيا وجورجيا وأذربيجان. لم يكن الغزو السوفيتي لأفغانستان عام 1979، دعماً للحكومة الأفغانية الشيوعية ضد المقاتلين المسلمين المناهضين للشيوعية، يهدف إلى جلب مباهج الماركسية اللينينية إلى الشعب الأفغاني. كان الأمر يتعلق دائماً بضمان سيطرة موسكو لمنع أي شخص آخر من القيام بذلك.

كان غزو أفغانستان قد منح الأمل فعلاً في تحقيق الحلم الروسي العظيم المتمثل في قدرة الجيش على «غسل أحذيتهم في مياه المحيط الهندي الدافئة»، بتعبير السياسي الروسي القومي المتطرف فلاديمير

جيرينوفسكي، وتحقيق ما لم يكن ممكناً من قبل: ميناء على مياه دافئة لا تتجمد في الشتاء، مع حرية الوصول إلى طرق التجارة الرئيسية في العالم. بعض الموانئ في القطب الشمالي تتجمّد لعدة أشهر كل عام، وميناء فلاديفوستوك، وهو أكبر ميناء روسي على المحيط الهادئ، يغلقه الجليد حوالي أربعة أشهر متواصلة كما يحيط به بحر اليابان، الذي يهيمن عليه اليابانيون. هذا الوضع لا يوقف تدفق التجارة فحسب، بل يمنع الأسطول الروسي من العمل كقوة عالمية، بالإضافة إلى أن النقل المائي أرخص بكثير من النقل البري أو الجوي.

ورغم ذلك، لم تنجح أي قوة غازية في أفغانستان، مع سهول قندهار المهيبة وجبال هندو كوش، وهو ما جعلها تحمل لقب «مقبرة الإمبراطوريات»، كما يطلق على التجربة الأفغانية أحياناً اسم «فيتنام روسيا». لقد تلاشى حلم موسكو بممرات بحرية مفتوحة على المياه الدافئة منذ ذلك الحين، وربما يكون الآن أبعد مما كان عليه منذ 200 عام.

لطالما كان الافتقار إلى ميناء على المياه الدافئة مع إمكانية الوصول المباشر إلى المحيطات بمثابة كعب أخيل الروسي، كما أنه مهم بالنسبة إليها من الناحية الاستراتيجية مثل السهل الأوروبي الشمالي، ولكن أمام روسيا عائق جغرافي، ولكانت قد بقيت قوة ضعيفة جداً لولا ثرواتها من النفط والغاز. لا عجب إذاً أن الوصية المنسوبة إلى بطرس الأكبر (ولعلها كُتبت لأغراض سياسية) تنصح نسله

بـ«الاقتراب قدر الإمكان من القسطنطينية والهند، فمن يحكم هناك سيكون سيد العالم الحقيقي. وهذا يعني بالتالي، إثارة الحروب المستمرة، ليس فقط في تركيا، ولكن في بلاد فارس... التغلغل حتى الخليج الفارسي والتقدم حتى الهند».

عندما تفكك الاتحاد السوفيتي انقسم إلى خمسة عشر دولة. كان للجغرافيا انتقامها من أيديولوجيا السوفييت، وعادت صورةٌ أكثر منطقية تظهر على الخريطة، فالجبال والأنهار والبحيرات والبحار التي تتاخم الأمكنة التي يعيش فيها الناس، فُصلت عن بعضها بعضاً، وهو ما يجعلهم يطوّرون لغات وعادات مختلفة. الاستثناءات من هذه القاعدة هي الدول التي تنتهي بمقطع «ستان»، مثل طاجيكستان، التي رسم ستالين حدودها عمداً لإضعاف أي دولة عن طريق ضمان احتوائها على أقليات كبيرة من دول أخرى. إذا نظرتَ إلى التاريخ طويلاً (ومعظم الدبلوماسيين والمخطّطين العسكريين يفعلون ذلك)، ستلاحظ استمرار كل تلك العناصر التي اتسمت بها دول الاتحاد السوفيتي سابقاً، بالإضافة إلى بعض تلك الدول التي كانت جزءاً من التحالف العسكري في حلف وارسو، ويمكن تقسيمها بثلاث مجموعات: المحايدة، والموالية للغرب، والموالية لروسيا.

الدول المحايدة، أوزبكستان وأذربيجان وتركمانستان، هي تلك التي لديها أسباب أقل للتحالف مع روسيا أو الغرب؛ لأن هذه الدول تنتج طاقتها الخاصة ولا تدين بأمنها أو تجارتها لأي من

الطرفين.

ويضم المعسكر الموالي لروسيا كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان وبيلاروسيا وأرمينيا، واقتصادات هذه الدول مرتبطة بروسيا، تماماً مثل اقتصاد شرق أوكرانيا (وهذا سبب آخر للتمرّد هناك). أكبر هذه الدول هي كازاخستان، التي تميل نحو روسيا دبلوماسياً، كما أن أقليتها الروسية الكبيرة مندمجة فيها بشكل جيد. ومن بين الدول الخمس المذكورة، انضم الجميع باستثناء طاجيكستان إلى روسيا في الاتحاد الاقتصادي الأوراسي[15] الجديد الذي احتفل بذكرى تأسيسه الأولى في يناير 2016. انضمت جميع الدول الخمس إلى تحالف عسكري مع روسيا يسمى منظمة معاهدة الأمن الجماعي[16]، وهذه المنظمة التي لا يمكنك اختصار اسمها في كلمة واحدة، إنما هي تركيبة مخفّفة من حلف وارسو. روسيا بالطبع تحتفظ بوجود عسكري في الدول الأعضاء: قرغيزستان وطاجيكستان وأرمينيا.

هناك أيضاً الدول الموالية للغرب من أعضاء حلف وارسو سابقاً، ثم نقلت عضويتها إلى الناتو و/ أو الاتحاد الأوروبي: بولندا،

15. الاتحاد الاقتصادي الأوراسي Eurasian Economic Union اتحاد يضم بعض دول ما بعد الاتحاد السوفيتي الموجود في أوراسيا. تم التوقيع على معاهدته أولاً بين بيلاروسيا وكازاخستان وروسيا في منتصف 2014، وبدأ العمل بها في يناير 2015.

16. منظمة معاهدة الأمن الجماعي Collective Security Treaty (CSTO) Organization : تحالف عسكري حكومي دولي في أوراسيا أنشئ في منتصف 1992، يتألف من ست دول كانت من أعضاء الاتحاد السوفيتي السابق: روسيا وأرمينيا وبيلاروسيا وكازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان.

ولاتفيا، وليتوانيا، وإستونيا، وجمهورية التشيك، وبلغاريا، والمجر، وسلوفاكيا، وألبانيا، ورومانيا، وليس من قبيل المصادفة، أن معظمها من الدول التي كانت قد عانت من الاستبداد السوفييتي. أضف إلى ذلك جورجيا وأوكرانيا ومولدوفا، وترغب هذه الدول الثلاث في الانضمام إلى كلتا المنظمتين، ولكن العائق الذي أمامها هو قربها الجغرافي من روسيا، ولأنها لا تخلو من قوات روسية أو ميليشيات موالية لروسيا على أراضيها، ما يعني أن عضوية أي منها للناتو قد تؤدي إلى اندلاع الحرب.

يفسر لنا كل ما سبق السبب الذي جعل موسكو تحشد قواتها عام 2013، مع احتدام المعركة السياسية حول توجّهات أوكرانيا.

طالما سيطرت حكومة موالية لروسيا في كييف، فإن الروس سيكونون واثقين من أن منطقتها العازلة ستبقى سليمة وستحرس السهل الأوروبي الشمالي، كما سيكون من المقبول أن تتعهّد أوكرانيا المحايدة (بشكل مدروس)، بعدم الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي أو الناتو، وبالإبقاء على استخدام روسيا لميناء المياه الدافئة في سيفاستوبول في شبه جزيرة القرم.

إن اعتماد أوكرانيا على روسيا للحصول على الطاقة جعل موقفها المحايد مقبولاً بشكل متزايد، وإن كان مزعجاً. لكن أوكرانيا الموالية للغرب التي تطمح إلى الحصول على عضوية التحالفين الغربيين الكبيرين، وتثير الشك في قدرة روسيا على الوصول إلى مينائها على البحر الأسود! أوكرانيا التي قد تستضيف ذات يوم

قاعدة بحرية تابعة للناتو! ذلك ما لا يمكن القبول به إطلاقاً.

لقد حاول الرئيس الأوكراني فيكتور يانوكوفيتش اللعب على كلا الطرفين. غازل الغرب، لكنه أبدى ولاءه لموسكو، وقد تسامح معه بوتين، أما عندما شارف على توقيع اتفاقية تجارية ضخمة مع الاتحاد الأوروبي، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى عضوية الاتحاد، فقد انقلب بوتين ضده.

بالنسبة إلى نخبة السياسة الخارجية الروسية، فإن عضوية الاتحاد الأوروبي هي مجرد حصان يراهنون عليه يقود إلى عضوية الناتو، وبالنسبة إلى روسيا فإن عضوية أوكرانيا في الناتو خطٌّ أحمر لا يجب تجاوزه، وقد زاد بوتين الضغط على يانوكوفيتش، وقدّم له عرضاً اختار ألا يرفضه، وخرج الرئيس الأوكراني من اتفاق الاتحاد الأوروبي ثم عقد اتفاقاً مع موسكو، مما أثار الاحتجاجات التي أدت في النهاية إلى الإطاحة به.

دعم الألمان والأمريكيون أحزاب المعارضة، خاصةً مع رؤية برلين بطلَ العالم السابق في الملاكمة الذي تحول إلى السياسي ڤيتالي كليتشكو بوصفه رجلهم في أوكرانيا. كان الغرب يسحب أوكرانيا ثقافياً واقتصادياً نحوه، بينما يساعد الأوكرانيين الموالين للغرب على دفع بلادهم باتجاه الغرب عن طريق تدريب وتمويل بعض جماعات المعارضة الديمقراطية.

اندلع القتال في شوارع كييف وتفاقمت المظاهرات في جميع أنحاء البلاد. ففي الشرق، خرجت حشود لدعم الرئيس، بينما كان

المواطنون في غرب البلاد، في مدن مثل لڤيڤ (التي كانت في بولندا)، مشغولين بمحاولة تخليص أنفسهم من أي نفوذ يؤيد روسيا.

بحلول منتصف فبراير 2014، لم تعد لڤيڤ والمناطق الحضرية الأخرى تحت سيطرة الحكومة. وبعد مقتل العشرات في كييف، في 22 فبراير، فرّ الرئيس خوفاً على حياته، واستولت الفصائل المعادية لروسيا على الحكومة، وكان بعضها موالياً للغرب وبعضها موالياً للفاشية. منذ تلك اللحظة لم يعد شيء يخضع للسيطرة، ولم يكن لدى الرئيس خيارات متنوعة. كان عليه أن يضم شبه جزيرة القرم التي لا تضم الكثير من الأوكرانيين الناطقين بالروسية فحسب، بل تضم الأهم من ذلك، ألا وهو ميناء سيفاستوبول.

هذه الضرورة الجغرافية، مع توجّه الناتو باتجاه الشرق، هو تماماً ما كان يدور في ذهن بوتين عندما قال في خطاب حول ضم أوكرانيا: «وجدت روسيا نفسها في موقف لا يمكنها التراجع عنه. إذا ضغطتم الزنبرك إلى أقصى حدّ، فسوف ينفلت عائداً بقوة. يجب أن تتذكروا هذا دائماً».

سيڤاستوبول هو الميناء الوحيد الحقيقي للمياه الدافئة في روسيا. ومع ذلك، فإن الوصول من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط مقيد بموجب اتفاقية مونترو[17] عام 1936 التي منحت

17. اتفاقية مونترو Montreux Convention: اتفاقية دولية خاصة بنظام المضائق، وتحكم استخدام مضيق البوسفور والدردنيل في تركيا.

تركيا، وهي الآن عضو في الناتو، حقّ السيطرة على مضيق البوسفور. وهكذا فإن السفن البحرية الروسية تعبر المضيق بأعداد محدودة، ولكن ذلك لن يُسمح به في حالات الصراع. إلا أن الروس، حتى بعد عبور البوسفور، يحتاجون إلى الإبحار في بحر إيجه قبل الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط، وسيظل عليهم إما عبور مضيق جبل طارق للوصول إلى المحيط الأطلسي، أو عبور قناة السويس للوصول إلى المحيط الهندي.

للروس وجود بحري صغير في طرطوس على ساحل البحر الأبيض المتوسط السوري (وهذا يفسر جزئياً دعمهم للحكومة السورية عند اندلاع القتال عام 2011)، لكنها قاعدة إمداد وتزويد محدودة وليست قوة رئيسية، على الرغم من توسيعها وتحديثها عام 2019.

ثمة مشكلة إستراتيجية أخرى تتمثّل في أن البحرية الروسية لا تستطيع في حالة الحرب الخروج من بحر البلطيق، بسبب مضيق سكاغيراك الذي يتصل ببحر الشمال، والذي يسيطر عليه عضوا الناتو، الدنمارك والنرويج. وحتى لو قامت السفن بذلك، فإن الطريق إلى المحيط الأطلسي يمرّ عبر ما يعرف باسم فجوة «جي يو كي»[18] في بحر الشمال، بين غرينلاند وأيسلندا والمملكة المتحدة، وهي الفجوة التي سنعود إلى الحديث عنها في الفصل الخاص

18. فجوة جي يو كي GIUK: منطقة في شمال المحيط الأطلسي تشكل نقطة اختناق بحرية. اسمها مختصر من غرينلاند وأيسلندا والمملكة المتحدة، وهي امتداد المحيطين المفتوحين بين هذه الكتل الثلاثة من اليابسة.

بأوروبا الغربية.

بعد أن ضم الروس شبه جزيرة القرم، لم يضيعوا المزيد من الوقت، فبموجب شروط «اتفاقية إيجار ميناء سيفاستوبول» التي تم تحديثها عام 2011، كان لدى كييف القدرة على منع تحديث أسطول البحر الأسود الروسي. لم يعد يجري ضخّ مئات الملايين من الروبلات لتطوير الأسطول وتحديث وتوسيع الميناء البحري في مدينة نوفوروسيسك الروسية التي ستمنح الروس سعة إضافية، على الرغم من أنها لا تحتوي على ميناء طبيعي عميق. ومن المتوقع بحلول عام 2020، أن تعمل ثماني عشرة سفينة حربية جديدة في الميناءين وثمانين سفينة أخرى في طور الإعداد. قد لا يكون الأسطول قوياً بما يكفي لاختراق البحر الأسود أثناء الحرب، لكن قدرته تتزايد بشكل واضح.

لمواجهة هذا الوضع، في العقد المقبل، يمكننا أن نتوقع رؤية الولايات المتحدة الأمريكية وهي تشجّع رومانيا، شريكها في الناتو، على تعزيز أسطولها في البحر الأسود، مع الاعتماد على تركيا للحفاظ على الخط عبر مضيق البوسفور.

كانت شبه جزيرة القرم جزءاً من روسيا لمدة قرنين من الزمان قبل أن يتم نقلها إلى جمهورية أوكرانيا السوفيتية عام 1954 من قبل الزعيم السوفيتي نيكيتا خروتشوف، في الوقت الذي كان من المتوقع فيه أن يعيش الرجل السوفييتي إلى الأبد، وأن تتحكم موسكو في أوكرانيا على الدوام. أما بعد أن لم تعد أوكرانيا سوفييتية،

أو حتى موالية لروسيا، فقد أدرك بوتين أن الوضع يجب أن يتغيّر. هل عرف الدبلوماسيون الغربيون ذلك؟ إذا لم يفعلوا، فإنهم لم يكونوا على دراية بالقاعدة (أ) في الدرس الأول من دروس «الدبلوماسية للمبتدئين»: «عند مواجهة ما يعدّ تهديداً وجودياً، ستستخدم القوة العظمى ما لديها من قوة». أما إذا كانوا على علم بذلك، فلا بد أنهم رأوا في ضمّ بوتين شبهَ جزيرة القرم ثمناً مستحقاً لجرّ أوكرانيا إلى أوروبا الحديثة ومجال النفوذ الغربي.

الافتراض التلقائي هنا هو أن الولايات المتحدة الأمريكية والأوروبيين كانوا يتطلّعون إلى الترحيب بأوكرانيا في العالم الديمقراطي بوصفها عضواً كامل العضوية في مؤسساتها الليبرالية في ظل سيادة القانون، وأنه لم يكن هناك الكثير مما يمكن لموسكو أن تفعله حيال ذلك. هذا الرأي لا يأخذ في الاعتبار حقيقة أن الجغرافيا السياسية لا تزال موجودة في القرن الحادي والعشرين، أو أن روسيا لا تلتزم بسيادة القانون.

منتشيةً بانتصارها، أصدرت الحكومة الأوكرانية المؤقتة الجديدة على الفور بعض التصريحات الحمقاء، ليس أقلّها الإعلان عن عزمها على إلغاء اللغة الروسية لغةً رسميةً ثانيةً في مناطق مختلفة. وبالنظر إلى أن هذه المناطق هي التي تضم معظم المتحدثين بالروسية وتنتشر فيها مشاعر تأييد روسيا، كما تضم شبه جزيرة القرم، وكان لا بد أن يؤدي ذلك إلى رد فعل عنيف، كما أعطى الرئيس بوتين ما يحتاجه من دعاية لإثبات أن العرقية الروسية داخل أوكرانيا بحاجة

إلى الحماية.

لدى الكرملين قانون يجبر الحكومة على حماية «المنتمين إلى العرق الروسي». من الصعب التوصل إلى تعريف هذا المصطلح، حسب استخدامه، لأنه سوف يخضع إلى الطريقة التي تختار بها روسيا تعريفه في الأزمات المحتملة قياساً على التجارب التي مرّ به الاتحاد السوفيتي السابق. فقد يتوافق مع الكرملين تعريف «المنتمين إلى العرق الروسي» ببساطة على أنهم الأشخاص الذين يتحدّثون الروسية لغةً أولى. وفي حالات أخرى، قد يُستخدم قانون الجنسية الجديد الذي ينص على أنه إذا عاش أجدادك في روسيا، وكانت الروسية هي لغتك الأم، فيمكنك الحصول على الجنسية الروسية. ولأن الناس مع ظهور الأزمات، سيميلون من قبيل التحوّط إلى قبول جوازات السفر الروسية، فإن هذا سيكون سبباً يدفع روسيا إلى التدخل في الصراع.

إن 60 في المائة تقريباً من سكان شبه جزيرة القرم، هم عرقياً من الرّوس، لذلك كان الباب مشرعاً أمام الكرملين للقيام بضم شبه الجزيرة، وقد ساعد بوتين المظاهرات المناهضة لكييف، وأثار الكثير من المتاعب إلى الحد الذي «اضطر» فيه أخيراً إلى جعل قواته تخرج من القاعدة البحرية إلى الشوارع لحماية الناس. ولم يكن الجيش الأوكراني في وضع يسمح له بمهاجمة الناس والجيش الروسي على حد سواء، وسرعان ما انسحب، وأصبحت القرم مرة أخرى جزءاً من روسيا، بحكم الأمر الواقع.

يمكنك تصوّر حجة تقول بأن الرئيس بوتين كان لديه خيار آخر يتمثل في أنه كان بإمكانه احترام وحدة أراضي أوكرانيا. ولكن، نظراً لأنه كان يتعامل مع الجغرافيا التي جعلها الله خاصةً بروسيا، فلم يكن هذا في الواقع من قبيل الخيار، ولم يكن ليرضى بأن يكون الرجل الذي «خَسَرَ القرْم»، ومعه ميناء المياه الدافئة الوحيد الذي يمكن لبلده أن تستخدمه.

لم يهب أحد لإنقاذ أوكرانيا وهي تفقد مساحة تعادل مساحة بلجيكا أو ولاية ماريلاند الأمريكية. وقد عرفت أوكرانيا وجيرانها حقيقة جغرافية تقول: «إذا لم تكن في الناتو، فإن موسكو قريبة، وواشنطن بعيدة». عدم الرضا بخسارة القرم كان مسألة وجودية بالنسبة إلى روسيا، ويمكن للغرب أن يتغاضى عن ذلك.

فرَض الاتحاد الأوروبي عقوبات محدودة. وكانت محدودة لأن عدة دول أوروبية، من بينها ألمانيا، تعتمد على الطاقة الروسية لتدفئة منازلها في الشتاء. تمتد خطوط الأنابيب من الشرق إلى الغرب ويمكن للكرملين تشغيل الصنابير وإغلاقها. سيتم نشر الطاقة وتوزيعها من حيث هي قوة سياسية على نحو متكرّر في السنوات القادمة، كما سيُستخدم مفهوم «العرق الروسي» لتبرير أي تحركات تقوم بها روسيا.

في خطاب ألقاه الرئيس بوتين عام 2014، أشار بإيجاز إلى

«نوفوروسيا» (روسيا الجديدة)[19]، وأخذ مراقبو الكرملين نفساً عميقاً، فقد أعاد إحياء اللقب الجغرافي الذي أُعطي لما يُعرف الآن بأوكرانيا الجنوبية والشرقية، والذي فازت به روسيا من الإمبراطورية العثمانية في عهد كاثرين العظيمة في أواخر القرن الثامن عشر. وكانت كاثرين قد واصلت توطين الروس في هذه المناطق وطالبت بأن تكون اللغة الروسية هي اللغة الأولى. لم يتم التنازل عن «نوفوروسيا» إلا للجمهورية الاشتراكية السوفيتية الأوكرانية التي تكوّنت حديثاً عام 1922. وسأل بوتين بطريقة حماسة: «لماذا؟ فليحاسبهم الله». وذكر في خطابه المناطق الأوكرانية في خاركيف ولوهانسك ودونيتسك وخيرسون وميكولايف وأوديسا قبل أن يقول: «لقد فقدت روسيا هذه الأراضي لأسباب مختلفة، لكن المواطنين [يعني الروس] ما زالوا هناك». إن الملايين من أصل روسي لا زالوا يعيشون في ما كان يُعرف بالاتحاد السوفيتي، ولكنهم خارج روسيا الحالية.

ليس من المستغرب أن روسيا قد استمرت، بعد الاستيلاء على شبه جزيرة القرم، في تشجيع انتفاضات المؤيدين لروسيا في المناطق الصناعية الشرقية الأوكرانية في لوهانسك ودونيتسك. يمكن لروسيا أن تتقدّم عسكريا بسهولة على امتداد الطريق إلى الضفة الشرقية على نهر دنيبر في كييف، لكنها ليست في حاجة إلى ما يسببه

19. نوفوروسيا Novorossiya (روسيا الجديدة)، وتسمّى أيضاً «اتحاد الجمهوريات الشعبية»: اتحاد كونفدرالي من جمهورية دونيتسك الشعبية (وهو الاسم الذي أعلنت به عن نفسها) وجمهورية لوهانسك الشعبية في شرق أوكرانيا، وكلتاهما تخضعان لسيطرة الانفصاليين الموالين لروسيا.

ذلك من تداعيات، بينما يكون تشجيع الاضطرابات على حدود أوكرانيا الشرقية أقل مجازفةً وأرخص تكلفةً بكثير، ويذكّر كيف بمن يتحكّم في إمدادات الطاقة، لضمان ألا يتحول افتتان كييف بالغرب الذي يغازلها إلى زواج يُعقَد في غرف الاتحاد الأوروبي أو الناتو.

كان الدعم الخفي للانتفاضات في شرق أوكرانيا بسيطاً من الناحية اللوجستية، مع فائدة إضافية تتمثل في إنكار ذلك على المسرح الدولي. الكذب الصريح في قاعة مجلس الأمن الكبرى في الأمم المتحدة، أمر بسيط إذا لم يكن لدى خصمك دليل ملموس على أفعالك، والأهم من ذلك، أن الخصم لا يريد دليلاً ملموساً إذا توجّب عليه اتخاذ موقف ما إزاء ذلك. وقد تنفس العديد من السياسيين في الغرب الصعداء وتمتموا بهدوء: «الحمد لله أن أوكرانيا ليست عضواً في الناتو وإلا توجّب علينا أن نتحرّك».

أظهر ضم شبه جزيرة القرم كيف استعدت روسيا للتحرّك عسكرياً دفاعاً عما تعتبره مصالحها في ما تسميه «تخومها القريبة»، وقد تطلّب الأمر مقامرة محسوبة تعتمد على أن القوى الخارجية لن تتدخل، فالقرم كانت «متاحة» من الناحية العملية. لأنها قريبة من روسيا، ويمكن إمدادها عبر البحر الأسود وبحر آزوف، كما يمكن الاعتماد على الدعم الداخلي الذي يأتي من قطاعات كبيرة من السكان.

لم تنته روسيا من أوكرانيا بعد، ولا من أي مكان آخر. لا تزال

منطقة دونباس[20] مضطربة وتشهد قتالاً متقطعاً، وقد أدى اندلاع أعمال العنف هناك في صيف 2017 إلى مقتل العديد من الجنود الأوكرانيين، ما دفع الولايات المتحدة إلى النظر في زيادة مساعدتها العسكرية لأوكرانيا، كما دفع الروس إلى إجراء تدريبات عسكرية كبيرة على الحدود الأوكرانية.

في أواخر 2018، اعترض خفر السواحل الروسي ثلاث سفن أوكرانية متجهة من أوديسا، في البحر الأسود، إلى القاعدة الأوكرانية في ماريوبول، في بحر آزوف. وأطلق الروس النار على الأوكرانيين، فأصابوا ثلاثة بحارة، وصدموا زورق قطر قبل أن يحجزوا السفن الثلاث وطواقمها، ثم منعوا الدخول والخروج من بحر آزوف عن طريق إرساء سفينة شحن تحت جسر مضيق كيرتش. لم يتم إرجاع السفن المصادرة، وبعد مرور ستة أشهر على هذا الحادث كان البحارة الأربعة والعشرين الأوكرانيين المحتجزين لا يزالون في أحد السجون الروسية.

تبع ذلك إدانة دولية وُجّهت إلى روسيا، واقترحت قوى الناتو أنها ستضمن إبقاء الممر المائي مفتوحاً، وقالت كاي بيلي هاتشيسون، المندوبة الدائمة للولايات المتحدة لدى الناتو، في أبريل 2019: «إن الحلف يعمل على مجموعة من الإجراءات «لتعزيز» المراقبة الجوية، وأن الناتو سيزيد عدد سفنه في البحر الأسود لضمان المرور الآمن».

---

20. دونباس Donbas: منطقة تاريخية وثقافية واقتصادية في شرق أوكرانيا يسيطر الإنفصاليون الروس على أجزاء منها.

ورد رسلان بالبك، ممثل القرم في البرلمان الروسي، قائلاً: «بغض النظر عن توعّد الناتو، فلن تمرّ السفن عبره (أي البحر الأسود) إلا وفق القواعد الروسية».

ما لم تشعر روسيا بالتهديد فمن المحتمل ألا ترسل قواتها إلى دول البلطيق، أو إلى أي جبهة أبعد مما هي عليه بالفعل في جورجيا، لكنها ستدفع بقواتها إلى جورجيا، ولا يمكن استبعاد المزيد من الأعمال العسكرية في هذه الفترة المضطربة.

مع ذلك، تماماً كما كانت تصرفات روسيا في حربها مع جورجيا عام 2008 بمثابة تحذير لحلف الناتو بألا يقترب أكثر، كانت رسالة الناتو إلى روسيا في صيف 2014: «إلى أقصى الغرب هذا، لا أبعد من ذلك». طارت حفنة من طائرات الناتو الحربية إلى دول البلطيق، وأُعلن عن تدريبات عسكرية في بولندا، وبدأ الأمريكيون التخطيط «لتمركز مسبق» يضم عتاداً إضافياً في أقرب مكان ممكن من روسيا. في الوقت نفسه، كانت هناك فورة من الزيارات الدبلوماسية قام بها وزراء الدفاع والخارجية إلى دول البلطيق وجورجيا ومولدوفا لطمأنتها وتأكيد دعمها.

انهمر ازدراء بعض المعلقين على رد الفعل، بحجة أن ست طائرات من طراز يوروفايتر تايفون (تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني)، تحلّق في أجواء البلطيق لن تردع الحشد العسكري الروسي. لكن رد الفعل كان حول التلميحات الدبلوماسية، وكانت الإشارة واضحة: الناتو مستعد لخوض الحرب. كان عليه

في الواقع أن يفعل ذلك، لأن الحلف إذا فشل في الرد على هجوم يتعرّض له أحد أعضائه، فسيبدو تلقائياً كأنه انتهى وعفا عليه الزمن. كان الأمريكيون الذين اتجهوا بالفعل نحو سياسة خارجية جديدة يشعرون فيها بأنهم أقل تقيداً بالهياكل القائمة ومستعدون لإنشاء هياكل جديدة عندما يرون الحاجة لذلك، لا يزالون غير متأثرين بشدة بالتزام الدول الأوروبية بالإنفاق الدفاعي، وقد أشار دونالد ترامب، المرشح الرئاسي آنذاك، إلى أن الناتو «صار قديماً بالياً»، أما عندما أصبح رئيساً، فقد تراجع عن ذلك في ربيع 2017، وكان من الواضح أنه ينوي دفع دول الناتو الأخرى إلى التوتّر، وهكذا شهد الحلف زيادة طفيفة في الإنفاق الدفاعي من قبل حفنة من الأعضاء.

فشل الرئيس ترامب أيضاً في توضيح ما إذا كانت الولايات المتحدة ستأتي تلقائياً لمساعدة أحد حلفاء الناتو، ولكن مرة أخرى، مع وضوح حقائق وتعقيدات الدفاع والحرب والدعاية والجغرافيا السياسية، فإنه قد ضمن أخيراً المادة الخامسة من الميثاق التأسيسي للناتو في ربيع 2017. وفي حالة دول البلطيق الثلاث، فإن موقف الناتو صار واضحاً، فبما أن الدول الثلاث جميعاً أعضاء في الحلف، فإن هجوماً مسلحاً ضد أي منهم تشنّه روسيا سوف يؤدي إلى تفعيل المادة الخامسة التي تنص على: «أي عدوان مسلّح ضد واحد أو أكثر [من أعضاء الناتو] في أوروبا أو أمريكا الشمالية يعدّ عدواناً ضد جميع الأعضاء». ويمضي قائلاً إن الناتو سيهبّ للإنقاذ إذا دعت الضرورة. وقد تم الاحتجاج بالمادة 5 بعد الهجمات الإرهابية

في الولايات المتحدة في 11 سبتمبر 2001، ما مهّد الطريق لمشاركة دول الناتو في أفغانستان. إن الرئيس بوتين طالبُ تاريخ، ويبدو أنه تعلم دروس المرحلة السوفيتية التي توسّع فيها نفوذ روسيا نفسها ثم أُجبرت على الانكماش. وبالمثل، فإن هجوماً علنياً على دول البلطيق قد يكون مكلّفاً، وهو بعيد الاحتمال، خاصة إذا كان حلف الناتو وسادته السياسيون متأكدين من أن بوتين فهم إشاراتهم. لكن الرئيس الروسي أرسل عام 2016 إشارته الخاصة، فقد غيّر صياغة وثائق استراتيجية روسيا العسكرية الشاملة، وذهب إلى أبعد من الاستراتيجية البحرية التي وُضعت وثيقتها عام 2015، ولأول مرة جرت تسمية الولايات المتحدة بوصفها تمثّل «تهديداً خارجياً» لروسيا. بحلول عام 2019، نمت مخاوف الناتو، وتقدّمت المناقشات الدائرة حول بناء قاعدة عسكرية أمريكية دائمة في بولندا، بعد أن عرضت وارسو دفع ما يصل إلى ملياري دولار لتغطية التكاليف.

لم يكن يتعيّن على روسيا إرسال فرقة مدرعة إلى لاتفيا أو ليتوانيا أو إستونيا للتأثير على الأحداث هناك، ولكن إذا فعلت ذلك، فإنها تبرّر هذه الخطوة بالادعاء بأن الجاليات الروسية الكبيرة هناك تتعرّض للتمييز. ففي كل من إستونيا ولاتفيا هناك واحد تقريباً بين كل أربعة أشخاص ذو أصل روسي، وفي ليتوانيا هناك 5.8 في المائة. أما في إستونيا، فيقول المتحدثون بالروسية إنهم ممثلون تمثيلاً ناقصاً في الحكومة، وأن الآلاف ليس لديهم أي شكل من أشكال المواطنة. هذا لا يعني أنهم يريدون أن يكونوا جزءاً من روسيا، لكنهم يمثلون

أحد الأسباب التي يمكن أن تعتمد عليها روسيا للتأثير على الأحداث. ويمكن تحفيز السكان الناطقين بالروسية في دول البلطيق لجعل الحياة تبدو صعبةً، كما تم تأسيس أحزاب سياسية هناك، وهي تمثّل العديد منهم بالفعل. تسيطر روسيا أيضاً على التدفئة المركزية في منازل سكان البلطيق، ويمكنها تحديد السعر الذي يدفعه الأشخاص مقابل فواتير التدفئة الخاصة بهم شهرياً، وتستطيع ببساطة إيقاف تشغيل التدفئة. إن روسيا ستستمر في مراعاة مصالحها في دول البلطيق، لأن هذه الدول هي إحدى الحلقات الضعيفة في دفاع روسيا منذ انهيار الاتحاد السوفيتي، وبظهور خرْقٍ آخر في الجدار فإنها تفضلّ رؤيةَ تشكّلِ قوسٍ يمتدّ من بحر البلطيق، من الجنوب إلى الجنوب الشرقي، متصلاً بجبال الأورال. ويقودنا هذا إلى فجوة أخرى في الجدار، وهي منطقة ترى فيها موسكو دولةً عازلة محتملة. إنها في نظر الكرملين الحازم: مولدوفا.

تمثل مولدوفا مشكلة مختلفة لجميع الأطراف، فهجوم روسيا على البلاد يستلزم عبور أوكرانيا، عبر نهر دنيبر، ثم عبر حدود أخرى ذات سيادة إلى مولدوفا. يمكن أن يحدث ذلك -على حساب خسارة كبيرة في الأرواح وباستخدام أوديسا منصّةَ انطلاق، ولن يُواجَه ذلك بالاستنكار، وقد لا يؤدي إلى نشوب حرب مع الناتو (مولدوفا ليست عضواً فيه)، ولكنه قد يؤدي إلى فرض عقوبات على موسكو على مستوى لم يسبق له مثيل، ويؤكد ما يعتقد الباحث أنه الحال فعلاً، فالعلاقة التي جرى «تبريدها» بين روسيا والغرب

هي بالفعل حرب باردة جديدة. لقد دفع وصول دونالد ترامب إلى السلطة بعض المحللين إلى اقتراح أن روسيا تعتقد أنها ربما تحظى بـ«ضوء أخضر» يتيح لها اتخاذ المزيد من الإجراءات في أوكرانيا. ومع ذلك، ففي غضون أسابيع قليلة من توليه المنصب، أطلق وزير دفاع الرئيس ووزير الخارجية عدة تحذيرات لفظية موجهة إلى موسكو، ما يشير إلى أنه على الرغم من أن البيت الأبيض قد يسعى إلى علاقات أفضل مع روسيا، إلا أن حقائق الجغرافيا السياسية تعني أن هناك حدوداً لن يكون من قبيل الحكمة أن تغامر موسكو باختراقها.



يطمح عدد من الدول التي كانت ذات يوم أعضاء في الاتحاد السوفييتي إلى توثيق العلاقات مع أوروبا، ولكن مع وجود مناطق معينة، مثل ترانسنيستريا في مولدوفا، التي تظل موالية لروسيا بشدة، فإن هناك احتمال لحدوث صراع في المستقبل.

لماذا يريد الروس مولدوفا؟ لأن منحنى جبال الكاربات يدور

حول الجنوب الغربي ليصبح جبال الألب الترانسيلفانية، وإلى الجنوب الشرقي سهل يؤدي إلى البحر الأسود، ويمكن اعتبار هذا السهل أيضاً ممرّاً منبسطاً إلى روسيا. ومثلما يفضل الروس السيطرة على السهل الأوروبي الشمالي عند نقطته الضيقة في بولندا، فإنهم يرغبون أيضاً في السيطرة على السهل المطلّ على البحر الأسود، والمعروف كذلك باسم مولدوفا، في المنطقة التي كانت تُعرف سابقاً باسم بيسارابيا.

بعد حرب القرم (التي دارت رحاها بين روسيا ودول أوروبية غربية متحالفة، لحماية تركيا العثمانية من روسيا)، أعادت معاهدة باريس عام 1856 أجزاء من بيسارابيا إلى مولدوفا، وهكذا عزلت روسيا عن نهر الدانوب، واستغرقت روسيا قرابة قرن لاستعادة الوصول إليه، ولكن مع انهيار الاتحاد السوفيتي، كان على روسيا مرة أخرى أن تتراجع شرقاً. ومع ذلك، يسيطر الروس بالفعل على جزء من مولدوفا، أي المنطقة التي تسمى ترانسنيستريا، وهي جزء من مولدوفا شرق نهر دنيستر الذي يتاخم أوكرانيا. كان ستالين - بحكمته- قد وطّن أعداداً كبيرة من الروس هناك، تماماً كما فعل في شبه جزيرة القرم بعد ترحيل الكثير من سكانها التتار. وفي ترانسنيستريا الحديثة الآن ما لا يقل عن 50 في المائة من الناطقين بالروسية أو الأوكرانية، وهذا الجزء من السكان مؤيد لروسيا. أما عندما أصبحت مولدوفا مستقلة في عام 1991، فقد تمرّد السكان الناطقون بالروسية، وبعد فترة وجيزة من القتال، أعلنوا انفصال جمهورية ترانسنيستريا، وقد ساعد ذلك روسيا على نشر جنودها

هناك، ولا تزال تحتفظ بقوة قوامها 2000 جندي حتى يومنا هذا.

من غير المحتمل حدوث تقدم عسكري روسي في مولدوفا، لكن الكرملين يستخدم قوته الاقتصادية والوضع المتقلب في ترانسنيستريا لمحاولة التأثير على حكومة مولدوفا حتى لا تنضم إلى الاتحاد الأوروبي أو الناتو. وتعتمد مولدوفا على روسيا في احتياجاتها من الطاقة، وتوجّه محاصيلها شرقاً، وتميل الواردات الروسية من النبيذ المولدوفي الممتاز إلى الارتفاع أو الانخفاض وفقاً للأوضاع التي تشهدها العلاقة بين البلدين.

عبر البحر الأسود انطلاقاً من مولدوفا توجد دولة أخرى تنتج النبيذ هي جورجيا، وهي ليست على رأس قائمة روسيا للأماكن التي يجب السيطرة عليها لسببين. أولاً، خلّفت الحرب الجورجية الروسية عام 2008 أجزاءً كبيرة من البلاد محتلّة بعد أن وقعت في قبضة القوات الروسية التي تسيطر الآن بشكل كامل على مناطق أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية. وثانياً، لأنها تقع جنوب جبال القوقاز حيث لروسيا قوات متمركزة في أرمينيا المجاورة. وتفضل موسكو الإبقاء على طبقة إضافية في المنطقة العازلة، لكنها تستطيع الاستمرار دون الحاجة إلى الاستيلاء على بقية جورجيا. على إن هذا الوضع يمكن أن يتغير إذا اقتربت جورجيا من أن تصبح عضواً في الناتو، وهذا تماماً هو سبب رفض حكومات الناتو لانضمامها للحلف حتى الآن، أي حرصاً على تجنّب الصراع الحتمي مع روسيا.

إن غالبية سكان جورجيا يرغبون في إقامة علاقات أوثق مع دول الاتحاد الأوروبي، لكن الصدمة التي خلفتها حرب عام 2008، عندما اعتقد الرئيس ميخائيل ساكاشفيلي بسذاجة آنذاك أن الأمريكيين قد يهبّون لإنقاذه بعد أن استفزّ الروس، دفعت الكثيرين إلى إعادة التفكير في ذلك، والأخذ بأسباب التحوّط والاحتراز. في عام 2013 انتخب الجورجيون حكومة جديدة ورئيساً هو جيورجي مارغيلاشفيلي الذي كان أكثر ميلاً للتصالح مع موسكو. وكما هو الحال في أوكرانيا، فإن الناس يعرفون غريزياً تلك الحقيقة البدهية التي يدركها كل فرد في دول الجوار: إن واشنطن بعيدة جداً أما موسكو فقريبة منا.

إن أقوى أسلحة روسيا الآن، بغض النظر عن صواريخها النووية، ليس الجيش والقوات الجوية، بل هما الغاز والنفط. فروسيا تحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة كأكبر مورد للغاز الطبيعي في العالم، وهي بالطبع تستخدم هذه القوة لصالحها. كلما كانت علاقاتك مع روسيا أفضل، قلّ ما تدفعه مقابل الطاقة. فنلندا مثلاً تحصل على صفقة أفضل من صفقة دول البلطيق، وقد جرى استخدام هذه السياسة بكل قوة، ولدى روسيا الآن سيطرة كبيرة على احتياجات أوروبا من الطاقة، ما جعل التحركات تدور على قدم وساق لتخفيف تأثيرها، حيث تحاول العديد من دول أوروبا التخلص من اعتمادها على الطاقة الروسية، لا من خلال خطوط أنابيب بديلة من البلدان الأقل «عدوانية» فحسب، بل وعن طريق بناء الموانئ كذلك.

أكثر من 25 في المائة من الغاز والنفط في أوروبا، بمعدّل متوسط، يرد من روسيا، ولكن كلما اقترب بلد ما من موسكو زادت تبعيته لها في أحيان كثيرة، وهذا يقلّل بدوره من خيارات السياسة الخارجية لذلك البلد. تعتمد لاتفيا وسلوفاكيا وفنلندا وإستونيا بنسبة 100 في المائة على الغاز الروسي، وتعتمد جمهورية التشيك وبلغاريا وليتوانيا بنسبة 80 في المائة، واليونان والنمسا والمجر بنسبة 60 في المائة، وحوالي نصف استهلاك ألمانيا من الغاز مصدره روسيا، وهو - إلى جانب صفقات تجارية مكثفة أخرى - سبب جزئي وراء ميل الساسة الألمان إلى أن يكونوا أبطأ في انتقاد الكرملين بسبب سلوكه العدواني، مقارنةً بدولة أخرى مثل بريطانيا التي لا تعتمد سوى على 13 في المائة فقط، ولكن لديها أيضاً صناعتها الخاصة من إنتاج الغاز، بما في ذلك احتياطيّ يغطّي تسعة أشهر.

هناك العديد من خطوط الأنابيب الرئيسية الروسية التي تمتد من الشرق إلى الغرب، بعضها للنفط وبعضها الآخر للغاز، لكن خطوط الغاز هي الأهم بالطبع. يوجد في الشمال، عبر بحر البلطيق، مسار «نورد ستريم» الذي يتصل مباشرة بألمانيا. ويمرّ أسفل ذلك عبر بيلاروسيا، خط أنابيب «يامال» الذي يغذّي بولندا وألمانيا، ويوجد في الجنوب «بلو ستريم» الذي ينقل الغاز إلى تركيا عبر البحر الأسود. وكان هناك مخطّط مشروع استمرّ حتى أوائل عام 2015، يسمى «ساوث ستريم» من المقرّر أن يستخدم نفس المسار، ولكنه يتفرع إلى المجر والنمسا وصربيا وبلغاريا وإيطاليا. كان مسار «ساوث ستريم» محاولة من روسيا للتأكّد من حفاظها على طريق

رئيسي إلى الأسواق الكبيرة في أوروبا الغربية والبلقان حتى أثناء النزاعات مع أوكرانيا.

لكن العديد من دول الاتحاد الأوروبي ضغطت على جيرانها لكي يرفضوا هذا المخطّط، وسحبت بلغاريا فعلياً توصيلات المشروع وأعلنت أن خطوط الأنابيب لن تمر عبر أراضيها. وردّ الرئيس بوتين على ذلك بالتواصل مع تركيا وعرض اقتراحاً جديداً، يُعرف أحيانًا باسم «تُرْك ستريم».

جاءت مشاريع «ساوث ستريم» و«تُرْك ستريم» الروسية للتحايل على أوكرانيا في أعقاب خلافات الأسعار بين الدولتين في 2005- 2010، والتي أدت في أوقات مختلفة إلى قطع إمداد الغاز عن ثمانية عشر دولة. كانت الدول الأوروبية التي من المتوقع أن تستفيد من «ساوث ستريم» أكثر تحفظاً بشكل ملحوظ في انتقادها روسيا خلال أزمة القرم عام 2014. أما في الوقت الحالي، فيُظهر مشروع «نورد ستريم 2»[21]، أن الروس لم ينتهوا بعد من مشاريعهم البديلة، ويمكن مدّ أنابيب هذا المشروع المملوك لشركة «غازبروم» تحت بحر البلطيق، لتقليل شحنات الغاز عبر أوكرانيا، ما يؤدي بالتالي إلى حرمانها من مصدر إيرادات مهم، كما أنه يقوّض جهود الاتحاد الأوروبي لتنويع مصادر الطاقة، وهو ما يوفر مصدراً للغاز الرخيص الذي قد يغري بعض الدول الأعضاء.

---

21 . اكتمل مدّ الخط الأول من «نورد ستريم 2» في يونيو 2021، واكتمل مدّ الخط الثاني في سبتمبر 2021.

عرض الأمريكيون استراتيجية مقابلة مربحة للطرفين، الولايات المتحدة وأوروبا، فأوروبا تريد الغاز، دون أن يُنظر إليها على أنها ضعيفة في مواجهة السياسة الخارجية الروسية، وقد اعتقد الأمريكيون أنهم يملكون الجواب، ذلك أن الطفرة الهائلة في إنتاج غاز الأردواز (أو الغاز الصخري) في الولايات المتحدة لا تمكنها من تحقيق الاكتفاء الذاتي من الطاقة فحسب، بل ومن بيع فائضها إلى أحد أكبر مستهلكي الطاقة في العالم، أي أوروبا.

لإنجاز هذه المشروع لابد من تسييل الغاز وشحنه عبر المحيط الأطلسي، ويتطلّب هذا بدوره إنشاء محطات وموانئ للغاز الطبيعي المسال على طول السواحل الأوروبية لاستقبال الشحنات وإعادة تحويلها إلى غاز. وافقت واشنطن بالفعل على تراخيص لمنشآت التصدير، وبدأت أوروبا مشروعاً طويل الأمد لبناء المزيد من محطات الغاز الطبيعي المسال، كما تقوم كل من بولندا وليتوانيا ببناء محطاتها، وتريد دول أخرى مثل جمهورية التشيك بناء خطوط أنابيب متصلة بهذه المحطات، مع العلم أنها يمكن أن تستفيد لا من الغاز الأمريكي المسال فحسب، بل ومن الإمدادات القادمة من شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وهكذا لن يصبح بمقدور الكرملين التحكّم بـ«الصنابير» وإغلاقها.

لدى الاتحاد الأوروبي الآن حوالي ثلاثين محطة استيراد للغاز الطبيعي المسال، وتشمل سعات تخزين ضخمة من المقرر أن تنمو. كما إن لديها القدرة على عكس اتجاه الغاز من خلال خطوطها

الخاصة بأنابيب الغاز الطبيعي المسال والتي تتدفق عادة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، فإذا أوقفت روسيا إمدادات الغاز إلى إحدى دول الاتحاد الأوروبي، قد تضخّ الدول الأخرى الغاز الطبيعي المسال عن طريق الأنابيب لتزويدها بما تحتاجه.

يشير الروس، وهم يتوجّسون من هذا الخطر الطويل الأمد، إلى أن الغاز المنقول بالأنابيب أرخص من الغاز الطبيعي المسال. الرئيس بوتين، وقد علا وجهه تساؤل يقول «ما الخطأ الذي ارتكبته؟»، يرى أن أوروبا لديها بالفعل مصدر موثوق وأرخص يمدّها بالغاز القادم من بلده. من غير المرجح أن يحل الغاز الطبيعي المسال محل الغاز الروسي بالكامل، لكنه سيعزّز اليد الأوروبية الضعيفة سواء في مفاوضات الأسعار أو في السياسة الخارجية، واستعداداً لانخفاض الإيرادات المحتمل، فإن روسيا تخطّط لمدّ خطوط أنابيب متجهة إلى الجنوب الشرقي آملةً زيادة المبيعات إلى الصين. إن هذه معركة اقتصادية قائمة على الجغرافيا، وأحد الأمثلة الحديثة التي يجري فيها استخدام التكنولوجيا في محاولة للتغلب على القيود الجغرافية الموروثة من العصور السابقة.

قيل الكثير عن الألم الاقتصادي الذي عانت منه روسيا عام 2014 عندما انخفض سعر النفط إلى ما دون 50 دولاراً للبرميل، وظل أقل من ذلك حتى عام 2015. استندت ميزانية موسكو لعام 2016 والإنفاق المتوقع لعام 2017 إلى أسعار تبلغ 50 دولاراً، وعلى الرغم من أن روسيا بدأت ضخّ مستويات قياسية من النفط،

فهي تعلم أنه لا يمكنها أن توازن حساباتها كما اعتادت، فهي تخسر حوالي ملياري دولار من العائدات مقابل كل دولار ينخفض في سعر النفط، وقد تضرّر الاقتصاد الروسي جراء ذلك، ما تسبب في معاناة كبيرة للعديد من السكان العاديين، لكن التنبؤات التي مضت إلى حدّ الحديث عن انهيار الدولة كانت بعيدة عن الواقع. روسيا سوف تستمر بصعوبة في تمويل الزيادة الهائلة في الإنفاق العسكري، ورغم الصعوبات التي تواجهها، فإن البنك الدولي يتوقع أن ينمو الاقتصاد بشكل طفيف في النصف الثاني من هذا العقد. إذا أمكن جلب الاكتشافات الجديدة لكميات هائلة من النفط في بحر «كارا» في القطب الشمالي إلى الشاطئ، فسيكون هذا النمو أكبر وأجدى.

تتمتع روسيا بقدرات سياسية عالمية وتستخدم نفوذها، لا سيما في أمريكا اللاتينية، حيث تتعاون مع أي دولة في أمريكا الجنوبية لديها مستوى ضئيل من العلاقات الودية مع الولايات المتحدة، مثل فنزويلا. في ربيع عام 2019، أرسلت روسيا 100 جندي، يُعتقد أنهم من القوات الخاصة وخبراء الفضاء الإلكتروني، في الوقت الذي شاعت فيه تكهنات إعلامية بشأن تدخل عسكري أمريكي للإطاحة بالرئيس مادورو. ومع أن 100 جندي روسي لم يكونوا قادرين على منع ذلك لو حدث فعلاً، فمن المؤكد أنهم كُلّفوا بمسائل أخرى معقّدة. وتحاول روسيا كذلك التحقّق من التحركات الأمريكية في الشرق الأوسط، أو على الأقل ضمان أن يكون لها رأي في ما يجري هناك، كما أنها تنفق بشكل كبير على قواتها

العسكرية في القطب الشمالي، وتهتم دائماً بغرينلاند للحفاظ على مطالبها الإقليمية. كما ركّزت روسيا بشكل أقل على أفريقيا منذ سقوط الشيوعية، لكنها تحافظ على التأثير فيها ما أمكنها ذلك، وإن كان في شكل معركة خاسرة مع الصين.

قد يكون العملاقان متنافسين، لكنهما يتعاونان في المقابل على مستويات مختلفة. إن موسكو التي تدرك أن لدى الأوروبيين طموحاً طويل الأمد لـ«فطم» أنفسهم عن الاعتماد على الطاقة الروسية، تتطلّع إلى الصين بوصفها زبوناً بديلاً.

للصين يد عليا في سوق المشترين في العالم، لكن خطوط الاتصال تظلّ ودية ومستخدمة بشكل جيد. اعتباراً من عام 2020، تزوّد روسيا الصين بكميات هائلة من الغاز، وترتفع إلى 38 مليار متر مكعب من الغاز سنوياً بحلول عام 2025 في صفقة تبلغ قيمتها 400 مليار دولار لمدة ثلاثين عاماً.

لقد مرّت الأيام التي كانت تُعتبَر فيها روسيا تهديداً عسكرياً للصين، وفكرة احتلال القوات الروسية لمنشوريا، كما فعلوا عام 1945، لا يمكن تصورها الآن، على الرغم من أنهما يراقبان بعضهما بعضاً في الأماكن التي يرغب كل منهما في أن يهيمن عليها، مثل كازاخستان. ومع ذلك، فهما لا يتنافسان على قيادة الشيوعية العالمية أيديولوجياً، وقد حرّرهما هذا وجعلهما يتعاونان على المستوى العسكري حيث تتوافق مصالحهما. ما يبدو مثالاً غريباً كان في مايو 2015 عندما أجرت روسيا والصين تدريبات عسكرية مشتركة

بالذخيرة الحية في البحر الأبيض المتوسط. كان اندفاع بكين في البحر، حيث جيشها على بعد 9000 ميل من الوطن، جزءاً من محاولتها توسيع نطاق وصولها البحري حول العالم، بينما كانت موسكو، التي لديها تصاميم مسبقة للوصول إلى حقول الغاز الموجودة في البحر الأبيض المتوسط، تغازل اليونان، وتسعى إلى حماية مينائها البحري الصغير على الساحل السوري. بالإضافة إلى ذلك، كان الطرفان سعيدين بإزعاج قوى الناتو في المنطقة، ومن بينها الأسطول الأمريكي السادس المتمركز في نابولي.

تواجه روسيا في الداخل عدداً من التحديات، ليس التحدي الديموغرافي أقلّها وطأةً. ربما تم وقف ما تعانيه من انخفاض حاد في النمو السكاني، لكنه يظلّ مشكلة فعلاً. إن متوسط عمر المواطن الروسي أقل من 65 عاماً، وهو ما يضع روسيا في النصف السفلي من دول العالم الأعضاء في الأمم المتحدة البالغ عددها 193 دولة (يوجد الآن 144 مليون روسي فقط، باستثناء القرم).

لقد واجه الزعماء الروس المشكلات نفسها في السابق، من مقاطعة موسكوفي الكبرى، مروراً ببيتر الأكبر وستالين، والآن بوتين، دون أن تعني أيديولوجيا السلطة شيئاً، سواء قيصرية أو شيوعية أو رأسمالية المحسوبية[22]، فالموانئ لا تزال متجمّدة،

---

22 . رأسمالية المحسوبية Crony capitalism: نظام اقتصادي يتحالف فيه رجال الأعمال والمسؤولين الحكوميين، وتهيمن عليه العلاقات الشخصية المرتبطة بالمصالح الخاصة؛ وهي في نظر المؤلف السمة التي تميز اقتصاد روسيا وسياستها في الوقت الحالي.

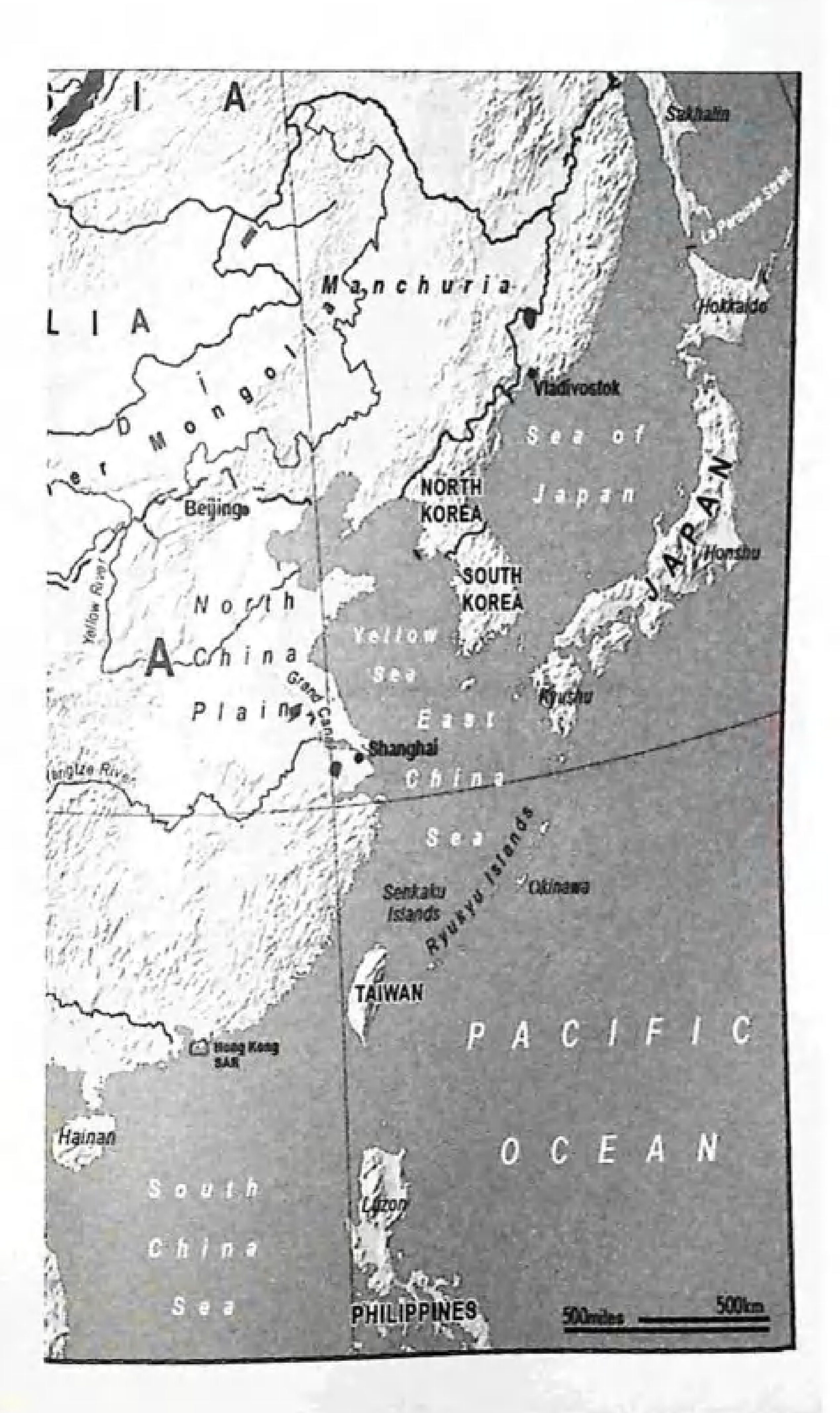
والسهل الأوروبي الشمالي لا يزال منبسطاً. إننا إذا استبعدنا تخوم الدول القومية، سنجد أن الخريطة التي واجهها إيفان الرهيب ظلّت حتى يومنا هذا هي الخريطة نفسها التي يواجهها فلاديمير بوتين.

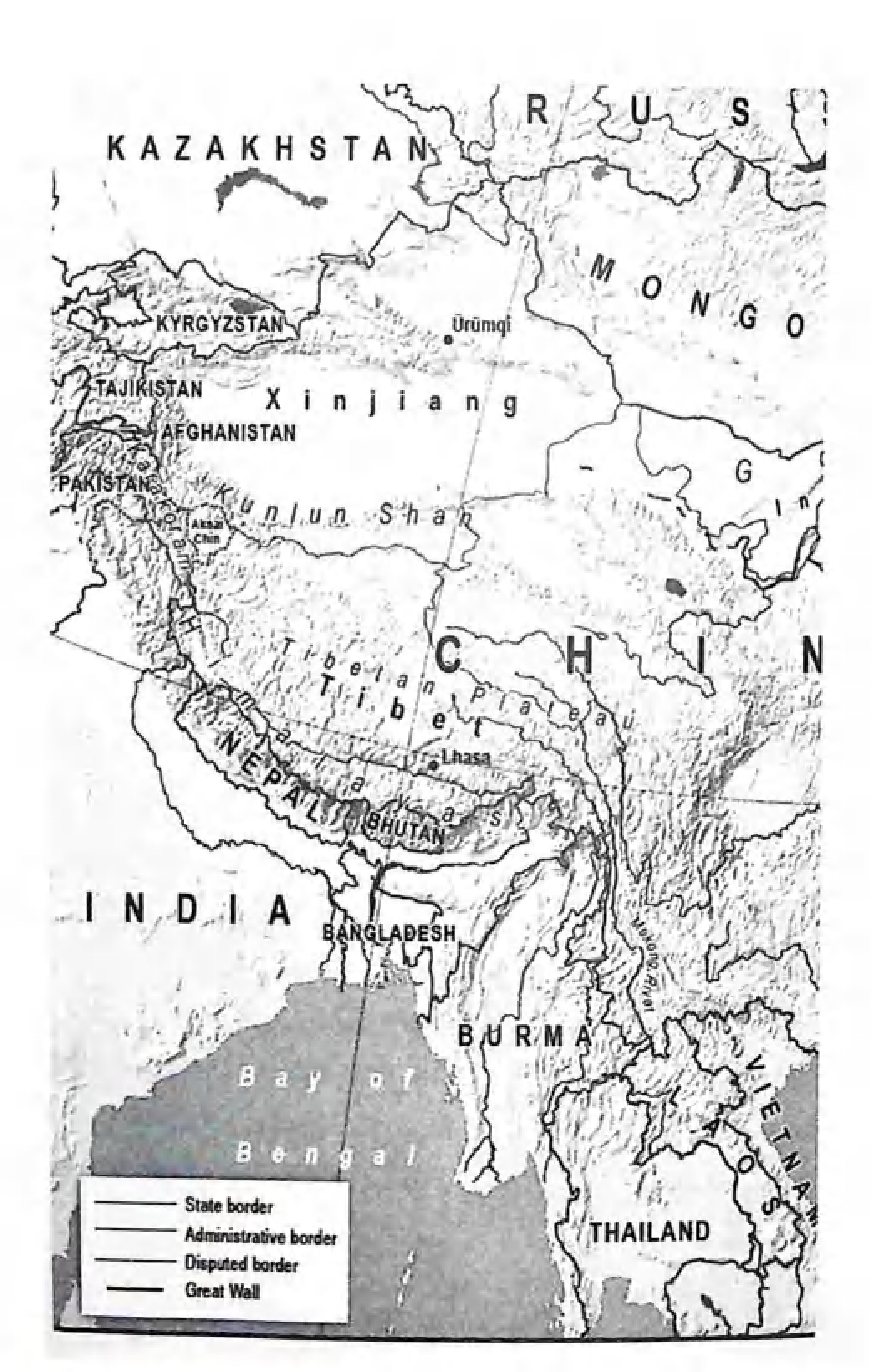
الفصل الثاني

الصين

«الصين حضارة تتظاهر بأنها أمة»

لوسيان باي


Sakhalin
Hokkaido
Manchuria
Vladivostok
Sea of Japan
NORTH KOREA
SOUTH KOREA
Beijing
Yellow River
North China Plain
Grand Canal
Yellow Sea
JAPAN
Honshu
Kyushu
East China Sea
Shanghai
Ryukyu Islands
Okinawa
Senkaku Islands
TAIWAN
Hong Kong SAR
PACIFIC OCEAN
Hainan
South China Sea
Luzon
PHILIPPINES
500miles
500km



KAZAKHSTAN
RUS
MONGO
KYRGYZSTAN
Ürümqi
TAJIKISTAN
Xinjiang
AFGHANISTAN
PAKISTAN
Kunlun Shan
Aksai Chin
CHIN
Tibetan Plateau
Tibet
Lhasa
NEPAL
Himalayas
BHUTAN
INDIA
BANGLADESH
Mekong River
BURMA
Bay of Bengal
THAILAND
LAOS
VIETNAM
State border
Administrative border
Disputed border
Great Wall



في أكتوبر 2006، كانت مجموعة حاملة الطائرات الضخمة في البحرية الأمريكية بقيادة السفينة «يو. إس. إس. كيتي هوك» التي يبلغ ارتفاعها 1000 قدم، تبحر بثقة عبر بحر الصين الشرقي بين جنوب اليابان وتايوان، عندما ظهرت دون سابق إنذار، غواصة بحرية صينية في وسط المجموعة.

كانت حاملة الطائرات الأمريكية بحجمها ذاك، محاطة بحوالي اثنتي عشرة سفينة حربية أخرى، مع غطاء جوي فوقها وغطاء من الغواصات تحتها. قد تكون الغواصة الصينية، وهي غواصة هجومية من طراز «سونغ»، هادئةً جداً عند تشغيلها بالطاقة الكهربائية، ومع ذلك، فقد كان ظهورها يعادل تسلّل خصم لدود فجأةً وبكل هدوء إلى عقر دار خصمه دون أن يدري به.

كان الأمريكيون مندهشين وغاضبين بالقدر نفسه؛ مندهشين لأنهم لم يكونوا يتوقّعون أن غواصة صينية يمكنها فعل ذلك دون أن يلاحظها أحد، وغاضبون لأنهم لم يلاحظوا ذلك ولأنهم اعتبروا الخطوة استفزازية، خاصة وأن الغواصة كانت ضمن نطاق طوربيدات السفينة «كيتي هوك» نفسها. لقد احتجوا، ربما أكثر مما يجب، أما الصينيون فقالوا: «أوه! يا لها من مصادفة، لقد كنا نطفو

على السطح وسط مجموعتكم القتالية قبالة سواحلنا، ولم تكن لدينا أي فكرة».

كان هذا نوعاً من الدبلوماسية العكسية عن طريق الزوارق الحربية في القرن الحادي والعشرين، وفي حين كان البريطانيون يدفعون بفرقاطة قبالة سواحل خصومهم للإشارة إلى نواياهم، صار الصينيون يحمّلون سواحلهم رسالةً واضحة: «نحن الآن قوة بحرية، هذا وقتنا، وهذا بحرنا». لقد استغرق الأمر 4000 عام، وها هم الصينيون قادمون الآن، بعد أن صار بإمكانهم دخول الموانئ والممرات البحرية.

لم تكن الصين حتى وقتنا هذا قوة بحرية، بكل ما لديها من فضاءات برية كبيرة، وحدود متعددة، وطرق بحرية قصيرة يرتادها شركاؤها التجاريين، إذ لم تكن ثمة حاجة تدعوها لأن تكون كذلك، ونادراً ما كانت توسعية من الناحية الأيديولوجية. لطالما أبحر تجارها في المحيطات لتجارة البضائع، لكن أسطولها البحري لم يبحث عن أراض خارج منطقته، ولم تكن تسيير دوريات في الممرات البحرية الكبرى في المحيط الهادئ والأطلسي والهندي يستحق بذل جهود صعبة. كانت دائماً قوة برية لديها الكثير من الأراضي والكثير من الناس (حوالي 1.4 مليار الآن).

بدأ وجود الصين بوصفها كياناً مأهولاً منذ ما يقرب من 4000 عام، ويعدّ سهل شمال الصين هو مهد الحضارة الصينية، وهي منطقة كبيرة ومنخفضة يشير إليها الصينيون باسم السهل المركزي،

وتبلغ مساحتها حوالي 160 ألف ميل مربع، وتقع أدنى منغوليا الداخلية، جنوب منشوريا، داخل وحول حوض النهر الأصفر، وأسفل نهر اليانغتسي، وكلا النهرين يمتدّان من الغرب إلى الشرق. والصين الآن واحدة من أكثر المناطق كثافة سكانية في العالم.

يشهد حوض النهر الأصفر فيضانات متكررة ومدمرة، ما جعل النهر يُلقّب بلقب مكروه هو «بلاء أبناء هان». بدأ التصنيع في هذه المنطقة فعلياً في الخمسينيات من القرن الماضي، وتسارع بوتيرة سريعة في العقود الثلاثة الماضية. النهر الملوث بفظاعة مسدود الآن بالنفايات السامة حتى أنه يتعثّر أحياناً في الوصول إلى البحر. ومع ذلك، فإن النهر الأصفر بالنسبة إلى الصين أشبه بالنيل بالنسبة إلى مصر، وهو مهد حضارتها الذي تعلّم فيه أهلها الزراعة وصنع الورق والبارود. وإلى الشمال توجد أراضي صحراء غوبي الجدباء في ما يعرف الآن بمنغوليا، وترتفع الأرض إلى الغرب تدريجياً حتى تشكلّ هضبة التبت، لتصل إلى جبال الهيمالايا، ويقع البحر إلى الجنوب والجنوب الشرقي منها.

المنطقة الحيوية التي يمثّلها سهل شمال الصين، كانت ولا تزال سهلاً خصباً كبيراً يخترقه نهران رئيسيان وله مناخ يسمح بحصاد الأرز وفول الصويا مرتين في موسم واحد (أي محصول مضاعف)، ما شجّع النمو السكاني السريع. وبحلول عام 1500 قبل الميلاد في هذه المنطقة، ومن بين مئات من الدول-المدن الصغيرة التي كان العديد منها في حالة حرب مع بعضها بعضاً، ظهرت الصيغة الأولى

من الدولة الصينية متمثّلة في سلالة شانغ. وهي المنطقة التي ظهر فيها ما أصبح يعرف باسم شعب الهان الذي قام بحمايتها وأنشأ حولها منطقة عازلة.

يشكل الهان الآن أكثر من 90 في المائة من سكان الصين، وهم يهيمنون فيها على السياسة والأعمال، ويتم تمييزهم عن غيرهم بلغة الماندرين والكانتونية وعدة لغات إقليمية الأخرى، ولكنهم متّحدون عرقياً وعلى المستوى السياسي عن طريق تكفلهم جيوسياساً بحماية هذه المنطقة الحيوية. تعدّ لغة الماندرين التي نشأت في الجزء الشمالي من المنطقة، هي اللغة السائدة إلى حد بعيد، وهي التي تستخدمها الحكومة، والتلفزيون والتعليم الحكومي الوطني. وتشبه الماندرين اللغة الكانتونية والعديد من اللغات الأخرى عند كتابتها، ولكنها تختلف اختلافاً كبيراً عند الحديث بها.

تعدّ المنطقة الحيوية هي المركز السياسي والثقافي والديموغرافي، والأهم أنها مركز الثقل الزراعي. ويعيش حوالي مليار شخص في هذا الجزء من الصين، على الرغم من أنه لا يزيد عن نصف حجم الولايات المتحدة التي يبلغ عدد سكانها 327 مليون نسمة، ونظراً لأن تضاريس المنطقة الحيوية أفسحت المجال للاستيطان وأسلوب الحياة الزراعي، فقد شعرت السلالات المبكرة بالتهديد من قبل المناطق التي لا تنتمي إلى الهان[23] التي أحاطت بها، وخاصة

23. يمثل الذين لا ينتمون للهان Non-Han أقليات عرقية متنوعة، وهي حسب المصادر الحكومية الصينية 55 مجموعة من الأقليات، تشكّل نسبة 8.49٪ من السكان، وفق إحصاء 2010، كما توجد عدة أقليات أخرى غير معترف بها رسمياً.

منغوليا بفصائلها البدوية من المحاربين العنيفين. وقد انتهجت الصين استراتيجية روسيا في «الهجوم دفاعاً» بما يقود إلى تثبيت سلطة الهان. وكما سنرى، فقد كانت هناك حواجز طبيعية -إذا تمكن الهان من الوصول إليها وفرض سيطرتهم- من شأنها أن تحميهم. لقد كان صراعاً دام على مدى آلاف السنين، ولم يتحقّق بالكامل إلا بضم التبت عام 1951.

بحلول زمن الفيلسوف الصيني الشهير كونفوشيوس (551-479 قبل الزمن الحالي) كان هناك شعور قوي بالهوية الصينية والانقسام بين الصين المتحضّرة والمناطق «البربرية» المحيطة بها. كان هذا شعوراً بالهوية تَشارَكَه 60 مليون شخص أو نحو ذلك.

بحلول عام 200 قبل الزمن الحالي، توسعت الصين نحو التبت في الجنوب الغربي، ولكن لم تصل إليها، ومن الشمال إلى الأراضي العشبية في آسيا الوسطى والجنوب وصولاً إلى بحر الصين الجنوبي. بُنِيَ سور الصين العظيم (المعروف باسم «الجدار الطويل» في الصين) أول مرة من قبل أسرة تشين (221-207 قبل الزمن الحالية)، وعلى الخريطة بدأت الصين اتخاذ ما نعرفه الآن على أنه كيانها الحديث، وهكذا مرّ أكثر من 2000 عام قبل أن تُصلَحَ حدود اليوم.

بين عامي 605 و609 قبل الزمن الحالية، جرى تمديد القناة الكبرى التي استغرق إنشاؤها قروناً، وتعدّ اليوم أطول ممر مائي من صنع الإنسان في العالم، وربطت أخيراً النهرَ الأصفر بنهر يانغتسي،

حيث سخّرت سلالة سوي (581- 618 م) أعداداً هائلة من العمال الذين يخضعون لسيطرتها واستخدمتهم لربط الروافد الطبيعية الموجودة بممر مائي صالح للملاحة بين النهرين الكبيرين، وربط ذلك مناطق الهان الشمالية والجنوبية ببعضهما بعضاً على نحو وثيق أكثر من أي وقت مضى. وقد استغرق الأمر عدة ملايين من العبيد على مدى خمس سنوات لإنجاز العمل، ولكن المشكلة القديمة لكيفية نقل الإمدادات من الجنوب إلى الشمال قد حُلّت، مع إن مشكلة الفيضانات الموجودة حتى يومنا هذا لم تُحل بعد.

لا يزال الهان يتصارعون مع بعضهم بعضاً، ولكن بحدة أقل، وقد أُجبروا بحلول أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، على تركيز انتباههم على موجات المغول المتدفقة من الشمال. لقد هزم المغول كلّ سلالة واجهتهم، سواءً أكانت شمالية أو جنوبية، وبحلول عام 1279 أصبح زعيمهم قبلاي خان) 1215- 1294(أول أجنبي يحكم كل البلاد بوصفه إمبراطور سلالة يوان المغولية، ثم استغرق الأمر قرابة تسعين عاماً قبل أن يتولى الهان مسؤولية شؤونهم الخاصة مع نشأة سلالة مينغ. ووُجد حتى ذلك العصر اتصال متزايد مع التجار والمبعوثين من الدول القومية الناشئة في أوروبا، مثل إسبانيا والبرتغال. كان القادة الصينيون ضد أي نوع من الوجود الأوروبي الدائم، لكنهم فتحوا المناطق الساحلية أمام التجارة بشكل متزايد، ولا تزال سمة من سمات الصين حتى يومنا هذا أنها عندما تنفتح اقتصادياً فإن مناطق السواحل تزداد ازدهاراً، بينما تُهمَل المناطق

الداخلية، وقد جعل الازدهار الذي ولدته التجارة المدن الساحلية مثل شنغهاي ثريةً، لكن تلك الثروات لم تصل إلى الريف، ما أدى إلى زيادة تدفق الناس بشكل هائل إلى المناطق الحضرية، وزاد بدوره من حدة الاختلافات الإقليمية.

وصلت الصين في القرن الثامن عشر، إلى أجزاء من ميانمار (بورما سابقاً) والهند الصينية جنوباً، واحتلّت شينجيانغ في الشمال الغربي، لتصبح أكبر مقاطعة في البلاد. تبلغ مساحة شينجيانغ من الجبال الوعرة وأحواض الصحراء الشاسعة 642820 ميلاً مربعاً، أي ضعف مساحة ولاية تكساس، أو بعبارة أخرى، يمكنك معادلتها بالمملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا والنمسا وسويسرا وهولندا وبلجيكا، مع وجود متسع لكسمبرغ. وليختنشتاين.

ولكن بالإضافة إلى حجمها، فإن الصين أضافت إليها مشكلات أخرى، فشينجيانغ، وهي منطقة يسكنها المسلمون، كانت مصدراً دائماً لعدم الاستقرار، بل التمرّد أحياناً، مثلها في ذلك مثل المناطق الأخرى. لكن بالنسبة إلى الهان فإن هذا «الحاجز» كان يستحق العناء، خاصة بعد المصير الذي حلّ بالبلاد في القرنين التاسع عشر والعشرين مع قدوم الأوروبيين.

وصلت القوى الإمبريالية، والبريطانية من بينها، وقسّمت البلاد إلى مناطق نفوذ، وكان ذلك - ولا يزال - أكبر إذلال عاناه الصينيون منذ الغزوات المغولية. وهذه سرديّات يستخدمها الحزب الشيوعي بشكل متكرر، وهي صحيحة جزئياً، لكنها مفيدة كذلك

للتغطية على إخفاقات الحزب وسياساته القمعية.

قام اليابانيون بغزو الصين في وقت لاحق بوصفهم قوة عالمية صاعدة تسعى إلى توسيع أراضيها، فشنوا هجومهم الأول عام 1931، ثم عام 1937 مرةً أخرى، وبعد ذلك احتلوا معظم المناطق الحيوية بالإضافة إلى منشوريا ومنغوليا الداخلية. في ما بعد، أدى استسلام اليابان غير المشروط للأمريكيين في نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945 إلى انسحاب القوات اليابانية، على الرغم من أنهم استُبدلوا في منشوريا بالجيش السوفيتي الذي انسحب بعد ذلك عام 1946.

اعتقد عدد قليل من المراقبين الخارجيين أن سنوات ما بعد الحرب قد تجلب الديمقراطية الليبرالية إلى الصين، وكان ذلك نوعاً من التفكير الأمني الساذج الذي لا معنى له، كتبه بعض الغربيين في الأيام الأولى من «الربيع العربي»، وكما هو الحال مع الصين، فإنه كان قائماً على غياب فهم الديناميكيات الداخلية التي تسم الناس والسياسة والجغرافيا في هذه المنطقة. إذ إن ما حدث بدلاً من ذلك، هو أن القوات الوطنية قاتلت بقيادة شيانج كاي-شيك والجيوش الشيوعية بقيادة ماو تسي تونج من أجل السيادة حتى عام 1949، إلى أن انتصر الشيوعيون وانسحب الوطنيون إلى تايوان. وأعلن راديو بكين في العام نفسه: «يجب على جيش التحرير الشعبي تحرير جميع الأراضي الصينية، بما في ذلك التبت وشينجيانغ وهاينان وتايوان».

تمركزت قوة ماو إلى حد لم يسبق له مثيل في السلالات السابقة، فمنع النفوذ الروسي في منغوليا الداخلية، ووسّع نفوذ بكين إلى منغوليا. وأكملت الصين عام 1951 ضمّ التبت (وهي منطقة شاسعة أخرى من غير أراضي الهان)، وبحلول ذلك الوقت كانت خرائط الكتب المدرسية الصينية قد بدأت تصوّر الصين على أنها تمتد حتى جمهوريات آسيا الوسطى. لقد وُحّدت البلاد مرة أخرى، وسيقضي ماو بقية حياته ساعياً إلى ضمان بقائها على هذا النحو وتعزيز سيطرة الحزب الشيوعي في كل جوانب الحياة، دون كبير اكتراث بالعالم الخارجي، وظلت البلاد في فقر مدقع، خاصةً في الدواخل البعيدة عن المناطق الساحلية، لكنها كانت موحّدة.

حاول خلفاء ماو تحويل مسيرته الطويلة نحو النصر إلى مسيرة اقتصادية نحو الازدهار. وصاغ الزعيم الصيني دنغ شياو بينغ في أوائل الثمانينيات، مصطلح «اشتراكية ذات سمات صينية»، ويبدو كأن المصطلح يترجم معنى محدداً: «سيطرة الحزب الشيوعي الكاملة على الاقتصاد الرأسمالي». أصبحت الصين قوة تجارية كبرى وعملاقاً عسكرياً صاعداً وبحلول نهاية التسعينيات، كانت قد تعافت من صدمة مذبحة ميدان تيانانمين عام 1989، واستعادت هونغ كونغ وماكاو من البريطانيين والبرتغاليين على التوالي، وصار بإمكانها أن تنظر إلى حدودها وتقيّم أمنها وتخطّط لمستقبل خروجها المشهود إلى العالم.

إذا نظرنا إلى حدود الصين الحديثة، فإننا نرى قوة عظمى لديها

ثقة بأن خصائصها الجغرافية تؤمّنها، وتفسح المجال أمامها للدفاع الفعال والتجارة. إن اتجاهات البوصلة في الصين تندرج دائماً ضمن ترتيب معيّن: شرق- جنوب- غرب- شمال، فدعونا نبدأ من الشمال ونسير في اتجاه عقارب الساعة.

نرى في الشمال حدود الصين مع منغوليا وتبلغ من الأميال 2906 طولاً. تقع صحراء غوبي على جانبي هذه الحدود، وربما كان المحاربون البدو من العصور القديمة قادرين على مهاجمة الجنوب عبرها، ولكن سيُرصدُ جيش حديث يتجمّع هناك قبل أسابيع ليكون على أهبة الاستعداد للتقدّم، وسيحتاج إلى خطوط إمداد طويلة على نحو مرهق تمرّ عبر تضاريس وعرة قبل أن يصل إلى منغوليا الداخلية (وهي جزء من الصين) وقريبة من عمق البلاد الحيوي. يوجد هناك عدد قليل من الطرق التي تلائم تحريك الدروع الثقيلة، وقليل من المناطق المناسبة للسكنى. وتعد صحراء غوبي خطاً دفاعياً شاسعاً بالنسبة إلى نظام الإنذار المبكر، ولن يأتي أي توسع صيني باتجاه الشمال عن طريق الجيش، ولكن عن طريق التعاملات التجارية التي تحاول بها الصين ابتلاع الموارد الطبيعية في منغوليا، وخاصة المعادن، وسوف يؤدي ذلك إلى زيادة هجرة الهان إلى منغوليا.

في الجوار الشرقي من ذلك تمتد حدود الصين مع روسيا، على مدى الطريق إلى المحيط الهادئ، ويوجد إلى الشمال المنطقة الجبلية في أقصى شرق روسيا، وهي إقليم ضخم وعر مع عدد قليل من

السكان. أما أدنى ذلك فتوجد منشوريا التي سيتعيّن على الروس أن يمروا بها إذا أرادوا الوصول إلى المناطق الحيوية في الصين. يبلغ عدد سكان منشوريا 100 مليون نسمة بمؤشّر نمو متزايد، وفي المقابل فإن عدد سكان الشرق الأقصى الروسي يبلغ أقل من سبعة ملايين نسمة ولا توجد مؤشرات على النمو السكاني. ويمكن توقع هجرة واسعة النطاق من الجنوب إلى الشمال، وهو ما سيمنح الصين بدورها مزيداً مِن النفوذ في علاقاتها مع روسيا. ومن المنظور العسكري فإن أفضل مكان للعبور سيكون بالقرب من ميناء فلاديفوستوك الروسي على المحيط الهادئ، ولكن هناك أسباب قليلة تقود إلى ذلك، كما إنه أمر بعيد الاحتمال. لقد أدت العقوبات الغربية الأخيرة ضد روسيا بسبب الأزمة في أوكرانيا إلى دفع روسيا إلى عقد صفقات اقتصادية ضخمة مع الصين بشروط تدعم روسيا وتبقيها حرة الحركة، لكنها مواتية أيضاً بالنسبة إلى الصينيين، إذ تبدو روسيا شريكاً أصغر في مثل هذه العلاقة.

يوجد أسفل الشرق الأقصى الروسي، على امتداد الساحل، بحر الصين الأصفر وبحر الصين الشرقي وبحر الصين الجنوبي وهي تؤدي إلى المحيطين الهادئ والهندي، ولديها العديد من الموانئ الجيدة التي استُخدمت للتجارة على الدوام، لكن تكمن عبر الأمواج عدة مشكلات بحجم الجزيرة، وإحداها بحجم اليابان التي سنصل إليها قريباً.

مع الاستمرار في اتجاه عقارب الساعة، نصل إلى الحدود البرية

التالية: فيتنام ولاوس وميانمار. تعدّ فيتنام مصدر إزعاج للصين. فقد تنازع الطرفان على الأراضي على مدى قرون، ولسوء الحظ فإن هذه هي المنطقة الوحيدة في الجنوب التي لها حدود يمكن للجيش عبورها دون عراقيل كثيرة، وهو ما يفسر جزئياً احتلال الذي نفذته الصين وهيمنت به على فيتنام طوال 1000 عام، من 111 ق. م. إلى 938 م، مع الحرب القصيرة عبر الحدود التي خاضاها عام 1979. ومع نمو القدرات العسكرية الصينية فإن فيتنام ستكون أقل ميلاً إلى الانخراط في مباراة التراشق بالنيران، وستكون إما أقرب إلى الأمريكيين لتحظى بحمايتهم، أو إنها ستبدأ تحولاً دبلوماسياً هادئاً يقرّبها من بكين ويجعلها صديقة لها. إن كون الدولتين شيوعيتين من الناحية الأيديولوجية ليس له علاقة تذكر بوضعية العلاقة السائدة بينهما، ذلك أن الجغرافيا المشتركة التي تجمعهما هي التي حدّدت طبيعة العلاقات. أما إذا نظرنا إلى فيتنام من منظور بكين فإنها ليست سوى تهديد بسيط ومشكلة يمكن معالجتها.

تعدّ الحدود مع لاوس منطقة غابات جبلية يصعب على التجار عبورها، وهي أكثر تعقيداً بالنسبة إلى الجيش، ومع حركتها في اتجاه عقارب الساعة إلى ميانمار، تتحول التلال الغابية إلى جبال حتى تقترب في أقصى الغرب من 20.000 قدم وتبدأ في الاندماج مع جبال الهيمالايا.

يقودنا هذا إلى التبت وأهميتها بالنسبة إلى الصين. تمتد جبال

الهيالايا على مدى الحدود الصينية الهندية قبل أن تنحدر لتصبح سلسلة جبال قراقورم التي تتاخم باكستان وأفغانستان وطاجيكستان، وهذه نسخة طبيعية من سور الصين العظيم، أو هي سور الهند العظيم، بالنظر إليها من جانب نيودلهي، فهي سور يفصل بين البلدين الأكثر اكتظاظاً بالسكان على هذا الكوكب عن بعضهما بعضاً، عسكرياً واقتصادياً. ومع ذلك فإن لديهما نزاعاتهما الخاصة، فالصين تدّعي مقاطعة أروناتشال براديش الهندية، وتقول الهند أن الصين تحتل أكساي تشين، ولكن على الرغم من توجيه مدفعيتهم لبعضهم بعضاً في أعالي هذا الجدار الطبيعي، فإن كلا الجانبين لديهما ما هو أفضل للقيام به من إعادة إشعال مباراة التراشق بالنيران التي اندلعت عام 1962، عندما بلغت سلسلة من النزاعات الحدودية العنيفة ذروتها في قتال جبلي واسع النطاق. ومع ذلك، فإن التوتر موجود دائماً ويحتاج كل جانب إلى التعامل مع الموقف بحذر.

لم تشهد علاقات الصين والهند سوى القليل جداً من التعاملات التجارية على مر القرون، ومن غير المرجح أن يتغير ذلك قريباً. إن الحدود بالطبع هي الحدود التبتية-الهندية، وهذا هو بالضبط سبب رغبة الصين الدائمة في السيطرة عليها.

هذه هي جغرافيا الخوف السياسية: إذا لم تسيطر الصين على التبت، فمن الممكن دائماً أن تحاول الهند القيام بذلك. هذا من شأنه أن يمنح الهند المرتفعات التي يمكن التحكم عن طريقها في هضبة

التبت، وقاعدةً يمكن من خلالها التوغّل إلى وسط الصين، بالإضافة إلى السيطرة على المصادر التبتية التي تغذي ثلاثة من أنهار الصين العظيمة هي الأصفر ويانغتسي وميكونغ، وهذا هو السبب في أن التبت معروفة باسم «برج المياه الصيني»، ومن الواضح أن الصين، وهي الدولة التي تستهلك من المياه ما يوازي استهلاك الولايات المتحدة الأمريكية تقريباً، ولكن بعدد من السكان يبلغ خمسة أضعاف، لن تسمح بحدوث بذلك.

ليس من المهم ما إذا كانت الهند تريد قطع إمدادات الأنهار عن الصين أم لا، إلا أن لديها القدرة على فعل هذا. لقد حاولت الصين طوال قرون عديدة ضمان عدم حدوث ذلك أبداً. سوف يستمر الممثل «ريتشارد غير» و«حركة التبت الحرة»[24] في التحدّث علناً ضد مظالم احتلال التبت واستيطانها على يد الصينيين الهان، ولكن سيكون هناك فائز واحد فقط في المعركة بين الدالاي لاما وحركة استقلال التبت ونجوم هوليوود والحزب الشيوعي الصيني الذي يحكم ثاني أكبر اقتصاد في العالم.

عندما يتحدث غربيّون عن التبت، سواء كان السيد ريتشارد غير أو الرئيس السابق أوباما، فإن الصينيين يجدونهم مزعجين تماماً. لا خطيرين ولا مخرّبين، بل مزعجين فحسب. وهم يرون ذلك لا من

24. حركة التبت الحرة Free Tibet movement: حركة سياسية تدعو إلى فصل التبت واستقلالها عن جمهورية الصين الشعبية، تقودها عناصر تبتية من مقراتها في الهند والولايات المتحدة. دعمها الدالاي لاما حتى أواخر السبعينيات ثم انفصل عنها مفضلاً صيغة الحكم الذاتي، وأعلن أخيراً في 2017 أن التبتيين يفضلون البقاء ضمن حدود الصين.

منظور حقوق الإنسان، بل من منظور أمنهم الجيوسياسي، ولا يمكنهم إلا الاعتقاد بأن الغربيين يحاولون تقويض أمنهم. ومع ذلك، فإن الأمن الصيني لم (ولن) يقع تقويضه، حتى لو كانت هناك انتفاضات أخرى ضد الهان، ذلك أن الديموغرافيا والجغرافيا السياسية تعارض استقلال التبت.

يعمّم الصينيون ما لديهم من «حقائق واقعية» بجعلها «حقائق عالمية». في الخمسينيات من القرن الماضي كان جيش الشعب الشيوعي الصيني قد بدأ بناء الطرق المؤدية إلى التبت، ومنذ ذلك الحين ساعدت هذه الطرق على جلب العالم الحديث إلى المملكة القديمة، لكن الطرق والسكك الحديدية الآن تجلب الهان أيضاً.

قيل منذ فترة طويلة أنه من المستحيل بناء خط سكة حديد عبر الأرض المتجمدة والجبال والوديان في التبت. قال أفضل المهندسين الأوروبيين من الذين شقوا طريقهم عبر جبال الألب، إنه لا يمكن القيام بذلك. في أواخر عام 1988، ذكر كاتب الرحلات بول ثيرو في كتابه «امتطاء الديك الحديدي» [أي ركوب القطار الصيني]: أن «سلسلة كونلون الجبلية ضمانة بأن السكك الحديدية لن تصل إلى لاسا[25] أبداً». ذلك أن سلسلة كونلون تفصل مقاطعة شينجيانغ عن التبت، وقد أبدى ثيرو ارتياحه لذلك: «ربما هذا شيء جيد. اعتقدتُ أنني أحببت السكك الحديدية حتى رأيت التبت، ثم

---

25. لاسا Lhasa: عاصمة منطقة التبت، ذاتية الحكم، تقع على الضفة الشمالية لنهر لاسا في وادي جبال الهيمالايا، ويقع فيها قصر قصر بوتالا ذو الألف غرفة، وكان مقراً شتوياً للدالاي لاما.

أدركت أنني أحب الحياة البرية أكثر من ذلك بكثير». لكن الصينيين قاموا ببنائها، وافتتحَ الخط المؤدي إلى العاصمة التبتية لاسا عام 2006 من قبل الرئيس الصيني آنذاك «هو جينتاو»، وتصل قطارات الركاب والبضائع الآن من أماكن بعيدة مثل شنغهاي وبكين، أربع مرات يومياً.

يجلب الصينيون معهم أشياء كثيرة، مثل السلع الاستهلاكية من جميع أنحاء الصين وأجهزة الكمبيوتر والتلفزيونات الملونة والهواتف المحمولة. ويجلبون السياح الذين يدعمون الاقتصاد المحلي، ويجلبون الحداثة إلى الأرض القديمة والفقيرة، ويحسّنون مستويات المعيشة والرعاية الصحية بشكل كبير، ويجلبون القدرة على نقل البضائع التبتية إلى العالم الأوسع. لكنهم يجلبون بالإضافة إلى ذلك عدة ملايين من المستوطنين الصينيين الهان.

من الصعب الحصول على الأرقام الحقيقية، فحركة التبت الحرة تزعم أن التبتيين في منطقة التبت الثقافية الأوسع أصبحوا الآن أقلية، لكن الحكومة الصينية تقول إن أكثر من 90 في المائة من السكان في منطقة التبت الذاتية الحكم الرسمية هم من التبت. ويبدو أن كلا الجانبين يبالغان، لكن الشواهد تشير إلى أن الحكومة هي التي تعمد إلى درجة أكبر من المبالغة، فأرقامها لا تشمل مهاجري الهان غير المسجّلين بوصفهم مقيمين، لكن يمكن للمراقب العابر أن يرى أن أحياء الهان تهيمن الآن على المناطق الحضرية التبتية.

ذات مرة، كان غالبية سكان منشوريا ومنغوليا الداخلية وشينجيانغ من أصل منشوري ومنغولي وأويغور، أما الآن فإن الأغلبية من الهان الصينيين، أو يقتربون من الأغلبية، وكذلك سيكون الأمر مع التبت. ويعني هذا أن الاستياء من الهان سوف يستمر في إظهار نفسه في أعمال الشغب مثل تلك التي شهدها عام 2008، عندما قام المتظاهرون التبتيون المناهضون للصين في لاسا بإحراق ونهب ممتلكات الهان، وتوفي 21 شخصاً وأصيب المئات. ستستمر حملة القمع التي تشنها السلطات، وستستمر حركة التبت الحرة، وسيواصل الرهبان إشعال النار في أنفسهم لجذب انتباه العالم إلى محنة التبتيين، ولكن الهان سيستمرون في القدوم.

يبحث عدد سكان الصين الهائل عن طرق للتوسّع، فمعظمهم محشورين في وسط البلاد، تماماً كما كان الأمريكيون ينظرون إلى الغرب، كذلك يفعل الصينيون، ومثلما جلب «الحصان الحديدي» [القطار البخاري] المستوطنين الأوروبيين إلى أراضي الكومانش والنافاجو، فإن «الديوك الحديدية» [القطارات الصينية] الحديثة تجلب الهان إلى التبتيين.

إن الصينيين يجلبون كذلك الجيش الأحمر على امتداد الطريق إلى منطقة الحدود الهندية، فالطريق الذي مهِّدَ وبُنِيَ خلال العقد الماضي قاد الجيش إلى هضبة دوكلام[26]، وأصبحت الطرق الآن قادرة على

26. هضبة دوكلام Doklam plateau: تقع بين وادي تشومبي الصيني إلى الشمال، ومنطقة ها في بوتان من الشرق وولاية سيكِّم الهندية من الغرب. يسمها الصينيون دونغلانغ.

تحمل وطأة الدروع الثقيلة، لذا يمكن للصينيين للمرة الأولى في التاريخ أن يبرزوا قوتهم الجدية عبر جبال الهيمالايا، وقد أثار هذا التحول فزع الجيش الهندي، ما أدّى إلى مواجهة متوترة عام 2018 بين الجانبين على الهضبة.

يخشى الهنود من أن الصينيين قد يندفعون بسرعة خاطفة إلى الهند، ويقطعون ما يُعرف باسم «عنق الدجاجة»، وهو امتداد ضيق نسبياً من الأرض فوق بنغلاديش يتصل بالهند الغربية في اتجاه الشرق، فإذا قُطِع هذا الامتداد ينفصل أحدهما عن الآخر، وهو ما سيكون كابوساً بالنسبة إلى الهند.

أخيراً، يتحرك عقرب الساعة عبر الحدود مع باكستان وطاجيكستان وقيرغيزستان (وجميعها ذات طبيعة جبلية) قبل الوصول إلى الحدود مع كازاخستان التي تعود شمالاً إلى منغوليا. هذا هو طريق الحرير القديم، الجسر التجاري البري من المملكة الوسطى إلى العالم. إنها من الناحية النظرية نقطة ضعف في دفاع الصين، لأنها تمثل فجوة بين الجبال والصحراء، لكنها بعيدة عن وسط الصين الحيوي، كما إن الكازاخ ليسوا في وضع يسمح لهم بتهديد الصين، وروسيا تبعد عدة مئات من الأميال.

تقع جنوب شرق هذه الحدود الكازاخستانية مقاطعة شينجيانغ الصينية المضطربة «شبه المستقلة»، وسكانها المسلمون الأصليون من شعب الأويغور الذين يتحدثون لغة ذات علاقة بالتركية، وتقع شينجيانغ على حدود ثماني دول: روسيا ومنغوليا وكازاخستان

وقيرغيزستان وطاجيكستان وأفغانستان وباكستان والهند.

كانت هناك مشكلة في شينجيانغ، وستظل كذلك، وقد أعلن الأويغور مرتين استقلال دولة «تركستان الشرقية» في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، وكانوا قد شاهدوا انهيار الإمبراطورية الروسية والأثر الذي تركه تحول جيرانهم السوفييت السابقين على «الستانات» [الدول التي تنتهي أسماؤها بمقطع «ستان»] وتحوّلها إلى دول ذات سيادة، ويدعو الكثيرون منهم الآن إلى الانفصال عن الصين.

في عام 2009 اندلعت أعمال شغب عرقية، وأدت إلى مقتل أكثر من 200 شخص، وجاء رد بكين بثلاث طرق: قمعت المعارضة بلا رحمة، وضخّت الأموال في المنطقة، واستمرت في ضخ العمّال الصينيين الهان. تعدّ شينجيانغ بالنسبة إلى الصين مهمة من الناحية الاستراتيجية، وهذا ما لن يسمح لحركة الاستقلال بالانطلاق، فهي ليست منطقة حيوية تتاخم ثماني دول فحسب، ولكنها تحتوي على النفط أيضاً، كما تضمّ مواقع اختبار الأسلحة النووية الصينية، وهذه المنطقة مفتاح الاستراتيجية الاقتصادية الصينية التي صيغت بعبارة «حزام واحد، طريق واحد»؛ الطريق المقصود – وهذا غريب نوعاً ما – طريق بحريّ يمكّن من إنشاء مسار سريع عابر للمحيطات خاص بحركة البضائع، أما الحزام فهو «الحزام الاقتصادي لطريق الحرير»، وهو مسار بريّ تركه طريق الحرير القديم، ويمر مباشرة عبر شينجيانغ ويرتبط جنوباً بميناء المياه

العميقة الضخم الذي تبنيه الصين في غوادار، في الباكستان، وقد وقّعت الصين في أواخر 2015 عقد إيجار للميناء يمتد أربعين عاماً، وهذا جزء من الطريقة التي سيُربَط بها «الحزام والطريق».

إن معظم البلدات والمدن الجديدة التي ظهرت في جميع أنحاء شينجيانغ مأهولة بأغلبية ساحقة من قبل الهان الصينيين الذين اجتذبهم العمل في المصانع الجديدة التي تستثمرها الحكومة المركزية. مثال كلاسيكي على ذلك هو مدينة شيهزي، وهي على بعد 85 ميلاً شمال غرب العاصمة أورومكي، فمن بين سكانها البالغ عددهم 650.000 نسمة، يُعتقد أن ما لا يقل عن 620.000 هم من الهان، ويعتقد بوجه عام أن شينجيانغ تتكون من 40 في المائة من الهان، وفقاً لتقديرات متحفظة، وقد تكون أورومكي نفسها مكوّنة الآن من أغلبية الهان، على الرغم من صعوبة الحصول على أرقام رسمية بهذا الشأن، مع عدم إمكانية الاعتماد عليها دائماً بسبب حساسيتها السياسية.

هناك «مؤتمر الأويغور العالمي» ومقره في ألمانيا، و«حركة تحرير تركستان الشرقية» التي أُنشئت في تركيا، لكن الانفصاليين الأويغور يفتقرون إلى شخصية من نوع الدالاي لاما يمكن لوسائل الإعلام الأجنبية تقديمها، كما إن قضيتهم كانت حتى وقت قريب غير معروفة تقريباً في جميع أنحاء العالم، وتحاول الصين أن تبقيها على هذا النحو، بأن تضمن البقاء على علاقة جيدة مع أكبر عدد ممكن من الدول الحدودية المجاورة من أجل منع أي حركة استقلال

منظمة من الحصول على خطوط إمداد أو مكان يمكنها أن تتراجع إليه. كما تصنّف بكين الانفصاليين بوصفهم «إرهابيين إسلاميين»، وتحاول «القاعدة» والجماعات الأخرى التي لها موطئ قدم في أماكن مثل طاجيكستان، إقامة روابط مع الانفصاليين الأويغور، لكن طبيعة الحركة قومية أولاً، وإسلامية ثانياً. ومع ذلك، فإن الهجمات بالبنادق والقنابل والسكاكين في المنطقة ضد أهداف تابعة للدولة و/ أو الهان على مدى السنوات القليلة الماضية تبدو كأنها ستستمر، ويمكن أن تتصاعد إلى انتفاضة كاملة.

كان رد فعل بكين هو حبس أعداد ضخمة من الأويغور في «معسكرات إعادة التعليم»، ولا يعرف عدد الأشخاص المحتجزين إلا السلطات الصينية، لكن التقديرات تتراوح من 150.000 إلى مليونن ويُزعَم أن السجناء ممنوعون من الصلاة أو إطلاق اللحى ضمن سياسة تهدف إلى تجريد الأويغور من معتقداتهم الدينية. إلا أن الصين نفت هذه المزاعم في أبريل 2019، ووصفت المعسكرات بـ«المدارس الداخلية»، وقالت إنها ألقت القبض على حوالي 13000 إرهابي و«فككت مئات العصابات الإرهابية».

قال مسؤولون حكوميون محليون عام 2016، إن جهود إزالة التطرّف قد «أضعفت بشكل ملحوظ» الحركةَ الإسلامية الوليدة. مع ذلك، ونظراً لأن الجيش التركي قال إنه اعتقل 324 جهادياً مشبوهاً من شينجيانغ في طريقهم إلى سوريا عام 2015، فإن ذلك يبدو غير مرجّح. كما أدى دحر تنظيم الدولة الإسلامية في العراق

وأجزاء من سوريا عام 2017 إلى زيادة مخاطر عودة المقاتلين الأجانب إلى ديارهم دون أن يتقاعدوا.

لن تتنازل الصين عن هذه المنطقة، وكما هو الحال في التبت، فإن نافذة الاستقلال ستبقى موصدة. كلاهما منطقة عازلة، إحداهما طريق رئيسي للتجارة البرية، والأهم من ذلك أن كلاهما يقدم أسواقاً (وإن كان ذلك بعوائد محدود) لاقتصاد يجب أن يستمر في إنتاج السلع وبيعها إذا كان سيستمر في النمو ومنع البطالة الجماعية، وقد يؤدي الإخفاق في ذلك إلى اضطرابات مدنية واسعة النطاق، ما سوف يهدد سيطرة الحزب الشيوعي ووحدة الصين.

هناك أسباب مماثلة تجعل الحزب يرفض الديمقراطية والحقوق الفردية، ذلك أن السكان إذا مُنحوا حق التصويت قد تبدأ وحدة الهان في الانهيار، أو قد ينشأ الصراع بين المناطق الريفية والحضرية، وسيشجع هذا بدوره سكان المناطق الطرفيّة العازلة، ويزيد من إضعاف الصين. لم يمض سوى قرن على الإذلال الذي نتج عن نهب الصين من قبل القوى الأجنبية، وبالنسبة إلى بكين فإن الوحدة والتقدم الاقتصادي على رأس الأولويات، قبل الأخذ بالمبادئ الديمقراطية.

ينظر الصينيون إلى المجتمع بشكل مختلف تماماً عن الغرب. الفكر الغربي مشبع بحقوق الفرد، أما الفكر الصيني فيثمّن الجماعية ويجعلها فوق الفردية. وما يعتقد الغرب أنه من قبيل حقوق الإنسان، تعتقد القيادة الصينية أنه من قبيل النظريات الخطيرة التي

تهدد الأغلبية، ويتقبل الكثير من السكان، على الأقل، أن الأسرة الممتدة لها الأولوية على الأفراد.

ضيّفتُ ذات مرة سفيراً صينياً في لندن في مطعم فرنسي راقٍ على أمل أن يكرّر إجابة رئيس الوزراء تشو إنلاي المقتبسة كثيراً عن سؤال ريتشارد نيكسون: «ما هو تأثير الثورة الفرنسية؟»، وكان ردّه: «من السابق لأوانه معرفة ذلك». للأسف لم يكن الأمر كذلك، لكنني تلقيت محاضرة صارمة حول كيف أن الفرض الكامل لـ«ما تسمونه حقوق الإنسان» في الصين سيؤدي إلى انتشار العنف والموت، ثم سُئلت: «لماذا تعتقدون أن قيمكم ستؤثّر في ثقافة لا تفهمونها؟».

كانت الصفقة بين قادة الحزب والشعب، على مدى جيل كامل: «سنجعلكم أفضل إذا تبعتم أوامرنا». وطالما استمر الاقتصاد في النمو، فقد تستمر هذه الصفقة الكبرى، أما إذا توقف العمل بها، أو سارت في اتجاه معاكس، فإن الصفقة سوف تُلغى. إن المستوى الحالي من التظاهرات والغضب ضد الفساد وعدم الكفاءة دليل على ما يمكن أن يحدث في حالة تعطل هذه الصفقة.

مشكلة أخرى متنامية أمام الحزب هي قدرته على إطعام السكان، فأكثر من 40 في المائة من الأراضي الصالحة للزراعة أصبحت الآن إما ملوّثة أو ذات تربة سطحية ضعيفة، وفقاً لوزارة الزراعة. لقد

وقعت الصين في «كاتش-22»[27]. إنها بحاجة إلى الحفاظ على التصنيع لأنها تقوم بتحديث ورفع مستويات المعيشة، لكن هذه العملية بالذات تهدد إنتاج الغذاء، وإذا لم تستطع تجاوز هذه المشكلة، فإنها ستؤدي إلى حدوث الاضطرابات.

يوجد الآن حوالي 500 احتجاج سلمي يحدث معظمها يومياً في جميع أنحاء الصين حول مجموعة متنوعة من القضايا، وإذا أصبحت البطالة الجماعية، أو الجوع الجماعي، جزءاً منها، فسوف تنفجر هذه الحصيلة من حيث العدد ودرجة القوة التي يستخدمها كلا الجانبين. لذا، تعمل الصين الآن على الجانب الاقتصادي بقواعد صفقة كبرى مع العالم: «نصنع السلع بسعر رخيص، ويمكنكم شراؤها بسعر رخيص».

لنترك جانباً حقيقة أن تكاليف العمالة آخذة في الارتفاع بالفعل في الصين، وتنافسها تايلاند وإندونيسيا، من حيث السعر لا من حيث الحجم، فماذا سيحدث إذا جفّت الموارد المطلوبة للتصنيع، أو إذا حصل عليها شخص آخر أولاً، أو إذا كان هناك حصار يمنع البضائع من الدخول والخروج؟ حسناً، لهذا السبب لا بد من قوات بحرية.

كان الصينيون من كبار المسافرين عبر البحر، خاصة في القرن الخامس عشر، عندما جابوا المحيط الهندي. غامر أمير البحر «زينغ

27 . كاتش-22 عنوان رواية من تأليف الأمريكي جوزيف هيل، ثم تحوّل العنوان إلى اصطلاح منطقي بدلّ على معظلة لا حلّ لها.

هي»[28] حتى وصل إلى كينيا، لكن هذه كانت رحلات من أجل كسب المال، ولم تكن استعراضاً للقوة، أو مصمّمة لإنشاء قواعد أمامية يمكن استخدامها لدعم العمليات العسكرية.

بعد أن أمضت الصين 4000 سنة مضطربة في تعزيز كتلتها الأرضية، فإنها تقوم الآن ببناء قواتها البحرية (أسطول «المياه الخضراء» مخصّص للدوريات على حدودها البحرية، بينما يقوم أسطول «المياه الزرقاء» بدورياته في المحيطات)، وسوف يستغرق الأمر ثلاثين عاماً أخرى (بافتراض التقدم الاقتصادي) كي تتمكن الصين من بناء قدرات بحرية تتحدّى خطر أقوى قوة بحرية شهدها العالم على الإطلاق، أي البحرية الأمريكية. ولكن البحرية الصينية على المدى المتوسط والقصير، وبينما تقوم بالبناء والتدرّب والتعلّم، سوف تصطدم بمنافسيها في البحار، وسوف تحدّد الطريقة التي تنتهي بها إدارة هذه التصادمات، خاصة الصينية- الأمريكية، سياسات القوة العظمى في هذا القرن.

إذا وصل إلى رتبة «أدميرال» أولئك البحارة الصينيون الشباب الذين يتدربون الآن على حاملة الطائرات المستعملة «لياونينغ»[29]، التي جُلِبت من أوكرانيا، فلربما تعلّموا ما يكفي لمعرفة كيفية قيادة

28 . زينغ هي Zheng He أو تشينغ هو Chêng-ho : بحار ومستكشف ودبلوماسي في أوائل القرن الخامس عشر، وهو من عائلة مسلمة، وكان اسمه ما هي Ma He (محيي). قاد سبع رحلات استكشافية بحثاً عن الكنوز في جنوب آسيا وشرقها وغربها، وفي بحر العرب وشرق إفريقيا من 1405 إلى 1433.

29 . لياونينغ Liaoning : حاملة طائرات بدأ بناؤها ضمن قوات الاتحاد السوفييتي السابق، ثم اشترتها الصين وأعادت بناءها.

حاملات مكوّنة من اثني عشر سفينة عبر بحار العالم والعودة بها، وأن يخوضوا حرباً على امتداد هذا الطريق إذا دعت الضرورة، لا كما حدث مع بعض الدول العربية الغنية التي أدركت أنها لا تستطيع شراء جيش فعّال معدّ مسبقاً للإيجار.

أبحر الصينيون في صيف 2017 بحاملة الطائرات لياونينغ إلى ميناء هونغ كونغ يرافقها مدمّرتي صواريخ موجهة وفرقاطة صاروخية موجهة وطرّادين، وتزامن ذلك مع زيارة الرئيس شي[30] تكريماً له، ولكن كان من المفترض أيضاً أن يكون ذلك من قبيل تذكير هونغ كونغ، وبقية العالم، بمن يسيطر على هونغ كونغ، ومن ينوي السيطرة ذات يوم على بحر الصين الجنوبي.

كانت الصين قد أطلقت قبل بضعة أشهر حاملة طائراتها الثانية التي كانت صالحة للإبحار، لكنها لم تكن جاهزة للقتال بعد، من المفترض أن تُطلق حاملة ثالثة عام 2021، ومن المشكوك فيه أن تعمل بالطاقة النووية، كما ستفتقر إلى قدرات حاملات الطائرات الأمريكية، إلا أنها ستمنح الصين المزيد من القدرات والخيارات. في أوائل عام 2019، كان خبراء البحرية الصينية على ثقة كافية بأنفسهم لكي يعلنوا عن أن بلادهم سيكون لديها ست حاملات طائرات بحلول عام 2035، مع إمكانية وضع أربع منها في الخدمة الفعلية في أي وقت.

---

30 . شي جين-بينغ Xi Jinping: الأمين العام للحزب الشيوعي الصيني منذ 2012، ورئيس جمهورية الصين الشعبية منذ 2013.

سوف يضع الصينيون، شيئاً فشيئاً، المزيد والمزيد من السفن في البحار قبالة سواحلهم وفي المحيط الهادئ، وفي كل مرة يتم فيها إطلاق واحدة منها، سيترتب عن ذلك تضاؤل المساحة التي يشغلها الأمريكيون في بحار الصين. يعرف الأمريكيون ذلك، ويعرفون أن الصينيين يعملون على إنجاز نظام صاروخي أرضي مضاد للسفن لمضاعفة الأسباب التي تجعل البحرية الأمريكية، أو أياً من حلفائها، يوماً ما تعمد إلى التفكير ملياً في الإبحار عبر بحر الصين الجنوبي، أو أي بحر «صيني» آخر.

سوف تسمح قوة نيران المدفعية الصينية المتزايدة ذات المسافات الطويلة، والموجّهة أرضياً نحو البحر، لقواتها البحرية المتنامية بالمغامرة بعيداً عن ساحلها لأن البحرية ستصبح أقل أهمية من ناحية الدفاع. كان هناك تلميح إلى ذلك في سبتمبر 2015 عندما أبحر الصينيون (بشكل قانوني) بخمس سفن عبر المياه الإقليمية الأمريكية قبالة سواحل ألاسكا، ولم يحدث ذلك قبل زيارة الرئيس شي جين-بينغ للولايات المتحدة من قبيل المصادفة المجردة، فمضيق بيرينغ يعدّ أسرع طريقة لوصول السفن الصينية إلى المحيط المتجمد الشمالي، وسنرى المزيد منها قبالة ساحل ألاسكا في السنوات القادمة، كما سيراقب مشروع الفضاء الصيني النامي كلّ خطوة يقوم بها الأمريكيون وحلفاؤهم بشكل دائم.

الآن، وقد سرنا في اتجاه عقارب الساعة حول الحدود البرية، فلننظر بعد ذلك إلى الشرق والجنوب والجنوب الغربي باتجاه البحر.

يقع بين الصين والمحيط الهادئ الأرخبيل الذي تسميه بكين «سلسلة الجزر الأولى»، وهناك أيضاً «خط القطاعات التسعة»[31] الذي تحول إلى «عشر قطاعات» عام 2013 ليشمل تايوان التي تقول الصين إنها تقع ضمن نطاق أراضيها. لقد سمّم هذا النزاع حول ملكية أكثر من 200 جزيرة صغيرة وشعاب مرجانية علاقات الصين مع جيرانها، فالكبرياء الوطني يعني أن الصين تريد السيطرة على الممرات عبر هذه السلسلة، وتشير الجغرافيا السياسية إلى ضرورة ذلك، كما إنه يوفر إمكانية استخدام أهم ممرات الشحن في العالم في بحر الصين الجنوبي. إن هذا المسار في زمن السلم يكون مفتوحاً في أماكن مختلفة، كما يمكنهم إغلاقه في زمن الحرب بسهولة شديدة، وبذلك يستطيعون تطويق الصين. يبدو أن جميع الدول الكبرى تقضي أوقات السلم وهي تستعدّ ليوم تندلع فيه الحرب.

31 . خط القطاعات التسعة Nine Dash Line: خط ترسيم غير محدّد بدقة بين الصين وتايوان، ويضم جزراً متنازعاً عليها.



بحر الصين الجنوبي منطقة يشتدّ النزاع عليها بين الصين وجيرانها، ويشمل ذلك ملكية الجزر والموارد الطبيعية والسيطرة على البحار والممرات الملاحية.

تجري إعاقة الإبحار الحر إلى المحيط الهادئ من قبل اليابان أولاً، حيث يتعيّن على السفن الصينية الخارجة من البحر الأصفر وتدور حول شبه الجزيرة الكورية أن تمر عبر بحر اليابان صعوداً عبر مضيق «لابيروس»[32] فوق هوكايدو وصولاً إلى المحيط الهادئ، وجزء كبير من هذا المسار يقع ضمن المياه الإقليمية اليابانية أو الروسية، ولن تتمكن الصين من الوصول إليها في وقت التوتر الشديد أو نشوب أعمال عدائية، وحتى إذا نجحت في ذلك، فسيظل عليها التنقّل عبر جزر الكوريل شمال شرق هوكايدو التي تسيطر عليها

32 . مضيق لابيروس La Perouse Strait: مضيق يفصل الجزء الجنوبي من جزيرة سخالين الروسية عن الجزء الشمالي من جزيرة هوكايدو اليابانية، ويربط بحر اليابان في الغرب ببحر أوخوتسك في الشرق. يسمى أيضاً مضيق سويا Sōya.

روسيا وتطالب بها اليابان.

تنازع اليابان الصين أيضاً بشأن سلسلة الجزر غير المأهولة التي تسميها «سينكاكو»[33]، ويعرفها الصينيون باسم «دياويو»، الواقعة شمال شرق تايوان، ويعدّ هذا النزاع هو الأكثر إثارة للجدل من بين جميع الادعاءات الإقليمية بين البلدين. فإذا أبحرت سفن صينية عبر بحر الصين الشرقي قبالة شنغهاي، وذهبت في خط مستقيم نحو المحيط الهادئ، فعليها أن تمر بجزر «ريوكيو» التي تشمل أوكيناوا، وهي جزيرة تشغل القاعدة العسكرية الأمريكية مساحة ضخمة فيها، كما يوجد فيها العديد من الصواريخ التي يمكن لليابانيين أن ينصبوها على أطراف الجزيرة. ورسالة طوكيو في ذلك هي: **«نحن نعلم أنكم ستخرجون، فلا تعبثوا معنا أثناء خروجكم»**.

هناك احتمال آخر بأن ينشب الصراع بين الصين واليابان حول رواسب الغاز في بحر الصين الشرقي، وقد أعلنت بكين عن «منطقة دفاع جوي» تغطّي معظم البحر، الأمر الذي يتطلب إشعاراً مسبقاً قبل الطيران في أجوائها. ويحاول الأمريكيون واليابانيون تجاهل ذلك، لكنها ستصبح قضية ساخنة في الوقت الذي يختارونه أو بسبب حادث «أسيئت إدارته».

إلى الجنوب من أوكيناوا توجد تايوان التي تقع قبالة الساحل

33. سينكاكو Senkaku (أو دياويو Diaoyu): مجموعة من الجزر غير المأهولة في بحر الصين الشرقي، تديرها اليابان. تقع شمال شرق تايوان وشرق الصين وغرب جزيرة أوكيناوا وشمال الطرف الجنوبي الغربي لجزر ريوكيو.

الصيني، وتفصل بحر الصين الشرقي عن بحر الصين الجنوبي، وتدّعي الصين أن تايوان هي المقاطعة الثالثة والعشرون لها، لكنها حالياً حليف من حلفاء الولايات المتحدة مع قوات بحرية وجوية سلحتها واشنطن بكثافة. لقد خضعت تايوان لسيطرة الصين في القرن السابع عشر، لكنها لم تحكمها في القرن الماضي سوى لمدة خمس سنوات (من 1945 إلى 1949).

إن اسم تايوان الرسمي هو «جمهورية الصين» تمييزاً لها عن «جمهورية الصين الشعبية»، على الرغم من أن كلا الجانبين يعتقد أنه يجب أن تكون له الولاية على كلا الإقليمين. يمكن لبكين التعايش هذا الاسم لأنه لا ينصّ على أن تايوان دولة منفصلة، لكن الأمريكيين -حسب قانون 1979 الخاص بالعلاقات مع تايوان- يلتزمون بالدفاع عن تايوان في حالة حدوث غزو صيني. ومع ذلك، فإن تايوان إذا أعلنت استقلالها الكامل عن الصين، وهو ما تعتبره الصين عملاً حربياً، فإن الولايات المتحدة ليست ملزمة بالمجيء إليها وإنقاذها، حيث سيعدّ هذا الإعلان استفزازياً.

تتنافس الحكومتان (الصين وتايوان) على الاعتراف بنفسيهما وعدم الاعتراف بالآخر في كل دول العالم، وفي معظم الحالات فإن بكين هي التي تفوز. عندما تجري المقارنة بين سوق محتمل يصل إلى 1.4 مليار شخص مقابل 23 مليوناً، فلن تحتاج معظم البلدان إلى وقت طويل للاختيار. ومع ذلك فإن 22 دولة اختارت تايوان، معظمها من الدول النامية مثل سوازيلاند وبوركينا فاسو وجزر

ساو تومي وبرينسيبي، وغالباً ما كوفِئت على ذلك بسخاء.

الصينيون عازمون على امتلاك تايوان، لكنهم لا يستطيعون تحدّيها عسكرياً، لذلك فإنهم يستخدمون القوة الناعمة بدلاً من ذلك، عن طريق تكثيف التجارة والسياحة بين الدولتين. تريد الصين استمالة تايوان مرة أخرى واستعادتها، وفي أثناء احتجاجات الطلاب في هونغ كونغ عام 2014، كان أحد أسباب عدم تعامل السلطات معهم بقوة في الشوارع، كما كانوا سيفعلون في أورومكي مثلاً، هو أن وسائل الإعلام العالمية كانت موجودة، ومستعدة لنقل صور العنف. في الصين يُحظر الكثير من مثل هذه اللقطات، لكن في تايوان سوف يرى الناس ما رآه بقية العالم ويسألون أنفسهم عن مدى وثاقة العلاقة التي يريدونها مع هذه القوة. لقد ترددت بكين، لأنها تلعب لعبة طويلة المدى.

يعتمد نهج القوة الناعمة على إقناع شعب تايوان بأنه ليس لديه ما يخشاه من العودة إلى «الوطن الأم». تعدّ «منطقة الدفاع الجوي»، والإبحار بالقرب من السفن الأمريكية، وبناء القوات البحرية، جزءاً من خطة طويلة الأمد لإضعاف العزم الأمريكي على الدفاع عن جزيرة تقع على بعد 140 ميلاً من ساحل الصين، و6400 ميل من الساحل الغربي في الولايات المتحدة الأمريكية.

ستظل السفن الصينية في بحر الصين الجنوبي تواجه ما لديها من مشكلات، سواء اتجهت نحو المحيط الهادئ أو المحيط الهندي، وهو الممر المائي العالمي للغاز والنفط الذي بدونه ستنهار الصين.

فللتوجه غرباً نحو دول الخليج التي تنتج الطاقة، يجب عليهم المرور بفيتنام التي تقدّم التسهيلات للأمريكيين كما أشرنا، ويجب عليهم الاقتراب من الفلبين وهي حليف الولايات المتحدة، قبل محاولة عبور مضيق ملقا بين ماليزيا وسنغافورة وإندونيسيا، وجميعها مرتبطة دبلوماسياً وعسكرياً بالولايات المتحدة.

يبلغ طول المضيق حوالي 500 ميل وعرضه عند أضيقه أقل من ميلين، ولطالما كانت تلك نقطة اختناق ولا زالت أمام الصينيين. جميع الدول على امتداد المضيق وقربه ينتابها القلق من الهيمنة الصينية، ولدى معظمها الآن نزاعات إقليمية مع بكين.

تطالب الصين ببحر الصين الجنوبي بأكمله تقريباً، وتعتقد أن مخزونات الطاقة في أعماقه هي مواردها الخاصة. ومع ذلك، فإن لماليزيا وتايوان وفيتنام والفلبين وبروناي مطالبات إقليمية ضد الصين وضد بعضها بعضاً. على سبيل المثال، فالفلبين والصين مثلاً، تتجادلان بمرارة حول جزر ميستشيف Mischief، وهي شعاب مرجانية كبيرة في جزر سبراتلي في بحر الصين الجنوبي، ويمكن أن تتحول كل جزيرة من مئات الجزر المرجانية المتنازع عليها، أو حتى مجرد الصخور التي تنبثق من المياه، إلى أزمة دبلوماسية لأن محيط كل صخرة يمثل نزاعاً محتملاً حول مناطق الصيد وحقوق الاستكشاف والسيادة.

تستخدم الصين أساليب التجريف واستصلاح الأراضي سعياً إلى تعزيز أهدافها، وذلك بالبدء في تحويل سلسلة من الشعاب

والحيود المرجانية في الأراضي المتنازع عليها إلى جزر. إحدى جزر سبراتلي مثلاً هي الآن جزيرة كاملة بميناء ومدرج يمكن أن يستضيف طائرات مقاتلة، ما يمنح الصين سيطرة أكبر بكثير على سماء المنطقة مما لديها حالياً، كما أن هناك شعاب مرجانية أخرى تحتوي على وحدات مدفعيّة.

قال وزير الدفاع الأمريكي آش كارتر في حديث له صيف 2015: «إن تحويل صخرة تحت الماء إلى مهبط طائرات لا يمنح ببساطة حقوق السيادة أو يسمح بفرض قيود على النقل الجوي أو البحري الدوليين». كان هذا بعد وقت قصير من إعلان الصين عن أنها ستحول موقفها العسكري في المنطقة من الدفاع إلى الهجوم والدفاع معاً، وهي خطوة تؤكد نيّة الصين في أن تكون صانعة القواعد والضوابط في المنطقة، وتستطيع أن تحاكم جيرانها وتهدّدهم بناءً على ذلك.

لابد للصين من تأمين الطرق عبر بحر الصين الجنوبي، من أجل تسويق بضائعها، ومن أجل جلب العناصر المطلوبة لتصنيع تلك البضائع، ومن بينها النفط والغاز والمعادن الثمينة. لا يمكنها أن تحتمل الحصار، وضمن ذلك فإن الدبلوماسية حل واحد من بين حلول أخرى، والبحرية المتنامية حلّ آخر أيضاً، لكن أفضل الضمانات هي خطوط الأنابيب والطرق والموانئ.

سوف تحاول الصين دبلوماسياً أن تُبعد دول جنوب شرق آسيا عن الولايات المتحدة باستخدام العصا والجزرة. إذا كانت العصا

أطول مما يجب فإن تلك الدول سوف تتقارب أكثر من أي وقت مضى وتعقد المزيد من معاهدات الدفاع مع واشنطن، وإذا كان الجَزر أكثر مما يجب، فقد لا تخضع لإرادة بكين، وما زالت هذه الدول تبحث في الوقت الحالي عن الحماية عبر المحيط الهادئ.

تُظهر خرائط المنطقة التي يطبعها الصينيون الآن بحرَ الصين الجنوبي بأكمله تقريباً على أنه بحرهم، ويعدّ ذلك بياناً عن نواياهم المدعومة بدوريات بحرية عدائية وبيانات رسمية، فبكين تنوي تغيير طرق تفكير جيرانها وتغيير طريقة تفكير الولايات المتحدة وتصرفاتها، عن طريق الاستمرار في الإصرار على أجندتها الخاصة حتى يتراجع منافسوها، ما يجعل مفهوم المياه الدولية وحرية العبور في وقت السلم موضعَ جدل، وهو ما لا تستطيع القوى الأخرى أن تتخلّى عنه بسهولة.

مع أخذ ما مرّ بعين الاعتبار، أعلن البريطانيون في صيف 2017 أن إحدى أولى المهام التي ستنفذها حاملتا الطائرات الجديدتان ستكون عملية «حرية الملاحة» عبر بحر الصين الجنوبي، ونظرت بكين بدورها إلى ذلك الإعلان بنظرة قاتمة تماماً، وعدّته عملاً استفزازياً. ومع ذلك، ففي العام التالي، أبحرت سفينة هجومية برمائية بريطانية، هي «إتش. إم. إس. ألبيون»، بالقرب من جزر باراسيل[34] المتنازع عليها، وتطالب بها الصين، وفي أوائل 2019،

34. جزر باراسيل Paracel Islands: أرخبيل يضم نحو 130 جزيرة وشعباً مرجانياً في بحر الصين الجنوبي. تسميها الصين «جزر شيشا».

أكّد وزير الدفاع آنذاك غافين ويليامسون أن حاملة طائرات ستبحر عبر بحر الصين الجنوبي عام 2020، وستكون مجهزة بالطائرات الحربية على متنها. يشرح الكاتب الجيوسياسي روبرت كابلان النظرية القائلة بأن بحر الصين الجنوبي بالنسبة إلى الصينيين في القرن الحادي والعشرين هو ما كانت عليه منطقة البحر الكاريبي بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن العشرين. أصبح الأمريكيون بعد أن عزّزوا وحدة أراضيهم قوةً ذات محيطين (المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ)، ثم تحركوا للسيطرة على البحار من حولهم، ودفعوا الإسبان خارجَ كوبا.

الصين بدورها تنوي أن تصبح قوة ذات محيطين (المحيط الهادئ والمحيط الهندي)، ولتحقيق ذلك، فإنها تستثمر موانئ المياه العميقة في ميانمار وبنغلاديش وباكستان وسريلانكا، وهو استثمار يمكّنها من شراء علاقات جيدة، مع إمكان أن يكون لقواتها البحرية المستقبلية قواعد صديقة تزورها أو تقيم فيها، مع روابط تجارية دائمة، وخير مثال لذلك، أن سريلانكا طلبت عام 2017 من الصين، على نحو متكرّر، قرضاً تلو الآخر لبناء ميناء هامبانتوتا[35]، وقد استجابت الصين لهذه المطالب، وقامت شركة صينية تملكها الدولة ببناء الميناء، على الرغم من دراسات الجدوى التي تشير إلى أنه لن يكون ناجحاً.

لم يكن الميناء كذلك فعلاً، فقد اتضح أن الحكومة السريلانكية لا

35 . هامبانتوتا Hambantota: مقاطعة في جنوب سريلانكا.

تستطيع سداد الديون، وكان أن سلّمت الميناء، إلى جانب 15000 فدان من الأراضي المحيطة به، مع عقد إيجار لمدة تسعة وتسعين عاماً. وهكذا استحوذت الصين على قاعدة بحرية على بعد بضع مئات الأميال من أحد منافسيها الاستراتيجيين الرئيسيين: الهند.

موانئ المحيط الهندي وخليج البنغال جزء من خطة أكبر لتأمين مستقبل الصين، سيكون إيجارها لميناء المياه العميقة الجديد في غوادر[36] بباكستان، مفتاحَ إنشاء طريق بري بديل يصل إلى الصين (إذا كانت منطقة بلوشستان الباكستانية مستقرة بدرجة كافية). ومن ساحل ميانمار الغربي أنشأت الصين خطوط أنابيب للغاز الطبيعي والنفط تربط خليج البنغال حتى جنوب غرب الصين، وهي طريقة الصين لتقليل اعتمادها المقلق على مضيق ملقا الذي يمر عبره ما يقرب من 80 في المائة من إمداداتها من الطاقة. ويفسّر هذا جزئياً لماذا لم يكن الصينيون وحدهم مَن يتحمّسون للإقدام على هذه الخطوة (خاصةً عندما بدأ المجلس العسكري البورمي الانفتاح ببطء على العالم الخارجي عام 2010). سارع الأمريكيون واليابانيون إلى تعزيز علاقاتهم على نحو أوثق، وعبّر الرئيس الأمريكي أوباما ورئيس الوزراء الياباني آبي عن درجة الاحترام التي يكنّها كل منهما للآخر، ومنذ ذلك الحين قالت إدارة ترامب إنها لا تريد التورط في مغامرات خارجية، لكن اللعبة في ميانمار لم تكن

36. غوادر Gwadar مدينة ساحلية في الجنوب الغربي من بلوشستان، بالباكستان. تقع على شواطئ بحر العرب مقابل عمان. كانت تابعة لسلطنة عمان من 1783 إلى 1958.

مغامرة، إنها استراتيجية طويلة الأمد، وإذا تمكّنت الولايات المتحدة من التأثير على ميانمار، فيمكنها التحقّق من نوايا الصين. وحتى وقتنا هذا فإن الصينيين هم الذين يفوزون بهذه اللعبة بالذات على رقعة الشطرنج العالمية، لكن قد يتمكّن الأمريكيون من التفوق عليهم طالما أن الحكومة البورمية واثقة من أن واشنطن ستقف إلى جانبها. كما يقوم الصينيون كذلك ببناء موانئ في كينيا، وخطوط سكك حديدية في أنغولا، وسداً لتوليد الطاقة الكهرومائية في إثيوبيا. إنهم يبحثون في طول أفريقيا وعرضها عن مصادر المعادن والمعادن الثمينة.

تنتشر الشركات والعمال الصينيون في جميع أنحاء العالم، وسوف يتبعها الجيش الصيني ببطء، فمع وجود قوة عظمى تكون المسؤولية عظمى أيضاً. لن تترك الصين الممرات البحرية التي في جوارها ليتحكّم بها الأمريكيون، وسوف يظهر من الأحداث ما يدعو الصينيين إلى التصرف خارج المنطقة. إن كارثة طبيعية أو حادثاً إرهابياً يقع رهينته أعداد كبيرة من العمال الصينيين يتطلّب من الصين اتخاذ إجراءات فورية، ويقتضي هذا قواعد أمامية، أو اتفاقيات مع دول أخرى تنصّ على أن الصين يمكن أن تمرّ عبر أراضيها. يوجد الآن عشرات الملايين من الصينيين حول العالم، يقيمون في بعض الحالات في مجمعات سكنية عمالية ضخمة في أجزاء من أفريقيا.

ستعمل الصين جاهدة لكي تصبح أكثر قدرةً وسرعةً في العقد

المقبل. كانت بالكاد قد استطاعت تحريك الجيش الشعبي لتقديم المساعدة في أعقاب الزلزال المدمر عام 2008 في سيتشوان[37]، حيث هرعت حشدت الجيش آنذاك، ولكن دون عتاده، أما السفر إلى الخارج بسرعة فسوف يكون تحدياً أكبر.

هذا سوف يتغير، فالصين ليست مثقلة بوطأة حقوق الإنسان في تعاملها مع العالم، وليست مضطرة دبلوماسياً أو اقتصادياً، إنها آمنة في حدودها، وتعمل ما باستطاعتها لتأمين «سلسلة الجزيرة الأولى»[38]، وهي تتحرك بثقة حول العالم. إذا تمكّنت من تجنب الدخول في صراع خطير مع اليابان أو الولايات المتحدة، فإن الخطر الحقيقي الوحيد على الصين هو نفسها. هناك 1.4 مليار سبب قد يجعل الصين تنجح، و1.4 مليار سبب لعدم تفوقها على أمريكا بوصفها أكبر قوة في العالم. كساد كبير مثل ذلك الذي حدث في ثلاثينيات القرن الماضي يمكن أن يعيدها إلى الوراء عقوداً من الزمن. لقد حبست الصين نفسها في الاقتصاد العالمي: «إذا لم نشترِ، فإنهم لن يصنعوا، وإذا لم يفعلوا ذلك، فسينتهون إلى بطالة جماعية».

---

37. سيتشوان Sichuan: مقاطعة جنوب غرب الصين.

38. سلسلة الجزيرة الأولى First Island Chain: سلسلة جزر في أرخبيل المحيط الهادئ من الساحل القاري لشرق آسيا، تمتد من الأرخبيل الياباني إلى تايوان وشمال الفلبين وبورنيو، من شبه جزيرة كامتشاتكا في الشمال الشرقي إلى شبه جزيرة الملايو في الجنوب الغربي. لهذه السلسلة أهمية كبرى في العقيدة العسكرية الصينية، وتسعى الصين إلى تحويلها إلى منطقة مؤمّنة يجب عزلها عن مجالات القواعد وحاملات الطائرات الأمريكية، وترى أنها ستعمد إلى غلق البحر الأصفر وبحر الصين الجنوبي وبحر شرق الصين ضمن قوس يبدأ من ألوشن في الشمال حتى بورنيو في الجنوب. وقد أفادت تقارير صدرت في 6 مارس 2022 أن الولايات المتحدة ستقوم بإنشاء شبكة من الصواريخ الدقيقة على امتداد سلسلة الجزيرة الأولى في السنوات الست المقبلة.

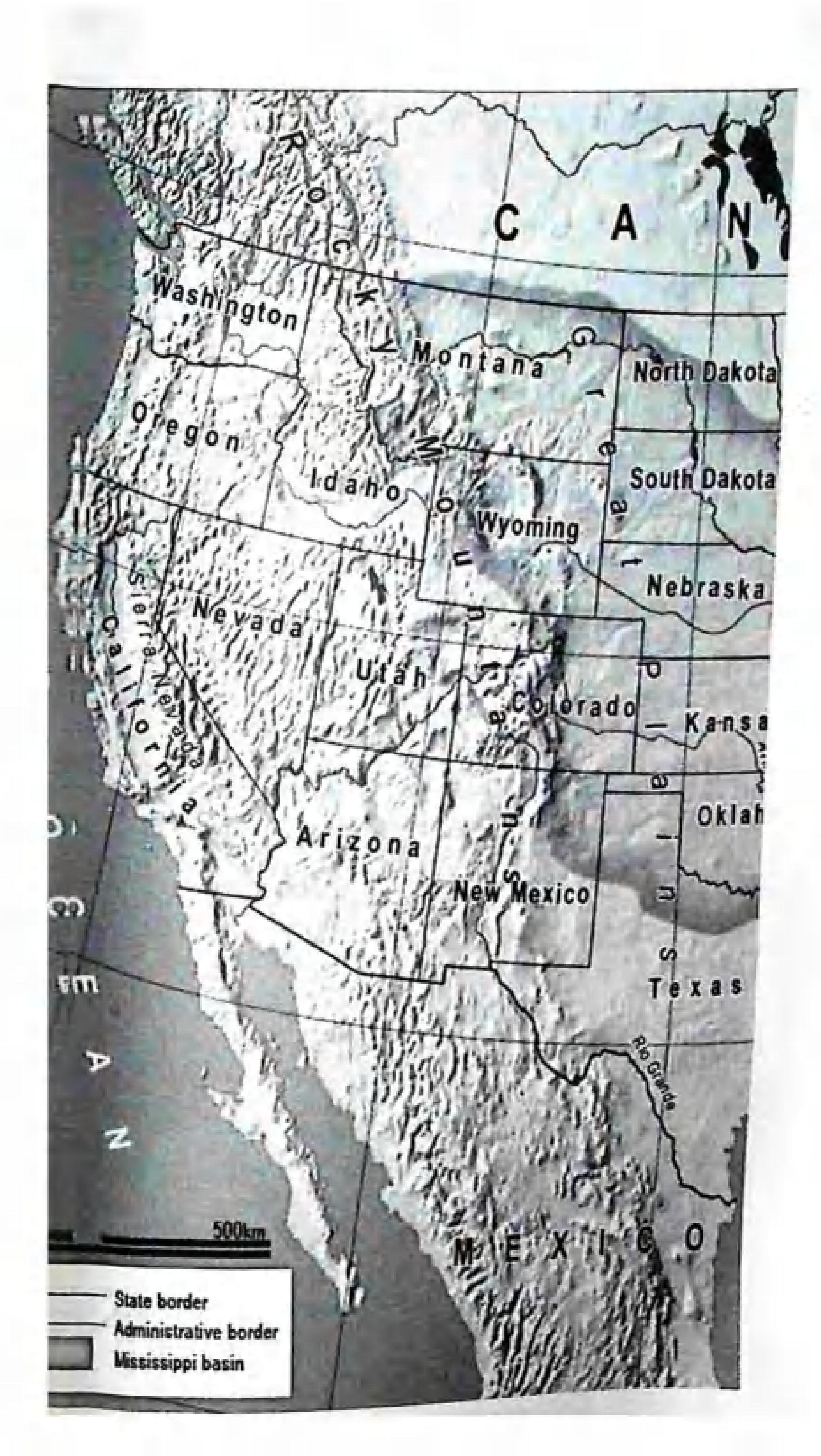
إذا كانت هناك بطالة جماعية طويلة الأمد، في وقت يكون فيه الصينيون شعباً تكتظّ به المناطق الحضرية، فيمكن أن تحتدم الاضطرابات الاجتماعية المحتومة، مثل كل شيء آخر في الصين الحديثة، على نطاق لا مثيل له ولم تسبق رؤيته قبل الآن.

الفصل الثالث

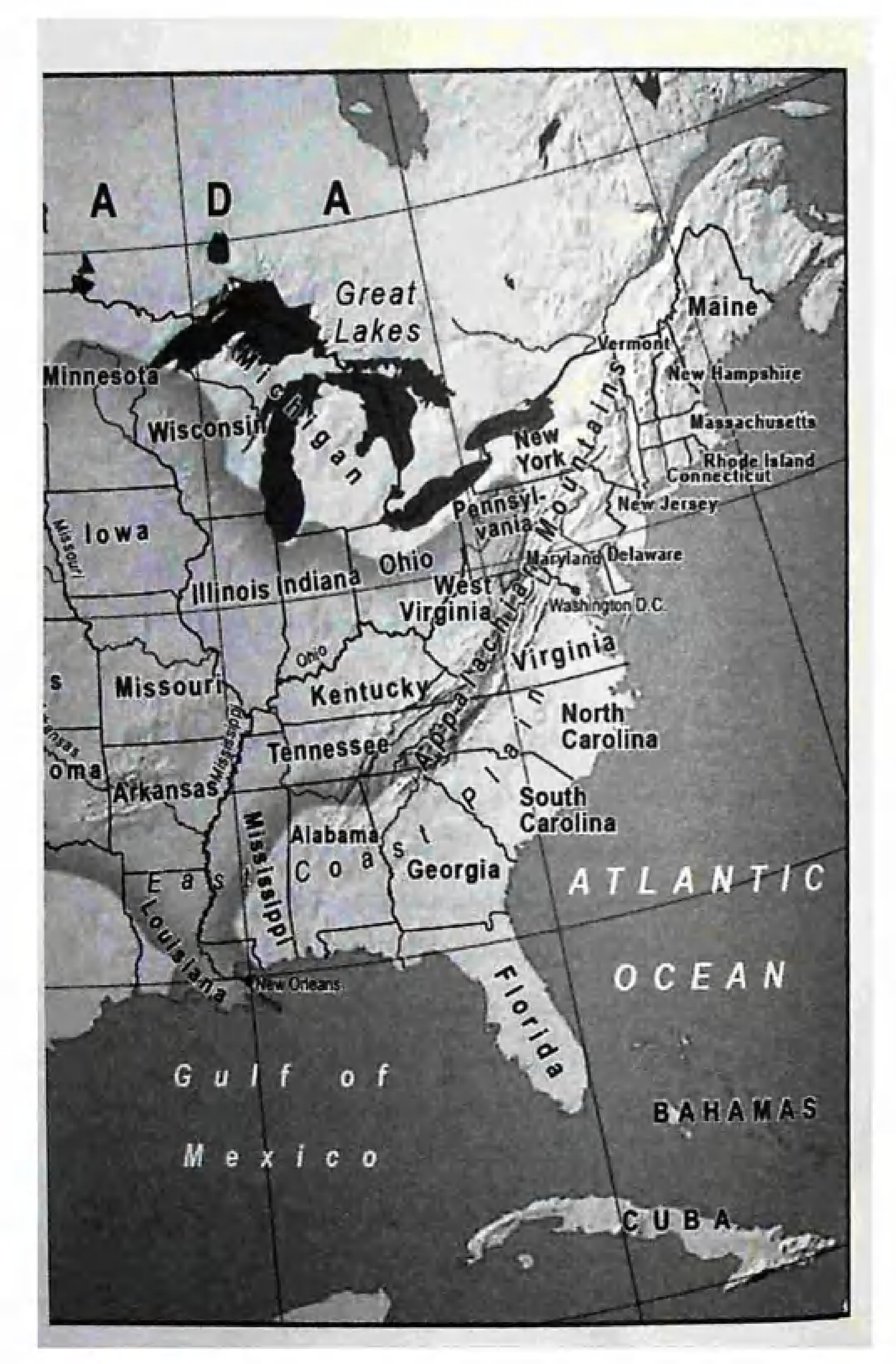
الولايات المتحدة الأمريكية

«كان الإبلاغ عن وفاتي مبالَغاً فيه إلى حدّ كبير».

مارك توين



C A N
Washington
Oregon
Idaho
Montana
North Dakota
South Dakota
Wyoming
Nebraska
Nevada
Utah
Colorado
Kansa
California
Sierra Nevada
Arizona
New Mexico
Oklah
Texas
Rio Grande
M E X I C O
Rocky Mountains
Great Plains
500km
State border
Administrative border
Mississippi basin



Great Lakes
Maine
Vermont
New Hampshire
Minnesota
Michigan
Wisconsin
Massachusetts
New York
Rhode Island
Connecticut
Pennsyl-vania
New Jersey
Iowa
Missouri
Maryland
Delaware
Ohio
Illinois
Indiana
West Virginia
Washington D.C.
Ohio
Virginia
Appalachian Mountains
Missouri
Kentucky
North Carolina
Tennessee
Arkansas
Mississippi
South Carolina
Alabama
Mississippi
East Coastal Plain
Georgia
ATLANTIC OCEAN
Louisiana
New Orleans
Florida
Gulf of Mexico
BAHAMAS
CUBA

الموقع أولاً! إذا ربحتَ اليانصيب، وكنت تتطلّع إلى شراء بلد تعيش فيه، فإن أول ما سيريك الوكيل العقاري هو الولايات المتحدة الأمريكية.

كان مارك توين يشير إلى الإبلاغ الخاطئ عن وفاته، لكنه ربما كان يتحدث عن الإفراط في الإبلاغ عن زوال الولايات المتحدة. إنها حي رائع، المناظر مدهشة، وهناك بعض المعالم المائية البديعة، وسائل النقل ممتازة؛ والجيران؟ الجيران جيدون، لا مشكلة على الإطلاق.

إذا قسّمتَ فضاء المعيشة هذا إلى عدة أجزاء، يؤدي ذلك إلى خفض قيمته بشكل واضح، خاصةً إذا لم يكن جميع المستأجرين يتحدثون اللغة نفسها، ودفعوا الإيجار بعملات مختلفة، ولكنه لا يمكن أن يكون أفضل من ذلك بوصفه بيتاً واحداً، لعائلة واحدة. هناك خمسون «دولة» أمريكية، لكنها تجتمع في «أمة» واحدة بطريقة لا تستطيع «الدول» الثماني والعشرون ذات السيادة في الاتحاد الأوروبي القيام بذلك أبداً. يتمتع معظم دول الاتحاد الأوروبي بهوية وطنية أقوى وأكثر تحديداً من أي «دولة» أمريكية[39]. من

39 . كما يلاحظ القارئ، لا فرق في استخدام المؤلف هنا بين كلمتي «ولاية» و«دولة» state. وقد أخذت الولايات المتحدة الأمريكية اسمها في 9 سبتمبر 1776 عندما أعلن

السهل أن تجد شخصاً فرنسياً يكون فرنسياً في المقام الأول وأوروبياً في المقام الثاني، أو تجد شخصاً لا يولي سوى القليل من الولاء لفكرة أوروبا، لكن الأمريكيين يتباهون مع اتحادهم بطريقة لا يفعلها سوى قلة من الأوروبيين. هذا ما تفسره الجغرافيا وتاريخ توحيد «الولايات» المتحدة الأمريكية.

برسم هذا البلد الشاسع من الشرق إلى الغرب بضربات فرشاة عريضة متمكّنة، يمكنك تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء.

هناك أولاً، سهل الساحل الشرقي المؤدي إلى جبال آبالاش، وهي منطقة تسقيها أنهار قصيرة بشكل جيد، صالحة للملاحة وذات تربة خصبة. بعد ذلك، بالتوجه غرباً، هناك السهول الكبرى الممتدة طوال الطريق إلى جبال روكي، وداخل هذا القسم يقع حوض المسيسيبي بشبكته من الأنهار الضخمة الصالحة للملاحة التي تتدفق إلى نهر المسيسيبي وصولاً إلى خليج المكسيك الذي تحميه شبه جزيرة فلوريدا وعدة جزر، وبمجرد الوصول إلى سلسلة الجبال الضخمة، أي جبال روكي، تظهر الصحراء وجبال سيرا نيفادا والسهل الساحلي الضيق، وأخيراً شواطئ المحيط الهادئ.

إلى الشمال، فوق البحيرات الكبرى، يقع الدرع الكندي، أكبر منطقة في العالم من صخور «ما قبل الكمبري»، ويشكل الكثير منها

«الكونغرس القاري» Continental Congress رسمياً أن اسم الدولة الجديدة هو «الدول المتحدة» United States بدلاً عن اسمها القديم «المستعمرات المتحدة» United Colonies الذي كان شائعاً آنذاك. أما في اللغة العربية فتسمى «ولايات» لأنها تمثل كياناً سياسياً موحّداً هو «الدولة» الأمريكية. راجع تقديم المحرّر.

حاجزاً أمام الاستيطان البشري، وإلى الجنوب الغربي تقع الصحراء. لقد حدّدت الجغرافيا أنه إذا تمكّن كيان سياسي من الوصول إلى الأرض ثم السيطرة عليها «من البحر إلى البحر»، فسيكون هذا الكيان قوة عظمى، بل أعظم قوة عرفها التاريخ. وما أن تتحقّق هذه القوة، فسيصبح غزو الاتحاد شبه مستحيل. ومثلما رأينا مع روسيا (الفصل الأول)، هناك «عمق استراتيجي» يسند القوة الدفاعية، ويمكنها أن تنسحب إليه. يعدّ حجم كندا (والمكسيك بدرجة أقل) أحد المزايا الطبيعية أيضاً، لأن أي قوة معادية تحاول الغزو من خلال المرور عبر هذين البلدين يتعين عليها أن تحتفظ بخطوط إمداد طويلة بطريقة غير ممكنة.

بالقدر نفسه من الأهمية، في العصر الحديث، يمكننا تصوّر أن أي شخص غبي يفكّر في غزو أمريكا سيضطر فوراً إلى التفكير في حقيقة أنها تحتوي على مئات الملايين من الأسلحة، وهي متاحة بسهولة للسكان الذين ينظرون إلى حياتهم وحريتهم وسعيهم إلى الرخاء بمنتهى الجديّة. بالإضافة إلى القوات المسلحة الأمريكية الهائلة، هناك الحرس الوطني وشرطة الولاية، وهناك -كما رأينا في مناسبات مختلفة من عام 2015- قوة شرطة حضرية يمكن أن تماثل الوحدات العسكرية بسرعة. في حالة الغزو، فإن كلاً من مدينة فولسوم وفيرفاكس وفارمرفيل في الولايات المتحدة سرعان ما ستتحوّل إلى ما يشبه الفلوجة العراقية. ولكن لتحقيق هذا الوضع الجغرافي النادر المتمثل في المناعة من أثر الهجوم التقليدي، يجب السيطرة أولاً على الفضاء وتوحيده، وإنجاز ذلك بسرعة مذهلة،

مع الأخذ بعين الاعتبار أن القارة تمتد 3000 ميل من الساحل إلى الساحل.

عندما بدأ الأوروبيون الهبوط والتوطّن في أوائل القرن السابع عشر، سرعان ما أدركوا أن الساحل الشرقي من هذه المنطقة «العذراء» كان مكتظاً بالموانئ الطبيعية والتربة الخصبة. كان هنا مكاناً يمكنهم العيش فيه، وعلى عكس بلدانهم الأصلية، فإنه مكان يسع أملهم في أن يتمكنوا من العيش بحرية. استمر أحفادهم في سلب السكان الأصليين حريتهم، لكن ذلك لم يكن نية المستوطنين الأوائل، وهكذا جذبتهم الجغرافيا فعبروا المحيط الأطلسي بأعداد أكبر من أي وقت مضى.

آخر المستعمرات الثلاثة عشر الأصلية التي أُسّست كانت جورجيا عام 1732، وأصبحت هذه المستعمرات الثلاثة عشر مستقلة القرار بشكل متزايد حتى نشوب الحرب الثورية الأمريكية (1775 - 1783). وفي بداية هذه المرحلة كانت المستعمرات التي بدأت بالتواصل تدريجياً مع بعضها بعضاً، على امتداد مسافة 1000 ميل من ماساتشوستس في الشمال وصولاً إلى جورجيا، وقدّر عدد سكانها مجتمعة بحوالي 2.5 مليون شخص. كان يحدّها المحيط الأطلسي من الشرق، وجبال آبالاش من الغرب. إن جبال آبلاش، التي يبلغ طولها 1500 ميل، تثير الإعجاب، لكنها ليست مرتفعة إذا قورنت بجبال روكي. ومع ذلك، فقد شكلت حاجزاً هائلاً أمام حركة المستوطنين الأوائل باتجاه الغرب، وجعلتهم منهمكين في

تعزيز الأراضي التي سيطروا عليها والاستعداد لحكمها بأنفسهم. كان ثمة حاجز آخر أمام المستعمرين، وهو حاجز سياسي، فقد منعت الحكومة البريطانية الاستيطان غرب جبال آبلاش لأنها أرادت ضمان بقاء التجارة والضرائب على الساحل الشرقي.

ينص إعلان الاستقلال (1776) على ما يلي: «عندما يصبح ضرورياً أمام شعب ما خلال مجرى الحياة الإنسانية أن يحل الروابط السياسية التي تربطه بشعب آخر، ويتّخذ لنفسه مثل بقية شعوب الأرض وضع الانفصال والنديّة التي تخوّلها له قوانين الطبيعة وخالقها، فإن الاحترام اللائق بآراء البشر يتطلب أن يعلن أبناء ذلك الشعب عن الأسباب التي تدفعهم إلى الانفصال». ويمضي الإعلان في تحديد تلك الأسباب بشيء من التفصيل، ويذكر أنه من البدهي أن جميع البشر خُلقوا متساوين (دون التلميح بأي إشارة إلى مفارقة الاسترقاق وامتلاك العبيد). ساعدت هذه المشاعر النبيلة على تأجيج الانتصار في حرب الاستقلال التي أدت بدورها إلى ولادة دولة قومية جديدة. كانت قيادة هذا البلد الجديد في أوائل القرن التاسع عشر، لا تزال لديها فكرة بسيطة عن أنها كانت على بعد آلاف الأميال من «البحر الجنوبي» أو المحيط الهادئ. وقام عدد قليل من المستكشفين الذي يمكن وصفهم بالبواسل، باستخدام المسارات الهندية، بالاندفاع عبر جبال آبلاش وصولاً إلى المسيسيبي، حيث اعتقدوا أنهم قد يعثرون هناك على ممر مائي يؤدي إلى المحيط، فيتاخمون بالتالي تلك المساحات الشاسعة من الأراضي التي اكتشفها الإسبان عبر المناطق الجنوبية الغربية ومناطق المحيط

الهادئ الساحلية، بما في ذلك ما يُعرف الآن بتكساس وكاليفورنيا.

لم تكن الولايات المتحدة الوليدة في هذه المرحلة آمنة بعد، ولو أنها كانت مقيدة بحدودها آنذاك، لجاهدت كي تصبح قوة عظمى. كان مواطنوها يستطيعون بالفعل أن يستخدموا نهر أوهايو، غرب جبال آبلاش مباشرة، لكن ذلك كان يؤدي إلى نهر المسيسيبي الذي يسيطر الفرنسيون على الضفة الغربية منه وصولاً إلى مدينة نيو أورلينز. وقد أعطى ذلك للفرنسيين إمكان التحكّم في التجارة الأمريكية التي كانت تتجه إلى العالم القديم عن طريق خليج المكسيك، وكذلك الأراضي الشاسعة إلى الغرب التي أصبحت الآن في قلب أمريكا. كتب توماس جيفرسون عام 1802، أي بعد عام من توليه الرئاسة: «هناك بقعة واحدة على الكرة الأرضية، مالكها هو عدونا الطبيعي والمعتاد، إنها نيو أورلينز». كانت فرنسا، إذن، هي الخصم والحكم. لكن الحرب لم تكن هي الحل، على غير العادة.

في عام 1803، اشترت الولايات المتحدة ببساطة السيطرة على إقليم لويزيانا بأكمله من فرنسا. امتدت الأرض من خليج المكسيك إلى الشمال الغربي حتى منابع روافد نهر المسيسيبي في جبال روكي، وهي مساحة يعادل حجمها إسبانيا وإيطاليا وفرنسا والمملكة المتحدة وألمانيا مجتمعةً، وجاء معها حوض المسيسيبي الذي أضفى على أمريكا ما عرفته من نمو وضخامة.

بجرّة قلم، وتسليم مبلغ 15 مليون دولار، ضاعفت صفقة شراء

لويزيانا عام 1803 حجم الولايات المتحدة وأعطتها إمكان التحكّم بأكبر طريق نقل مائي داخلي في العالم. وكما كتب المؤرخ الأمريكي هنري آدامز: فإن «الولايات المتحدة لم تحصل من قبل قط على مثل هذا القدر الكبير مقابل ذلك القليل الذي دفعته».

يحتوي حوض المسيسيبي الأكبر على أميال من الممرات المائية الداخلية الصالحة للملاحة أكثر مما في جميع أنحاء العالم من ممرات شبيهة. لا يوجد في أي مكان آخر الكثير من الأنهار التي لا تكون منابعها في أراض جبلية مرتفعة، وتجري مياهها بسلاسة على امتداد الطريق إلى المحيط عبر مسافات شاسعة. يبدأ نهر المسيسيبي الذي يغذيه جزء كبير من نظام نهر الأحواض، بالقرب من مينيابوليس وينتهي على بعد 1800 ميل في خليج المكسيك، لذلك كانت الأنهار هي القناة الطبيعية للتجارة المتزايدة باستمرار، ما أدى إلى خلق ميناء عظيم، مع استخدام المركبات المائية التي كانت، ولا تزال، أرخص بكثير من السفر براً على الطرق.

يحظى الأمريكيون الآن بعمق جغرافي استراتيجي وأرض خصبة هائلة وبديل عن موانئ الأطلسي لتسيير التجارية، وكانت لديهم طُرُق دائمة التوسع من الشرق إلى الغرب تربط الساحل الشرقي بالمنطقة الجديدة، مع تدفق أنظمة الأنهار من الشمال إلى الجنوب لربط الأراضي ذات الكثافة السكانية المنخفضة مع بعضها بعضاً، وكل ذلك شجّع أمريكا على تشكيل كيان واحد.

كان هناك شعور بأن الدولة ستصبح كياناً عملاقاً، وقوةً قارية.

وكانوا الأمريكيون يندفعون إلى الأمام، باتجاه الغرب دائماً، ولكن مع إبقاء عيونهم على الجنوب لتأمين جوهرة التاج: المسيسيبي.

بحلول عام 1814 كان البريطانيون قد رحلوا، وتنازل الفرنسيون عن لويزيانا، وقضى التّحيّل آنذاك بإقناع الإسبان بالرحيل، ولم يكن الأمر صعباً جداً. كان الإسبان مرهقين بسبب الحرب في أوروبا ضد نابليون، وكان الأمريكيون يدفعون أمة السيمينول[40] باتجاه فلوريدا الإسبانية، وعلمت مدريد أن موجات من المستوطنين ستتبعهم، وبحلول عام 1819 تنازل الإسبان عن فلوريدا للولايات المتحدة ومعها مساحة هائلة من الأراضي.

أعطت صفقة شراء لويزيانا للولايات المتحدة منطقة حيوية، لكن معاهدة عبر-القارات عام 1819[41] أعطتهم شيئاً آخر بالقيمة نفسها تقريباً، فقد وافق الإسبان على أن الولايات المتحدة سيكون لها الولاية على أقصى الغرب فوق خط العرض 42º، أي على ما يعرف الآن بحدود كاليفورنيا وأوريغون، بينما ستسيطر إسبانيا على ما يقع أدناه، غرب الأراضي الأمريكية. وهكذا وصلت الولايات المتحدة إلى المحيط الهادئ.

---

40 . أمة السمينول Seminole: من شعوب أمريكا الشمالية الأصليين، عُرف بمقاومة الاحتلال في القرن التاسع عشر في جورجيا وفلوريدا، ثم أعيد توطين بعضهم في أوكلاهوما.

41 . Transcontinental Treaty: تعرف أيضاً باسم معاهدة أونيس-آدامز Onís-Adams ، وجرى التصديق عليها عام 1821، وفيها حدّدت الولايات المتحدة وإسبانيا الحدود الغربية لشراء لويزيانا وتنازلت إسبانيا عن مطالبها بشمال غرب المحيط الهادئ. في المقابل، اعترفت الولايات المتحدة بالسيادة الإسبانية على تكساس.

اعتقد معظم الأمريكيين في ذلك الوقت أن الانتصار العظيم الذي أُنجز عام 1819 هو الحصول على فلوريدا، لكن وزير الخارجية جون كوينسي آدامز كتب في مذكراته: «إن اكتساب خطٍّ حاسم من الحدود إلى المحيط الهادئ يمثّل حقبة عظيمة في تاريخنا».

ولكن كانت هناك مشكلة أخرى ناطقة بالإسبانية: المكسيك. لقد ضاعفت صفقة شراء لويزيانا حجم الولايات المتحدة الأمريكية، وعندما أصبحت المكسيك مستقلة عن إسبانيا عام 1821 كانت حدودها على بعد 200 ميل فقط من ميناء نيو أورلينز. في القرن الحادي والعشرين، لا تمثّل المكسيك أي تهديد إقليمي للولايات المتحدة، على الرغم من أن قربها يسبب مشكلات أخرى، فهي تغذّي شهية جارتها الشمالية للعمل غير القانوني والمخدرات.

كان الأمر مختلفاً عام 1821، فقد سيطرت المكسيك على الأرض حتى شمال كاليفورنيا، وهو ما يمكن للولايات المتحدة أن تتعايش معه، لكنها امتدت إلى الشرق أيضاً، بما في ذلك ما يُعرف الآن بتكساس التي تقع على حدود لويزيانا. كان عدد سكان المكسيك في ذلك الوقت 6.2 مليون نسمة، وعدد سكان الولايات المتحدة 9.6 مليون نسمة. ربما كان الجيش الأمريكي قادراً على التصدّي للجيش البريطاني القوي، لكنهم كانوا يقاتلون على بعد 3000 ميل من الوطن بخطوط إمداد عبر المحيط، أما المكسيكيون فكانوا إلى جوارهم.

شجّعت واشنطن الأمريكيين والوافدين الجدد على البدء بهدوء في الاستقرار على جانبي الحدود الأمريكية المكسيكية، وجاءت موجات المهاجرين وانتشرت إلى الغرب وإلى الجنوب الغربي. كانت الفرصة ضئيلة أمامهم لترسيخ جذورهم في المنطقة التي نعرفها الآن باسم المكسيك الحديثة، وبالتالي استيعاب وزيادة أعداد السكان هناك. ليست المكسيك لأرضاً «مبارَكةً» على النمط الأمريكي، فهي تحتوي على أراضٍ زراعية رديئة الجودة، ولا يوجد نظام نهري لاستخدامه في النقل، وكانت آنذاك غير ديمقراطية تماماً، مع ضآلة فرصة القادمين الجدد في الحصول على الأرض.

أثناء التغلغل في تكساس، أصدرت واشنطن «مبدأ مونرو» (سمي كذلك على اسم الرئيس جيمس مونرو) عام 1823، ويتلخّص في تحذير القوى الأوروبية من أنها لم تعد قادرة على اكتساب الأراضي في نصف الكرة الغربي، وأنها إذا كانت قد فقدت أي أجزاء من أراضيها الحالية فلن تتمكن من استعادتها.

بحلول منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان هناك عدد كافٍ من المستوطنين البيض في تكساس لفرض القضية المكسيكية. كان السكان المكسيكيين والكاثوليك والمتحدثين بالإسبانية يعدّون بآلاف قليلة، يقابلهم حوالي 20000 مستوطن بروتستانتي أبيض، ثم أدّت ثورة تكساس (1835– 1836) إلى طرد المكسيكيين. كان السباق على أشدّه، ولو أن المستوطنين خسروا، لكان الجيش المكسيكي في وضع يسمح له بالزحف إلى نيو أورليانز والسيطرة

على الطرف الجنوبي من المسيسيبي. إنها واحدة من أعظم أسئلة «ماذا لو» في التاريخ الحديث.

بالرغم من ذلك، انقلب التاريخ في الاتجاه الآخر وأصبحت تكساس مستقلة عن طريق الأموال والأسلحة والأفكار الأمريكية، وانظم الإقليم إلى الاتحاد عام 1845، وخاضا معاً الحرب المكسيكية (1846 – 1848) التي دمّرا فيها جارهما الجنوبي، ما أدّى إلى قبول المكسيك بانتهاء حدودها في رمال الضفة الجنوبية من نهر ريو غراندي.

مع ولاية كاليفورنيا ونيو مكسيكو، والأرض التي أصبحت أريزونا ونيفادا ويوتاه وجزء من كولورادو، بدت حدود الولايات المتحدة القارية مشابهة لتلك الموجودة اليوم، وهي من نواح كثيرة تخوم طبيعية. ففي الجنوب، يمر نهر ريو غراندي عبر الصحراء، وإلى الشمال توجد بحيرات كبيرة وأراضٍ صخرية مع عدد قليل من الناس بالقرب من الحدود، خاصة في النصف الشرقي من القارة، وفي الشرق والغرب هناك المحيطان العظيمان. ومع ذلك، فلا غرو أن يشهد الجنوب الغربي، في القرن الحادي والعشرين، نوعاً من استعادة الذاكرة التاريخية الثقافية للمنطقة بوصفها أرضاً إسبانية الأصل، حيث يتسارع تتغير التركيبة السكانية الآن، وسيصبح المنحدرون من أصل إسباني أغلبية سكان المنطقة في غضون بضعة عقود.

لكن بالعودة إلى عام 1848 نجد أن الولايات المتحدة لم تكن

تواجه أي تهديد، فالأوروبيون كانوا قد رحلوا، وحوض المسيسيبي أصبح آمناً من أي هجوم بري، وتم الوصول إلى المحيط الهادئ؛ وكان من الواضح أن الأمم الأصلية المتبقية ستخضع. كان الوقت قد حان لكسب بعض المال، وللخروج عبر البحار وتأمين المداخل المؤدية إلى السواحل الثلاثة التي ستحظى بها القوة العظمى القادمة، فقد ساعدت حمّى البحث عن الذهب في كاليفورنيا (1848-1949) على ذلك، لكن المهاجرين كانوا يتجهون غرباً على أي حال. وكانت هناك إمبراطورية قارية يتم بناؤها، ومع تطوّرها، تبعها المزيد من المهاجرين. ومع «قانون الحيازة الزراعية»[42] عام 1862 تم منح 160 فداناً من الأراضي الفدرالية لأي شخص قام بزراعتها لمدة خمس سنوات ودفع رسوماً رمزية. إذا كنت رجلاً فقيراً من ألمانيا أو الدول الاسكندنافية أو إيطاليا، فلماذا تذهب إلى أمريكا اللاتينية وتكون من الأقنان، بينما يمكنك الذهاب إلى الولايات المتحدة وتصبح مالك مزرعةٍ حراً؟ في عام 1867 تم شراء ألاسكا من روسيا، وكانت تعرف باسم «حماقة سيوارد»، نسبة إلى وزير الخارجية ويليام سيوارد الذي وافق على الصفقة ودفَع 7.2 مليون دولار، أو سِنْتان لكل فدان. وقد اتهمته الصحافة بشراء الثلج، لكن العقول تغيّرت مع اكتشاف رواسب الذهب الكبرى عام 1896، كما عُثِرَ بعد عقود على احتياطيات ضخمة من النفط.

---

42. قانون الحيازة الزراعية Homestead Act: قانون يهدف إلى تطوير الغرب الأمريكي وتحفيز النمو الاقتصادي، أقره الكونجرس عام 1862، وبناء عليه وزّعت ملايين الأفدنة من الأراضي الغربية على المستوطنين.

بعد عامين، أُفتتح خط السكة الحديدية عبر-القارّي عام 1869، وصار بالإمكان عبور البلاد في غضون أسبوع، في حين أن الأمر كان يستغرق عدة أشهر محفوفة بالمخاطر في السابق.

مع استمرار نمو البلاد وثرائها، بدأت تطوير قواتها البحرية. كان توسيع التجارة وتجنب الاشتباكات خارج الحدود يهيمن على السياسة الخارجية طوال القرن التاسع عشر، ولكن حان الوقت للانطلاق إلى الخارج، وحماية التخوم الساحلية. كان التهديد الحقيقي الوحيد يأتي من إسبانيا، إذ ربما أُقنعت بمغادرة البر الرئيسي لكنها ما زالت تسيطر على جزر كوبا وبورتوريكو وجزء مما يعرف الآن بجمهورية الدومينيكان.

لقد أبقت كوبا الرؤساء الأمريكيين دائمي الحذر والتوجّس في كل الأوقات، كما فعلت عام 1962 أثناء أزمة الصواريخ الكوبية. تقع جزيرة كوبا قبالة فلوريدا، ما يتيح لها الوصول إلى مضيق فلوريدا وقناة يوكاتان في خليج المكسيك والتحكّم فيهما، وهو طريق الخروج والدخول إلى ميناء نيو أورلينز.

ربما تضاءلت قوة إسبانيا مع نهاية القرن التاسع عشر، لكنها كانت لا تزال قوة عسكرية هائلة، وفي عام 1898، أعلنت الولايات المتحدة الحرب على إسبانيا، وهزمت جيشها وسيطرت على كوبا، مع بورتوريكو وغوام[43] والفلبين التي قد تضيف المزيد

---

43. غوام Guam: جزيرة تابعة للولايات المتحدة في ميكرونيزيا، غرب المحيط الهادئ، وكانت مستعمرة إسبانية في السابق.

من المزايا، وجميعها كانت مفيدة، فغوام تحديداً مثّلت رصيداً استراتيجياً حيوياً، وكوبا تمثّل تهديداً استراتيجياً إذا سيطرت عليها قوة عظمى، لكن هذا التهديد أُزيل عام 1898 عن طريق الحرب مع إسبانيا، كما ستتم إزالته بعد ذلك عام 1962 عن طريق التهديد بالحرب مع الاتحاد السوفيتي الذي أبان عن نواياه أولاً، أما اليوم فلا توجد قوة عظمى تتولى رعاية كوبا، ويبدو أنه مقدّر لها أن تخضع لتأثير للولايات المتحدة، الثقافي وربما السياسي، مرة أخرى.

كانت أمريكا تتحرك بسرعة. فقد أمّنت في العام نفسه كوبا ومضيق فلوريدا، ومنطقة البحر الكاريبي إلى حد كبير، كما ضمّت جزيرة هاواي في المحيط الهادئ، وهكذا حمت الطرق المؤدية إلى ساحلها الغربي. في عام 1903 وقعت أمريكا معاهدة تؤجر بموجبها الحقوق الحصرية لقناة بنما. كانت التجارة مزدهرة حقاً، وكان الوقت مناسباً أمام الولايات المتحدة الأمريكية لتظهر أن لديها أكثر مما ظهر على المسرح العالمي، ولم تكن ثمة طريقة لإثبات ذلك أفضل من استعراض القوة الذي يجوب العالم.

كان الرئيس ثيودور روزفلت يتحدث بهدوء ظاهرياً، أما في جوهره فقد أبحر حول العالم حاملاً عصا كبيرة. ففي ديسمبر 1907 انطلقت من الولايات المتحدة الأمريكية 16 سفينة حربية من سفن القوات الأطلسية، طُليت هياكلها باللون الأبيض، وهو لون البحرية في أوقات السلم، وصار هذا المثال المثير من طرق

الإشارة الدبلوماسية يُعرف باسم «الأسطول الأبيض العظيم»(44).
على مدى الأشهر الأربعة عشر التالية، زار الأسطول عشرين ميناءً، بما في ذلك موانئ في البرازيل وتشيلي والمكسيك ونيوزيلندا وأستراليا والفلبين واليابان والصين وإيطاليا ومصر. من بين هذه الدول كانت اليابان هي الأهم، وقد أُخطرت بإمكان نشر الأسطول الأطلسي الأمريكي في المحيط الهادئ عند الضرورة القصوى. سبقت الرحلة، وهي مزيج من القوى الصلبة والناعمة، ظهور المصطلح العسكري «استعراض القوة»، ولكن هذا بالذات هو ما فعلته هذه الرحلة، وقد لاحظت ذلك كل القوى العظمى في العالم آنذاك.

لقد أخذ معظم الرؤساء اللاحقين بعين الاعتبار نصيحة جورج واشنطن في خطاب الوداع الذي ألقاه عام 1796 بعدم التورّط في «عداوات مستحكمة مع دول بعينها، أو التعلّق العاطفي بالآخرين»، و«تجنّب التحالفات الدائمة مع أي جزء من العالم الأجنبي». وقد تمكنت أمريكا في القرن العشرين في الغالب، من تجنّب التشابكات والتحالفات حتى عام 1941، بصرف النظر عن الدخول المتأخر في الحرب العالمية الأولى، وإن كان حاسماً.

غيّرت الحرب العالمية الثانية كل شيء. تعرّضت الولايات

44 . الأسطول الأبيض العظيم The Great White Fleet: اسم أطلق على مجموعة السفن الحربية التي قامت برحلة حول العالم دبلوماسية ظاهريا، وكنوع من استعراض القوة فعلياً، بين 16 ديسمبر 1907 و22 فبراير 1909، بأمر من ثيودور روزفلت.

المتحدة للهجوم من قبل اليابان التي تأجّجت بالروح العسكرية بعد أن فرضت واشنطن عقوبات اقتصادية على طوكيو من شأنها أن تُخضع اليابان.(45) كان هجوماً قوياً جعل الأمريكيين يتضعضعون، لقد نشروا قوتهم الهائلة حول العالم، ولكي يُبقوا صورتهم على هذا النحو، فإنهم لم يتراجعوا هذه المرة.

وبوصفهم أعظم قوة اقتصادية وعسكرية في العالم بعد الحرب، احتاجت أمريكا إلى السيطرة على الممرات البحرية في العالم، حفاظاً على السلام وحركة البضائع.

كانوا آخر من يستطيع الصمود، فالأوروبيون صاروا مرهقين، ونال الخراب من اقتصادهم، ومن مدنهم وبلداتهم. لقد سُحِق اليابانيون، ودُمّر الصينيون، أما الروس فقد خرجوا من اللعبة

45. هنا أحد مظاهر تلاعب المؤلف بالأحداث التاريخية بعدم تقديمها كاملةً أو بإعادة صوغها من وجهة نظر غربية محضة. فاليابانيون لم يذهبوا إلى بيرل هاربر في 7 ديسمبر 1941 بسبب عقوبات اقتصادية فقط، كما يقول المؤلف. صحيح أن حظر النفط كان سينتهي إلى شلّ قواتها، خاصة وأنها كانت تخوض حرب الصين، ولكنها لم تعانِ من ذلك آنذاك، بل أرادت أساساً إجبار الولايات المتحدة على سحب أسطولها من المحيط الهادئ الذي كان يحول دون تقدم قواتها لمواجهة القوات البريطانية والهولندية في آسيا، وكانت اليابان قد احتلت أجزاء من المستعمرات الغربية مثل بورما وماليزيا وإندونيسيا والفلبين. ومن الواضح الآن أن الرئيس الأمريكي روزفلت أراد استدراج اليابان إلى الحرب للقضاء على مخططاتها التوسعية في جنوب شرق آسيا وترك المجال مشرعاً لتدخل الولايات المتحدة والسيطرة على المحيط الهادئ، وقضت خطته بأن يتم سحب حاملات الطائرات من بيرل هاربر مع تركه آهلاً بآلاف الجنود الأمريكيين فضلاً عن الطائرات والسفن حتى يكون ذلك طعماً يستدرج اليابان، وهكذا كان، وأعلنت الولايات المتحدة انضمامها للحلفاء في حربهم ضد المحور، وأعلنت الحرب على اليابان التي انتهت إلى الاستسلام الكامل دون شروط بعد أن أمر روزفلت بقصف هيروشيما وناغازاكي بقنبلتين ذريتين في 6 و9 أغسطس 1945.

الرأسمالية بعد حربهم ضد بعضهم بعضاً.

قبل قرن من الزمان، علم البريطانيون أنهم بحاجة إلى قواعد أمامية ومرافئ للتزوّد بالفحم حتى يستطيعون إبراز قوتهم البحرية وحمايتها. أما مع تراجع بريطانيا، فقد نظر الأمريكيون بمكر إلى القواعد والمرافئ البريطانية مدركين أهميتها، وقرروا السيطرة عليها.

كان البريطانيون في خريف عام 1940 بحاجة ماسة إلى المزيد من السفن الحربية حتى يحتفظوا بدورهم في الحرب، ولأن الأمريكيين كانوا يحتفظون بخمسين سفينة احتياطية، فقد أبرم الطرفان ما عُرف باتفاقية «المدمرات مقابل القواعد».[46] كان السعر جيداً، وهكذا استلمت الولايات المتحدة من بريطانيا كل قواعدها البحرية في نصف الكرة الغربي تقريباً.

وقد انتهزت أمريكا بعد هزيمة اليابان في الشرق، الفرصةَ لبناء منشآتها في جميع أنحاء المحيط الهادئ منم موانئ ومدارج وحظائر طائرات ومستودعات وقود وأحواض جافة ومناطق تدريب القوات الخاصة، وكانت قد سيطرت آنذاك على جزيرة غوام التي تقع في منتصف الطريق، ثم أصبح لديها قواعد تصل إلى جزيرة أوكيناوا اليابانية في بحر الصين الشرقي.

---

46 . اتفاقية المدمرات مقابل القواعد Destroyers for Bases Agreement: صفقة أبرمت بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة في سبتمبر 1940 تحصل بموجبها بريطانيا على 50 مدمرة بحرية مقابل تنازلها عن «ممتلكاتها» حول العالم.

بالإضافة إلى ذلك نظر الأمريكيون جغرافياً إلى الأرض، فإذا كانوا سيدفعون مقابل إعادة بناء أوروبا من خلال «مشروع مارشال»[47] (1948- 1951)، فعليهم التأكد من أن الاتحاد السوفييتي لن يدمر أوروبا الغربية وصولاً إلى ساحل المحيط الأطلسي. وهكذا فإن جنود المشاة الأمريكيون لم يعودوا إلى ديارهم، ولكنهم أقاموا متجراً في ألمانيا ووقفوا في وجه الجيش الأحمر على امتداد السهل الأوروبي الشمالي.

في عام 1949 قادت واشنطن تأسيس الناتو، وتولّت معه بشكل فعال قيادة قوى العالم الغربي العسكرية التي أعيد بناؤها. قد يكون الرئيس المدني في حلف الناتو بلجيكياً لمدة عام واحد، ثم بريطانياً في العام التالي، لكن القائد العسكري سيكون أمريكياً دائماً، مثلما ستكون أكبر قوة نيران داخل الناتو هي الأمريكية كذلك.

بغض النظر عما تنص عليه معاهدة حلف الناتو، فإن القائد الأعلى مسؤول أمام واشنطن في نهاية المطاف. المملكة المتحدة وفرنسا تعلمتا الدرس خلال أزمة السويس عام 1956، عندما أجبرهما الضغط الأمريكي على وقف احتلال منطقة القناة، ففقدتا بذلك معظم نفوذهما في الشرق الأوسط، ذلك أن أي دولة من دول الناتو لا تُقدِم على تنفيذ سياسة بحرية استراتيجية دون أن تسأل واشنطن أولاً. مع قيام كل من آيسلندا والنرويج وبريطانيا وإيطاليا

---

47 . مشروع مارشال Marshall Plan : مشروع وضعه الجنرال جورج مارشال رئيس هيئة أركان الجيش الأميركي أثناء الحرب العالمية الثانية لإعادة إعمار أوروبا بعد الحرب، وتفعيل اقتصادها وتجديد مصانعها.

(وجميعها من الأعضاء المؤسسين لحلف الناتو) بمنح الولايات المتحدة حق استخدام قواعدها، وهكذا سيطرت على شمال الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، والمحيط الهادئ كذلك، وفي 1951 مدّت هيمنتها هناك إلى الجنوب من خلال تشكيل تحالف مع أستراليا ونيوزيلندا، ثم إلى الشمال بعد الحرب الكورية 1950- 1953.

هناك الآن خريطتان للولايات المتحدة: الخريطة المألوفة الممتدة قطرياً من سياتل على ساحل المحيط الهادئ إلى أطراف بحر سارغاسو، والخريطة الأخرى توضّح نفوذ قوتها الجيوسياسية. وتُبرِز الخريطة الثانية القواعد والموانئ والمدارج، أي الأشياء الحقيقية التي يمكنك تحديدها بوضوح، ولكنها من ناحية أخرى خريطة تصوّرية أيضاً، وهي تخبرنا أنه في حالة حدوث الموقف (أ) في المنطقة (ب)، يمكن الاعتماد على البلد (ج) ليكون حليفاً للولايات المتحدة والعكس صحيح. إذا أرادت أي قوة عظمى اللعبَ في أي مكان من العالم، فإنها تعرف أن الولايات المتحدة قد تكون طرفاً في القتال إن هي أرادت. في ستينيات القرن العشرين أدى فشل الولايات المتحدة في فيتنام إلى إلحاق الضرر بثقتها، وجعلها أكثر حذراً بشأن التشابكات الخارجية. ومع ذلك، فإن ما كان هزيمةً من الناحية الفعلية، لم يغير استراتيجية أمريكا العالمية من الناحية الجوهرية.

لم يعد هناك سوى ثلاثة أماكن يمكن أن يأتي منها تحدي الهيمنة

الأمريكية: أوروبا الموحّدة وروسيا والصين، وكل منها سيصبح أقوى، لكن اثنين فقط سيبلغان أقصى الحدود.

إن حلم بعض الأوروبيين باتحاد أوروبي («اتحاد أوثق من أي وقت مضى»)، وسياسة خارجية ودفاعية مشتركة، يموت ببطء أمام أعيننا، وحتى لو لم يكن كذلك، فإن دول الاتحاد الأوروبي تنفق القليل جداً على الدفاع لأنها تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية المطاف، وقد تقلّصت قدرات الدول الأوروبية بعد الانهيار الاقتصادي عام 2008، ولم تعد تصبو إلى المغامرات الأجنبية، خاصة بعدما رأت كيف انتهى التدخل في ليبيا إلى أسوأ الأوضاع، عندما تمكّن الفرنسيون والبريطانيون، مع الأمريكيين «الذين كانوا يقودون من وراء الكواليس»، من الإطاحة بنظام القذافي. في عام 2013، زار رئيس وزراء المملكة المتحدة آنذاك ديفيد كاميرون طرابلس وأخبر الشعب الليبي أن الدرس المستفاد من أفغانستان والعراق كان: «مساعدة الدول الأخرى والتدخل فيها، ليس مجرد تدخل عسكري»، وتعهّد أمام صيحات «الله أكبر» قائلاً: «لن تجدوا صديقاً أكبر من المملكة المتحدة في بناء ليبيا جديدة. سوف نقف معكم في كل خطوة على الطريق». ولكن بعد ذلك، مع انزلاق البلاد في الفوضى، ومع وجود العديد من الميليشيات التي تقاتل من أجل السيطرة، غادر الأوروبيون تاركين وراءهم دولة مفكّكة وشعباً يائساً وطريقاً جديداً مفتوحاً أمام الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا.

التهديد الروسي أيضاً قد تلاشى عام 1991 بسبب العجز الاقتصادي الكبير الذي أصاب روسيا، والإرهاق العسكري والفشل في إقناع الجماهير الخاضعة في إمبراطوريتها بأن معسكرات الغولاغ[48] والإفراط في إنتاج الجرارات التي تمولها الدولة هو الطريق إلى الأمام. إن الانتكاسة التي مثّلها نظام بوتين كان شوكة في خاصرة أمريكا، ولكنها لا تمثّل تهديداً خطيراً للهيمنة الأمريكية. عندما وصف الرئيس أوباما روسيا بأنها «ليست أكثر من قوة إقليمية» عام 2014، ربما بدا استفزازياً دون ضرورة، لكنه لم يكن مخطئاً على كل حال، فقضبان السجن الجغرافي الروسي لا تزال في مكانها، كما رأينا في الفصل الأول، وهي ما زالت تفتقر إلى ميناء للمياه الدافئة مع إمكانية الوصول إلى الممرات البحرية العالمية، وما زالت تفتقر إلى القدرة العسكرية في أوقات الحرب للوصول إلى المحيط الأطلسي عبر البلطيق وبحر الشمال أو البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية وراء تغيير الحكومة في أوكرانيا جزئياً عام 2014. أرادت أن توسّع نطاق الديمقراطية في العالم، وأرادت سحب أوكرانيا بعيداً عن النفوذ الروسي، وبالتالي إضعاف الرئيس بوتين. وتعرف واشنطن أنه خلال العقد الماضي، بينما كانت أمريكا مشتتة في العراق وأفغانستان، استغل الروس أقرب المناطق خارج حدودهم، فاستعادوا قواعدهم الثابتة في

---

48. غولاغ gulag: نظام عمل في شكل تجمعات كبيرة كان سائداً في الاتحاد السوفيتي من عام 1930 إلى عام 1955.

أماكن مثل كازاخستان، واستولوا على أراض في جورجيا. حاول الأمريكيون، متأخرين ومصابين ببعض الفتور، أن يتراجعوا عن التدخل في المكاسب الروسية، وتساهل الرئيس ترامب مع موسكو، ساعياً إلى إقامة علاقة شخصية مع بوتين، لكن الاختلافات بين البلدين أكبر من الرابطة التي نشأت بين قائديهما.

يهتم الأمريكيون بأوروبا، ويهتمون بحلف الناتو، ويتدخّلون أحياناً (إذا كان ذلك في المصلحة الأمريكية)، لكن روسيا الآن، بالنسبة إلى الأمريكيين، مشكلة أوروبية في الغالب، رغم أنهم يستمرون في مراقبتها، وهذا يترك الصين على حدة، وهي آخذة في الصعود.

تفترض معظم التحليلات التي كُتبت خلال العقد الماضي، أنه بحلول منتصف القرن الحادي والعشرين، ستتفوق الصين على الولايات المتحدة وتصبح القوة العظمى الرائدة. وللأسباب التي نوقشت جزئياً في الفصل الثاني، فأنا لست مقتنعاً، إذ قد يستغرق الأمر قرناً.

الصينيون من الناحية الاقتصادية، في طريقهم للتماثل مع الأمريكيين، وهذا يمنحهم الكثير من النفوذ ومكاناً على طاولة القمة، لكنهم متأخرون عسكرياً واستراتيجياً بعدة عقود. وستقضي الولايات المتحدة تلك العقود في محاولة ضمان بقائها على هذا النحو، لكن يبدو أنه لا مفر من سدّ الفجوة في نهاية الأمر.

يكلّف البناء الخرسانيّ الكثير، فهو ليس مجرد خلط وصبّ،

ولكنه يكمن أساساً أن تتمكّن من الخلط والصبّ في المكان الذي تريده. كما رأينا مع «اتفاقية المدمّرات مقابل القواعد»، فإن المساعدة الأمريكية للحكومات الأخرى ليست إيثارية تماماً على الدوام. المساعدة الاقتصادية، والمساعدة العسكرية بالقدر نفسه من الأهمية، تشتري إمكانية صبّ الخرسانة في المكان المحدّد، بل وأكثر من ذلك بكثير، حتى مع افتراض ظهور تكلفة إضافية.

عام 2017، مثلاً، أعربت واشنطن عن غضبها من انتهاكات حقوق الإنسان في سوريا (وهي دولة معادية لها)، في أعقاب هجوم بالغاز نفّذه النظام، وأمر الرئيس ترامب بشن هجوم بصاروخ كروز. ومع ذلك، قد يكون من الصعب سماع صوتها الغاضب من الانتهاكات التي حدثت في البحرين، فهو صوت يكتمه ضجيج محركات الأسطول الأمريكي الخامس الذي يتّخذ من البحرين مقراً له وتستضيفه حكومتها. من ناحية أخرى، تشتري المساعدات إمكانية الاقتراح على الحكومة (ب)، بأنها ربما ترغب في مقاومة مبادرات الحكومة (ج)، (فلتكن الأولى ميانمار والثانية الصين، على سبيل المثال). هنا تحديداً، سوف تقف الولايات المتحدة عاجزة عن المواكبة لأن الحكومة البورمية بدأت مؤخراً فقط في الانفتاح على معظم العالم الخارجي، وكان السبق لبكين.

مهما يكن الأمر، عندما يتعلق الأمر باليابان وتايلاند وفيتنام وكوريا الجنوبية وسنغافورة وماليزيا وإندونيسيا وغيرها، فإن الأمريكيين يندفعون من باب مفتوح بالفعل بسبب قلق تلك الدول

من جارتها العملاق، وحرصها على التعامل مع واشنطن في الوقت نفسه. قد يكون لديها جميعاً بعض المشكلات مع بعضهم بعضاً، لكن هذه القضايا تتضاءل أمام معرفة أنها إذا لم تتضامن، فسيتم التقاطها واحدةً تلو الأخرى، وسوف ترضخ تحت الهيمنة الصينية في نهاية المطاف.

عدّ بعض المحللين أن «محور آسيا» الذي اصطنعته الولايات المتحدة في ظل إدارة أوباما يعني التخلّي عن أوروبا. لكن التمحور على مكان ما لا يعني التخلي عن آخر، فهي مسألة تتلخّص في مدى التوازن الذي يمكن إحداثه، وقد كان الأمريكيون، حتى قبل وصول الرئيس ترامب إلى السلطة، يتحوّطون ولا يلتزمون بخيارات صعبة. لم يكن هناك أي اندفاع متهوّر للخروج من أوروبا، لقد تم بالفعل نصب المعدات العسكرية الأمريكية في أوروبا الشرقية، وعمل فريق ترامب بشكل متوازن إلى حد ما، على الرغم من أنه من الآمن القول بإن التطورات في آسيا هي التي من المرجّح أن تُبقي الأمريكيين يقظين طوال الليل، وليس أوروبا أو روسيا.

كثير من استراتيجيي السياسة الخارجية في حكومة الولايات المتحدة مقتنعون بأن تاريخ القرن الحادي والعشرين سيُكتب في آسيا والمحيط الهادئ، فنصف سكان العالم يعيش هناك، وباحتساب تضمين الهند فمن المتوقع أن يمثّل ذلك نصف الناتج الاقتصادي العالمي بحلول عام 2050.

بالنتيجة، سوف نرى الولايات المتحدة تستثمر الوقت والمال بشكل متزايد في شرق آسيا لترسيخ وجودها وإثبات نواياها في المنطقة. من ذلك على سبيل المثال، أن الأمريكيين أقاموا في شمال أستراليا قاعدة لقوات مشاة البحرية الأمريكية، ولكن قد يتعين عليهم من أجل ممارسة تأثير حقيقي أن يقوموا بالاستثمار في عمل عسكري محدود لطمأنة حلفائهم بأنهم سيأتون لإنقاذهم في حال تعرّضهم لأعمال عدائية. يمكن مثلاً تصوّر أن الصين بدأت قصف مدمرة يابانية، وبدا الأمر كأنها ستتخذ إجراءات عسكرية لاحقة، فقد تضطر البحرية الأمريكية هنا إلى إطلاق طلقات تحذيرية تجاه البحرية الصينية، أو حتى إطلاق النار مباشرة عليها، إشارةً إلى استعدادها للذهاب إلى الحرب رداً على الحادث. وبالمثل، عندما تطلق كوريا الشمالية النار على كوريا الجنوبية، وتردّ كوريا الجنوبية بنيران مضادة، لكن الولايات المتحدة لا تفعل شيئاً حيال ذلك في الوقت نفسه، بل تضع القوات في حالة تأهب معلن لمجرد إرسال إشارة، فإذا تصاعد الموقف، سوف يقع إطلاق طلقات تحذيرية على هدف كوري شمالي، ثم تطلق أخيراً طلقات مباشرة. إنها طريقة من طرق التصعيد دون إعلان الحرب، وقد يحدث هذا عندما تصبح الأمور أشد خطراً.

تسعى الولايات المتحدة إلى أن تثبت للمنطقة بأسرها أنه من مصلحتها أن تقف إلى جانب واشنطن، أما الصين فتفعل العكس. لذا يجب على كل جانب عند مواجهة التحدي أن يتفاعل، لأنه إذا تجنّب المواجهة في كل تحدٍ، فإن ثقة حلفائه وخوف منافسيه

يتلاشيان بالنتيجة، حتى يقع في نهاية الأمر حدث يقنع دولة ما بتبديل تحالفاتها.

غالبًا ما يكتب المحللون عن الحاجة إلى أن لا تفقد ثقافات معينة ماء وجهها، أو أن يُنظر إليها على أنها تتراجع، ولكن هذه ليست مجرد مشكلة في الثقافات العربية أو ثقافات شرق آسيا. إنها مشكلة إنسانية يتم التعبير عنها بطرق مختلفة. قد يكون الأمر أكثر تحديداً ووضوحاً في هاتين الثقافتين، لكن استراتيجيي السياسة الخارجية الأمريكية يدركون هذه القضية مثل أي قوة أخرى، حتى أننا نجد في اللغة الإنجليزية عبارتين توضحان كم أن هذه الفكرة متأصلة بعمق: «امنحهم شبراً واحداً وسيأخذون ميلاً»، ومبدأ الرئيس ثيودور روزفلت (1900) الذي أُدرج الآن في المعجم السياسي: «تحدث بهدوء، لكن احمل عصا غليظة».

ستكون اللعبة المميتة في هذا القرن هي الكيفية التي يدير بها الصينيون والأمريكيون، وغيرهم من قوى المنطقة، كلّ أزمة ناشئة دون الاضطرار إلى فقدان ماء الوجه، ودون مراكمة قدر كبير من الاستياء والغضب على كلا الجانبين.

تعدّ أزمة الصواريخ الكوبية انتصاراً أمريكياً بشكل عام، أما ما لم يُعلن عنه تماماً فهو أنه بعد عدة أشهر من إزالة روسيا صواريخها من كوبا، أزالت الولايات المتحدة صواريخ جوبيتر (التي يمكن أن تصل إلى موسكو) من تركيا. لقد كان حلاً وسطاً في الواقع، حيث تمكّن كل طرف في نهاية المطاف من إخبار شعبه بأنه لم يذعن

ويستسلم.

هناك المزيد من التنازلات التي يتعين على القوى العظمى تقديمها على المدى القصير في منطقة المحيط الهادئ في القرن الحادي والعشرين. من المرجح أن يقدّم الصينيون معظمها، وليس جميعها، ومن الأمثلة المبكرة على ذلك إعلان بكين عن تحديد منطقة الدفاع الجوي الذي يتطّلب من الدول الأجنبية إبلاغها قبل أن تقوم طائراتها بدخول الأراضي المتنازع عليها، وهي المنطقة التي يتعمّد الأمريكيون الآن الطيران عبرها دون إعلام بكين. لقد كسب الصينيون شيئاً بإعلان المنطقة وجعلها قضيةً، وكسبت الولايات المتحدة شيئاً من خلال إبداء رغبتها في أن لا تمتثل... إنها لعبة طويلة الأمد.

هي كذلك أشبه بلعبة القط والفأر. في أوائل 2016، هبطت طائرة صينية لأول مرة على أحد المدارج في الجزر الاصطناعية التي تبنيها بكين في منطقة جزر سبراتلي في بحر الصين الجنوبي. قدّمت فيتنام والفلبين احتجاجات رسمية لأن كلاً منهما لها مطالب محدّدة في منطقة الجزر، ووصفت الولايات المتحدة هذه الخطوة بأنها تهدّد «الاستقرار الإقليمي». وتراقب واشنطن الآن كلّ مشروعٍ بناء يحدث، وكل رحلة تعبر الأجواء، وعليها أن تختار متى وأين تقوم باحتجاجات أكثر قوة، أو ترسل دوريات بحرية وجوية بالقرب من المنطقة المتنازع عليها، ويجب عليها بطريقة ما طمأنة حلفائها بأنها ستقف إلى جانبهم وتضمن حرية الملاحة في المناطق الدولية، بينما لا

تُقدِم في الوقت نفسه على الذهاب إلى حدّ جرّ الصين إلى مواجهة عسكرية.

تتمثل سياسة الولايات المتحدة إزاء اليابانيين في طمأنتهم بأنهم يشاركون المصالح الاستراتيجية في مواجهة الصين، مع ضمان بقاء القاعدة الأمريكية في أوكيناوا قائمةً. سوف يساعد الأمريكيون قوة الدفاع الذاتي اليابانية لتكون هيئة قوية، ولكنهم يقيّدون في الوقت نفسه قدرة اليابان العسكرية على تحدي الولايات المتحدة في المحيط الهادئ.

وفي حين أن جميع البلدان الأخرى مهمة في هذه المنطقة، بالنسبة إلى أحجية الدبلوماسية المعقدة، فإن الدول الرئيسية في ما يبدو هي إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة. هذه الدول الثلاث تتربّع على مضيق ملقا الذي يبلغ عرضه في أضيق نطاق 1.7 ميلاً فقط، ويمرّ عبر هذا المضيق 12 مليون برميل من النفط كل يوم متوجهة إلى الصين المتعطشة بشكل متزايد، وإلى أماكن أخرى في المنطقة، وطالما أن هذه الدول الثلاث موالية لأمريكا، فإن الأمريكيين يتمتعون هنا بميزة رئيسية.

لا يبدو الصينيون، من ناحية إيجابية، أيديولوجيين سياسياً، وهم لا يسعون إلى نشر الشيوعية، ولا يطمعون (كثيراً) في المزيد من الأراضي بالطريقة التي فعلها الروس خلال الحرب الباردة، كما لا يبحث أي من الطرفين عن صدام مع الآخر. يمكن للصينيين قبول قيام أمريكا بحراسة معظم الممرات البحرية التي تنقل البضائع

الصينية إلى العالم، طالما أن الأمريكيين يقبلون بأنه ستكون هناك حدود لمدى التحكّم في الممرات بحسب قربه من الصين.

سيكون هناك جدل ودعاوى، وسيُستخدَم الشعور الوطني من وقت إلى آخر لضمان وحدة الشعب الصيني، لكن كل جانب سيبحث عن تسوية واتفاق وسط، أما الخطر فسيأتي إذا أساء الطرفان قراءة بعضهما بعضاً و/ أو جازفا كثيراً.

هناك نقاط ساخنة، على رأسها أن الأمريكيين لديهم معاهدة مع تايوان تنصّ على أنه إذا غزا الصينيون ما يعتبرونه المقاطعة الثالثة والعشرين من بلادهم، فإن الولايات المتحدة ستخوض الحرب. الخط الأحمر بالنسبة إلى الصين، وهو ما قد يشعل فتيل الغزو، هو الاعتراف الرسمي بتايوان من قبل الولايات المتحدة، أو إعلان استقلال تايوان. ومع ذلك، لا توجد علامة تشير إلى هذا الاحتمال، كما لا يمكن توقّع غزو صيني على هذا الجانب من فضاء التخمينات.

مع تنامي تعطّش الصين للنفط والغاز الأجنبي، ينخفض عطش الولايات المتحدة، وسيكون لذلك تأثير كبير على علاقاتها الخارجية، خاصة في الشرق الأوسط، مع آثار أخرى غير مباشرة على الدول الأخرى.

نظراً للتنقيب البحري في مياه الولايات المتحدة الساحلية، والعمل على استخراج النفط والغاز عبر مناطق شاسعة من البلاد، يبدو أن أمريكا ستصبح لا مكتفية ذاتياً من حيث الطاقة فحسب،

بل ستكون مُصدّراً رئيسياً للطاقة بحلول عام 2020. ويعني هذا أن تركيزها على ضمان تدفق النفط والغاز من منطقة الخليج سوف يقل. ستظل لها مصالح استراتيجية هناك، لكن التركيز لن يكون مكثفاً كما كان في السابق، وإذا تضاءل الاهتمام الأمريكي، فإن دول الخليج ستسعى إلى عقد تحالفات جديدة، وسوف تكون إيران أحد المرشحين، وكذلك الصين، لكن هذا لن يحدث إلا عندما يبني الصينيون قوات بحرية قادرة على أن تجوب البحار والمحيطات، والأهم -بالقدر نفسه- أن يكونوا مستعدين لنشرها في العالم.

ليس من المتوقّع إبحار الأسطول الأمريكي الخامس بعيداً عن مينائه في البحرين، فهذا الموطأ لن يتخلّون عنه إلا على مضض. ومع ذلك، إذا لم تعد إمدادات الطاقة من دول الخليج مطلوبة أكثر من ذلك، فسوف يتساءل الشعب الأمريكي والكونغرس، عن الهدف من وجود ذلك الأسطول هناك! وإذا كان الردّ هو «مراقبة إيران»، فإن ذلك قد لا يكون كافياً لإخماد الجدل وحسمه.

تتمثل سياسة الولايات المتحدة على المدى القصير في أماكن أخرى من الشرق الأوسط، في منع إيران من أن تصبح قوية جداً، والوصول في الوقت نفسه إلى ما يُعرف باسم «الصفقة الكبرى»، وهي اتفاقية لتسوية العديد من القضايا التي تفرّق بين البلدين، وإنهاء ثلاثة عقود ونصف من العداء. لقد ورثت رئاسة ترامب هذه السياسة، ووافقت عليها، لكنها تسعى إلى تحقيقها بطريقة أكثر عدوانية.

اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية في عهد ترامب موقفاً صارماً ضد إيران، وإن لم تصل إلى حد العمل العسكري، فالعقوبات استمرت في إلحاق الضرر بالنظام عام 2018 بينما انسحبت الولايات المتحدة من خطة العمل الشاملة المشتركة، المعروفة باسم «الاتفاق النووي الإيراني»، وهي التي وافقت طهران بموجبها على وقف الأنشطة المتعلقة ببرنامجها النووي. في أبريل 2019، واصلت الولايات المتحدة الضغط في هذا السياق، وقامت بتصنيف نخبة الحرس الثوري «منظمةً إرهابية أجنبية». كانت هذه هي المرة الأولى التي تصنّف فيها أمريكا جيشَ دولة أخرى على هذا النحو، وسمح ذلك لإدارة ترامب بملاحقة الأعمال والمصالح الضخمة للحرس عن طريق فرض المزيد من العقوبات.

قد تتسبّب هذه السياسات في اندلاع اشتباكات، ومع رفض التراجع من قبل أي من الطرفين، فإن الأمر قد يتطوّر إلى مواجهة بينهما. ولكن أياً منهما لا يريد الحرب، كما إن الأوروبيين ليسوا في أوضاع تسمح لهم بالتحلّل من الاتفاق النووي المتفق عليه بشكل مشترك، وتدرك الإدارة الأمريكية أنه عندما يتعلق الأمر بالأحداث في «الشرق الأوسط الكبير»، فإن تصويت الأوزوبيين سوف يكون لصالح طهران. وبالنتيجة، فإن البيت الأبيض في مرحلة ترامب حين اتخذ موقفاً أكثر عدائية، داعماً الدول العربية السنيّة في مواجهتها مع إيران، كما هو الحال مع الكثير من الأمور الأخرى، فإن الخطاب المناهض لإيران قبل الانتخابات قد جرى تخفيفه بحكم الضرورة.

مع انخراط الدول العربية في ما قد يكون عقوداً من الصراع مع الإسلامويين المسلحين، تبدو واشنطن كما لو أنها تخلّت عن فكرتها المتفائلة لتشجيع الديمقراطيات الجيفرسونية ونشرها، وستركز على محاولة إدارة الوضع بينما تحاول بيأس، في الوقت نفسه، عدم إقحام الجنود الأمريكيين. قد تهدأ العلاقة الوثيقة مع إسرائيل، وإن كان ذلك سيحدث ببطء، مع تغيّر التركيبة السكانية في الولايات المتحدة. سيكون أطفال المهاجرين من أصل إسباني وآسيوي الذين يصلون الآن إلى الولايات المتحدة أكثر اهتماماً بأمريكا اللاتينية والشرق الأقصى، أي أكثر من اهتمامهم بإسرائيل التي ليست سوى بلد صغير على حافة منطقة لم تعد حيوية بالنسبة إلى المصالح الأمريكية.

ستتمثل السياسة في أمريكا اللاتينية في ضمان بقاء قناة بنما مفتوحة، والاستعلام عن رسوم المرور عبر قناة نيكاراغوا المقترحة إلى المحيط الهادئ، ومراقبة صعود البرازيل في حالة ظهور أي أفكار حول نفوذها في البحر الكاريبي. أما من الناحية الاقتصادية، فسوف تتنافس الولايات المتحدة مع الصين في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية على النفوذ، ولكن في كوبا وحدها سوف تعمل واشنطن على بذل كل ما في وسعها لضمان هيمنتها على حقبة ما بعد كاسترو الشيوعية. إن قرب كوبا من فلوريدا والعلاقة التاريخية (وإن كانت مختلطة) بين كوبا والولايات المتحدة، إلى جانب البراغماتية الصينية، يجب أن تكون كافية لتمهيد الطريق أمام الولايات المتحدة كي تكون هي القوة المهيمنة في كوبا الجديدة. وقد قطعت زيارة الرئيس

أوباما التاريخية إلى هذه الجزيرة في ربيع 2016 شوطاً طويلاً نحو ضمان ذلك؛ إنه أول رئيس أمريكي في منصبه يزور هافانا منذ كالفن كوليدج عام 1928. الزعيم الكوبي السابق، الراحل فيدل كاسترو، كان قد أثار صخباً كثيراً حول ذلك الحدث، وقدّمت وسائل الإعلام التي تسيطر عليها الدولة تقاريرها الموجّهة عن آرائه السلبية، ولكن ساد آنذاك شعور بأن كل هذا إنما كان لإبقاء الرجل العجوز سعيداً، فالقرار الجماعي قد اُتّخذ، والعصر الجديد قد بدأ.

في أفريقيا، لا يبدو الولايات المتحدة سوى دولة واحدة [من بين دول أخرى] تسعى إلى الحصول على ثروات القارّة الطبيعية، لكن الدولة التي تجد معظم هذه الثروات هي الصين. وكما هو الحال في الشرق الأوسط، سوف تراقب الولايات المتحدة الحركات الإسلاموية في شمال أفريقيا باهتمام، لكنها ستحاول ألا تتورط إلى أكثر من 30000 قدم فوق سطح الأرض.

يبدو أن تجربة أمريكا في بناء كيانها خارج حدودها قد انتهت.

في العراق وأفغانستان وأماكن أخرى، استهانت الولايات المتحدة بعقلية القوى الصغيرة والقبائل وقدرتها. ربما أدى تاريخ الأمريكيين من الأمن المادي والوحدة إلى المبالغة في تقدير قوة حجتهم الديمقراطية العقلانية التي تعتقد أن التسوية والعمل الجاد، وحتى التصويت، سوف تنتصر على المخاوف التاريخية الرجعية، عميقة الجذور، التي تَسِمُ «الآخر»، سواء كان من السنة أو الشيعة أو الأكراد أو العرب أو المسلمين أو المسيحيين. لقد

افترضوا أن الناس سيرغبون في الاتفاق، بينما لم يجرؤ الكثيرون في الواقع على المحاولة، وفضّلوا أن يعيشوا منفصلين بسبب تجاربهم. إن ذلك يعكس الأسى الذي أُصيبت به الإنسانية، وهو يظهر عبر فترات عديدة من التاريخ، وفي أماكن كثيرة، مجسّداً حقيقة مؤسفة. لقد رفعت التدابير الأمريكية الغطاء عن الغليان الذي تمور فيه هذه الأوضاع، ولا يجعل هذا صانعي السياسة الأمريكيين «سذّجاً»، كما يعتقد بعض الدبلوماسيين الأوروبيين المتعجرفين، لأن لديهم موقف يعبّر عن «الإمكان» و«الإصلاح»، إلا أنه ليس موقفاً مجدياً دائماً.

أظهر انتخاب السيد ترامب أن الديمقراطيات ليست محصنة ضد عبادة الأشخاص وجاذبية الرجل القوي الذي لديه إجابات سهلة على الأسئلة الصعبة. إنه نتيجة ازدراء متزايد بين أقسام الناخبين الغربيين لـ«السياسة المعتادة». لقد وُضِع شعاره «أمريكا أولاً» موضع التنفيذ، لا سيما في السياسة الاقتصادية، لكنه في بعض النواحي لم يبتعد عن الحقيقة البديهية التي تقول أن «أمريكا لها رؤساء، ولديها مصالح؛ الرؤساء يأتون ويذهبون، والمصالح تبقى». لقد شعر الرؤساء السابقون بعد كل شيء أنه من مصلحة الولايات المتحدة الحدّ من توسع كوريا الشمالية النووي، وإقناع دول الناتو بإنفاق المزيد على الدفاع ومنع ظهور قوة مهيمنة مفرطة في القارة الأوروبية.

اتبع ترامب كل هذه السياسات ولكن بطريقة مختلفة، مستخدماً

لغة يرى الكثير من الناس أنها غير دبلوماسية. ربما تضرّرت المكانة الأخلاقية للولايات المتحدة بوصفها قائدة العالم الحر، لكن ذلك يرجع بشكل أكبر إلى العداء البشع لترامب أكثر من الانقلاب الكامل، الشامل والمفاجئ، الذي شهدته عقود من السياسة.

يلعب ترامب بالنار ويخاطر بإحراق العالم، خاصةً مع حديثه الفضفاض دون ضرورة عن عدم ضمان سياسة الناتو التي تقضي بأن «الهجوم على دولة عضو يعدّ هجوماً على جميع الأعضاء»، ولكن إلى أي مدى تغيّر الأمر أساساً؟ نعم، لقد انسحب من معاهدات الأسلحة مع روسيا، وهي تتعلّق بأوروبا، لكنه انخرط في محادثات خفض الأسلحة المتعلقة بالملف النووي، وبدأ «محور الصين» بالفعل، كما جرى تخفيف العلاقات مع أوروبا. وفي الشرق الأوسط، لم تبد الولايات المتحدة اهتمامها إلا بما تعتقد أنه يضرّ بمصالحها، ومن هنا جاءت معالجة أوباما العرضية للأزمة السورية. حتى إلغاء الاتفاق النووي الإيراني لم يكن تغييراً ثورياً في السياسة الخارجية الأمريكية، ولكنه عودة إلى خطّهم السابق الأكثر تشدداً. إن رفض الانضمام إلى اتفاقية باريس للمناخ لم يغير قواعد اللعبة على المستوى العالمي، فالعديد من الولايات الأمريكية ملتزمة بتحقيق أهدافها، وإحداها كاليفورنيا التي يعدّ اقتصادها أكبر من أي بلد في العالم، بخلاف ألمانيا والصين واليابان والولايات المتحدة نفسها.

إذا أُخذ الأمر ببساطة على المستوى الشخصي، فإن وصول السيد

ترامب إلى الرئاسة يعدّ أمراً جديداً، وقد يكون جزءاً من استرخاص الحوار السياسي في عصر جديد يتقدّمه قادة شعبويين، ولكن على المستوى الاستراتيجي، فإن الولايات المتحدة تتصرف الآن كما تصرفت من قبل.

على مدى ثلاثين عاماً، كان من المألوف توقّع تدهور وشيك أو مستمر يصيب الولايات المتحدة الأمريكية، أما الآن فيعدّ هذا خطأ كما كان في الماضي. إن أنجح دولة على كوكب الأرض على وشك أن تصبح مكتفية ذاتياً في مجال الطاقة، وتبقى القوة الاقتصادية البارزة، وتنفق على البحث وتطوير قواتها العسكرية أكثر من الميزانية العسكرية الإجمالية لجميع دول الناتو الأخرى مجتمعةً. إن سكانها لا يتقدمون في السن كما هو الحال في أوروبا واليابان، وقد أظهرت دراسة أجرتها مؤسسة غالوب عام 2013 أن 25 في المائة من جميع الأشخاص الذين يأملون في الهجرة يرون في الولايات المتحدة وجهتهم الأولى. وأدرجت جامعة شنغهاي في العام نفسه ما توصّل إليه خبراؤها من أن سبعة عشر جامعة من أفضل عشرين جامعة في العالم هي جامعات أمريكية.

ذكر رجل الدولة البروسي أوتو فون بسمارك، ملاحظة ذات حدين قبل أكثر من قرن، قائلاً: «إن الله يهتم بشكل خاص بالسكارى والأطفال والولايات المتحدة الأمريكية»، ويبدو أنه كان محقاً.

الفصل الرابع

أوروبا الغربية

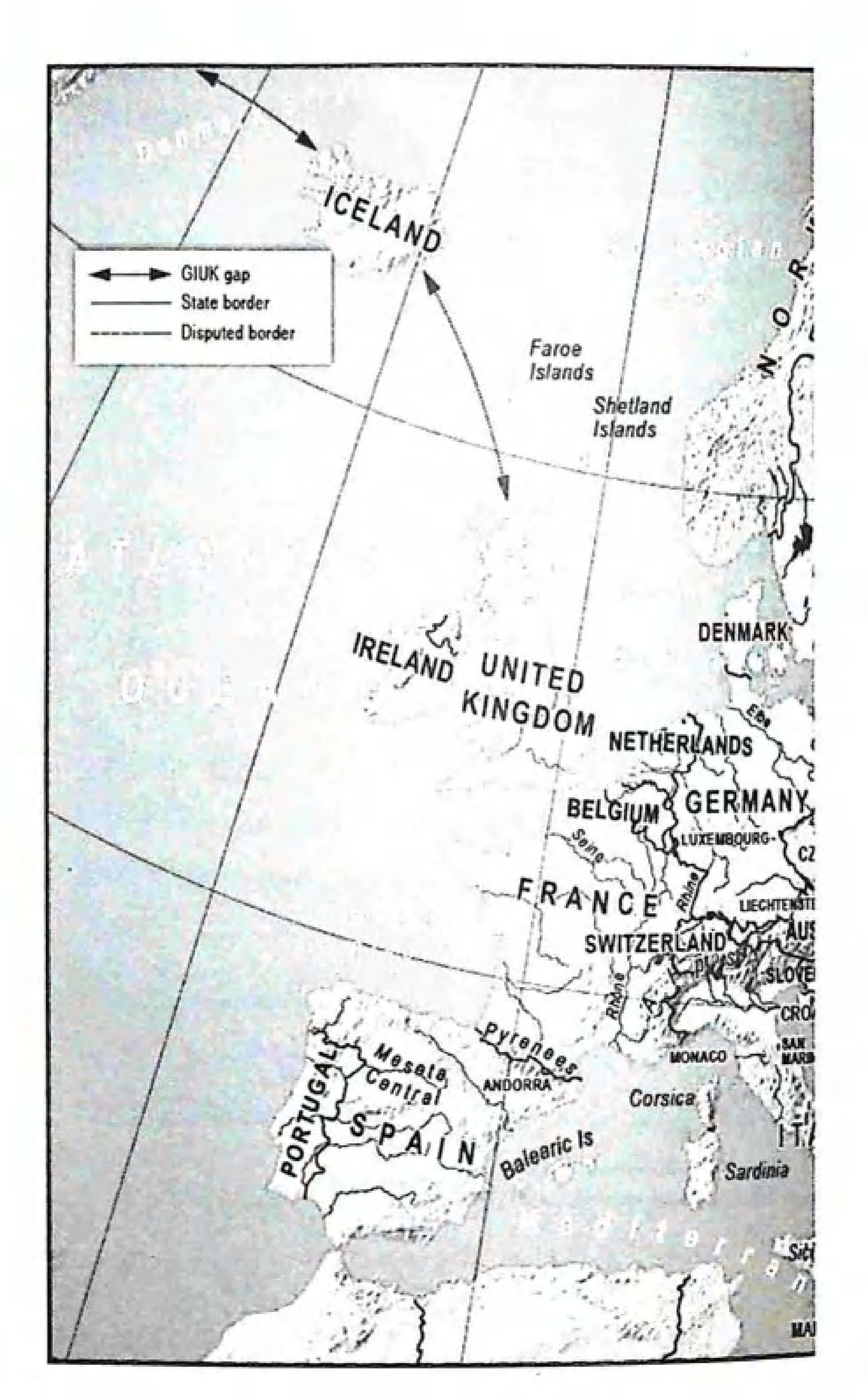
«هنا كان الماضي في كل مكان، قارّةٌ بأسرها زاخرة بالذكريات».

ميراندا ريتشموند مويلو

«خمسون عاماً من الصمت: حب وحرب ومنزل مدمّر في فرنسا».



500miles
500km
FINLAND
ESTONIA
LATVIA
LITHUANIA
Kaliningrad
(RUS. FED.)
North European Plain
RUSSIA
BELARUS
POLAND
UKRAINE
SLOVAKIA
Carpathian Mtns
MOLDOVA
HUNGARY
ROMANIA
SERBIA
Danube
BULGARIA
MACEDONIA
ALBANIA
GREECE
GEORGIA
ARMENIA
TURKEY
SYRIA
CYPRUS
LEBANON
Crete
Sea



GIUK gap
State border
Disputed border
ICELAND
Faroe Islands
Shetland Islands
DENMARK
IRELAND
UNITED KINGDOM
NETHERLANDS
BELGIUM
GERMANY
LUXEMBOURG
Seine
Rhine
FRANCE
SWITZERLAND
Rhône
Pyrenees
ANDORRA
MONACO
Mesata Central
PORTUGAL
SPAIN
Balearic Is
Corsica
Sardinia



تولّد العالم الحديث عن أوروبا، سواء كان ذلك إلى الأفضل أو إلى الأسوأ. هذه النقطة الغربية المتقدّمة من الكتلة الأرضية الأوراسية العظيمة وَلَدَتْ عصر التنوير الذي أدى إلى الثورة الصناعية التي أدت بدورها إلى ما نراه الآن من حولنا كل يوم... لذلك يمكننا أن نشكر موقع أوروبا، أو نلومه.

لقد أنعم المناخ الذي يغذيه تيار الخليج[49]، على المنطقة بكمية مناسبة من الأمطار لزراعة المحاصيل على نطاق واسع، حيث تزدهر في نوع جيد من التربة، وهذا ما سمح بالنمو السكاني في منطقة يكون العمل فيها ممكناً، في الغالب، على مدار السنة، حتى في ذروة الصيف، أما الشتاء فيضيف في الواقع ميزة إضافية، حيث تكون درجات الحرارة دافئة بما يكفي للعمل فيها، ولكنها باردة بدرجة كافية لقتل العديد من الجراثيم التي تصيب حتى يومنا هذا أجزاء كبيرة من بقية العالم.

يعني الحصاد الجيد فائضَ غذاء يمكن مقايضته، ويؤدي هذا بدوره إلى بناء مراكز تجارية تصبح مدناً، كما أنه يسمح للناس بالتفكير في أكثر من مجرد زراعة الطعام وتحويل انتباههم إلى الأفكار

49 . تيار الخليج Gulf Stream: تيار دافئ يعبر المحيط الأطلسي إلى شمال أوروبا.

والتكنولوجيا.

لا توجد صحارى حقيقية في أوروبا الغربية، وتقتصر النفايات المتجمدة على مناطق قليلة في أقصى الشمال، ونادراً ما تحدث الزلازل والبراكين والفيضانات الهائلة. أما الأنهار فطويلة ومسطّحة وصالحة للملاحة والتجارة، ونظراً لأنها تصبّ في مجموعة متنوعة من البحار والمحيطات، فإنها تتدفّق إلى سواحل تكثر فيها الموانئ الطبيعية، في الغرب والشمال والجنوب.

إذا كنت تقرأ هذا الكتاب الآن وأنت محاصر في عاصفة ثلجية في جبال الألب، أو تنتظر أن تهدأ مياه الفيضانات في نهر الدانوب، فقد لا تبدو نِعَمُ أوروبا الجغرافية واضحة تماماً، ولكن بالنسبة إلى العديد من الأماكن الأخرى، فإنها نِعَمٌ حقاً. هذه هي العوامل التي أدت إلى قيام الأوروبيين بإنشاء الدول القومية الصناعية الأولى، والتي أدت بدورها إلى أن يكونوا أول من شنّ حرباً بالمعيار الصناعي.

إذا أخذنا أوروبا على الإجمال، فإننا نرى الجبال والأنهار والوديان التي تفسّر سبب وجود العديد من الدول القومية. وعلى العكس من الولايات المتحدة الأمريكية، حيث نرى لغة وثقافة واحدة مهيمنةً ساهمت بسرعة وعنف في التكتّل غرباً، ما أدى إلى نشوء دولة عملاقة، فإن أوروبا نمت طبيعياً على مدى آلاف السنين وظلّت مقسّمة بين مناطقها الجغرافية واللغوية.

من أمثلة ذلك أن مختلف القبائل في شبه الجزيرة الإيبيرية مُنِعت

من التوسع شمالاً إلى فرنسا بسبب وجود جبال البيرينيه، وتجمّعوا تدريجياً على مدى آلاف السنين لتشكيل إسبانيا والبرتغال، بل إن إسبانيا نفسها ليست دولة موحدة تماماً، مع تزايد رغبة كاتالونيا في الاستقلال. وهناك فرنسا أيضاً التي وُجِدت بوجود حواجز طبيعية، ومحاطة كما هي بجبال البرانس وجبال الألب ونهر الراين والمحيط الأطلسي.

لا تلتقي أنهار أوروبا الكبرى (إلا إذا عددنا نهر سافا الذي يصبّ في نهر الدانوب في بلغراد)، ويفسر هذا على نحو جزئي سبب وجود العديد من البلدان بمساحات صغيرة نسبياً. ولأن الأنهار لا ترتبط ببعضها بعضاً، فإن معظمها يعمل، في مرحلة ما، في شكل حدود جغرافية، وكل منها يعدّ مجال نفوذ اقتصادي في حد ذاته، وقد أدى هذا إلى ظهور تنمية حضرية كبرى واحدة على الأقل على ضفتي كل نهر، ثم أصبح بعضها مدناً عواصمَ بدورها.

من الأمثلة الدّالة أن ثاني أطول نهر في أوروبا، وهو نهر الدانوب (1780 ميلاً)، يتقدّم في الغابة السوداء[50] بألمانيا ويتدفّق جنوباً في طريقه إلى البحر الأسود. يؤثر حوض الدانوب، بشكل عام، على ثمانية عشر دولة ويشكل حدوداً طبيعية على امتداد مساره، بما في ذلك الحدود بين سلوفاكيا والمجر، وبين كرواتيا وصربيا، وبين صربيا ورومانيا، وبين رومانيا وبلغاريا. وكان الدانوب لأكثر من

---

50. الغابة السوداء Black Forest: غابات جبلية في جنوب غرب ألمانيا، تمتد نحو 200 كم طولاً و60 كم عرضاً.

2000 عام واحداً من حدود الإمبراطورية الرومانية التي ساعدته بدورها على أن يصبح واحداً من أعظم طرق التجارة في العصور الوسطى، وأدى إلى ظهور المدن-العواصم الحالية في فيينا وبراتيسلافا وبودابست وبلغراد. كما شكّل الحدود الطبيعية لإمبراطوريتين لاحقتين، هما النمساوية-المجرية والعثمانية، ومع تقلص كل منها، ظهرت الأمم مرة أخرى، وأصبحت في النهاية دولاً قومية. ومع ذلك، فإن جغرافيا منطقة الدانوب، وخاصة في نهايتها الجنوبية، تساعد على تفسير سبب وجود العديد من الدول الصغيرة هناك، مقارنةً بالدول الأكبر داخل السهل الأوروبي الشمالي وحوله.



يوضّح حوض الدانوب مزايا التضاريس الجغرافية في أوروبا، حيث وفرت الأنهار المترابطة على السهل المنبسط حدوداً طبيعية، وشبكة نقل ملاحية سهلة، وشجعت على ازدهار نظام التجارة.

كانت بلدان شمال أوروبا أغنى من بلدان الجنوب على مدى عدة قرون، فقد انتقل الشمال إلى التصنيع الصناعي في وقت أبكر من الجنوب، وهكذا صار أكثر نجاحاً من الناحية الاقتصادية. ونظراً لأن العديد من البلدان الشمالية تشكل المنطقة الحيوية في أوروبا الغربية، كان من الأسهل الحفاظ على روابطها التجارية، وكان بإمكان الجيران الأثرياء تبادلَ سلعهم مع بعضهم البعض، بينما كان على الإسبان، مثلاً، إما عبور جبال البيرينيه لغرض التجارة، أو التوجّه إلى الأسواق المحدودة في البرتغال وشمال أفريقيا.

هناك أيضًا نظريات غير قابلة للإثبات مفادها أن هيمنة الكاثوليكية في الجنوب قد أعاقتها، بينما هيّأت أخلاقيات العمل البروتستانتية بلدانَ الشمال إلى مستويات أفضل. كلما زرتُ مدينة ميونيخ البافارية، أفكر في هذه النظرية، وأثناء القيادة متجاوزاً المعابد البراقة حيث مقر إدارة «بي. ام. دبليو»، أفكّر في أن «أليانز»[51] و«سيمنز»[52] لديهما سبب للشك في ذلك. فنسبة 34 في المائة من سكان ألمانيا هم من الكاثوليك، وبافاريا نفسها ذات أغلبية كاثوليكية، ولكن يبدو أن ميولهم الدينية لم تؤثر في تقدمهم أو إصرارهم على أن اليونانيين يجب أن يعملوا بجدية أكبر وأن يدفعوا المزيد من الضرائب.

---

51. أليانز Allianz : مؤسسة خدمات مالية دولية يستفيد من خدماتها أكثر من 86 مليون زبون حول العالم.

52. سيمنز Siemens : شركة ألمانية متعددة الجنسيات، وهي أكبر شركة تصنيع في أوروبا ومقرها في ميونيخ.

يُعزى التناقض بين شمال وجنوب أوروبا، جزئياً على الأقل، إلى حقيقة أن الجنوب لديه عدد أقل من السهول الساحلية المناسبة للزراعة، وأنه عانى من الجفاف والكوارث الطبيعية أكثر من الشمال، وإن كان على نطاق أقل مما هو عليه في أجزاء أخرى من العالم. وكما رأينا في الفصل الأول، فإن السهل الأوروبي الشمالي عبارة عن ممرّ يمتد من فرنسا إلى جبال الأورال في روسيا، ويحدّه من الشمال بحر الشمال وبحر البلطيق. وتسمح هذه الأرض بإنشاء أعمال زراعية ناجحة على نطاق واسع، كما تمكّن الطرق المائية من نقل المحاصيل والسلع الأخرى بسهولة.

كانت فرنسا، من بين جميع البلدان الأخرى في السهل الأوروبي الشمالي، هي الأكثر استفادة من هذا الوضع الطبيعي، ففرنسا هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي تتمتع بقوة شمالية وجنوبية في آن واحد، لأنها تحتوي على أكبر مساحة من الأراضي الخصبة في أوروبا الغربية، والعديد من أنهارها تتصل ببعضها بعضاً، حيث يتدفق أحد أنهارها غرباً على امتداد مساره إلى المحيط الأطلسي، وهو نهر لوار، ويتّجه نهر آخر جنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط، وهو نهر الرون. إن هذه العوامل، جنباً إلى جنب مع انبساط الأرض نسبياً، أفسحت المجال لتوحيد المناطق، وخاصة منذ عهد نابليون ونشأة مركزية السلطة.

إذا اتجهنا جنوباً وغرباً، سنجد أن العديد من الدول تحتلّ صفاً ثانياً في ترتيب القوة الأوروبية، ويرجع ذلك جزئياً إلى موقعها.

جنوب إيطاليا، مثلاً، لا يزال متخلفاً كثيراً عن الشمال من حيث التنمية، على الرغم من أنها كانت دولة موحدة (بما في ذلك البندقية وروما) منذ عام 1871، إلا أن تبعات الخلاف بين الشمال والجنوب صارت الآن أكبر مما كانت عليه منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية. لطالما كانت الصناعات الثقيلة والسياحة والمراكز المالية في الشمال تعني مستوى أعلى من المعيشة، ما أدى إلى تكوين أحزاب سياسية تدعو إلى خفض الدعم الحكومي المخصّص للجنوب، أو حتى إلى الانفصال عنه.

إسبانيا تكافح أيضاً، وقد كافحت دائماً بسبب جغرافيتها. فسهولها الساحلية الضيقة ذات تربة فقيرة، والوصول إلى الأسواق تعوقه من داخلها أنهارها القصيرة والهضبة الداخلية (ميزيتا سنترال)، وهي هضبة مرتفعات تحيط بها سلاسل جبلية، بعضها يمرّ عبرها، كما تتعرض التجارة مع أوروبا الغربية لمزيد من العوائق بسبب جبال البيرينيه، وأي أسواق إلى الجنوب على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط تقع في البلدان النامية ذات الدخل المحدود. لقد تُركت إسبانيا متأخرةً بعد الحرب العالمية الثانية، حيث جُمّدت سياسياً من قبل معظم أوروبا الحديثة في ظل ديكتاتورية فرانكو. توفي فرانكو عام 1975، وانضمت إسبانيا الديمقراطية الجديدة إلى الاتحاد الأوروبي عام 1986، وبحلول التسعينيات بدأت اللحاق ببقية أوروبا الغربية، لكن نقاط الضعف الجغرافية والمالية المتأصّلة فيها استمرت في إعاقتها، وزادت من مشكلات الإنفاق المفرط، والتحكّم المالي المركزي الضعيف،

وأخيراً فإن إسبانيا كانت من بين البلدان الأكثر تضرراً من الأزمة الاقتصادية عام 2008.

تعاني اليونان على نحو مماثل، فجزء كبير من الساحل اليوناني يتألف من المنحدرات الصخرية، وهناك القليل من السهول الساحلية الصالحة للزراعة، أما المناطق الداخلية فتضم المزيد من المنحدرات الشديدة، وأنهاراً لا تسمح بالنقل، وقليلاً من الوديان الخصبة العريضة. إن الأراضي الزراعية في اليونان عالية الجودة، ولكن المشكلة تكمن في أنها قليلة جداً ولا تسمح لليونان بأن تكون مُصدِّراً زراعياً رئيسياً، أو بأن تطوّر أكثر من عدد قليل من المناطق الحضرية الكبرى التي تضم سكاناً متعلمين تعليماً عالياً وذوي مهارات دقيقة ومتقدمين تقنياً. إن وضعها يتفاقم بسبب موقعها، فأثينا تقع على طرف شبه جزيرة، وتكاد تكون معزولة عن التجارة البرية مع أوروبا. وهي تعتمد على بحر إيجه للوصول إلى التجارة البحرية في المنطقة، ولكن عبر هذا البحر تقع تركيا، وهي عدوّ محتمل كبير. لقد خاضت اليونان عدة حروب ضد تركيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وما زالت في العصر الحديث تنفق على الدفاع مبالغ هائلة لا تملكها.

الأرض في اليونان محمية بالجبال، ولكن هناك حوالي 1400 جزيرة يونانية (6000 إذا قمنا بتضمين مختلف الكتل الصخرية الظاهرة في بحر إيجه)، ومنها حوالي 200 جزيرة مأهولة، ويتطلب الأمر قوة بحرية جيدة لتسيير دوريات في هذه المنطقة، فما بالك

بحجم القوة البحرية التي تستطيع ردع أي محاولة للاستيلاء عليها. النتيجة هي الحاجة إلى تكلفة ضخمة للإنفاق العسكري لا تستطيع اليونان تحمّل أعبائها. لقد كان الأمريكيون، والبريطانيون بدرجة أقل، راضين خلال الحرب الباردة عن تأمين بعض المتطلبات العسكرية من أجل إبقاء الاتحاد السوفيتي بعيداً عن بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط، أما عندما انتهت الحرب الباردة، فقد انتهت معها هذه التأمينات، لكن اليونان واصلت الإنفاق وحدها.

يستمر هذا الانقسام التاريخي في التأثير حتى يومنا هذا في أعقاب الانهيار المالي الذي ضرب أوروبا عام 2008، والصّدْع الأيديولوجي في منطقة اليورو. في 2012، عندما بدأت عمليات الإنقاذ المالية الأوروبية وصدرت مطالبات بإجراءات التقشف اليونانية لإبقاء البلاد واقفة على قدميها وفي منطقة اليورو، سرعان ما أصبح الانقسام الجغرافي واضحاً. كان المتبرعون والمطالبون هم دول الشمال، بينما المتلقون هم في الغالب من الجنوب. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً بالنسبة إلى الناس في ألمانيا للإشارة إلى أنهم كانوا يعملون حتى سن الخامسة والستين، ولكنهم كانوا يدفعون الضرائب التي كانت تذهب إلى اليونان حتى يتمكن الناس من التقاعد في سن الخامسة والخمسين. وجاء سؤالهم: لماذا؟ ولكن الإجابة: لأن اقتران دول الاتحاد الأوروبي «في المرض والصحة»، لم تكن مرضيةً.

قاد الألمان إجراءات التقشف التي فرضتها خطة الإنقاذ، وقاد

اليونانيون رد الفعل إزاء ذلك. فوزير المالية الألماني ولفغانغ شوبل، قال مثلاً: أنه «لم يكن متأكداً بعد من أن جميع الأحزاب السياسية في اليونان تدرك مسؤوليتها عن الوضع الصعب الذي تعيشه بلادهم»، وردّ عليه الرئيس اليوناني كارولوس بابولياس، الذي حارب النازيين، قائلاً: «لا يمكنني قبول السيد شوبله وهو يهين بلدي... من هو السيد شوبل حتى يهين اليونان؟ من هم الهولنديون؟ من هم الفنلنديون؟»، كما أشار كذلك إلى الحرب العالمية الثانية: «كنا دائماً فخورين بالدفاع، لا عن حريتنا وبلدنا فحسب، بل عن حرية أوروبا أيضاً». وسرعان ما عادت الصور النمطية المسيئة التي تمثّل الجنوبيين المهملين، والشماليين المجتهدين الحريصين، إلى الظهور، مع استجابة وسائل الإعلام اليونانية بتلميحات مستمرة وفجّة تذكّر بماضي ألمانيا، بما في ذلك وضع شارب هتلر على صورة المستشارة ميركل على الصفحة الأولى من إحدى الصحف. كان لدى دافع الضرائب اليوناني الذي لا يقدّم ما يكفي لدعم اقتصاد البلاد، وجهة نظر مختلفة تماماً، وهو يتساءل: «لماذا يجب أن يملي علينا الألمان شروطهم، بينما يفيدهم اليورو أكثر من أي شخص آخر؟». لقد عدّت تدابير التقشف التي فُرضت من الشمال على اليونان وغيرها، بوصفها اعتداءً على السيادة الوطنية.

تظهر التصدّعات في صرح «العائلة الأوروبية» لا بسبب تصويت البريطانيين على خروج بلادهم من الاتحاد الأوروبي فحسب، فهذا إنما كان عرضاً من أعراض المشكلة، ولم يكن السبب. على أطراف أوروبا الغربية، جعلت الأزمة المالية اليونان تبدو كأنها

عضو شبه منفصل، وها إن الشرق يشهد عودة الصراع مرة أخرى. إذا كان على الاضطراب الذي شهدته السبعين سنة الماضية من السلام أن يستمر خلال هذا القرن، فإن هذا السلام سيحتاج إلى الحب والعناية والاهتمام.

لقد نشأت أجيال ما بعد الحرب العالمية الثانية مع السلام بوصفه معياراً وأسلوباً دائماً، لكن ما يجعل الجيل الحالي مختلفاً هو أن الأوروبيين يجدون صعوبة في تخيّل العكس. تبدو الحروب الآن كأنها حدثت في مكان آخر أو في الماضي، أو حدثت في «أطراف» أوروبا في أسوأ الأحوال. لقد أقنعت صدمة الحربين العالميتين التي أعقبتها سبعة عقود من السلام ثم انهيار الاتحاد السوفيتي، العديدَ من الناس بأن أوروبا الغربية كانت منطقة «ما بعد الصراع».

هناك أسباب للاعتقاد بأن هذا قد يظل صحيحاً في المستقبل، لكن المصادر المحتملة للصراع تمر تحت السطح، وقد يؤدي التوتر بين الأوروبيين والروس إلى أن يواجه بعضهم بعضاً. ومن أمثلة ذلك أن التاريخ وتغيير الشكل الجغرافي يطارد السياسة الخارجية البولندية، حتى لو كانت البلاد الآن قد صارت ناجحة وتعيش بسلام، وإحدى أكبر دول الاتحاد الأوروبي، بعدد من السكان يبلغ 38 مليون نسمة، وهي أيضاً أحد الأعضاء الأكبر حجماً، وقد تضاعف اقتصادها منذ أن خرجت من وراء الستار الحديدي، لكنها لا تزال تنظر إلى الماضي وهي تحاول تأمين مستقبلها.

يقع ممرّ السهل الأوروبي الشمالي في أضيق مستوياته بين ساحل

بحر البلطيق البولندي في الشمال وبداية جبال الكاربات في الجنوب. في هذا المكان، من منظور عسكري روسي، يمكن وضع أفضل خط دفاعي، أما من وجهة نظر المهاجم، فهو النقطة التي تتكثّف فيها قواته وتحتشد قبل أن تندفع باتجاه روسيا.

لقد رأى البولنديون ذلك في الاتجاهين معاً عندما اجتاحت الجيوش الشرقَ والغربَ عبر أراضيها، وغيّرت الحدود مراراً. إذا أخذنا أطلس التايمز المخصّص للتاريخ الأوروبي وتصفحناه سريعاً كأنه دفتر صور، سوف نرى بولندا تظهر حوالي عام 1000 ميلادي، ثم تغيّر شكلها باستمرار، فتختفي وتعاود الظهور قبل أن تتخذ شكلها الحالي في أواخر القرن العشرين. إن موقع ألمانيا وروسيا، إلى جانب تجربة البولنديين مع هذين البلدين، لا يجعل من بولندا حليفاً طبيعياً لوارسو. ومثل فرنسا، تريد بولندا إبقاء ألمانيا محاصرة داخل الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي، في حين عادت مخاوف غير قديمة من روسيا إلى الظهور مع الأزمة في أوكرانيا. لقد شهدت البولنديون على مر القرون، مدّاً وجزراً روسياً يتدفّق نحوهم وينحسر عنهم، وبعد مدٍّ منخفض في نهاية الإمبراطورية السوفيتية (الروسية)، ظلّ هناك اتجاه واحد فقط يمكن أن يشهد تدفقاً في ما بعد.

العلاقات مع بريطانيا، بوصفها قوة توازي ألمانيا في الاتحاد الأوروبي، جاءت بطريقة سلسلة، على الرغم من خيانة عام 1939 التي وقّعت فيها بريطانيا وفرنسا معاهدةً تضمن مساعدة بولندا في

حال تعرّضها لغزو ألمانيا، وعندما شُنّ الهجوم كان الرد على «الحرب الخاطفة»[53] «حرباً صورية»[54]، جلس الحليفان خلف «خط ماجينو»[55] في فرنسا بينما ابتلع الألمان بولندا. على الرغم من ذلك، فإن العلاقات مع المملكة المتحدة صارت قويةً، ولو أن الحليف الرئيسي الذي سعت إليه بولندا بعد *تحرّرها* حديثاً عام 1989 هو الولايات المتحدة.

احتضن الأمريكيون البولنديين والعكس صحيح، فكلاهما كان يفكر في الروس. انضمت بولندا إلى حلف الناتو عام 1999، ووسّعت نطاق الحلف بجعله يقترب من موسكو بمسافة 400 ميل، وبحلول ذلك الوقت، كانت العديد من دول حلف وارسو السابقة أيضاً قد أصبحت أعضاء في الحلف، وفي عام 1999 ظلت موسكو تراقب دون قدرة على فعل شيء بينما كان الناتو يخوض حرباً ضد حليفتها صربيا. لم تكن روسيا في وضع يسمح لها بالرد في تسعينيات القرن الماضي، ولكن بعد الفوضى التي شهدتها سنوات يلتسين، جاء بوتين متحفّزاً للصراع وتولى زمام الأمور.

---

53 . الحرب الخاطفة Blitzkrieg (بليتسكريغ: حرب البرق): مفهوم عسكري طبقه الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية، يعتمد على الاجتياح السريع وسلب الخصم قدراته على الرد.

54 . الحرب الصورية Sitzkrieg (وتوصف أيضاً بالمتوقفة والمضحكة): وضع عسكري اتّسم بالجمود دون حدوث اشتباكات واضحة على الحدود الألمانية الفرنسية من 3 سبتمبر 1939 (وفيه أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا)، حتى يوم 10 مايو 1940 وفيه زحف الجيش الألماني نحو فرنسا.

55 . خط ماجينو Maginot Line: خط دفاعي من تحصينات ثابتة أقامته فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى لصد أي هجوم ألماني محتمل. تجنّب الألمان هذا الخط في الحرب العالمية الثانية واجتاحوا فرنسا.

يُنسب اقتباس شهير إلى هنري كيسنجر في سبعينيات القرن الماضي، عندما تساءل: «إذا أردتُ الاتصال بأوروبا، فمع من أتكلّم؟»، لدى البولنديين سؤال أحدث: «إذا هدّدنا الروس، فهل نتصل ببروكسل أم واشنطن؟»، وهم يعرفون الجواب.

دول البلقان صارت مرة أخرى متحرّرة من الإمبراطورية. أدّت تضاريسهم الجبلية إلى ظهور العديد من الدول الصغيرة في المنطقة، وهو أحد الأسباب التي منعتهم من الاندماج، على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها تجربة اتحاد السلاف الجنوبيين، المعروفة باسم يوغوسلافيا.

مع اندلاع حروب التسعينيات من القرن الماضي، تتجه معظم دول يوغوسلافيا السابقة نحو الغرب، باستثناء صربيا التي تتعلّق بالشرق، وهي تظلّ قويةً بدينها الأرثوذكسي وشعبها السلافي. ولا تزال روسيا التي لم تغفر للدول الغربية حتى الآن قصف صربيا عام 1999 وفصل كوسوفو، تحاول إقناع صربيا بالانضمام إلى فلكها عن طريق جاذبية اللغة والعرق والدين وصفقات الطاقة.

قال بسمارك إن حرباً كبرى ستشتعل بسبب «شيء تافه لعين في البلقان»، وهذا ما حدث، فقد أصبحت المنطقة الآن ساحة معركة اقتصادية ودبلوماسية مع الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي والأتراك والروس، وهم يتنافسون جميعاً على النفوذ. اتخذت ألبانيا وبلغاريا وكرواتيا ورومانيا خيارها وهي الآن جزء من حلف الناتو، بصرف النظر عن ألبانيا، إلا أنها عضو في الاتحاد الأوروبي،

وكذلك سلوفينيا.

تمتدّ التوترات كذلك إلى الشمال والدول الإسكندنافية. فالدنمارك عضو في حلف الناتو فعلاً، وقد أدّت عودة روسيا إلى عرض قوتها مؤخراً إلى جدل في السويد حول ما إذا كان الوقت قد حان للتخلي عن حياد قرنين والانضمام إلى الحلف.

قامت الطائرات الروسية عام 2013 بقصف وهمي على السويد في منتصف الليل. يبدو أن نظام الدفاع السويدي كان نائماً، وفشل في صدّ الطائرات المغيرة، وكان سلاح الجو الدنماركي هو الذي حلّق في السماء لمراقبة الروس عن بعيد. على الرغم من ذلك، فإن غالبية السويديين ما زالوا ضد عضوية الناتو، لكن الجدل مستمر، بناءً على بيان موسكو بأنها ستضطر إلى «الرد» إذا انضمّت السويد أو فنلندا إلى الحلف. تحتاج دول الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي إلى تقديم جبهة موحدة لهذه التحديات، لكن هذا سيكون مستحيلاً ما لم تظل العلاقة الرئيسية في الاتحاد الأوروبي سليمةً، وتلك هي العلاقة بين فرنسا وألمانيا.

كما رأينا في هذا الفصل، فقد كانت فرنسا في أفضل وضع للاستفادة من مناخ أوروبا وطرق التجارة وحدودها الطبيعية. إنها محمية جزئياً، باستثناء منطقة واحدة هي الشمال الشرقي، عند النقطة التي تتحوّل فيها الأرض المنبسطة في السهل الأوروبي الشمالي إلى ما يعرف بألمانيا. لم يكن ذلك مشكلة قبل وجود ألمانيا بوصفها دولة واحدة، فقد كانت فرنسا بعيدة جداً عن روسيا، وبعيدة عن

جحافل المغول، وكان لديها قناة بينها وبين إنجلترا، ما يعني أنه من المحتمل صدّ محاولة غزو شامل واحتلال كامل. كانت فرنسا في الواقع هي القوة المتفوّقة في القارة، حتى أنها كانت قادرة على إبراز قوتها وصولاً إلى أبواب موسكو، لكن حدث وأن توحّدت ألمانيا بعد ذلك.

كان ذلك الوضع التاريخي سائداً لبعض الوقت، وكانت «فكرة» ألمانيا ماثلة لعدة قرون، فهي تمثّل أراضي الفرنجة الشرقية[56] التي أطلقت عليها الإمبراطورية الرومانية المقدسة في القرن العاشر اسم «الجرمان»[57] في بعض الأحيان، وتضم حوالي 500 مملكة جرمانية صغيرة. بعد تفكّك الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام 1806، اجتمع الاتحاد الألماني المكوّن من 39 دويلة عام 1815 في مؤتمر فيينا، وأسفر ذلك بدوره عن نشأة اتحاد شمال ألمانيا، ثم توحيد ألمانيا عام 1871 بعد الحرب الفرنسية البروسية التي احتلت فيها القوات الألمانية المنتصرة باريس. لدى فرنسا الآن جارٌ على حدودها أكبر جغرافياً منها، وبتعداد سكاني مماثل، لكن مع معدل نمو أفضل، وقدرة صناعية أكبر.

أُعلِن عن الوحدة في قصر فرساي بالقرب من باريس بعد

---

56 . أراضي الفرنجة الشرقية Eastern Frankish Lands (أو الأراضي الفرنكية الشرقية): شرق فرنسا عموماً، حيث سيطر الفرنكيين (الفرنجة) على شمال فرنسا وبلجيكا وألمانيا الغربية الحالية، وأسسوا أقوى مملكة مسيحية في أوروبا الغربية في العصور الوسطى المبكرة، ومنها اشتق اسم فرنسا.

57 . الجرمان Germanies: الشعوب التي تتحدث لغات جرمانية، وتنحدر من عرق واحد، مثل القوط والواندال والسكسون واللومبارد والفرنج والفايكنج وغيرهم.

الانتصار الألماني، وأُختِرقت نقطة الضعف في الدفاع الفرنسي، وهي السهل الأوروبي الشمالي. وسوف يتكرر ذلك مرتين في سبعين عاماً تالية، ثم ستستخدم فرنسا الدبلوماسية بدلاً من الحرب لمحاولة تحييد التهديد من الشرق.

كانت ألمانيا تعاني على الدوام من مشكلات جغرافية أكبر مما تعاني فرنسا، وقد أدّت الأراضي المنبسطة في السهل الأوروبي الشمالي إلى سببين للخوف، ففي الغرب رأى الألمان جيرانهم الفرنسيين الأقوياء والموحدين منذ فترة طويلة، وفي الشرق رأوا الدب الروسي العملاق. كان أقصى مخاوفهم يتمثّل في هجوم متزامن من قبل كلتا القوتين عبر أراضيهم المنبسطة. لا يمكننا أن نعرف أبداً ما إذا كان ذلك سيحدث، لكن الخوف من حدوثه خلّف عواقب وخيمة.

خافت فرنسا من ألمانيا، وخافت ألمانيا من فرنسا، وعندما انضمت فرنسا إلى كل من روسيا وبريطانيا في الوفاق الثلاثي عام 1907، خافت ألمانيا من ثلاثتهم. يوجد كذلك بُعد إضافي يتمثل في أن البحرية البريطانية يمكنها، في الوقت الذي تختاره، أن تمنع وصول ألمانيا إلى بحر الشمال والمحيط الأطلسي، وكان الحل، مرة ثانية، هو مهاجمة فرنسا أولاً.

أصبحت معضلة موقع ألمانيا الجغرافي وحروبها تُعرف باسم «المسألة الألمانية». وكانت الإجابة، بعد أهوال الحرب العالمية الثانية، وبعد قرون من الحرب، تتمثّل في قبول وجود قوة واحدة ساحقة في الأراضي الأوروبية، وهي الولايات المتحدة الأمريكية

التي أنشأت حلف الناتو ثم سمحت بإنشاء الاتحاد الأوروبي. شرع الأوروبيون بعد أن أنهكتهم الحرب، وبـ«ضمان» الأمن من قبل الجيش الأمريكي، في تجربة مدهشة، حيث طُلِب منهم أن يثقوا ببعضهم بعضاً.

والآن، ما هو الآن الاتحاد الأوروبي الذي جرى إنشاؤه لتستطيع فرنسا وألمانيا أن يلتقيا بمحبة ويعانق كل منها جاره بقوة وإحكام، فلا يقدر أيّ منهما على تحرير يده ليضرب بها الآخر. لقد عمل الاتحاد ببراعة وخلق مساحة جغرافية ضخمة تضم الآن أكبر اقتصاد في العالم.

نجح الاتحاد الأوروبي بالنسبة إلى ألمانيا التي نهضت من رماد 1945، ووظّفت الجغرافيا التي كانت تخشاها ذات يوم لخدمة مصالحها، فأصبحت أكبر مصنّع أوروبي، وبدلاً من إرسال الجيوش عبر الأراضي المنبسطة، أرسلت البضائع تحت تلك العلامة المرموقة: «صنع في ألمانيا»، وتدفقت هذه البضائع عبر نهري الراين وإلبه إلى أوروبا والعالم، شمالاً وجنوباً وغرباً، على امتداد الطرق الألمانية السريعة، ثم إلى الشرق بشكل متزايد منذ 1990.

إن «الاتحاد الأوروبي للصلب والفحم» الذي بدأ عام 1951، مكوَّناً من ست دول، أصبح الاتحاد الأوروبي متعدّد الدول، مع انتماء أيديولوجي مفاده: «اتحادٌ أوثقُ إلى الأبد». بعد الأزمة المالية الكبرى الأولى التي ضربت الاتحاد، أصبحت تلك الأيديولوجيا غير راسخة، وتوتّرت العلاقات التي تربط الأعضاء. هناك

إشارات داخل الاتحاد الأوروبي تلمّح إلى «انتقام الجغرافيا»، بتعبير الكاتب الجيوسياسي روبرت كابلان.

قاد «الاتحاد الأوثق»، بالنسبة إلى تسع عشرة دولة من الدول الأعضاء، إلى عملة واحدة هي اليورو. والتزم جميع الأعضاء الثمانية والعشرين، باستثناء الدنمارك والمملكة المتحدة، بتبنّي هذه العملة متى ما استوفوا المعايير المطلوبة. ما هو واضح الآن، وكان واضحاً في ذلك الوقت إلى حد ما، هو أنه عند إطلاق اليورو عام 1999، لم تكن العديد من البلدان التي انضمت جاهزةً بعدُ.

في عام 1999، دخلت العديد من البلدان في علاقة جديدة محدَّدة دون تروٍّ. كان من الطبيعي أن يكون لديها مستويات من الديون والبطالة والتضخم ضمن حدود معينة، إلا أن المشكلة كانت أن بعضها، ولا سيما اليونان، لم تكن شفافة، وكان معظم الخبراء يعرفون ذلك، ولكن نظراً لأن اليورو ليس مجرد عملة، بقدر ما هو أيديولوجيا أيضاً، فقد غضّ الأعضاء الآخرون الطرف عن ذلك.

وافقت دول منطقة اليورو على أن تقترن اقتصادياً «في المرض والصحة»، كما قال اليونانيون، ولكن عندما حلّت الأزمة الاقتصادية عام 2008، كان على الدول الأكثر ثراءً إنقاذ الدول الفقيرة، واندلع خلاف داخلي مرير، ولا يزال الشركاء يترامون بالاتهامات حتى يومنا هذا. لقد كشفت أزمة اليورو والمشكلات الاقتصادية ما يشهده البيت الأوروبي في بروكسل (حيث مقر الاتحاد) من تصدّعات (لا سيما على امتداد الخط القديم في الانقسام

بين شمال وجنوب)، ويبدو أن حلم «الاتحاد الأوثق» قد تجمّد، أو ربما سار في الاتجاه المعاكس. في ربيع 2017، وزعت مفوضية الاتحاد الأوروبي ورقة تحدّد عدة خيارات بشأن الاتجاه الذي ينبغي أن يسير فيه الاتحاد الأوروبي، ورُفضَ الاختيار الذي يقضي بالمزيد من تركّز السلطة في بروكسل بشكل قاطع من قبل معظم العواصم الأوروبية.

حاول الرئيس الفرنسي ماكرون مرة أخرى في مارس 2019، بتوجيه رسالة مفتوحة إلى مواطني الاتحاد الأوروبي دعا فيها إلى «النهضة الأوروبية». نُشرت الرسالة في صحيفة واحدة على الأقل في كل دولة من الدول الأعضاء الثمانية والعشرين، ودعا ماكرون إلى «قارة أقوى وأكثر اتحاداً» وإلى «إعادة ضبط» منطقة شنغن الحدودية المفتوحة، وضبط حرية تنقل الأشخاص، حتى أنه ذهب إلى حد اقتراح أن العمال من جميع أنحاء الاتحاد الأوروبي يجب أن يتلقوا نفس الأجر على الوظيفة نفسها في الشركة نفسها بغض النظر عن موقعها في أوروبا. مثل هذا الاقتراح سوف يرحب به عامل روماني في بوخارست يعمل لدى شركة ألمانية لها مكاتب في جميع أنحاء القارة، لكن الشركة الألمانية نفسها قد يكون لديها وجهة نظر مختلفة.

كان هناك كذلك حديث عن تسريع التحرّك نحو خلق قوة دفاع تابعة للاتحاد الأوروبي، ولم يكن هذا الأمر مستحسناً في ظل قلق العديد من الدول الأعضاء بشأن إضعاف وجود الناتو [في أوروبا].

نوقشت دعوة السيد ماكرون العاطفية على مدى عدة أيام ثم تلاشت عن الأنظار.

تصويت عام 2016 في المملكة المتحدة بشأن مغادرة الاتحاد الأوروبي كان أشبه بضربة نفسية عميقة أصابت الحلم الأوروبي، وإذا انقسم الاتحاد الأوروبي، فقد تعود «المسألة الألمانية» من جديد. إن هذا الأمر من منظور سبعة عقود من السلام، قد يطلق جرس الإنذار، ذلك أن ألمانيا واحدة من بين أكثر أعضاء الأسرة الأوروبية سلميّةً وديمقراطية. إما إذ أخذنا الأمر من منظور سبعة قرون من الحرب الأوروبية، فلا يمكن استثناؤها أو استبعاد دورها.

إن ألمانيا مصمّمة على أن تبقى صورتها الأوروبية جيدةً، ويعرف الألمان غريزياً أنه إذا تصدّع الاتحاد، فإن المخاوف القديمة من ألمانيا سوف تعاود الظهور، خاصة أنها الآن الدولة الأوروبية الأكثر اكتظاظاً بالسكان والأكثر ثراءً، حيث يبلغ عدد سكانها 82 مليون نسمة، وهي رابع أكبر اقتصاد في العالم. كما أن الاتحاد الفاشل من شأنه أن يضر ألمانيا اقتصادياً أيضاً، فثالث أكبر مصدر للسلع في العالم لا يريد أن يرى سوقه الأقرب قد أصبح مجزّأً خاضعاً للحماية.

الدولة الألمانية القومية، على الرغم من أن عمرها أقل من 150 عاماً، هي الآن قوة أوروبا التي لا غنى عنها. إنها الأولى في الشؤون الاقتصادية، وهي تتحدث بهدوء ولكنها تحمل عصا كبيرة اسمها اليورو، والقارة تنصت لها. ومع ذلك، فهي تتحدث ببساطة وهدوء عن السياسة الخارجية العالمية، ولا تتحدث على الإطلاق في بعض

الأحيان، وتبغض استخدام العصي بغضاً واضحاً.

لا يزال شبح الحرب العالمية الثانية يخيّم على ألمانيا. كان الأمريكيون، وفي النهاية الأوروبيون الغربيون، على استعداد لقبول إعادة تسلّح ألمانيا بسبب التهديد السوفيتي، لكن ألمانيا أعادت تسلّحها على مضض تقريباً، وكانت متردّدة في استخدام قوتها العسكرية. لقد لعبت دوراً سريعاً في كوسوفو وأفغانستان، لكنها اختارت الابتعاد عن الصراع في الأزمة الليبية.

كانت أخطر «غزوة» دبلوماسية غير اقتصادية قامت بها ألمانيا في أزمة أوكرانيا، وهي تخبرنا الكثير عن المكان الذي تتطلّع إلى الوصول إليه الآن. شاركت ألمانيا في المكائد التي أطاحت بالرئيس الأوكراني يانوكوفيتش عام 2014، وانتقدت بشدة ضم روسيا لاحقاً لشبه جزيرة القرم. ومع ذلك، مع مراعاة خطوط أنابيب الغاز، كانت برلين في انتقاداتها ودعمها للعقوبات أكثر تحفظاً على نحو ملحوظ من المملكة المتحدة، مثلاً، وهي التي تعتمد بشكل أقل على الطاقة الروسية. تُلقي ألمانيا مرساتها -عن طريق الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي- في أوروبا الغربية، ولكن المرساة يمكن أن تنزلق أثناء الطقس العاصف إلى مكان آخر. إن برلين من الناحية الجغرافية في موقع يؤهلها لإعادة تركيز انتباهها وصرفه شرقاً إذا لزم الأمر عن طريق إقامة علاقات أوثق مع موسكو.

المملكة المتحدة بدورها تراقب كل هذه المكائد القارية من على طرف المحيط الأطلسي، وقد تكون حاضرة على أراضي القارة في

بعض الأحيان، أو قد تبقى في «عزلة رائعة» أحياناً أخرى، ولكنها منخرطة دائماً، وبشكل كامل، في ضمان عدم ظهور قوة أكبر مما هي عليه في أوروبا. هذا صحيح الآن في غرف الاتحاد الأوروبي الدبلوماسية كما كان صحيحاً في السابق في ساحات القتال في أجينكور أو واترلو أو بالاكلافا.

تسعى المملكة المتحدة في العصر الحديث إلى إقحام نفسها في التحالفات الفرنسية-الألمانية الكبرى. وإذا فشلت في ذلك، فإنها تسعى إلى تحالفات بين الدول الأعضاء الأخرى الأصغر حجماً لبناء ما يكفي من الدعم الذي تتحدى به السياسات التي تختلف معها. لقد سعى البريطانيون على مدى عدة قرون لضمان عدم وجود قوة مهيمنة بشكل ساحق في القارة، وقد استمرت هذه السياسة خلال عضوية الاتحاد الأوروبي، وستستمر في المستقبل، سواء كانت المملكة المتحدة عضواً أم لا.

البريطانيون جغرافياً في وضع جيد: أرض زراعية خصبة، وأنهار مناسبة، وقدرة ممتازة على الوصول إلى البحار ومخزوناتها السمكية، وهي قريبة بما يكفي من القارة الأوروبية لتسيير التجارة، كما إنها محميّة بطبيعتها من حيث هي جزيرة. كانت هناك أوقات صارت فيها المملكة المتحدة ممتنّةً لجغرافيتها لأن الحروب والثورات تجنّبتها واجتاحت جيرانها.

لا ينبغي الاستهانة بخسائر البريطانيين وخبرتهم في الحروب العالمية، لكنها تتضاءل مقارنة بما حدث في أوروبا القارية في القرن

العشرين وقبل ذلك بالفعل، ويظلّ البريطانيون بعيدين عن التعايش مع الذاكرة الجماعية التاريخية التي جسّدتها الغزوات المتكررة وتغيرات الحدود.

هناك نظرية مفادها أن أمن المملكة المتحدة النسبي على مدى مئات السنوات القليلة الماضية هو السبب في أنها شهدت قدراً أكبر من الحرية، واستبداداً أقل، من البلدان المطلّة على القناة. تذهب هذه النظرية إلى أن هناك متطلبات أقل لـ«الرجال الأقوياء» أو الديكتاتوريين، وهي التي أدّت، بدءاً من ماغنا كارتا (1215) ثم أحكام أكسفورد (1258)[58]، إلى أشكال من الديمقراطية تسبق البلدان الأخرى بعدة سنوات.

تبدو هذه نقطة نقاش جيدة، وإن لم تكن قابلة للإثبات. ما لا يمكن إنكاره هو أن المياه المحيطة بالجزيرة، وأشجارها التي سمحت ببناء قوة بحرية كبيرة، والظروف الاقتصادية التي أشعلت شرارة الثورة الصناعية، أدّت جميعها إلى إمبراطورية بريطانيا العظمى المسيطرة عالمياً. قد تكون بريطانيا أكبر جزيرة في أوروبا، لكنها ليست دولة كبيرة. إن توسع قوتها في جميع أنحاء العالم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين أمر يلفت النظر حتى مع تراجع موقعها منذ ذلك الحين.

لا يزال موقع بريطانيا يمنحها مزايا إستراتيجية معينة، أحدها هو

---

58 . أحكام أكسفورد Provisions of Oxford: إصلاحات دستورية طوّرت عام 1258 لحل النزاع بين الملك هنري الثالث والبارونات.

الفجوة الأطلسية التي تمثّلها غرينلاند وأيسلندا والمملكة المتحدة (جي. آي. يو. كي GIUK).[59] هذه نقطة اختناق في الممرات البحرية في العالم، وهي لا تقل أهمية عن مضيق هرمز أو مضيق ملقا، ولكنها عادةً ما تمنح المملكة المتحدة ميزة في شمال المحيط الأطلسي. الطريق البديل للبحرية الأوروبية الشمالية (بما في ذلك بلجيكا وهولندا وفرنسا) للوصول إلى المحيط الأطلسي يمر عبر القناة الإنجليزية، ولكن هذا الطريق ضيق نسبياً (20 ميلاً عبر مضيق دوفر)، ومحميّ تماماً، وهكذا فإن أي سفينة بحرية روسية قادمة من القطب الشمالي يجب أن تمر عبر فجوة «جي. آي. يو. كي» في طريقها إلى المحيط الأطلسي.

لقد تضاءلت هذه الميزة الإستراتيجية بالتزامن مع انخفاض دور وقوة البحرية الملكية، ولكن المملكة المتحدة تستفيد منها في وقت الحرب. وتعدّ «جي. آي. يو. كي» أحد الأسباب العديدة التي دفعت لندن إلى حالة من الذعر عام 2014 عندما بدا، لفترة وجيزة، أن التصويت على استقلال اسكتلندا قد ينتهي بالإيجاب، ففقدان القوة في بحر الشمال وشمال المحيط الأطلسي أشبه بضربة إستراتيجية هائلة لكل ما تبقى لدى المملكة المتحدة من سيطرة بحرية.

ما يملكه البريطانيون الآن هو ذاكرة جماعية تمثّل العظمة. هذه

---

59. جي آي يو كي GIUK : اختصار من غرينلاند وأيسلندا والمملكة المتحدة، وهو ممر استراتيجي للسفن العسكرية، يتحكم في الوصول عبر بحر المانش إلى المحيط.

الذاكرة هي التي تقنع الكثير من الناس في الجزيرة بأنه إذا كان هناك شيء ما في العالم يجب القيام به، فيجب أن تكون بريطانيا من بين الدول التي تفعل ذلك. لقد بقي البريطانيون داخل أوروبا، وهم مع ذلك خارجها. إنها قضية لم تُسوَّ بعد.

بعد أربعين عاماً من الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، قرّر البريطانيون إجراء استفتاء حول ما إذا كانوا سيظلون جزءاً منه أم لا. صوّتت الأغلبية على الخروج، لكن النتيجة قد تهدّد وحدة المملكة المتحدة لأنها كشفت عن انقسامات في كتلة الاتحاد. صوتت الأغلبية في اسكتلندا لصالح البقاء ضمن الاتحاد، وبالتالي فإن فوز المنادين بمغادرته أثار مرة أخرى مسألة استقلال اسكتلندا. ومن ناحية أخرى، قد تتم إعاقة حملة استقلال اسكتلندا بسبب الصعوبات المفترضة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. لقد أوضحت بروكسل لكاتالونيا، رداً على الأزمة التي بدأت عام 2017، أنه إذا غادرت إسبانيا، فقد يستغرق الأمر أكثر من عقد لتصبح عضواً في الاتحاد الأوروبي. إذا كان الأمر نفسه ينسحب على اسكتلندا، فسيكون ذلك خارج المملكة المتحدة وخارج الاتحاد الأوروبي، أما بالنسبة إلى دولة صغيرة ذات موارد محدودة، فإنه سيقود إلى موقف هشّ غير مريح.

تظهر على كاتالونيا أعراض ما عُرف خلال ذروة الاتحاد الأوروبي بمشاعر الدول (وحتى المناطق) الأصغر، داخل الدول القومية. ومع تجاهل هذه المناطق لعقود من الزمن، فاجأت القومية

التي ظهرت في الأزمة الكاتالونية العديد من الأوروبيين. كاتالونيا لا تريد مغادرة الاتحاد الأوروبي، ولا اسكتلندا، لكن أعداداً كبيرة من الناخبين على استعداد للمخاطرة بذلك من أجل مغادرة إسبانيا الموحّدة والمملكة المتحدة. أسفر الاستفتاء الأسكتلندي عام 2014 بشأن الاستقلال عن تصويت 55.3 في المائة ضده، لكن القضية لم تختف، لا هناك ولا في كاتالونيا.

إن المسألتين الرئيسيتين اللتين دفعتا البريطانيين إلى التوجّه نحو الخروج مرتبطان، وهما السيادة والهجرة. كان الرأي المناهض للاتحاد الأوروبي، المدعوم من قبل بعض المترددين، مدفوعاً بحجم ونوعية القوانين التي سنّها الاتحاد الأوروبي، وهي التي كان على المملكة المتحدة الالتزام بها، وذلك جزء من صفقة العضوية. وكمثال على ذلك، صدرت عناوين الصحف حول المجرمين الأجانب المدانين بارتكاب جرائم خطيرة في المملكة المتحدة ولا يمكن ترحيلهم بسبب أحكام صادرة عن محكمة العدل الأوروبية.

في الوقت نفسه، أدت موجة المهاجرين واللاجئين الاقتصاديين الذين وصلوا إلى أوروبا من الشرق الأوسط وأفريقيا أيضاً إلى إثارة الشعور المناهض للاتحاد الأوروبي حيث يرغب العديد من هؤلاء المهاجرين في الوصول إلى بريطانيا، ويُعتقد أنهم شُجِّعوا على القيام بذلك عن طريق دول الاتحاد الأوروبي التي يمرون عبرها.

دائماً ما يزداد التحيز ضد المهاجرين في أوقات الركود الاقتصادي، كما حدث مؤخراً في أوروبا، وقد شوهدت الآثار في

جميع أنحاء القارة وأسفرت عن صعود الأحزاب السياسية اليمينية، وجميعها يناهض القومية [الأوروبية]، ويُضعف بالتالي نسيج الاتحاد الأوروبي.

ظهر في أوائل عام 2016 مثال صارخ على ذلك عندما بدأت السويد، لأول مرة منذ نصف قرن، في التحقق من وثائق المسافرين من الدنمارك. كان ذلك استجابة مباشرة لأعداد اللاجئين والمهاجرين الذين يتدفقون إلى شمال أوروبا من الشرق الأوسط، ولهجمات تنظيم الدولة الإسلامية على باريس في نوفمبر 2015.

تعرّضت فكرة «منطقة شنغن» التابعة للاتحاد الأوروبي، وهي منطقة خالية من الحدود تضم ستاً وعشرين دولة، لبعض الضربات الشديدة، ومع وجود دول مختلفة أعادت في أوقات مختلفة فرضَ ضوابط الحدود لأسباب أمنية، بدأت الدنمارك في فحص الأشخاص الذين يعبرون من ألمانيا. كل هذا كان ذا تكلفة اقتصادية، ويجعل السفر أكثر صعوبة، وهو هجوم مادي ومفاهيمي على فكرة «الاتحاد الأوثق». بدأ بعض المحللين الحديث عن «أوروبا المحصّنة» بسبب العطاءات لتقليل مستويات الهجرة، لكن هذا يغفل حقيقة أن هناك أيضاً انجراف نحو «الدولة القومية المحصّنة».

السكان البيض التقليديون في أوروبا يشيخون. وتوقعات السكان تصوِّر وجود هرم مقلوب، يكون فيه كبار السن في القمة وعدد أقل من الشباب يعتنون بهم ويدفعون الضرائب. ومع ذلك، فإن مثل هذه التوقعات لم تؤثر على قوة الشعور المناهض

للمهاجرين بين السكان الأصليين الذين يكافحون للتعامل مع التغيرات السريعة في العالم الذي نشأوا فيه. ويؤثر هذا التغيير الديموغرافي بدوره على السياسة الخارجية للدول القومية، ولا سيما تجاه الشرق الأوسط. وفي ما يتعلق بقضايا مثل حرب العراق أو الصراع الإسرائيلي/ الفلسطيني، مثلاً، يجب على العديد من الحكومات الأوروبية، أن تأخذ في الاعتبار، على الأقل، مشاعر مواطنيها المسلمين عند صياغة السياسة.

كذلك تتأثر السّمات والأعراف الاجتماعية المحلية في الدول الأوروبية، كما في النقاشات السائدة حول حقوق المرأة والحجاب وقوانين التجديف الديني وحرية التعبير والعديد من القضايا الأخرى التي تأثرت بوجود أعداد كبيرة من المسلمين في المناطق الحضرية في أوروبا. كانت مقولة فولتير بأنه «سيدافع حتى الموت عن حق أي شخص في قول ما يريد، حتى لو وجده مسيئاً» تعدّ في السابق أمراً بديهياً. أما الآن، على الرغم من مقتل العديد من الأشخاص بسبب أن ما قالوه يعدّ إهانة، فقد انحرف الجدل عن مساره. ليس من غير المألوف سماع أن الفكرة التي قد تمثّل إهانة للدين يجب أن لا تكون عابرةً، أو ربما يجب حظرها قانونياً. في حين أن الليبراليين في السابق كانوا يدعمون مقولة فولتير بالكامل، هناك الآن ظلال من النسبية. أعقبت مذبحة الصحفيين في مجلة «شارلي إيبدو» الفرنسية الساخرة عام 2015 إدانة واشمئزازاً كبيرين؛ ومع ذلك، كانت أجزاء من الإدانة الليبرالية مشوبة بـ«لكن ربما ذهب الرسامون الساخرون أبعد مما يجب». هذا شيء جديد بالنسبة إلى

أوروبا في العصر الحديث، وهو جزء من حروبها الثقافية، وكلها تعود إلى المواقف إزاء الهياكل السياسية الأوروبية.

إن حلف شمال الأطلنطي يتآكل من أطرافه في الوقت نفسه، مثلما هو الاتحاد الأوروبي. يمكن رتقهما، ولكن إذا لم يحدث ذلك، فقد ينهارا بمرور الوقت أو يصبحا غير صالحين. وسنعود في هذه المرحلة إلى أوروبا المكوّنة من دول قومية ذات سيادة، حيث تسعى كل دولة إلى تكوين تحالفات في نظام توازن القوى. سيكون الألمان مرة أخرى خائفين من محاصرة الروس والفرنسيين، وسيخشى الفرنسيون مرة أخرى جارهم الأكبر، وسوف نعود جميعاً إلى بداية القرن العشرين.

يعدّ هذا التصور كابوساً بالنسبة إلى الفرنسيين. لقد ساعدوا بنجاح في شد وثاق ألمانيا داخل الاتحاد الأوروبي، ثم اكتشفوا بعد إعادة توحيد ألمانيا أنهم أصبحوا الشريك الأصغر في عربة ثنائية المحرّك كانوا يأملون قيادتها. ويطرح هذا أمام باريس مشكلة لا يبدو أنها قادرة على حلها. ما لم تقبل بهدوء أن برلين هي صاحبة المبادرة في أوروبا، فإنها تخاطر بإضعاف الاتحاد بشكل أكبر. لكن إذا قبلت القيادة الألمانية، فإن قوتها تتضاءل.

فرنسا قادرة على انتهاج سياسة خارجية مستقلة حقاً، مع قوة الردع النووي الخاصة بها، وأراضيها الخارجية وقواتها المسلحة المدعومة بحاملات الطائرات، وإذ تفعل ذلك، فإنها تعمل بأمان وهي تعلم أن جناحها الشرقي آمنٌ ويمكنها أن تتطلّع إلى الأفق.

تعمل كل من فرنسا وألمانيا حالياً على الحفاظ على تماسك الاتحاد: فهما ينظران إلى بعضيهما الآن كما ينظر الشركاء الطبيعيين، لكن ألمانيا وحدها هي التي تحتفظ بخطة بديلة هي روسيا.

لقد شهدت نهاية الحرب الباردة قيام معظم القوى القارية بتخفيض ميزانياتها العسكرية وتقليص قواتها المسلحة. وتلقّت صدمة الحرب الروسية الجورجية عام 2008 وضم شبه جزيرة القرم من قبل روسيا عام 2014 بتركيز الانتباه على احتمال نشوء مشكلة الحرب القديمة في أوروبا. كما يقوم الروس الآن على نحو منتظم بتنفيذ مهام تهدف إلى اختبار أنظمة الدفاع الجوي الأوروبية، وهم منشغلون في توحيد أنفسهم في أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا وشبه جزيرة القرم وترانسنيستريا وشرق أوكرانيا. إنهم يحافظون على روابطهم مع العرق الروسي في دول البلطيق، ولا يزال لديهم «مَعْزَل» [60] كالينينجراد على بحر البلطيق.

بدأ الأوروبيون إجراء بعض عمليات إعادة الحساب الجادة بشأن إنفاقهم العسكري، لكن ليس هناك الكثير من المال، وهم يواجهون قرارات صعبة. وبينما يناقشون تلك القرارات، ينفضون الغبار عن الخرائط، ويرى الدبلوماسيون والخبراء الإستراتيجيون العسكريون أنه في الوقت الذي ربما اختفت فيه تهديدات شارلمان ونابليون وهتلر والسوفييت، فإن السهل الأوروبي الشمالي وجبال

60 . معزل (أو مقتَلَف) exclave: منطقة أو إقليم دولة محاط تماماً بأراضي دولة أو دول أخرى. وكالينتغراد المشار إليها مقاطعة روسية تحيط بها بولندا وليتوانيا وبحر البلطيق.

الكاريبي وبحر البلطيق وبحر الشمال... لا تزال هناك [أي إن تهديدات أخرى قد تظهر بوجود هذه التضاريس الإشكالية].

يقول المؤرخ روبرت كاجان في كتاب له بعنوان «عن الجنة والقوة» إن الأوروبيين الغربيين يعيشون في الجنة، ولكنهم لا يجب أن يسعوا إلى العمل وفقاً لقواعد الجنة ما أن يصبحوا جزءاً من عالم القوة. وبينما تتضاءل أزمة اليورو وننظر حوالينا إلى الجنة، ربما يبدو أنه من غير المعقول أن نتمكن من العودة إلى الوراء، لكن التاريخ يخبرنا كم يمكن أن تتغير الأشياء في غضون بضعة عقود فقط، وتخبرنا الجغرافيا أنه إذا لم يسع البشر باستمرار إلى التغلب على «قواعدها»، فإن «قواعدها» ستتغلب عليهم.

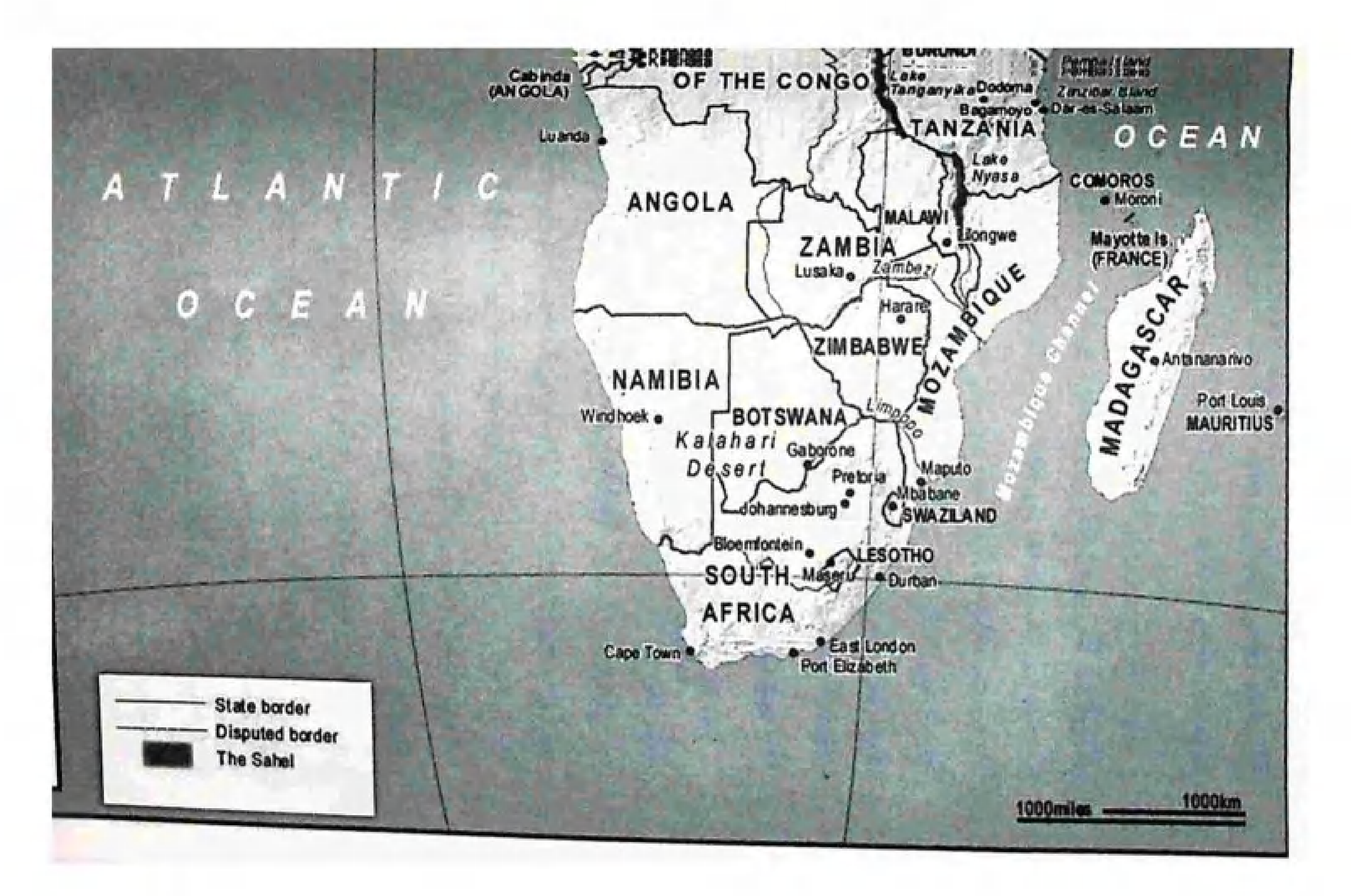
هذا ما قصده هيلموت كول عندما حذر وهو يغادر مستشارية ألمانيا عام 1998، من أنه كان آخر زعيم ألماني عاش خلال الحرب العالمية الثانية، وأنه عانى بالتالي من الأهوال التي أحدثتها. وقد كتب مقالاً في صحيفة «بيلد» عام 2012، وهي الصحيفة الإخبارية اليومية الأكثر مبيعاً في ألمانيا، وبدا من الواضح أنه لا يزال مسكوناً باحتمال عدم قيام الجيل الحالي من القادة، بسبب الأزمة المالية، برعاية تجربة ما بعد الحرب في الثقة بأوروبا. كتب يقول: «بالنسبة لأولئك الذين لم يعيشوا هذا بأنفسهم، والذين يعيشون وطأة الأزمة الآن، ويتساءلون عن الفوائد التي تجلبها وحدة أوروبا، فإن الإجابة بغض النظر عن فترة السلام الأوروبية غير المسبوقة التي استمرت لأكثر من 65 عاماً، وبغض النظر عن المشكلات والصعوبات التي ما زلنا في حاجة إلى التغلب عليها... هي: السلام».

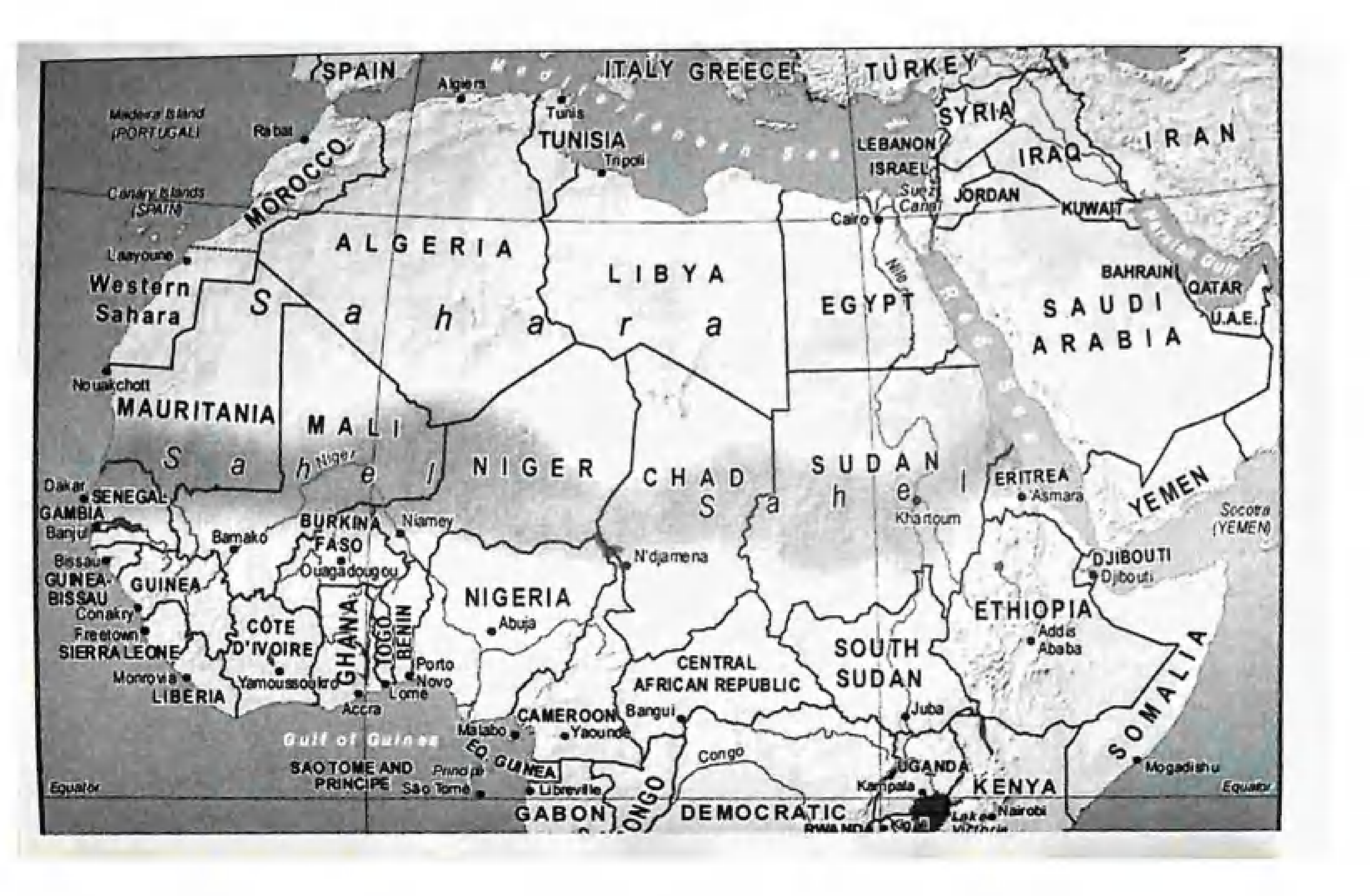
الفصل الخامس

أفريقيا

«يبدو الأمر مستحيلاً دائماً... حتى يتم إنجازه».

نيلسون مانديلا


ATLANTIC OCEAN
OCEAN
Cabinda (ANGOLA)
Luanda
OF THE CONGO
ANGOLA
NAMIBIA
Windhoek
BOTSWANA
Kalahari Desert
Gaborone
ZAMBIA
Lusaka
Zambezi
MALAWI
Lilongwe
ZIMBABWE
Harare
Limpopo
MOZAMBIQUE
Maputo
Mbabane
SWAZILAND
Pretoria
Johannesburg
Bloemfontein
LESOTHO
Maseru
Durban
SOUTH AFRICA
Cape Town
East London
Port Elizabeth
TANZANIA
Lake Tanganyika
Dodoma
Bagamoyo
Dar-es-Salaam
Zanzibar Island
Pemba Island
Lake Nyasa
COMOROS
Moroni
Mayotte Is. (FRANCE)
Mozambique Channel
MADAGASCAR
Antananarivo
Port Louis
MAURITIUS
State border
Disputed border
The Sahel
1000miles
1000km


SPAIN
ITALY
GREECE
TURKEY
SYRIA
IRAN
IRAQ
LEBANON
ISRAEL
JORDAN
KUWAIT
BAHRAIN
QATAR
U.A.E.
SAUDI ARABIA
YEMEN
Socotra (YEMEN)
Madeira Island (PORTUGAL)
Canary Islands (SPAIN)
Rabat
MOROCCO
Algiers
Tunis
TUNISIA
Tripoli
Laayoune
Western Sahara
ALGERIA
LIBYA
EGYPT
Cairo
Suez Canal
Nile
Nouakchott
MAURITANIA
MALI
NIGER
CHAD
SUDAN
Sahara
Sahel
ERITREA
Asmara
Khartoum
DJIBOUTI
Djibouti
ETHIOPIA
Addis Ababa
SOMALIA
Mogadishu
Dakar
SENEGAL
GAMBIA
Banjul
Bissau
GUINEA-BISSAU
GUINEA
Conakry
Freetown
SIERRA LEONE
Monrovia
LIBERIA
Bamako
BURKINA FASO
Ouagadougou
Niamey
N'djamena
CÔTE D'IVOIRE
Yamoussoukro
GHANA
Accra
TOGO
Lomé
BENIN
Porto Novo
NIGERIA
Abuja
CAMEROON
Yaounde
Malabo
EQ. GUINEA
CENTRAL AFRICAN REPUBLIC
Bangui
SOUTH SUDAN
Juba
Gulf of Guinea
SAO TOME AND PRINCIPE
Principe
São Tomé
Libreville
GABON
CONGO
Congo
DEMOCRATIC
UGANDA
Kampala
KENYA
Nairobi
Lake Victoria
Kigali
RWANDA
Equator



ساحل أفريقيا! إنه شواطئ رائعة، شواطئ جميلة حقاً، لكنها موانئ طبيعية رهيبة. الأنهار! إنها أنهار مذهلة، ولكن معظمها غير صالح لنقل أي شيء فعلياً، لأنك تواجه شلّالاً بعد كلّ بضعة أميال. هاتان اثنتان فقط من قائمة طويلة من المشكلات التي تساعد على تفسير سبب عدم نجاح أفريقيا تقنياً أو سياسياً، مثل أوروبا الغربية أو أمريكا الشمالية.

هناك الكثير من الأماكن التي لم تنجح في العالم، ولكن القليل منها كان أقل نجاحاً من أفريقيا، وذلك على الرغم من كونها كانت في البدء، بوصفها المكان الذي نشأ فيه الإنسان العارف منذ 200 ألف عام تقريباً. كما قال ذلك أكثر الكتّاب وضوحاً، جارد دياموند، في مقال متألق نشرته مجلة «ناشيونال جيوغرافيك» عام 2005: «الأمر على عكس ما يتوقعه المرء من العدّاء وهو يندفع منطلقاً». ومع ذلك، فإن العدّائين السبّاقين أصبحوا منفصلين عن أي شخص آخر بسبب الصحراء الكبرى والمحيط الهندي والمحيط الأطلسي. لقد تطورت القارّة بأكملها أسفل الصحراء بمعزل عن الكتلة الأوراسية، حيث تم تبادل الأفكار والتكنولوجيا من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، ولكن ليس من الشمال إلى الجنوب.

كانت أفريقيا، لكونها قارة ضخمة، تتكون دائماً من مناطق ومناخات وثقافات مختلفة، ولكن ما كان مشتركاً بينها جميعاً هو عزلتها عن بعضها بعضاً وعن العالم الخارجي، خاصة في المناطق الداخلية حيث وُجدت غابات الكونغو المطيرة على هيئة حاجز هائل أمام طرق التجارة. ليس هذا هو الحال الآن، لكن الإرث يظلّ باقياً.

إن فكرة العالم عن الجغرافيا الأفريقية غير صائبة، فقلّة هم من يدركون مدى حجمها، ذلك لأن معظمنا يستخدم خريطة مركاتور[61] القياسية، وهي، كما في الخرائط الأخرى، تصوّر كتلة كروية على سطح مستوٍ فتشوّه الأشكال. إن أفريقيا أكثر شساعةً مما تُصوَّر عادة، وهذا ما يفسّر ضخامة الإنجاز الذي حققه الدوران حول رأس الرجاء الصالح، ويذكّر بأهمية قناة السويس في التجارة العالمية. كان الدوران حول رأس الرجاء إنجازاً بالغ الأهمية، ولكنه أصبح غير ضروري، فمع قناة السويس تقلّصت الرحلة البحرية من أوروبا الغربية إلى الهند بمقدار 6000 ميل.

إذا نظرت إلى خريطة العالم وتصوّرت ألاسكا متّصلةً بولاية كاليفورنيا، ثم قلبت الولايات المتحدة رأساً على عقب، فستبدو لك

61 . مركاتور Mercator: جغرافي ورسام خرائط من القرن السادس عشر. رسم خريطة العالم عام 1569، ويعتمد مقياس الإسقاط في خريطته على تمثيل الشمال بجعله أعلى وأسفل في كل مكان مع الحفاظ على الاتجاهات الموضعية، وأنتج خارطة مستطيلة ذات خطوط طول متوازية ومتساوية التباعد فيما بينها، وخطوط عرض مستقيمة ومتوازية ولكنها غير متساوية بل تتباعد كلما اقتربنا من القطبين. وتنتقد خريطة مركاتور لأنها تشوّه أبعاد الأرض الفعلية خاصة في خط الاستواء.

كأنها تتناسب مع أفريقيا تقريباً، مع وجود بعض الفجوات هنا وهناك. إن أفريقيا في الواقع أكبر بثلاثة أضعاف من الولايات المتحدة. انظر مرة أخرى إلى خريطة مركاتور القياسية وسترى أن مساحة غرينلاند تبدو بنفس حجم أفريقيا، ومع ذلك فإن مساحة أفريقيا تبلغ في الواقع أربعة عشر ضعف مساحة غرينلاند! يمكنك وضع الولايات المتحدة الأمريكية وغرينلاند والهند والصين وإسبانيا وفرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة في أفريقيا، ويبقى فيها متّسع أيضاً لمعظم دول أوروبا الشرقية. نحن نعلم أن أفريقيا كتلة أرضية بالغة الضخامة، لكن الخرائط نادراً ما تخبرنا كم هي ضخمة فعلاً.

يمكن تفسير جغرافيا هذه القارة الشاسعة بعدة طرق، لكن أبسطها هو التفكير في أفريقيا من جهة ثلثها الأعلى وثلثيها السفليين.

يبدأ الثلث الأعلى على سواحل البحر الأبيض المتوسط في البلدان الناطقة باللغة العربية في شمال أفريقيا، ثم سرعان ما تتحول السهول الساحلية إلى الصحراء الكبرى، وهي أكبر صحراء جافة في العالم، وتكاد تبلغ مساحتها حجم الولايات المتحدة. تقع منطقة الساحل[62] مباشرة أسفل الصحراء، وهي عبارة عن شريط أرضي

62 . منطقة الساحل Sahel region : تمتد عبر خطوط العرض الجنوبية الوسطى لشمال أفريقيا بين المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر. يسودها مناخ حار شبه جاف، وتشمل من الغرب إلى الشرق: أجزاء من شمال السنغال وجنوب موريتانيا ووسط مالي وشمال بوركينا فاسو وأقصى جنوب الجزائر والنيجر وأقصى شمال نيجيريا

شبه قاحل تتناثر فيه الصخور والرمال يبلغ طوله أكثر من 3000 ميل في أوسع نقاطه ويمتد من غامبيا على ساحل المحيط الأطلسي عبر النيجر وتشاد وإلى إريتريا مباشرة على البحر الأحمر، وكلمة «الساحل» كلمة عربية، وهي الطريقة التي يفكر بها الناس الذين يعيشون هنا في هذا المعنى، أي بوصفها ساحلاً على البحر الرملي الشاسع الذي تمثله الصحراء الكبرى. إنه نوع آخر من «الشواطئ»، وفيه يتضاءل تأثير الإسلام، فالغالبية العظمى من الناس مسلمون، من الساحل إلى البحر الأبيض المتوسط، ثم تتنوع الأديان باتجاه الجنوب.

في الثلثين السفليين من أفريقيا يشهد جنوب الساحل تنوعاً أكبر في معظم الأشياء، حيث تصبح الأرض أكثر اعتدالاً ويظهر الاخضرار الذي يتكثّف ويصبح غابة كلما اقتربنا من الكونغو وجمهورية أفريقيا الوسطى. وباتجاه الساحل الشرقي توجد البحيرات الكبرى في أوغندا وتنزانيا، بينما تظهر المزيد من الصحاري في أنغولا وناميبيا في الغرب، ومع وصولنا إلى طرف جنوب أفريقيا، يصبح المناخ «متوسطياً» مرة أخرى، على الرغم من أننا قطعنا ما يقرب من 5000 ميل من أقصى نقطة في شمال تونس على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

بالنظر إلى أن أفريقيا هي المكان الذي نشأ فيه البشر، فنحن جميعاً

والكاميرون وجمهورية أفريقيا الوسطى ووسط تشاد، وسط وجنوب السودان، وأقصى شمال جنوب السودان وإريتريا وإثيوبيا.

أفارقة. ومع ذلك فقد تغيرت خريطة الأعراق منذ حوالي 8000 سنة قبل عصرنا الحالي، عندما فقد بعض الذين جابوا أمكنة مثل الشرق الأوسط وحول منطقة المتوسط حبّ التجوال واستقروا، ثم بدأوا الزراعة وتجمعوا في نهاية المطاف في قرى وبلدات.

بالاتجاه جنوباً نرى القليل من النباتات التي دُجّنت، وعدداً أقل من الحيوانات، حيث يتكون جزء كبير من الأرض من غابات أو مستنقعات أو صحاري أو هضاب شديدة الانحدار، لا يصلح أي منها لزراعة القمح أو الأرز، أو لرعاية قطعان الأغنام. لقد رفضت وحاد القرون والغزلان والزرافات الأفريقية بعناد أن تكون وحوشاً تحمل الأعباء، أو كما قال جارد دياموند بطريقة لا تُنسى: «كان من الممكن أن يتحول التاريخ على نحو مختلف إذا تغذّت الجيوش الأفريقية بلحوم الزرافات، وساندتها أمواج من سلاح الفرسان الذين يمتطون وحاد القرون الضخمة، ثم اجتاحوا أوروبا وتغلّبوا على جنودها الذين يأكلون الضأن ويمتطون جياداً صغيرة». لكن بداية أفريقيا في قصتنا المشتركة أتاحت لها مزيداً من الوقت لتطوير شيء آخر يعيقها حتى يومنا هذا ويجعلها متخلّفةً، أعني مجموعة فتّاكة من الأمراض، مثل الملاريا والحمى الصفراء الناجمة عن الحرارة، وهي التي أصبحت الآن أكثر تعقيداً بسبب ظروف المعيشة المزدحمة وفقر البنية التحتية في الرعاية الصحية. إن هذا صحيح بالنسبة إلى مناطق أخرى أيضاً، مثل شبه القارة الهندية وأمريكا الجنوبية، مثلاً، ولكن أفريقيا جنوب الصحراء بالتحديد كانت الأكثر تضرراً، كما في مثال فيروس نقص المناعة البشرية،

بالإضافة إلى ما لديها من مشكلات أخرى بسبب انتشار البعوض وذبابة تسي تسي.

تمثّل معظم أنهار القارة مشكلة أخرى، فهي تتدفق من المرتفعات وتسيل بغتةً فتعيق الملاحة. قد يكون نهر زامبيزي العظيم رابع أطول نهر في أفريقيا، وهو يمتد مسافة 1600 ميل، وقد يكون معلماً سياحياً مذهلاً مع منحدرات المياه البيضاء وشلالات فيكتوريا، أما من حيث استخدامه طريقاً تجارياً، فهو ليس ذا فائدة تذكر. إنه يتدفق عبر ستة بلدان، وينحدر من علو 4900 قدم إلى مستوى سطح البحر عندما يصل إلى المحيط الهندي في موزمبيق. صحيحٌ أن بعض أجزائه صالحة للملاحة بالقوارب الصغيرة، لكن هذه الأجزاء غير مترابطة، وهذا يحدُّ من نقل البضائع.

على عكس أوروبا التي يوجد بها نهر الدانوب والراين، فقد أعاق هذا العيب الاتصال والتجارة بين المناطق، ما انعكس بدوره على التنمية الاقتصادية، وأعاق خلق مناطق تجارية كبيرة. إن أنهار القارة العظيمة، مثل النيجر والكونغو وزامبيزي والنيل وغيرها، لا تتصل ببعضها بعضاً، ولهذا الانفصال عامل بشري. ففي حين أن مناطق شاسعة من روسيا والصين والولايات المتحدة تتحدث لغة موحدة تساعد على التجارة، توجد في أفريقيا آلاف اللغات، ولم تنشأ ثقافة واحدة تؤدي إلى السيطرة على المناطق ذات الحجم المماثل. من ناحية أخرى، فإن أوروبا صغيرة بالقدر الذي يسمح لها باستخدام «لغة مشتركة» يمكن التواصل بها، كما أنها ذات معالم طبيعية شجّعت شعوبها على التفاعل.

حتى مع نشأة دول قومية منتجة تقنياً، فإن معظم أجزاء القارة ستظل تكابد من أجل الاتصال ببقية العالم لأن الجزء الأكبر من كتلتها الأرضية مطوّق بالمحيطين الهندي والأطلسي والصحراء الكبرى، دون أن يؤثّر تبادل الأفكار والتقنيات فعلياً على أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى على مدى آلاف السنين. ولكن على الرغم من ذلك، نشأت العديد من الإمبراطوريات والدول-المدن الأفريقية بعد حوالي القرن السادس الميلادي: مثل إمبراطورية مالي (بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر)، وزيمبابوي الكبرى (بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر)، والأخيرة في أرض يحيطها نهرا زامبيزي وليمبوبو. ومع ذلك، فإن هذين الكيانين - وهناك غيرهما- عُزِلا في كتل إقليمية صغيرة نسبياً، وعلى الرغم من أن الثقافات العديدة المتنوعة التي ظهرت عبر القارة ربما كانت متطورة سياسياً، إلا أن العامل الطبيعي ظل عائقاً أمام التطور التقني، ومع الوقت الذي وصل فيه العالم الخارجي إلى القارة مدجّجاً بالسلاح، كان معظم القارة لم يتمكن بعد من التطوّر إلى ابتكار الكتابة أو صناعة الورق أو البارود أو العجلة.

مع استخدام الإبل، منذ حوالي 2000 عام، صار التجار القادمين من الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط يتاجرون مع أقوام الصحراء، ولا سيما في الموارد الهائلة من الملح هناك، ولكن المشهد لم يكن مهيأ للتطوّر جنوباً إلا بقدوم الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي. وبحلول القرن التاسع كانوا قد عبروا الصحراء، ومع القرن الحادي عشر ثبتوا أنفسهم بقوة في أقصى

الجنوب حيث نيجيريا الحالية، وكان العرب ينزلون كذلك على الساحل الشرقي ويستقرون في أماكن مثل زنجبار ودار السلام في ما يعرف الآن بتنزانيا.

عندما وصل الأوروبيون أخيراً إلى الساحل الغربي في القرن الخامس عشر، وجدوا القليل من الموانئ الطبيعية لرسو سفنهم، وعلى العكس من أوروبا أو أمريكا الشمالية، حيث تؤدي السواحل المتعرجة إلى ظهور موانئ طبيعية عميقة، فإن معظم السواحل الأفريقية كان سلسلة، وما أن وطأ الأوروبيون الأرض حتى كان عليهم أن يكابدوا لاختراق أي مسافة أبعد من حوالي 100 ميل بسبب صعوبة الإبحار في الأنهار، فضلاً عن تحديات المناخ والأمراض.

كان العرب، ثم الأوروبيون، قد جلبوا معهم تقنيات جديدة احتفظوا بها لأنفسهم في الغالب، وأخذوا كل ما وجدوا أنه ذا قيمة، وكان أساساً من الموارد الطبيعية ومن البشر أنفسهم.

كانت العبودية موجودة قبل وقت طويل من عودة العالم الخارجي إلى أفريقيا. استخدم التجار آلاف العبيد لنقل كميات هائلة من أثمن سلعة في المنطقة آنذاك، أي الملح، لكن العرب اصطنعوا التعاقد من الباطن مع زعماء القبائل الذين كانوا يسلمونهم العبيد في المناطق الساحلية. وبوصول الإمبراطورية العثمانية إلى أوج قوتها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كان قد تم نقل مئات الآلاف من الأفارقة (معظمهم من منطقة

السودان) إلى إسطنبول والقاهرة ودمشق وعبر العالم العربي. وحذا الأوروبيون حذوهم، وتفوقوا على العرب والأتراك في شهيتهم، وفي سوء معاملة الأشخاص الذين جُلبوا إلى سفن العبيد الراسية قبالة الساحل الغربي.

بالعودة إلى العواصم الكبرى في لندن وباريس وبروكسل ولشبونة، أخذ الأوروبيون بعد ذلك خرائط معالم أفريقيا الجغرافية ورسموا عليها خطوطاً، أو بالأحرى أكاذيب، تعكس نهجهم العدواني، وكتبوا بين تلك الخطوط كلمات مثل الكونغو الوسطى أو فولتا العليا، وأطلقوا عليها اسم «بلدان». كانت تلك الخطوط تدور حول مدى توغّل المستكشفين والقوات العسكرية ورجال الأعمال في الخريطة، أكثر مما تشير إلى شعور الناس الذين يعيشون في تلك الأقاليم بما سيؤولون إليه، أو كيف يريدون تنظيم أنفسهم. بعد ذلك أصبح العديد من الأفارقة جزئياً سجناء الجغرافيا السياسية التي صنعها الأوروبيون، والحواجز الطبيعية التي منحتها لهم الطبيعة وحالت دون تقدّمهم. وعلى هذا الأساس، صاروا يؤسسون بلدانهم الحديثة، ويقيمون، في بعض الحالات، اقتصاداتهم المتصلة والحيوية.

يوجد الآن ستة وخمسون دولة في أفريقيا. منذ أن هبت «رياح التغيير» مع حركة الاستقلال في منتصف القرن العشرين، تغيرت بعض الكلمات بين الخطوط القديمة التي رسمها الأوروبيون، روديسيا مثلاً أصبحت زيمبابوي، ولكن من المدهش أن الحدود

ظلّت سليمة في معظم الأحيان. ومع ذلك، فإن العديد منها يشمل نفس التقسيمات كما رُسِمت أولَ مرة، وما هذه التقسيمات الرسمية إلا قليل من الكثير من الموروثات التي أورثها الاستعمارُ القارةَ.

الصراعات العرقية التي يشهدها السودان والصومال وكينيا وأنغولا وجمهورية الكونغو الديمقراطية ونيجيريا ومالي وأماكن أخرى هي دليل على أن الفكرة الأوروبية عن الجغرافيا لا تتناسب مع تركيبة أفريقيا السكانية. ربما كان هناك صراع في كل الأوقات: كان لدى قبائل الزولو والخوسا خلافاتها على مدى زمن طويل قبل أن يعرفوا الأوروبيين، لكن الاستعمار أجبر هذه الاختلافات على أن تحلّ في بناء مصطنع هو مفهوم الدولة القومية الأوروبي. تعود الحروب الأهلية الحديثة جزئياً في هذا الوقت إلى أن المستعمرين أخبروا الأمم (الإثنيات) المختلفة أنهم أمة واحدة في دولة واحدة، وبعد طرد المستعمرين ظهر شعب مهيمن داخل كل دولة وأراد أن يحكمها بأسرها، وتولّد العنف تباعاً.

خذ ليبيا مثلاً، وهي بناء مصطنع عمره بضعة عقود فقط، فقد انهارت في الاختبار الأول وعادت إلى التقسيمات التي كوّنتها في السابق على أساس ثلاث مناطق جغرافية متمايزة. ففي الغرب وُجدت «تريبوليتانيا» Tripolitania في العصر اليوناني (من اليونانية بمعنى «ثلاث مدن»، وهي التي اندمجت في النهاية لتصبح طرابلس). وكانت المنطقة الواقعة إلى الشرق، وهي المتمركزة حول مدينة بنغازي ولكنها تمتد حتى حدود تشاد، تُعرف في كل من

العصر اليوناني والروماني باسم سرينايكا (برقة). وإلى أقصى جنوب غرب البلاد، توجد منطقة فزان.

كانت طرابلس على الدوام متوجهة نحو الشمال والشمال الغربي، وتتاجر مع جيرانها في جنوب أوروبا. بينما كانت برقة تتجه شرقاً إلى مصر والأراضي العربية، بل إن تيار البحر قبالة سواحل منطقة بنغازي يوجّه القوارب بشكل طبيعي إلى الشرق. أما فزان فكانت تقليدياً أرض البدو الذين ليس لديهم سوى القليل من القواسم المشتركة مع المجتمعين الساحليين.[63]

هذه هي الطريقة التي حكم بها الإغريق والرومان والأتراك المنطقة، وهكذا كان الناس يفكرون في أنفسهم على مدى قرون عديدة. وسوف تكافح الفكرة الأوروبية عن ليبيا من أجل البقاء، بعد أن مضى عليها عقود من الزمن، وقد أعلنت بالفعل إحدى الجماعات الإسلامية العديدة في الشرق «إمارة برقة»، وفي حين أن هذا الإعلان قد لا يتحقق، إلا أنه مثال على كيفية نشوء مفهوم الإقليم في خطوط الخرائط التي رسمها أشخاص غرباء.

إن أحد أكبر إخفاقات رسم الخطوط الأوروبية يكمن في وسط القارة، في الثقب الأسود العملاق المعروف باسم جمهورية الكونغو

63. هذا التحليل صحيح جزئياً فقط، فالكاتب يُغفل - عن قصد أو عن جهل - جزءاً كبيراً من تاريخ التحولات السياسية التي شهدتها ليبيا منذ القدم وصولاً إلى الحقبة الاستعمارية التي رسمت حدود ليبيا السياسية الحديثة، وينطبق ذلك على كامل شمال أفريقيا باستثناء مصر، فقد كان موحّداً طوال التاريخ وإن تتالت عليه الكيانات السياسية التي تداخلت حدودها أو تجاورت، أما التقسيمات الحالية (وهي خطوط مستقيمة في أغلبها) فتعود جميعاً إلى الأوروبيين في القرن العشرين. (المحرر)

الديمقراطية، فهذه هي الأرض التي وضع فيها جوزيف كونراد روايته «قلب الظلام»، وهي تظلّ مكاناً يكتنفه ظلام الحرب. إنها مثال أول على كيف يمكن أن يؤدي فرض الحدود المصطنعة إلى خلق دولة ضعيفة ومنقسمة، يمزقها الصراع الداخلي، ويُحكَم على ثروتها المعدنية بالاستغلال من قبل الغرباء.

جمهورية الكونغو الديمقراطية مثال يوضّح السبب الذي يجعل مصطلح «العالم النامي» فضفاضًا أثناء وصف البلدان التي لا تعدّ جزءاً من العالم الصناعي الحديث. إن جمهورية الكونغو الديمقراطية لا تتطور، ولا تظهر أي بوادر على ذلك، وما كان لأجزاء هذا البلد أن تُضمّ إلى بعضها بعضاً على هذا النحو. لقد انهارت وتشتّتت وصارت أكثر مناطق الحرب في العالم دون أن يُعرف عنها الكثير، على الرغم من حقيقة أن ستة ملايين شخص قد لقوا حتفهم هناك خلال الحروب التي نشبت فيها منذ أواخر التسعينيات.

إن جمهورية الكونغو الديمقراطية ليست ديمقراطية ولا هي جمهورية. إنها ثاني أكبر دولة في أفريقيا ويبلغ عدد سكانها حوالي 81 مليون نسمة، على الرغم من صعوبة العثور على تعداد دقيق بسبب الوضع هناك. إنها أكبر من ألمانيا وفرنسا وإسبانيا مجتمعةً، وتحتوي على غابات الكونغو المطيرة التي تعدّ في المرتبة الثانية بعد الأمازون، الأكبر في العالم.

ينقسم الناس في جمهورية الكونغو الديمقراطية إلى أكثر من 200

مجموعة عرقية، أكبرها البانتو، وفيها عدة مئات من اللغات، ولكن استخدام الفرنسية على نطاق واسع يجسّر تلك الفجوة إلى حد ما، وتأتي هذه اللغة من الزمن الذي كانت فيه جمهورية الكونغو الديمقراطية مستعمرة بلجيكية (1908– 1960) وقبل ذلك، عندما أعلنها الملك ليوبولد، ملك بلجيكا، جزءاً من ممتلكاته الشخصية حتى يتمكن من سرقة مواردها الطبيعية وملء جيوبه بثرواتها. لقد جعل الحكم الاستعماري البلجيكي النسختين البريطانية والفرنسية تبدوان معتدلتين بشكل إيجابي، لأنه كان وحشياً بلا رحمة من البداية إلى النهاية، مع محاولات قليلة لبناء أي نوع من البنية التحتية لمساعدة السكان. عندما ذهب البلجيكيون في عام 1960، لم يتركوا وراءهم سوى فرصة ضئيلة لبناء البلاد وتماسكها.

هكذا، بدأت الحروب الأهلية على الفور، ثم اشتدت وصارت أكثر دمويةً أثناء الحرب العالمية الباردة، فقد دعمت الحكومة في العاصمة، كينشاسا، الجانبَ المتمرّد في حرب أنغولا، وبذلك لفتت انتباه الولايات المتحدة التي كانت تدعم أيضاً حركة التمرد ضد الحكومة الأنغولية التي كان يدعمها الاتحاد السوفييتي. وفي الأثناء، ضخّ كل جانب مئات الملايين من الدولارات من الأسلحة. أما عندما انتهت الحرب الباردة، فلم يكن لدى أي من القوتين العظميين سوى اهتمام قليل بالكونغو التي سُمّيت آنذاك زائير، وبالرغم مما شهدته من اضطرابات إلا أنها ظلّت قائمة بسبب مواردها الطبيعية.

ينحني الوادي المتصدع الكبير[64] إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية في الجنوب والشرق ويكشف عن كميات هائلة من الكوبالت والنحاس والألماس والذهب والفضة والزنك والفحم والمنغنيز ومعادن أخرى، خاصة في مقاطعة كاتانغا. أرادت دول العالم في عهد الملك ليوبولد، الحصول على مطاط المنطقة لتوسيع صناعة السيارات، وتشتري الصين الآن أكثر من 50 في المائة من صادرات جمهورية الكونغو الديمقراطية، ولكن لا يزال السكان يعيشون في فقر. في 2014، وضع مؤشر الأمم المتحدة للتنمية البشرية جمهورية الكونغو الديمقراطية في المرتبة 186 من بين 187 دولة حسب التحليلات، وكانت جميع البلدان الثمانية عشر الأدنى في تلك القائمة من أفريقيا. ولأن جمهورية الكونغو الديمقراطية غنية بالموارد وكبيرة جداً، فإن الجميع يريدون الحصول على قطعة منها، ونظراً لأنها تفتقر إلى سلطة مركزية حقيقية، فإنها لا تستطيع الرفض.

تحدّ المنطقة أيضاً تسع دول. وجميعها قام بدور في معاناة جمهورية الكونغو الديمقراطية، وهذا أحد الأسباب التي جعلت حروب الكونغو تُعرف أيضاً باسم «الحرب الأفريقية العالمية». من الجنوب أنغولا، ومن الشمال جمهورية الكونغو وجمهورية أفريقيا الوسطى، ومن الشرق أوغندا ورواندا وبوروندي وتنزانيا وزامبيا، ومع إن

---

64. الوادي المتصدع الكبير The Great Rift Valley: سلسلة من الخنادق الجغرافية المتجاورة، يبلغ طولها الإجمالي حوالي 7000 كيلومتر، تمتد من لبنان في آسيا إلى موزمبيق في جنوب شرق أفريقيا.

جذور الحروب تعود إلى عقود، إلا إن أسوأ الأوقات كانت ناجمة عن الكارثة التي ضربت رواندا عام 1994 وامتدت في نهايتها إلى الغرب.

بعد الإبادة الجماعية التي شهدتها رواندا، شكّل الناجون من التوتسي والهوتو المعتدلين حكومة بقيادة التوتسي، وفرّت آلات القتل التابعة لميليشيا الهوتو، المسماة إنتراهاموي[65]، إلى شرق جمهورية الكونغو الديمقراطية لكنها نفذت غارات على الحدود. كما انضم أعضاؤها إلى وحدات من جيش جمهورية الكونغو الديمقراطية لقتل التوتسي الذين يعيشون بالقرب من المنطقة الحدودية، ثم تقدّم الجيشان الرواندي والأوغندي، بدعم من بوروندي وإريتريا، بالتحالف مع ميليشيات المعارضة الكونغولية، وهاجموا إنتراهاموي وأطاحوا بحكومة جمهورية الكونغو الديمقراطية، كما استمروا في السيطرة على جزء كبير من ثروات البلاد الطبيعية، حيث تقوم رواندا على وجه الخصوص بإعادة شحن أطنان من خام «الكولتان» الذي يستخدم في صناعة الهواتف المحمولة ورقائق الكمبيوتر. ومع ذلك، فإن ما عُدّ قوات حكومية لم تستسلم وواصلت القتال بمشاركة أنغولا وناميبيا وزيمبابوي، وأصبحت البلاد ساحة حرب واسعة، مع أكثر من عشرين فصيلة

65. إنتراهاموي Interahamwe: منظمة هوتو شبه عسكرية لها مقرات في جمهورية الكونغو الديمقراطية وأوغندا، تفرّعت عام 1990 عن الحركة الجمهورية الوطنية للديمقراطية والتنمية، الحزب الحاكم في رواندا آنذاك. وتتحمل هذه المنظمة مسؤولية جزء كبير من مآسي الإبادة الجماعية في رواندا. بشكل عام يشمل اسم «إنتراهاموي» أي عصابات مدنية قامت بقتل التوتسي.

متورطة في القتال.

أدت الحروب، بأقل التقديرات، إلى مقتل عشرات الآلاف من الأشخاص، كما أسفرت عن مقتل ستة ملايين آخرين بسبب المرض وسوء التغذية، وتقدّر الأمم المتحدة أن ما يقرب من 50 في المائة من الضحايا هم من الأطفال دون سن الخامسة.

تلاشى القتال في السنوات الأخيرة، لكن جمهورية الكونغو الديمقراطية هي موطن أكثر النزاعات دموية في العالم منذ الحرب العالمية الثانية، وما زالت تتطلب أكبر بعثة لحفظ السلام من الأمم المتحدة لمنع اندلاع حرب واسعة النطاق مرة أخرى. إن الأمر المهم الآن هي عدم تكرار خلط الحابل بالنابل، فجمهورية الكونغو الديمقراطية لم تكن متكاملة قط، ويجب ببساطة فصل الأجزاء [الاثنية] عن بعضها بعضاً حتى يمكن إيجاد طريقة تعود بها إلى الانضمام بعقلانية وسلام. لقد خلق المستعمر الأوروبي بيضة بدون دجاجة، وهذه السخافة المنطقية تتكرّر في جميع أنحاء القارة ولا تزال تطارد الأفارقة.

بوروندي مثال آخر، مع التوترات السياسية المتجذرة عرقياً التي شهدها عام 2015، وتفاقمت عام 2016، فبوروندي كانت في السابق جزءاً من شرق أفريقيا الألمانية وتُضَم إلى ما يُعرف الآن بتنزانيا، وقد قُسّمت بين بلجيكا والمملكة المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى، وصارت تديرها بلجيكا من عام 1945 حتى الاستقلال عام 1962. استخدم البلجيك شعب التوتسي لحكم

الهوتو، وعلى الرغم من أنهم لا يمثلون أكثر 15 في المائة فقط من السكان، فقد استمر التوتسي في الهيمنة على السياسة والاقتصاد والجيش. قُتل في الحرب الأهلية أكثر من 300 ألف شخص بين عامي 1993 و2005، وبدأت مستويات العنف في الارتفاع مرة أخرى في 2015/ 2016 بعد أن أعاد الرئيس بيير نكورونزيزا تفسير الدستور حتى يتمكن من الترشح لولاية ثالثة. لم يكن هذا تماماً ما كان يدور في ذهن الرئيس أوباما عندما انتقد، خلال جولته الإفريقية في يوليو 2015، القادة الأفارقة، قائلاً: «القارة لن تتقدم إذا رفض قادتها التنحي عند انتهاء فترة ولايتهم... أحياناً سوف تسمع بعض القادة يقولون: «أنا الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يحافظ على هذه البلاد متّحدة»، إذا كان هذا صحيحاً، فإن ذلك القائد قد فشل حقاً في بناء بلاده». شملت هذه الجملة كلاً من الإرث الاستعماري في أفريقيا وكيف كان قادتها المعاصرون في كثير من الأحيان جزءاً من المشكلة بدلاً من أن كونوا جزءاً من الحل الذي يعالج هذا الإرث.

كانت موارد أفريقيا نعمةً ونقمةً عليها بالقدر نفسه؛ نعمة بقدر ما تتميّز به ثرواتها الطبيعية من وفرة، لكنها نقمة لأن هذه الثروات كانت نهباً تكالب عليه الغرباء منذ زمن طويل. وقد تمكنت الدول القومية في الأزمنة الأخيرة، من المطالبة بنصيب من هذه الثروات، حيث اتّجهت الدول الأجنبية الآن إلى الاستثمار بدلاً من السرقة، لكن الشعوب نادراً ما تستفيد من ذلك.

بالإضافة إلى ثروتها المعدنية الطبيعية، تنعم أفريقيا أيضاً بالعديد من الأنهار العظيمة، وعلى الرغم من أن معظم أنهارها ليست صالحة للنقل التجاري، إلا أنها جيدة لتوليد الطاقة الكهرومائية. ومع ذلك، يعدّ هذا بدوره مصدراً من مصادر الصراع المحتمل.

النيل، وهو أطول نهر في العالم (4100 ميل)، يؤثر على عشر دول قريبة من حوضه، بوروندي وجمهورية الكونغو الديمقراطية وإريتريا وإثيوبيا وكينيا ورواندا والسودان وتنزانيا وأوغندا ومصر. قال المؤرخ هيرودوت منذ القرن الخامس قبل الميلاد: «مصر هي النيل، والنيل هو مصر»، ولا يزال هذا صحيحاً، وكذلك التهديد بإمداد مصر طوال 700 ميل. الجزء الصالح للملاحة تماماً من نهر النيل هو مصدر قلق بالنسبة إلى القاهرة، وهو القسم الذي يتعين عليها أن تستعد لخوض الحرب من أجله، فبدون النيل لن يكون هناك أحد. قد تكون مصر دولة ضخمة، لكن الغالبية العظمى من سكانها البالغ عددهم 97 مليون نسمة يعيشون على بعد أميال قليلة من نهر النيل. وتعدّ مصر قياساً بالمنطقة التي يسكنها الناس، واحدة من أكثر البلدان كثافة سكانية في العالم.

يمكن القول إن مصر كانت دولة قومية عندما كان معظم الأوروبيين يعيشون في أكواخ من الطين، لكنها كانت دائماً قوة إقليمية فقط. إنها محمية بالصحاري من ثلاث جهات، وربما أصبحت قوة عظمى في منطقة البحر الأبيض المتوسط ولكنها واجهت مشكلة واحدة، حيث لا تكاد توجد أي أشجار في مصر،

وبالنسبة لمعظم التاريخ، إذا لم يكن لديك أشجار، لن تتمكّن من بناء قوة بحرية كبيرة تبرز بها قوتك. لطالما كانت هناك بحرية مصرية، فهي كانت تستورد الأرز من لبنان لبناء السفن بتكلفة ضخمة، لكنها لم تكن من نوع القوات التي تجوب أعالي البحار.

تمتلك مصر الحديثة الآن أكثر القوات المسلحة قدرةً بين جميع الدول العربية، وذلك بفضل المساعدات العسكرية الأمريكية، لكنها تبقى محصورة بالصحاري والبحر ومعاهدة السلام مع إسرائيل. وستظل تتصدّر الأخبار بسبب مكابدتها من أجل إطعام 97 مليون شخص يومياً، بينما تحارب تمرّد الإسلامويين، خاصة في سيناء، وتحرس قناة السويس التي يمر من خلالها 8 في المائة من التجارة العالمية بأكملها كل يوم، وضمن ذلك يمر حوالي 2.5 في المائة من نفط العالم بهذه الطريقة يومياً، أما بإغلاق القناة فإن حوالي خمسة عشر يوماً سوف تُضاف إلى وقت العبور إلى أوروبا، وعشرة أيام إلى الولايات المتحدة، مع ما يستدعيه ذلك من تكاليف.

على الرغم من خوضها خمس حروب مع إسرائيل، فإن الدولة التي من المرجح أن تدخل مصر في صراع معها هي إثيوبيا، والسبب هو النيل. وقد كاد الصراع أن ينشب أحياناً على مصدر المياه الرئيسي في المنطقة بين هاتين الدولتين، وهما من أقدم دول القارة، وتحتفظان بأكبر الجيوش فيها.

النيل الأزرق الذي يبدأ من إثيوبيا والنيل الأبيض [الذي يبدأ من بحيرة فيكتوريا] يلتقيان في الخرطوم عاصمة السودان، قبل أن

يتدفق النهر عبر الصحراء النوبية إلى مصر، وعند هذه النقطة تكون غالبية المياه من النيل الأزرق.

يطلق على إثيوبيا أحياناً اسم «برج مياه أفريقيا» نظراً لارتفاعها العالي، ولديها أكثر من عشرين سداً تغذيها الأمطار في مرتفعاتها. في عام 2011، أعلنت أديس أبابا عن مشروع مشترك مع الصين لبناء مشروع ضخم لتوليد الطاقة الكهرومائية على النيل الأزرق بالقرب من الحدود السودانية يسمّى «سد النهضة الكبير». في عام 2017، كان السد شبه كامل، لكن الأمر سيستغرق عدة سنوات لملء المستودع بالمياه. سيتم استخدام السد لتوليد الكهرباء، ويجب أن يستمر التدفق إلى مصر في الوقت نفسه، ولكن من الناحية النظرية، يمكن أن يحتوي المستودع أيضاً على ما يكفي من المياه لمدة عام، وسيمنح استكمال المشروع إثيوبيا القدرة على الاحتفاظ بالمياه لاستخدامها الخاص، وبالتالي تقليل التدفّق إلى مصر بشكل كبير.

كما يبدو واضحاً، تمتلك مصر جيشاً أقوى، لكن هذا يتغير ببطء، فإثيوبيا التي يبلغ عدد سكانها 105 مليون نسمة، قوة متنامية، وتعرف القاهرة هذا، كما تعرف أنه بمجرد بناء السد فإن تدميره سيؤدي إلى كارثة فيضانات في كل من إثيوبيا والسودان. ومع ذلك، ليس لديها في الوقت الحالي من مبرر يدعو إلى القلق قبل اكتماله، وعلى الرغم من حقيقة أنه قبل عدة سنوات تم رصد أحد الوزراء وهو يوصي بالتفجير، فمن المرجح أن تشهد السنوات القليلة المقبلة مفاوضات مكثفة، مع رغبة مصر في ضمان استمرار التدفق وأنه لن

يتوقف أبداً.

تعتبر حروب المياه من بين الصراعات المحتملة القادمة في هذا القرن، ولا يزال هذا الأمر يستحق المراقبة، فحوالي 85 في المائة من مياه النيل تخرج من المرتفعات الإثيوبية، ولم يتفق الجانبان بعد (صيف 2019) على سرعة تدفق المياه أو السرعة التي ستملأ بها إثيوبيا السد.

بعد تشتيت الانتباه أثناء الانتفاضات العربية، التي أُطيح خلالها بالرئيس مبارك أولاً ثم الرئيس مرسي، ركّزت القاهرة مرة أخرى على هذه القضية، بالنظر إلى أن الأمم المتحدة تتوقع أن مصر سوف تعاني من نقص المياه بحلول عام 2025 بغض النظر عما تفعله إثيوبيا، ولم يكن هذا مفاجئاً.

السائل الآخر المتنازع عليه بشدة هو النفط. إن نيجيريا هي أكبر منتج للنفط في أفريقيا جنوب الصحراء، وكل هذا النفط عالي الجودة موجود في الجنوب، بينما يشتكي النيجيريون في الشمال من أن أرباح هذا النفط لا توزّع بإنصاف على مناطق البلاد، ما يؤدي بدوره إلى تفاقم التوترات العرقية والدينية بين شعوب الدلتا النيجيرية وتلك الموجودة في الشمال الشرقي.

تعدّ نيجيريا من حيث الحجم والسكان والموارد الطبيعية، أقوى دولة في غرب أفريقيا. إنها الدولة الأكثر اكتظاظاً بالسكان في القارة، حيث يبلغ عدد سكانها 191 مليون نسمة، ما يجعلها بفضل حجمها ومواردها الطبيعية قوة إقليمية رائدة. لقد تكوّنت في

الأساس من أراضي العديد من الممالك القديمة التي جمعها البريطانيون في منطقة إدارية واحدة، حيث أقاموا عام 1898 «محمية بريطانية على نهر النيجر»، وهي التي أصبحت نيجيريا بعد ذلك.

قد تكون نيجيريا الآن قوة إقليمية مستقلة، لكن شعبها ومواردها من القضايا التي أسيئت إدارتها على مدى عقود. فالبريطانيون في العهد الاستعماري فضّلوا البقاء في المنطقة الجنوبية الغربية على امتداد الساحل، ونادراً ما وصلت رسالتهم «الحضارية» إلى مرتفعات الوسط، أو إلى السكان المسلمين في الشمال، ولا يزال هذا النصف من البلاد أقل تطوراً من الجنوب.

يتم إنفاق الكثير من الأموال المتأتية من النفط باحتساب ما يُدفع إلى الأشخاص المؤثرين في النظام القبلي المعقّد في نيجيريا. كما تتعرّض صناعة النفط في الدلتا للتهديد من قبل حركة تحرير دلتا النيجر، وهو اسم خيالي لمجموعة تعمل في منطقة دمرتها صناعة النفط، ولكنها تستخدمها غطاءً للإرهاب والابتزاز. ويجعل اختطاف عمال النفط الأجانب هذه المنطقة مكاناً غير جذّاب لممارسة الأعمال، ومعظم حقول النفط البحرية [في خليج غينيا على المحيط الأطلسي] خالية من هذا النشاط، وهو المكان الذي يتجه إليه الاستثمار الآن.

استخدمت جماعة بوكو حرام الإسلامية المتطرفة، وهي تريد إقامة خلافة في المناطق التي يقطنها المسلمون، الشعورَ بالظلم

الناجم عن التخلف الإنمائي وسيلةً لكسب الأراضي في الشمال. ومقاتلو بوكو حرام هم غالباً من عرقية الكانوري من الشمال الشرقي، ونادراً ما يعملون خارج أراضيهم الأصلية، ولا يغامرون بالذهاب إلى الغرب حيث منطقة الهوسا، كما لا يتجهون جنوباً بالتأكيد حيث المناطق الساحلية. ويعني هذا أنه عندما يأتي الجيش النيجيري بحثاً عنهم، فإن بوكو حرام تعمل على أرضها حيث لا يتعاون الكثير من السكان المحليين مع الجيش، إما خوفاً من الانتقام أو بسبب الاستياء المشترك من الجنوب، وعلى الرغم من العديد من العمليات الكبيرة التي قام بها الجيش ضدها، إلا أن هذه المجموعة لا تبدو مقبلة على الاندحار، وقد استطاعت عام 2017، وكانت لا تزال قوية بما يكفي، شنَّ هجوم أسفر عن مقتل العشرات من المدنيين في سلسلة من الغارات، وقد قُتل منذ ظهورها أول مرة عام 2009 أكثر من 20 ألف شخص واختطف الآلاف.

إن الأراضي التي احتلتها بوكو حرام لا تشكل خطراً على وجود دولة نيجيريا، فهذه المجموعة لا تشكل أدنى تهديد للعاصمة أبوجا، على الرغم من أن أبوجا تقع في منتصف البلاد، لكنها تشكل من ناحية أخرى تهديداً يومياً للناس الذين يعيشون في الشمال، وهي تضرّ بصورة نيجيريا في العالم بوصفها مكاناً يستقطب الشركات والأعمال.

تقع معظم القرى التي استولت عليها جماعة بوكو حرام في سلسلة جبال ماندارا التي تعود إلى الكاميرون، ويعني هذا أن

الجيش الوطني يعمل بعيداً عن قواعده، ولا يمكنه محاصرة مقاتلي الجماعة. حكومة الكاميرون من جهتها لا ترحب بجماعة بوكو حرام، لكن المناطق الريفية تمنح المقاتلين مساحة للتراجع إذا لزم الأمر. لن ينتهي هذا الوضع لعدة سنوات ستحاول خلالها بوكو حرام تشكيل تحالفات مع «الجهاديين» في الشمال من منطقة الساحل.

لقد قام الأمريكيون والفرنسيون بتتبع المشكلة لعدة سنوات، ويقومون الآن بتشغيل طائرات استطلاع بدون طيار رداً على التهديد المتزايد المنطلق من منطقة الساحل والصحراء والمتصل بشمال نيجيريا. إن الأمريكيين يستخدمون عدة قواعد، بما في ذلك القاعدة الموجودة في جيبوتي والتي تعد جزءاً من القيادة العسكرية الأمريكية في أفريقيا التي أُنشئت عام 2007، بالإضافة إلى أن الفرنسيين يتمتعون بإمكانية التحرّك في مختلف البلدان في ما يسمونه «أفريقيا الفرنكوفونية».

كانت مخاطر انتشار التهديد عبر العديد من البلدان جرسَ إنذار، وتشترك نيجيريا والكاميرون وتشاد الآن عسكرياً بالتنسيق مع الأمريكيين والفرنسيين.

إلى الجنوب من ذلك، على ساحل المحيط الأطلسي، هناك ثاني أكبر منتج للنفط في أفريقيا جنوب الصحراء، وهي أنغولا. هذه المستعمرة البرتغالية السابقة، هي إحدى الدول القومية الأفريقية ذات الحدود الجغرافية الطبيعية. إنها محاطة بالمحيط الأطلسي من

الغرب، والغابة من الشمال، والصحراء من الجنوب، في حين أن المناطق الشرقية أراض وعرة ذات كثافة سكانية منخفضة وهي منطقةٌ عازلة مع جمهورية الكونغو الديمقراطية وزامبيا.

تعيش غالبية السكان البالغ عددهم 29 مليون نسمة في النصف الغربي الذي يتوفّر على الكثير من المياه ويمكنه الاعتماد على الزراعة، وتقع قبالة الساحل في الغرب معظم حقول النفط في أنغولا، حيث معظم الحفارات الموجودة في المحيط الأطلسي مملوكة لشركات أمريكية، لكن أكثر من نصف الإنتاج ينتهي في الصين، ويجعل هذا من أنغولا (التي تعتمد على مد وجزر المبيعات) في المرتبة الثانية بعد المملكة العربية السعودية، من حيث توريد النفط الخام إلى «المملكة الوسطى».[66]

أنغولا بلد آخر أَلِفَ الصراع. انتهت حربها من أجل الاستقلال عام 1975 عندما استسلم البرتغاليون، لكنها تحولت على الفور إلى حرب أهلية بين القبائل متنكّرة في زي حرب أهلية لأسباب أيديولوجية. دعمت روسيا وكوبا «الاشتراكيين»، ودعمت الولايات المتحدة الأمريكية ونظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا «المتمردين». كان معظم الاشتراكيين في «الحركة الشعبية لتحرير أنغولا» من قبيلة مبوندو، بينما كان مقاتلو المعارضة المتمردين في الغالب من قبيلتين رئيسيتين أخريين هما باكونغو

66 . المملكة الوسطى The Middle Kingdom (جونغوو Zhongguo): الاسم الذي أطلقه الصينيون على بلادهم من 221 ق.م. إلى 1912، دلالةً على أنها مركز العالم.

وأوڤيمبوندو. كان قناعهم السياسي هو «الجبهة الوطنية لتحرير أنغولا» و«الاتحاد الوطني لاستقلال أنغولا التام». اتبعت العديد من الحروب الأهلية في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين هذا النموذج: إذا دعمت روسيا طرفاً معيناً، فسوف يتذكر هذا الجانب فجأة أن لديه مبادئ اشتراكية، بينما سيصبح خصومه مناهضين للشيوعية. كانت قبيلة مبوندو تتمتع بميزة جغرافية وليست عددية، وقد سيطرت على العاصمة لواندا، وكان بإمكانها الوصول إلى حقول النفط والنهر الرئيسي، كوانزا، مدعومةً من قبل الدول التي يمكن أن تزودها بالأسلحة الروسية والجنود الكوبيين. انتصرت مبوندو عام 2002 وسرعان ما قوّض قادتها والنافذون فيها مواقفهم الاشتراكية بالانضمام إلى القائمة الطويلة من القادة الاستعماريين والأفارقة الذين أثروا على حساب شعوبهم.

إن هذا التاريخ المؤسف من الاستغلال المحلي والأجنبي ما زال مستمراً في القرن الحادي والعشرين.

كما رأينا قبل ذلك، فإن الصينيين موجودون في كل مكان، ساعين وراء الأعمال، وهم الآن متصلون بجميع أنحاء القارة مثلهم في ذلك مثل الأوروبيين والأمريكيين. إن حوالي ثلث واردات الصين من النفط يأتيها من أفريقيا، إلى جانب المعادن الثمينة التي يمكنها العثور عليها في العديد من البلدان الأفريقية، ما يعني أن الصينيين قد وصلوا وتغلغلوا وسوف يبقون هناك. لا تزال شركات النفط الأوروبية والأمريكية والشركات متعددة الجنسيات الكبيرة

منخرطة بشكل أكبر في أفريقيا، لكن الصين تلحق بالركب سريعاً. في ليبيريا مثلاً، تسعى للحصول على خام الحديد، وفي جمهورية الكونغو الديمقراطية وزامبيا تستخرج النحاس، وتنقب عن الكوبالت في جمهورية الكونغو الديمقراطية، وقد ساعدت بالفعل في تطوير ميناء مومباسا الكيني، وهي تشرع الآن في المزيد من المشاريع الضخمة في الوقت الذي بدأت فيه الأصول النفطية في كينيا تصبح مجدية تجارياً.

تقوم «شركة الصين للطرق والجسور» المملوكة للدولة في بكين ببناء مشروع سكة حديدية بقيمة 14 مليار دولار لربط مومباسا بالعاصمة نيروبي. يقول المحللون إن الوقت الذي تستغرقه البضائع للتنقل بين المدينتين سينخفض من ست وثلاثين ساعة إلى ثماني ساعات، مع خفض مماثل بنسبة 60 في المائة في تكاليف النقل، حتى أن هناك خططاً لربط نيروبي بجنوب السودان، متصلاً بخطّ القَطْر في أوغندا ورواندا، كما تعتزم كينيا، بمساعدة الصين، أن تكون مركز الثقل الاقتصادي في الساحل الشرقي.

تسعى تنزانيا على الحدود الجنوبية بدورها إلى المنافسة لتصبح زعيمة شرق أفريقيا، وقد أبرمت صفقات بمليارات الدولارات مع الصينيين في مشاريع البنية التحتية، كما وقعت اتفاقية مشتركة مع الصين وشركة إنشاءات عُمانية لإصلاح وتوسيع ميناء باغامويو، لأن الميناء الرئيسي في دار السلام مزدحم بشدة، ومن المخطط أن يتمكن ميناء باغامويو من التعامل مع 20 مليون حاوية شحن

سنوياً، ما يجعله أكبر ميناء في أفريقيا. وتتمتع تنزانيا كذلك بخطوط نقل جيدة في «ممر النمو الزراعي الجنوبي في تنزانيا»، وتتصل بـ«مجموعة تنمية الجنوب الأفريقي» المكونة من خمسة عشر دولة، ويتصل هذا بدوره بـ«ممر الشمال والجنوب»، الذي يربط ميناء ديربان بمناطق إنتاج النحاس في جمهورية الكونغو الديمقراطية وزامبيا مع ربط ميناء دار السلام بدربان وملاوي.

على الرغم من كل ذلك، تبدو تنزانيا كأنها ستصبح قوة من الدرجة الثانية على امتداد الساحل الشرقي، فالاقتصاد الكيني هو مركز القوة في «مجموعة شرق أفريقيا» المكونة من خمس دول، حيث يمثل حوالي 40 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي للمنطقة. قد تكون الأراضي الكينية الصالحة للزراعة أقل من تنزانيا، لكنها تستخدم ما لديها بشكل أكثر كفاءة، كما إن نظامها الصناعي أكثر كفاءة أيضاً، وكذلك نظامها الخاص بنقل البضائع إلى السوق، على الصعيدين المحلي والدولي. يبدو أنها إذا تمكنت من الحفاظ على استقرارها السياسي، ستظل القوة الإقليمية المهيمنة على المدى القريب والمتوسط.

يمتد وجود الصين إلى النيجر أيضاً، حيث تستثمر «مؤسسة البترول الوطنية الصينية» حقلَ نفط صغير في حقول صحراء تينيري في وسط البلاد. وتتجاوز الاستثمارات الصينية في أنغولا خلال العقد الماضي 8 مليارات دولار وهي تتزايد كل عام. وقد أنفقت «شركة هندسة السكك الحديدية الصينية» بالفعل ما يقرب من

ملياري دولار لتحديث خط سكة حديد بينغيلا الذي يربط جمهورية الكونغو الديمقراطية بميناء لوبيتو الأنغولي على ساحل المحيط الأطلسي على بعد 800 ميل. وبهذه الطريقة يمكن نقل الكوبالت والنحاس والمنغنيز، وهو ما ينعكس نعمةً ونقمةً في آن واحد على مقاطعة كاتانغا في جمهورية الكونغو الديمقراطية.

تقوم «شركة هندسة السكك الحديدية الصينية» في لواندا ببناء مطار دولي جديد، وظهرت حول العاصمة مجمّعات سكنية ضخمة تم بناؤها على الطراز الصيني لإيواء بعض العمال الصينيين الذين يقدر عددهم بنحو 150.000 إلى 200.000 عامل حالياً في البلاد، كما يجري تدريب الآلاف من هؤلاء العمال على المهارات العسكرية ويمكنهم توفير ميليشيا مستعدة إذا طلبت بكين ذلك.

ما تريده بكين في أنغولا هو ما تريده في كل مكان: المواد التي تصنع بها منتجاتها، والاستقرار السياسي لضمان تدفّق تلك المواد والمنتجات. لذا... عندما قرّر الرئيس السابق خوسيه إدواردو دوس سانتوس الذي حكم لستة وثلاثين عاماً، أن يدفع لماريا كاري مليون دولار مقابل الغناء في حفل عيد ميلاده عام 2013، كان ذلك شأناً خاص به، كما كان الحال مع أي طريقة أخرى اختار أن ينفق بها ثروته الهائلة في بلده الذي يعاني من الفقر. وإذا استمرت قبيلة مبوندو التي ينتمي إليها دوس سانتوس في الهيمنة، فذلك شأنهم، لأن الصين لا وجهة نظر لديها في مسألة حقوق الإنسان أو الفساد في أفريقيا، إنها معنية بالاقتصاد فقط.

المشاركة الصينية اقتراح جذاب بالنسبة إلى العديد من الحكومات الأفريقية، فبكين والشركات الصينية الكبرى لا تطرح أسئلة صعبة حول حقوق الإنسان، إنها لا تطالب بالإصلاح الاقتصادي أو تلمّح إلى أن بعض القادة الأفارقة يجب أن يتوقفوا عن سرقة ثروات بلدانهم كما قد يفعل صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي. الصين مثلاً تعدّ أكبر شريك تجاري للسودان، وهو ما يفسر سبب حماية الصين باستمرار للسودان في مجلس الأمن واستمرارها في دعم رئيسها عمر البشير حتى عندما صدر بحقه أمر اعتقال من محكمة الجنايات الدولية. ومع ذلك، فإن الانتقادات الغربية لهذا الأمر لا تحظى باهتمام كبير في بكين، ويُنظر إليها على أنها مجرد لعبة قوة أخرى تهدف إلى منع الصين من مواصلة أعمالها، ومجرد نفاق يمثله تاريخ الغرب في أفريقيا.

كل ما يريده الصينيون هو النفط والمعادن النفيسة والأسواق. هذه علاقة عادلة بين حكومة وحكومة، لكننا سنرى توتراً متفاقماً بين السكان المحليين والقوى العاملة الصينية التي يتم جلبها لمساعدة المشاريع الكبيرة، وقد يجذب هذا بدوره بكين بشكل أكثر إلى السياسة المحلية، ويتطلب وجود نوع من الوجود العسكري القليل في بلدان مختلفة.

تعدّ جنوب أفريقيا أكبر شريك تجاري للصين في أفريقيا، ويتمتع البَلَدان بتاريخ سياسي واقتصادي طويل، وهما في وضع جيد للتنسيق والعمل، وهناك المئات من الشركات الصينية، سواء

الخاصة أو المملوكة للدولة، تعمل في أمكنة جنوب أفريقية عديدة، منها ديربان وجوهانسبرغ وبريتوريا وكيب تاون وبورت إليزابيث.

يحتل اقتصاد جنوب أفريقيا المرتبة الثانية في القارة بعد نيجيريا. إنها بالتأكيد مركز القوة في الجنوب من حيث الاقتصاد (ثلاثة أضعاف حجم أنغولا)، والجيش والسكان (56 مليون نسمة). تعدّ جنوب أفريقيا أكثر تطوراً من العديد من الدول الأفريقية الأخرى، وذلك بفضل موقعها في الطرف الجنوبي من القارة مع إمكانية الوصول إلى محيطين دوليين، بالإضافة إلى ثرواتها الطبيعية من الذهب والفضة والفحم والمناخ والأرض التي تسمح بإنتاج الغذاء على نطاق واسع. ولأنها تقع في أقصى الجنوب، وسرعان ما يرتفع فيها السهل الساحلي إلى المرتفعات، فإنها إحدى الدول الأفريقية القليلة جداً التي لا تعاني من لعنة الملاريا لأن البعوض لا يستطيع التكاثر بسهولة هناك. لقد سمح ذلك للمستعمرين الأوروبيين بالاندفاع إلى داخلها بشكل أكبر وأسرع من المناطق المدارية التي تنتشر فيها الملاريا، ثم الاستقرار وبدء نشاط صناعي صغير الحجم نما ليصبح الآن أكبر اقتصاد في جنوب قارة أفريقيا.

بالنسبة إلى معظم دول جنوب أفريقيا، فإن التعامل مع العالم الخارجي يعني القيام أساساً تسيير الأعمال عن طريق التعامل مع كيب تاون وجوهانسبرج وديربان.

استخدمت جنوب أفريقيا ثرواتها الطبيعية وموقعها لربط جيرانها بنظامها الخاص بالنقل، ما يعني أن هناك سكة حديدية ذات

اتجاهين مخصصة للنقل ترتبط بالموانئ في شرق لندن وكيب تاون وبورت إليزابيث وديربان، وتمتدّ شمالاً عبر زيمبابوي وبوتسوانا وزامبيا وملاوي وتنزانيا، حتى تصل إلى مقاطعة كاتانغا في جمهورية الكونغو الديمقراطية، ثم شرقاً إلى موزمبيق. تم بناء خط السكة الحديدية الصيني الجديد من كاتانغا إلى الساحل الأنغولي لتحدي هذه الهيمنة، وقد يأخذ بعض حركة البضائع من جمهورية الكونغو الديمقراطية، لكن يبدو أن جنوب أفريقيا مصمّمة على الحفاظ على مزاياها.

خلال سنوات الفصل العنصري، دعم المؤتمر الوطني الأفريقي الحركةَ الشعبية لتحرير أنغولا في حربها ضد الاستعمار البرتغالي. ومع ذلك، فإن حماسة الصراع المشترك تتحول إلى علاقة أكثر برودة الآن حيث يتحكم كل طرف في بلده وينافس الآخر على المستوى الإقليمي. لدى أنغولا طريق طويل يتعيّن عليها أن تقطعه كي تلحق بجنوب أفريقيا، ولن يكون ذلك من قبيل المواجهة العسكرية، فهيمنة جنوب أفريقيا شبه كاملة، ولديها قوات مسلحة كبيرة ومجهزة تجهيزاً جيداً تتألف من حوالي 100000 جندي وعشرات الطائرات المقاتلة وطائرات الهليكوبتر الهجومية، فضلاً عن العديد من الغواصات والفرقاطات الحديثة.

كانت السيطرة على جنوب أفريقيا في زمن الإمبراطورية البريطانية تعني السيطرة على رأس الرجاء الصالح، وبالتالي السيطرة على الممرات البحرية بين المحيطين الأطلسي والهندي.

يمكن أن تغامر القوات البحرية الحديثة لمسافات بعيدة عن الساحل الجنوبي الأفريقي إذا كانت ترغب في المرور، ولكن لا يزال رأس الرجاء ذا أهمية كبرى في خريطة العالم، كما أن جنوب أفريقيا تتمتع بحضور قيادي في كامل الثلث السفلي من القارة.

هناك بوادر صراع جديد في أفريقيا في هذا القرن، لكنه هذه المرة ذو شقين. هناك مصالح خارجية معروفة جيداً، مع ما يرافق المنافسة على الموارد من تدخّل، ولكن هناك أيضاً «صراع داخلي»، وتعتزم جنوب أفريقيا أن تكون جزءاً من ذلك في وقت سريع وإلى وأقصى الحدود. إنها تهيمن على «مجموعة تنمية الجنوب الأفريقي» التي تضم خمسة عشر دولة، وتمكّنت من الحصول على مكان دائم في «المؤتمر الدولي لمنطقة البحيرات الكبرى» مع أنها ليست عضواً فيه. إن «مجموعة تنمية الجنوب الأفريقي» تنافسها «مجموعة شرق أفريقيا» التى تضم بوروندى وكينيا ورواندا وأوغندا وتنزانيا، وهذه الأخيرة عضو أيضاً في «مجموعة تنمية الجنوب الأفريقي»، ولهذا فإن الأعضاء الآخرين في «مجموعة شرق أفريقيا» ينظرون نظرة حانقة إلى مغازلة جنوب أفريقيا، أما جنوب أفريقيا فيبدو أنها تنظر، من جانبها، إلى تنزانيا على أنها وسيلة لاكتساب نفوذ أكبر في منطقة البحيرات العظمى وما وراءها.

تمتلك قوات الدفاع الوطني في جنوب أفريقيا لواءً في جمهورية الكونغو الديمقراطية، وهو رسمياً تحت قيادة الأمم المتحدة، ولكنه أُرسل إلى هناك من قبل القادة السياسيين لضمان عدم استبعاد

جنوب أفريقيا من غنائم الحرب في ذلك البلد الغني بالمعادن، وقد أدى ذلك إلى دخولها في منافسة مع أوغندا وبوروندي ورواندا، وهي دول لديها آراؤها الخاصة في من يجب أن يحكم جمهورية الكونغو الديمقراطية.

لم تُعطَ أفريقيا الماضي أيَّ خيار، فقد شكلتها جغرافيتها مسبقاً، ثم صمّم الأوروبيون معظم حدودها الحالية. ومع ازدهار سكانها وتطور مدنها الضخمة، ليس لديها الآن من خيار سوى احتضان العالم الحديث الذي يخضع للعولمة، مع الارتباط به بقوة، وهي تخطو نحو ذلك خطوات كبيرة، على الرغم من كل المشاكل التي رأيناها.

إن الأنهار نفسها التي أعاقت التجارة تُسخَّر الآن لتوليد الطاقة الكهرومائية، ومن الأرض التي كانت تكابد من أجل الحفاظ على إنتاج الغذاء بوفرة تُستخرج المعادن ويُضخّ النفط، ما يجعل بعض البلدان غنية حتى لو كان القليل من الثروات يصل إلى الناس بالفعل. ومع ذلك، فقد انخفض الفقر في معظم البلدان، وليس كلها، وازداد مستوى الرعاية الصحية والتعليم. إن العديد من البلدان ناطقة باللغة الإنجليزية، وتلك ميزة في الاقتصاد العالمي الذي تهيمن عليه اللغة الإنجليزية، وبالإجمال فقد شهدت القارة نمواً اقتصادياً على مدار معظم العقد الماضي.

على الجانب السلبي، يعتمد النمو الاقتصادي في العديد من البلدان على الأسعار العالمية المقدّرة للمعادن والطاقة. وبالنسبة إلى البلدان التي تعتمد ميزانياتها الوطنية على تلقي 100 دولار عن كل

برميل من النفط، مثلاً، فليس لديها الكثير لتتكفل به عندما تنخفض الأسعار إلى 80 أو 60 دولاراً. إن مستويات التصنيع قريبة مما كانت عليه في سبعينيات القرن العشرين، لا يزال الفساد متفشياً في جميع أنحاء القارة، وفضلاً عن عدد قليل من النزاعات «الساخنة» (الصومال ونيجيريا والسودان، مثالاً) فإن هناك العديد من النزاعات المجمّدة.

مع ذلك، يُبنى المزيد من الطرق والسكك الحديدية كل عام لربط هذه المساحة البالغة التنوّع، ويجري التغلب على المسافات الشاسعة من المحيطات والصحاري التي تفصل أفريقيا عن العالم عن طريق السفر الجوي، كما أنشأت القدرات الصناعية موانئ في أماكن لم تكن الطبيعة قد قدّرت لها أن تكون كذلك.

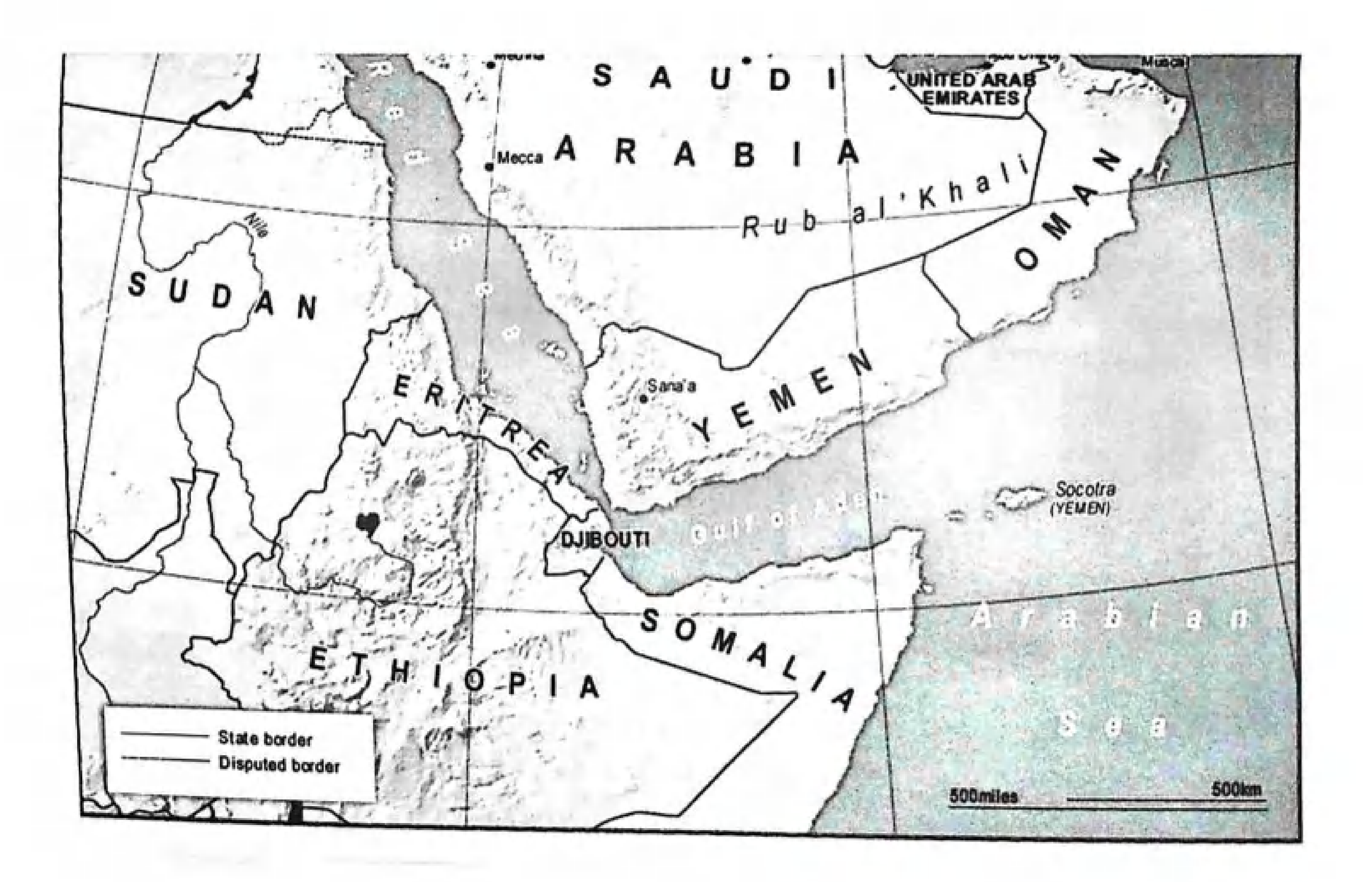
في كل عقد منذ ستينيات القرن العشرين، كان المتفائلون يكتبون عن الكيفية التي أوشكت بها أفريقيا على الهيمنة على الدور الذي قيّضه لها التاريخ والطبيعة. ربما كان هذا صحيحاً هذه المرة، أو يحتاج إلى أن يكون كذلك. إن منطقة أفريقيا جنوب الصحراء تضمّ حالياً 1.1 مليار نسمة، وفقاً لبعض التقديرات، وبحلول عام 2050 قد يزيد عددهم عن الضعف ليصل إلى 2.4 مليار نسمة.

الفصل السادس

الشرق الأوسط

«لقد كسرنا سايكس بيكو!».

مقاتل في تنظيم الدولة الإسلامية، 2014


SAUDI ARABIA
UNITED ARAB EMIRATES
Mecca
Rub al'Khali
OMAN
SUDAN
Nile
ERITREA
YEMEN
Sana'a
Socotra
(YEMEN)
DJIBOUTI
SOMALIA
ETHIOPIA
Arabian Sea
State border
Disputed border
500miles
500km


ROMANIA
BULGARIA
RUSSIA
Black Sea
Istanbul
GEORGIA
ARMENIA
AZERBAIJAN
Caspian Sea
UZBEKISTAN
TURKMENISTAN
AFGHANISTAN
Ankara
TURKEY
CYPRUS
Mediterranean Sea
LEBANON
Beirut
SYRIA
Damascus
ISRAEL
PALESTINE
Amman
Jerusalem
JORDAN
Tigris
Euphrates
Baghdad
IRAQ
Zagros Mountains
Tehran
IRAN
Shatt al Arab
KUWAIT
Kuwait City
The Gulf
Al Manamah
BAHRAIN
QATAR
EGYPT


مكتبة العولقي
– شبوة اليمن –

«أوسط» ماذا؟ و«شرق» أي اتجاه؟ إن اسم المنطقة يعتمد على النظرة الأوروبية للعالم، فوجهة النظر الأوروبية للمنطقة هي التي شكلتها فعلاً. لقد استخدم الأوروبيون الحبر لرسم خطوط جديدة على الخرائط، وهي خطوط لم تكن موجودة في الواقع، وخلقت بعضاً من أكثر الحدود اصطناعاً في العالم. الخطوط التي تجري الآن محاولة إعادة رسمها بالدم، لا بالحبر.

طغت لقطات من الانفجارات وحزّ الرؤوس على أحد أهم مقاطع الفيديو التي صُوّرت في الشرق الأوسط عام 2014. إنه جزء من الدعاية التي نشرها «تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام» (داعش) ويُظهر جرافة تمسح الحدود العراقية السورية من الوجود. الحدود ببساطة هي ساتر رملي مرتفع؛ إذا عصفت الرياح بالرمال لا تعود الحدود موجودة فعلياً. لا يزال هذا «الخط» موجوداً من الناحية النظرية، وستحدّد السنوات القليلة المقبلة ما إذا كانت كلمات مقاتل «تنظيم الدولة الإسلامية» نبوئيّة أم هي مجرد تبجّح عندما قال: «نحن ندمّر الحدود ونكسر الحواجز... الحمد لله».

بعد الحرب العالمية الأولى، كان هناك عدد أقل من الحدود في الشرق الأوسط الأوسع مما هو موجود حالياً، وتلك الموجودة

كانت تحدّدها الجغرافيا وحدها، وقد قُسّمت المساحات الموجودة داخلها بشكل فضفاض وحُكِمَت وفقاً للجغرافيا والعرق والدين، لكن لم تكن هناك محاولة لخلق دول قومية.

يمتد الشرق الأوسط الكبير عبر 1000 ميل، من الغرب إلى الشرق، من البحر الأبيض المتوسط إلى جبال إيران. وإذا بدأنا من البحر الأسود شمالاً وانتهينا إلى شواطئ بحر العرب قبالة عمان جنوباً، فسيبلغ طوله 2000 ميل. وتضم المنطقة صحارٍ شاسعة وواحات وجبال مغطاة بالثلوج وأنهار طويلة ومدن عظيمة وسهول ساحلية، ولديها قدر كبير من الثروات الطبيعية من النفط والغاز بالقدر الذي تحتاجه كل دولة صناعية حول العالم.

بالإضافة إلى ذلك، يحتوي الشرق الأوسط على المنطقة الخصبة المعروفة باسم بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات). ومع ذلك، فإن المعلم المهيمن هو الصحراء العربية الشاسعة والأحراش التي تتوسّطها وتمسّ أجزاء من إسرائيل والأردن وسوريا والعراق والكويت وعمان واليمن ومعظم المملكة العربية السعودية، بما في ذلك الربع الخالي. هذه أكبر صحراء رملية متصلة في العالم، وهي تتضمن مساحة بحجم فرنسا، وبسبب هذه الميزة، فإن غالبية سكان المنطقة لا يعيشون على أطرافها فحسب، بل حتى مع وصول الاستعمار الأوروبي فإن معظم الناس لم يكونوا يفكرون على أساس وجود الدول القومية وحدودها الثابتة قانونياً.

أن يتصوّر رجل من منطقة معينة عدم قدته على السفر عبر منطقة

أخرى لرؤية قريب له من القبيلة نفسها ما لم يكن لديه وثيقة منحها له رجل ثالث في بلد بعيد لا يعرفه، لم يكن أمراً منطقياً قط. فكرةُ أن الوثيقة صدرت لأن أجنبياً قال إن المنطقة أصبحت الآن منطقتين، وأطلق عليها اسمين مختلفين لم تكن منطقية على الإطلاق، وتتعارض تماماً مع الطريقة التي عاش بها الناس حياتهم على مدى قرون.

من إسطنبول حكمت الإمبراطورية العثمانية بين 1299 و1922، وامتدت في أوج توسعها من بوابات فيينا، عبر الأناضول نزولاً عبر شبه الجزيرة العربية إلى المحيط الهندي. واستولت من الغرب إلى الشرق على ما يعرف الآن بالجزائر وليبيا ومصر وإسرائيل/ فلسطين وسوريا والأردن والعراق وأجزاء من إيران. لم تكلف الإمبراطورية نفسها عناء اختلاق أسماء لمعظم هذه المناطق. وفي عام 1867، قسمتها ببساطة إلى مناطق إدارية تُعرف باسم «ولايات» كانت تستند عادةً إلى مكان تعيش فيه قبائل معينة، سواء أكانوا أكراداً في شمال العراق الحالي، أو اتحادات قبلية في ما أصبح الآن جزءاً من سوريا وجزءاً من العراق.[67]

عندما بدأت الإمبراطورية العثمانية تشهد انهيارها، كان لدى البريطانيين والفرنسيين فكرة مختلفة. أخذ الدبلوماسي البريطاني الكولونيل السير مارك سايكس عام 1916 قلماً ورسم خطاً عبر

67 . هذا، مرة أخرى، اختصار مخلّ يشوه حقائق التاريخ، فالعثمانيون لم يبتكرو كيانات داخلية جديدة، أو نادراً ما فعلوا ذلك، بل كانت تقسيماتهم الإدارية تتوافق مع ما وجدوه من مكونات جغرافية وديموغرافية سابقة عليهم في البلدان العربية.

خريطة الشرق الأوسط، يمتد من حيفا على البحر الأبيض المتوسط في ما يعرف الآن بإسرائيل إلى كركوك (الآن في العراق) في الشمال الشرقي. وأصبح الخطّ أساس اتفاقه السري مع نظيره الفرنسي فرانسوا جورج بيكو لتقسيم المنطقة إلى مجالين من النفوذ إذا هزم «الوفاق الثلاثي» (68) الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى. كان من المقرر أن يكون شمال الخط تحت السيطرة الفرنسية، وجنوبه تحت الهيمنة البريطانية.

في ما بعد، أصبح مصطلح «سايكس-بيكو» اختصاراً للقرارات المختلفة التي اتخذت في الثلث الأول من القرن العشرين، وهي قرارات خانت الوعود التي أُعطيت لزعماء القبائل، كما تفسر جزئياً ما يحدث اليوم من اضطرابات وتطرّف. يمكن التمادي في هذا التفسير كالآتي: كان هناك عنف وتطرّف قبل وصول الأوروبيين. ومع ذلك، كما رأينا في إفريقيا، فإن إنشاء «دول قومية» بشكل تعسفي من أشخاص غير معتادين على العيش معاً في منطقة واحدة ليس وصفة للعدل والمساواة والاستقرار.(69)

قبل اتفاقية سايكس-بيكو (بمعناها الأوسع)، لم تكن هناك دول

---

68 . الوفاق الثلاثي The Triple Entente: اتفاق غير رسمي بين روسيا وفرنسا وبريطانيا، بُني على أساس التحالف الفرنسي الروسي عام 1894، والوفاق الودي بين باريس ولندن عام 1904، والوفاق الأنجلو-روسي عام 1907.

69 . يهمل الكاتب تقاليد الحياة العربية، وبصرف النظر عن فهم العرب للحدود والتخوم وتقسيم الأقاليم، وتاريخ الدول القومية المتعاقبة عبر التاريخ، كأن التاريخ بدأ في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا مع انهيار الدولة العثمانية وقدوم الأوروبيين. لقد حافظنا على تحليلاته كما هي التزاماً بالنص الأصلي، ونترك الردّ على آرائه لفهم القارئ دون تدخّل.

سوريا أو لبنان أو الأردن أو العراق أو السعودية أو الكويت أو إسرائيل أو فلسطين، إن الخرائط الحديثة تظهر الحدود وأسماء الدول القومية، لكنها صغيرة وهشة.

الإسلام هو الدين السائد في الشرق الأوسط، ولكنه يحتوي بداخله على العديد من «النسخ» المختلفة. يعتبر الانقسام الأهم داخل الإسلام قديماً قدم الدين نفسه، وهو الانقسام بين المسلمين السنة والشيعة الذي يعود إلى عام 632 م، عندما توفي النبي محمد، وأدت وفاته إلى نشأة النزاع على خلافته.

يشكل المسلمون السنة الأغلبية بين العرب، بل بين تعداد المسلمين في العالم أجمع، وهم 85 في المائة تقريباً من مجموع المسلمين، على الرغم من أن النسب المئوية في بعض البلدان العربية أقل وضوحاً. تحدّر الاسم من «السنة» أو «أهل السنة والجماعة»، فعند وفاة النبي حاجج أولئك الذين سيصبحون سنّةً بأن خليفته يجب أن يتم اختياره باستخدام التقاليد القبلية العربية، وكانوا يرون أنفسهم أصحاب الطريق القويم أو «مسلمين أرثوذكس».

كلمة الشيعة مشتقة من «شيعة علي»، حرفياً «حزب علي»، وتشير إلى صهر النبي محمد. وقد اغتيل علي ونجليه الحسن والحسين، وهكذا حُرِم الشيعة من شعورهم بما يعدّونه حقاً أصيلاً لهم، أي قيادة المجتمع الإسلامي.

من هذا انبثقت العديد من الخلافات العقائدية والممارسات الثقافية التي قسّمت فرعي الإسلام الرئيسيين، وأدّت إلى النزاعات

والحروب، رغم وجود فترات طويلة من التعايش السلمي.

هناك من ناحية أخرى انقسامات داخل كل قسم. هناك فروع مختلفة من الإسلام السني تتبع علماء كبار من الماضي، بما في ذلك المذهب الحنبلي الصارم، الذي سمّي باسم عالم القرن التاسع العراقي أحمد بن حنبل، وهو مفضّل لدى العديد من السنّة، وقد أثر هذا بدوره على الفكر السلفي المتشدّد الذي يسود بين الجهاديين.

أما الإسلام الشيعي فينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية، أشهرها على الأرجح الإثنا عشرية الذين يلتزمون بتعاليم الأئمة الاثني عشر، ولكن حتى هذا يتضمن تقسيماته أيضاً، فالمدرسة الإسماعيلية تشكّك في نسب الإمام السابع، بينما تشكّك المدرسة الزيدية في نسب الإمام الخامس. هناك كذلك العديد من الفروع في الإسلام الشيعي السائد، حيث يعدّ العلويون والدروز بعيدون جداً عن الفكر الإسلامي التقليدي، حتى أن العديد من المسلمين الآخرين، وخاصة بين السنة، لا يعترفون بأنهم من صلب الدين نفسه.[70]

لقد ترك إرث الاستعمار الأوروبي العربَ في دول قومية[71]، يحكم كل منها زعيم يميل إلى تفضيل الفرع الإسلامي الذي ينتمي إليه، وتفضيل القبيلة التي جاء منها. ثم استخدم هؤلاء الديكتاتوريون آلية الدولة لضمان حكمهم على المنطقة بأكملها ضمن الخطوط المصطنعة التي رسمها الأوروبيون، بغض النظر عما

---

70 . هذا الرأي فهم سطحيّ وفضفاض للتقسيمات المذهبية وخلفياتها الدينية والتاريخية.

71 . راجع مقدمة المحرر حول معنيي الوطنية والقومية.

إذا كان ذلك مناسباً من الناحية التاريخية، ومنصفاً بالنسبة إلى مختلف القبائل والأديان التي حُشرت معاً.

العراق مثال بارز للصراعات والفوضى التي تلت ذلك. لم يقبل الشيعة الأكثر تديناً قط أن تسيطر حكومة يقودها السنة على مدنهم المقدسة مثل النجف وكربلاء، حيث يُقال إن شهيديهم علي والحسين دُفنا هناك. تعود هذه المشاعر الجماعية إلى قرون ماضية، ولم يخفّف مرور عقود قليلة على مَن نطلق عليهم «عراقيون» مثل هذه المشاعر.[72]

رأى الأتراك عندما كانوا يحكمون الإمبراطورية العثمانية، منطقةً جبلية وعرة يسيطر عليها الأكراد، وعندما تنتهي الجبال في الأراضي المنبسطة المؤدية إلى بغداد، وإلى ما يعرف الآن بسوريا غرباً، رأوا مكاناً كانت فيه غالبية الناس من العرب السنة. وأخيراً، بعد اندماج النهرين الكبيرين، دجلة والفرات، وجريانهما إلى مجرى شط العرب المائي والأهوار ومدينة البصرة، رأوا المزيد من العرب، وكان معظمهم من الشيعة. وقد حكموا هذه المساحة على هذا الأساس، وقسّموها إلى ثلاث مناطق إدارية: الموصل وبغداد والبصرة.

في العصور القديمة، كانت المناطق المقابلة تقريباً لما عُرف باسم آشور وبابل وسومر. عندما سيطر الفرس على المنطقة قاموا بتقسيمها بطريقة مماثلة، كما فعل الإسكندر الأكبر، وفي ما بعد

72. يعود اسم العراق إلى آلاف السنين، وهو متحور عن اسم «أوروك». لم يبتكر العثمانيون ولا سايكس-بيكو اسم العراق. إن المؤلف يزرع معطيات خاطئة في تحليلاته ليصل بها إلى النتيجة التي يريدها.

الإمبراطورية الأموية. نظر البريطانيون إلى المنطقة نفسها وأعادوا تقسيم الثلاثة إلى منطقة واحدة، وهو استحالة منطقية يمكن للمسيحيين حلها عن طريق الثالوث المقدّس! لكنها أدت في العراق إلى فوضى غير مقدسة.

يقول العديد من المحللين إن الرجل القوي وحده هو الذي يستطيع أن يوحد هذه المناطق الثلاث في دولة واحدة، وقد حكم العراق رجل قوي تلو آخر، لكن الشعب في الواقع لم يتّحد قط، بل كان يَجِمُ خوفاً فقط. أذهان الناس هي المكان الوحيد الذي لم يستطع الديكتاتوريون رؤية ما فيه، قلة منهم صدّقوا دعاية الدولة، كالتي برّرت اضطهاد الأكراد مراراً، أو هيمنة عشيرة صدام السنّية التكريتية، أو مذابح الشيعة الجماعية بعد انتفاضتهم الفاشلة عام 1991.

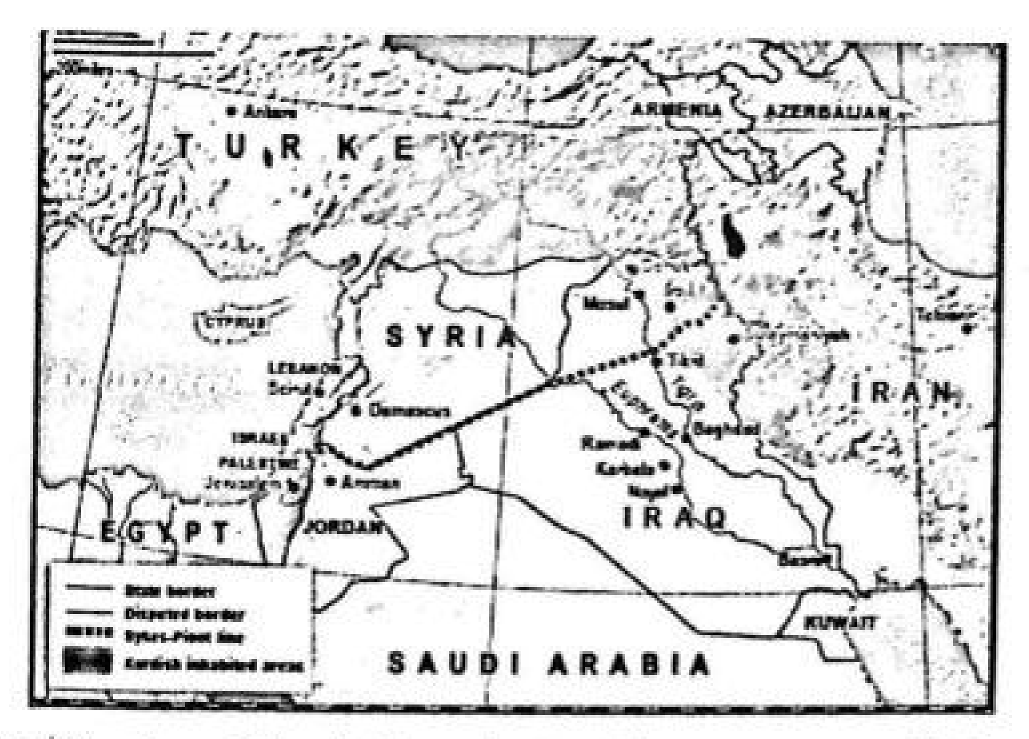
كان الأكراد أول من رحل. سوف تتظاهر الأقليات الأصغر في أي ديكتاتورية أحياناً بأنها تصدق الدعاية التي تقول بأن حقوقها محمية لأنها تفتقر إلى القوة لفعل أي شيء بشأن واقعها. مثالاً لذلك، شعرت الأقلية المسيحية في العراق، وقلة من اليهود فيها، بأنهم قد يكونون أكثر أماناً بالتزام الصمت في ظل ديكتاتورية علمانية، مثل نظام صدام، بدلاً من المخاطرة بالتغيير، ولكن ما كانوا يخشون حدوثه حدث فعلاً. ومع ذلك، فقد تم تحديد الأكراد جغرافياً، والأكثر حسماً من ذلك أن تعدادهم كبير بالقدر الذي يكونون به قادرين على الردّ على الديكتاتورية إذا بلغ السيل الزبى.

يتركز أكراد العراق البالغ عددهم خمسة ملايين في المحافظات الشمالية والشمالية الشرقية من أربيل والسليمانية ودهوك والمناطق المحيطة بها. إنه هلال عملاق من التلال والجبال في الغالب، ما يعني احتفاظ الأكراد بهويتهم المميزة على الرغم من الهجمات الثقافية والعسكرية المتكررة ضدهم، مثل حملة الأنفال عام 1988، وقد تضمنت غارات جوية استخدم فيها الغاز لمهاجمة القرى. لم تعتقل قوات صدام أي أسير خلال الحملة المكونة من ثماني مراحل، وقتلت كل الذكور الذين تراوحت أعمارهم بين الخامسة عشرة والخمسين. قُتل ما يصل إلى 100 ألف كردي وتم محو 90 في المائة من قراهم من الخريطة.

عندما اقتحم صدام حسين الكويت عام 1990، بادر الأكراد إلى اغتنام فرصتهم لإعادة صناعة التاريخ وجعل كردستان واقعاً فعلياً، مثلما وُعدوا بعد الحرب العالمية الأولى في معاهدة سيفر[73] (1920)، دون أن يتحقّق ذلك فعلاً. في نهاية حرب الخليج انتفض الأكراد، وأعلنت قوات الحلفاء «منطقة آمنة» لا يُسمح للقوات العراقية بدخولها، وبدأت خريطة كردستان تتشكل بحكم الواقع، ثم عزّز غزو الولايات المتحدة للعراق عام 2003 ما يبدو أنه صار حقيقة: بغداد لن تحكم الأكراد مرة أخرى.

---

73 . معاهدة سيفر Treaty of Sèvres: معاهدة أجبرت فيها الدولة العثمانية في أغسطس 1920 على التخلي عن جميع الأراضي التي تحكمها ويقطنها غير الناطقين باللغة التركية.



على الرغم من عدم وجود دولة معترف ذات سيادة اسمها «كردستان»، إلا أن بلاد الأكراد يمكن تحديدها. وستكون منطقة مشكلات محتملة إذا سعى الأكراد إلى إقامة دولة مستقلة.

كردستان العراق ليست دولة ذات سيادة معترف بها، وإن كانت تتّسم بكل مظاهر هذا الكيان، بيد أن المطالبة بالاستقلال الكامل عبر استفتاء عام 2017 أدى إلى نتائج عكسية سيئة، وأرسلت بغداد الجيش العراقي مدعوماً بميليشيات شيعية، وواجهوا مقاتلي البشمرگة الكردية وسيطروا بعد أيام قليلة من القتال على مدينة كركوك التي كان الأكراد قد استردوها من تنظيم الدولة الإسلامية، وكانوا يأملون أن تصبح هذه المدينة، الواقعة بجوار حقل نفط ضخم، عاصمتهم ذات السيادة يوماً ما، ولكن مع هزيمة عدوهم المشترك، سرعان ما عادت المنافسة بين الحكومة الإقليمية الكردية والعاصمة العراقية إلى الظهور. والآن... يرفرف العلم العراقي مرة أخرى فوق كركوك وتتدفّق عائدات النفط مرة أخرى إلى بغداد.

بدون إقامة كردستان مستقلة بالكامل عن العراق، تضاءلت فرص «كردستان الكبرى» الممتدة من الجبال العراقية إلى البحر الأبيض المتوسط، وقد اتبعت سوريا وتركيا وإيران خطى العراق في ذلك.

هناك مشكلة أخرى هي الوحدة بين الأكراد. فكردستان العراق منقسمة بين عائلتين متنافستين، وجميع المناطق الكردية المختلفة منقسمة كذلك. أما أكراد سوريا فلا يزالون يحاولون إقامة دويلة يسمونها «روج آفا» [أي غرب كردستان]، لكن انتصارات الرئيس الأسد العسكرية منذ عام 2017 جعلت قيامها موضع شك. ومع ذلك، لا يزال أكراد سوريا ينظرون إلى «روج آفا» على أنها جزء من كردستان الكبرى في المستقبل، إلا إن القوى الغربية قد تخلت عنهم ثانيةً بعد أن استخدمتهم لهزيمة تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا، وهم يرددون الآن قولهم القديم: «ليس لدى الأكراد من أصدقاء سوى الجبال». إذا تم إنشاء كردستان فستظهر أسئلة حول أحقية الحكم لمن تكون وأين، وإذا أصبحت دولة معترف بها دولياً، فإن شكل العراق سيتغير، هذا مع افتراض استمرار وجود العراق، إذ ربما لن يوجد أكثر من ذلك.

المملكة الهاشمية، الاسم الذي تُعرف به الأردن، هي مكان آخر تم اقتطاعه من الصحراء من قبل البريطانيين الذين كان لديهم عام 1918 الكثير من الأراضي لإدارتها والعديد من المشاكل لحلها. وقد أطلق البريطانيون المتمسكون بالتصنيفات الإدارية على هذه المنطقة

اسم «شرق الأردن»، أي «الجانب الآخر من نهر الأردن»، وأصبحت مدينة صغيرة تَرِبة تسمّى عمان عاصمة شرق الأردن، وعندما عاد البريطانيون إلى ديارهم عام 1948، تغير اسم الدولة إلى الأردن. لكن الهاشميين لم يكونوا من منطقة عمّان، فهم في الأصل كانوا جزءاً من قبيلة القريشي من منطقة مكة، وكان السكان الأصليون في الغالب من البدو. أما غالبية السكان الآن فهم فلسطينيون، إذ عندما احتل الإسرائيليون الضفة الغربية عام 1967 «فرّ»(74) الكثير من الفلسطينيين إلى الأردن، وهي الدولة العربية الوحيدة التي منحتهم الجنسية. لدينا الآن وضع مركّب، فغالبية سكان الأردن البالغ عددهم 9.7 مليون مواطن هم فلسطينيون، وكثير منهم لا يعتبرون أنفسهم رعايا مخلصين للحاكم الهاشمي الحالي، الملك عبد الله. يضاف إلى هذه المشكلة مليون لاجئ عراقي وسوري استقبلتهم البلاد أيضاً، ما يشكل ضغطاً كبيراً على مواردها المحدودة للغاية.

يمكن لمثل هذه التغييرات في التركيبة السكانية لبلد ما أن تسبب مشكلات خطيرة، ولا يحدث ذلك في أي مكان بأكثر مما يحدث في

74. ملاحظة: هناك نوع من الحقد الثقافي الدفين ضد العرب والمسلمين في عمق هذا الكتاب، لا على مستوى تشويه الحقائق فحسب، بل حتى على مستوى اللغة نفسها. مثالاً لذلك نراه عندما يتحدث عن خروج الفلسطينيين من أراضيهم، أو عن انتقال المسلمين من الهند إلى باكستان (انظر الفصل السابع)، يستخدم كلمة «فرّوا» أو «هربوا»، أما في الحالات المماثلة من الهجرة أو الانتقال في أمكنة أخرى من العالم فإنه يستخدم كلمة «انتقلوا» أو «ذهبوا» أو «رحلوا». سواء كان هذا الاستخدام متعمّداً أو عفوياً فإنه يدلّ على فكرة أو شعور محدّدين يعكسان منهج المؤلف غير الموضوعي وموقفه الثقافي المسبق من القضايا التي يتناولها.

لبنان.

حتى القرن العشرين، رأى العرب في المنطقة المنطقة الواقعة بين الجبال اللبنانية والبحر مجرد مقاطعة من سوريا [الكبرى]. أما الفرنسيون الذين هيمنوا عليها بعد الحرب العالمية الأولى فقد رأوا الأمور بطريقة مختلفة.

لطالما تحالف الفرنسيون مع المسيحيين العرب في هذه المنطقة، وامتناناً لهذه العلاقة اصطنعوا لهم دولة في المكان الذي وُجدوا فيه في عشرينيات القرن الماضي ليكونوا هم العدد المهيمن من السكان، ولأنه لم يكن هناك اسم آخر واضح لهذا البلد أطلق عليه الفرنسيون اسم الجبال المجاورة، وهكذا ولد لبنان. استمر هذا الخيال الجغرافي حتى أواخر خمسينيات القرن العشرين، وكان معدل المواليد بين المسلمين الشيعة والسنة في لبنان آنذاك ينمو بشكل أسرع من المسيحيين، ثم تضخّم عدد السكان المسلمين بفعل قدوم الفلسطينيين الفارين من الحرب العربية الإسرائيلية عام 1948 في إسرائيل-فلسطين المجاورة. لم يكن هناك سوى إحصاء رسمي واحد في لبنان (عام 1932)، لأن التركيبة السكانية قضية حساسة تماماً، كما إن النظام السياسي يعتمد جزئياً على حجم السكان (وتصنيفهم).

كانت هناك جولات من القتال منذ فترة طويلة بين مختلف الطوائف في المنطقة، وقد نشبت «الحرب الأهلية اللبنانية الأولى»، كما يسميها بعض المؤرخين، عام 1958 بين المسيحيين الموارنة

والمسلمين الذين ربما كان عددهم في ذلك الوقت يفوق عدد المسيحيين قليلاً. ويبدو أنهم يمثلون الأغلبية الآن، ولكن لا توجد إحصاءات رسمية تؤكد ذلك، كما إن الدراسات الأكاديمية التي تستشهد بالأرقام محلّ نزاع كبير.

تتكون بعض أجزاء العاصمة بيروت من المسلمين الشيعة فقط، كما هو الحال في معظم جنوب البلاد حيث يهيمن حزب الله الشيعي (المدعوم من إيران التي يحكمها الشيعة)، وهناك معقل شيعي آخر هو وادي البقاع الذي استخدمه حزب الله نقطة انطلاق لغاراته في سوريا دعماً للقوات الحكومية هناك. المدن اللبنانية الأخرى هي من المسلمين السنة في الغالب. فطرابلس في الشمال، مثلاً، يُعتقد أن 80 في المائة من سكانها من السنة، ولكن توجد بها أقلية علوية كبيرة كذلك، وبالنظر إلى التوترات السنية العلوية المجاورة في سوريا، فقد أدى ذلك إلى أحداث متفرقة من القتال بين الجانبين.

يبدو لبنان دولة موحدة من منظور الخريطة لا غير. يستغرق الأمر بضع دقائق فقط بعد الوصول إلى مطار بيروت لاكتشاف أن لبنان بعيد عن كونه دولة واحدة حقاً. تأخذك الطريق من المطار إلى المركز عبر الضواحي الجنوبية التي يسكنها الشيعة حصرياً، وهي تخضع جزئياً لحراسة ميليشيا حزب الله التي ربما تكون القوة القتالية الأكثر كفاءة في البلاد. الجيش اللبناني موجود على الورق، ولكنه سينهار فعلاً في حالة اندلاع حرب أهلية أخرى مثل حرب 1975-1990، ذلك أن الجنود في معظم الوحدات سيعودون ببساطة إلى

مدنهم الأصلية وينضمون إلى الميليشيات المحلية.

هذا، جزئياً، ما حدث للقوات المسلحة السورية عندما احتدمت الحرب الأهلية هناك مع نهاية عام 2011.

سوريا دولة أخرى متعددة الأديان والطوائف والقبائل انهارت في المواجهة الأولى. وهي حالة نمطية في الشرق الأوسط، فأغلبية السكان سنيّة تبلغ حوالي 70 في المائة، وبها أقليات كبيرة من الأديان الأخرى. حتى عام 2011، كانت العديد من المجتمعات تعيش جنباً إلى جنب في البلدات والمدن والريف، ولكن لا تزال هناك مناطق متميزة تهيمن عليها مجموعة محدّدة. وكما هو الحال في العراق، سيقول لك السكان المحليون دائماً: «نحن شعب واحد، ولا توجد انقسامات بيننا». ومع ذلك، فإن اسمك أو مكان ميلادك أو مكان إقامتك يعني عادةً أنه يمكن التعرف على خلفيتك بسهولة، دون أن يتطلب الأمر جهداً كبيراً لجعل الشعب الواحد ينقسم ويتبعثر.

عندما حكم الفرنسيون المنطقة، اتبعوا النموذج البريطاني «فرّق تَسُد». في ذلك الوقت كان العلويون يعرفون بالنصيريين، وهي طائفة لا يعدّها الكثير من السنّة من المسلمين، وكان هذا العداء سبباً في جعلهم يعيدون تسمية أنفسهم بالعلويين (كما في قولنا «أتباع علي») لتعزيز جذورهم الإسلامية. كانوا من أبناء التلال، ويمثلون أدنى الطبقات الاجتماعية في المجتمع السوري، جنّدهم الفرنسيون وجعلوا منهم قوة الشرطة والجيش، ومذّاك أثبتوا وجودهم بمرور

الوقت وصاروا قوة رئيسية في البلاد.

كان الجميع في الأصل على دراية بالتوتر الناجم عن وجود قادة من أقلية صغيرة من السكان يحكمون أغلبية السكان. عشيرة الأسد علوية، وهي التي ينحدر منها الرئيس بشار الأسد، وتضم قرابة 12 في المائة من السكان، وقد حكمت هذه الأسرة البلاد منذ أن تولى حافظ الأسد، والد بشار، السلطة بعد انقلاب عام 1970. في عام 1982، سحق حافظ انتفاضة الإخوان المسلمين السنيّة في حماة، ما أسفر عن مقتل 30000 شخص على مدى عدة أيام. لم يغفر الإخوان أو ينسوا ذلك أبداً، وعندما بدأت الانتفاضة في عموم البلاد عام 2011، كان هناك الكثير من الحسابات التي يجب تسويتها. إن الحرب الأهلية التي أعقبت ذلك، ليست من بعض النواحي سوى الجزء الثاني من حماة.

لا يزال شكل سوريا وتكوينها النهائي موضع تساؤل، لكن منذ تدخل الروس في أواخر عام 2015، انتهى احتمال هزيمة النظام. إنه يسيطر على معظم البلاد، بما في ذلك وسطها الحيوي وجميع المناطق الحضرية الرئيسية. وتتعرّض الجماعات المتمردة للضرب في عمقها، وتفرّق تنظيم الدولة الإسلامية. قامت القوات الكردية بتقسيم الأراضي التي تسيطر عليها، لكن هذا بدوره أدى إلى دخول الجيش التركي المصمّم على منع خروج دولة كردية من تحت الأنقاض. حتى احتمال الحكم الذاتي الإقليمي صارت معقّدة بسبب وصول أعداد كبيرة من القوات والمدرعات التركية عام

2018، ولم يكن الرئيس أردوغان مستعداً للمخاطرة بالسماح بنشأة «كردستان صغيرة» على حدوده مع سوريا لأن ذلك سيؤدي بدوره إلى بثّ النشاط في الأكراد الأتراك ويلهمهم فكرة الحصول على حكم ذاتي في منطقتهم التي قد تنضم يوماً إلى نظيرتها السورية.

سوف تبدو أغلبية سوريا في المستقبل القريب كأن حكم الأسد قدرها، طالما استمرت إيران وروسيا في دعمه. ومع ذلك، فإن الأكراد وتركيا ما زالوا يسيطرون على الإقليم [الشمالي]، منذ صيف 2019، أما الجماعات الجهادية المختلفة فتشكل جيوب مقاومة منتشرة هناك. إن الانقسامات العميقة في المجتمع السوري التي كشفتها الحرب لم تلتئم، وبدون إعادة توزيع السلطة والثروة من قبل نظام الأسد، ستكون هناك دائماً عناصر تنتظر فرصة أخرى للإطاحة به. ومع ذلك، فإن النظام سيبقى طالما أن الرئيس بوتين مستعد لاستخدام القوة العسكرية لدعمه. لقد رأى بوتين أن عدم تركيز أوباما على سوريا أعطى روسيا فرصة مناسبة يمكنها أن (1) تعود من خلالها إلى الشرق الأوسط، و(2) تجعل روسيا جزءاً من حل المشكلة السورية، و(3) تحاول التعاون مع الآخرين لحل الأزمة بتخفيف العقوبات المفروضة على موسكو، وهي التي كانت قد فُرضت عليها بعد ضم شبه جزيرة القرم.

إن الهدفين الأول والثاني هما الجزء السهل في هذه المعادلة، وما زال بوتين يعمل على إنجاز الهدف الثالث. لدى روسيا بالفعل عقد إيجار تستخدم بموجبه جزءاً من ميناء طرطوس الصغير، على

ساحل سوريا من البحر الأبيض المتوسط، وهو موطئ قدم في الشرق الأوسط لا تريد أن تخسره إذا تغيّر النظام. لقد جُمّد وجود موسكو في مصر أثناء عهد الرئيس السادات في أوائل السبعينيات، ثم خرجت من العراق في أعقاب الإطاحة بنظام صدام حسين عام 2003، لذا حرص بوتين على ألا يفقد الرئيس الأسد السلطة ودعمه بإرسال قواته وطائراته الحربية. تم تمديد القطاع الروسي من ميناء طرطوس ومُنحت موسكو عقد إيجار مدته 100 عام لإنشاء قاعدة جوية كبيرة للقوات الروسية في منطقة اللاذقية. إن الأسد في جيب الرئيس بوتين.

أصبحت سوريا، مثل لبنان، مكاناً تستخدمه القوى الخارجية لتحقيق أهدافها الخاصة، فروسيا وإيران وحزب الله اللبناني يدعمون قوات الحكومة السورية، بينما دول عربية مختلفة تدعم مجموعات المعارضة المختلفة لتحقيق أهدافها.

لجمع العديد من هذه المناطق معاً وجعلها مساحة واحدة يمكن التحكم فيها، سوف يتطلب الأمر مهارة وشجاعة وعنصراً غائباً هو إمكان التوافق، خاصة وأن المقاتلين الجهاديين السنّة يحاولون تفكيك تلك المناطق والسيطرة عليها من أجل توسيع «خلافتهم». لقد حصلت مجموعات مثل القاعدة، وتنظيم الدولة الإسلامية لاحقاً، على الدعم الذي حصلت عليه جزئياً بسبب الإذلال الناجم عن الاستعمار، ثم عن فشل القومية العربية، وإلى حد ما فشل مشروع الدولة القومية العربية. لقد فشل القادة العرب في تحقيق

الرخاء أو الحرية، وأثبت نداء «الإسلاموية» الذي يَعِد بحل جميع المشكلات، أنه جذاب للكثيرين في منطقة تتميز بمزيج سامٍّ من التقوى والبطالة والقمع، حيث يعود الإسلامويّون إلى عصر ذهبي حكم فيه الإسلام إمبراطورية شاسعة، وكان في طليعة التقدم التقني والفن والطب والحكومة. لقد ساعدوا على تأكيد الشكوك القديمة عن «الآخر» في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

نشأ «تنظيم الدولة الإسلامية» من مجموعة «القاعدة في العراق» في أواخر العقد الأول من القرن الحالي، وكانت توجّهه -من الناحية الاسمية- بقايا قيادة القاعدة. بحلول الوقت الذي كانت فيه الحرب الأهلية السورية في أوجها، انفصلت المجموعة عن القاعدة وأعادت تسمية نفسها، وصار العالم الخارجي يعرفها باسم «داعش» (اختصاراً من: الدولة الإسلامية في العراق والشام)، ومع صيف 2014، بدأ التنظيم يطلق على نفسه اسم «الدولة الإسلامية»، بعد أن سيطر على أجزاء كبيرة من العراق وسوريا.

سرعان ما أصبحت هذه «الجماعة الجهادية» مركز استقطاب، وجذبت آلاف المسلمين الأجانب إلى قضيتها، ويرجع ذلك جزئياً إلى رومانسيتها الورعة وإلى وحشيتها. ومع ذلك، كانت جاذبيتها الرئيسية هي نجاحها في إقامة «الخلافة»، فبينما قتلت القاعدة الناس واستولت على عناوين الأخبار، فإن تنظيم الدولة الإسلامية قتل الناس واستولى على الأراضي.

استولى تنظيم الدولة الإسلامية على مساحة تكتسب أهمية

متزايدة في عصر الإنترنت هي المجال النفسي. لقد استفاد من العمل السابق الذي بدأته القاعدة في وسائل التواصل الاجتماعي، وطوّره إلى آفاق جديدة من الرقي والوحشية. بحلول عام 2015، كان تنظيم الدولة الإسلامية متقدماً على الحكومات في مستويات الرسائل الموجّهة إلى عموم الناس وذلك باستخدام عناصر تربّت على ما تتركه الإنترنت من آثار وحشية في بعض الأحيان، وعلى هوسها بالعنف والجنس. كان جيلاً يعتمد على امتهان المخاطرة التي تثير المهووسين، ويجيد استخدام الألعاب المميتة.

بحلول صيف عام 2015، كان العديد من العرب في جميع أنحاء الشرق الأوسط، بما في ذلك معظم وسائل الإعلام الإقليمية، قد أطلقوا اسم «داعش» على هذا التنظيم، بطريقة لا تخفي شعور الناس العاديين واشمئزازهم ونفورهم منه.

الاسم مركّب من أوائل حروف الكلمات في «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، لكن سبب ميل الناس لاستخدام الاسم هو أن أعضاء «تنظيم الدولة الإسلامية» أنفسهم يكرهون المصطلح. يبدو مشابهاً لكلمة «داعس» (من فعل «دعس»: داس، طعن، قتلَ)، وهو على وزن كلمات سلبية مثل «فاحش»، والأفضل من ذلك كله بالنسبة إلى أولئك الذين يحتقرون هذه النسخة الخاصة من فهم الإسلام لدى التنظيم، هو أنها تبدو مثل كلمة «جاحش» وتتناغم معها، بمعنى «حمار أو غبي». وتعدّ هذه في الثقافة العربية إهانة بالغة تحط من مكانة الشخص وتقلّل من قدرته على بث الخوف.

في عام 2015، اندلعت الحرب كراً وفراً عبر أجزاء من العراق، وخسر تنظيم الدولة مدينة تكريت، لكنه سيطر على الرمادي. وفجأة وجد سلاح الجو الأمريكي نفسه في موقف غريب حيث يقوم بمهام الاستطلاع والضربات الجوية المحدودة التي ساعدت بدورها قادة الحرس الجمهوري الإيراني. أراد «داعش» مدينة تكريت، حيث يستطيع جزئياً منع الحكومة العراقية من محاولة استعادة الموصل إلى الشمال، لكن الرمادي كانت أكثر أهمية بالنسبة لهم. وتقع الرمادي في محافظة الأنبار، وهي منطقة ذات أغلبية سنية في العراق وترتبط بالحدود السورية، وكان احتفاظهم بهذه المنطقة يعزّز مطالبتهم بأن يكونوا «دولة» جديدة.

في أغسطس 2014، بدأ التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة ضربات جوية ضد «داعش» في كل من العراق وسوريا، وسمح الغطاء الجوي للقوات المختلفة المناهضة لتنظيم الدولة الإسلامية بأن تنجح في الهجوم. بحلول عام 2019، كانت هناك آلاف الغارات الجوية مع العديد من الطائرات الأمريكية التي كانت تحلق من حاملتي الطائرات جورج دبليو بوش وكارل فينسون في الخليج، وأخرى من الكويت، وقاعدة في الإمارات. شملت الطائرات المقاتلة «إف 22 رابتور ستيلث» التي هاجمت منشآت نفطية يسيطر عليها تنظيم الدولة الإسلامية. عانى الطيارون الأمريكيون الذين حلقوا في غالبية المهام، من عدم وجود ما يكفي من المراقبين الجويين المتقدمين من القوات الخاصة الأمريكية الذين يحدّدون إحداثيات الضربات، ونظراً لأن الأهداف كانت في كثير

من الأحيان في المناطق الحضرية، فإن «قواعد الاشتباك» تعني عودة العديد من الطائرات إلى قواعدها دون إطلاق أسلحتها. ومع ذلك، كانت هناك خسائر كبيرة في الأرواح بين المدنيين على الأرض.

بدأ تنظيم الدولة الإسلامية يخسر ما سيطر عليه من أراضٍ في صيف 2015، مع اجتياح القوات الكردية لمناطق حضرية مثل بلدة كوباني السورية. وفي العام التالي، استعاد الجيش والميليشيات الداعمة مدينة الرمادي العراقية المهمة.

بمرور الوقت، أصبح العالم الخارجي أكثر انخراطاً في سوريا، حيث قام الروس بقصف الجيش السوري الحر وداعش، في أعقاب هجوم على إحدى طائرات الركاب الروسية في مصر نُسب إلى داعش. كما ردّ الفرنسيون على الهجمات الإرهابية على باريس في نوفمبر 2015 بضربات جوية ضخمة على داعش، ثم طلبوا المساعدة من المملكة المتحدة، وصوت البرلمان البريطاني على تمديد غاراته الجوية في العراق لتشمل سوريا.

أدت العمليات إلى تدمير «خلافة» داعش. كانت خسارة الموصل، التي استعادها الجيش العراقي عام 2017، أشبه بانتكاسة كبيرة تعرّض لها داعش عسكرياً ومعنوياً، فقد أُعلن عن الخلافة قبل ثلاث سنوات من «المسجد الكبير» في المدينة. وبحلول عام 2019، لم تعد «الخلافة» موجودة. قُتل الآلاف من مقاتليها أو أسروا، وحاول الكثيرون العودة إلى ديارهم، أما أولئك الذين بقوا فقد تراجعوا إلى مناطق نائية من وادي الفرات في محاولة لإعادة

تجميع صفوفهم وبدء هجماتهم كراً وفراً. ومع ذلك، فإن ذلك لا يعني بالضرورة نهاية تنظيم الدولة الإسلامية تماماً. بحلول عام 2017، توجه مئات المقاتلين إلى ليبيا لإقامة قاعدة أخرى، وحاول العديد من المقاتلين الأجانب غير العرب العودة إلى بلدانهم الأصلية في أوروبا ودول آسيا الوسطى التي يبدو أنها ستعاني جميعاً من وباء «الاسلاموية» العنيف على مدى السنوات القادمة.

مع كل ذلك، لا تزال جيوش عدة دول خارجية تعمل في سوريا، ولا يزال الروس والبريطانيون والفرنسيون والإيرانيون والأتراك وغيرهم مرتبطين بأهدافهم العسكرية هناك، حتى وإن قلص الأمريكيون وجودهم على الأرض وبعض قوتهم الجوية.

تم تنفيذ الآلاف من مهام الطائرات بدون طيار، بعضها من داخل الولايات المتحدة، والطائرات بدون طيار مثال واضح وحديث للتكنولوجيا التي تتغلب على بعض قيود الجغرافيا، ولكنها تعمل في الوقت نفسه على تأكيد أهمية الجغرافيا. تمتلك الولايات المتحدة أسطولاً متنامياً من الطائرات بدون طيار في عشر قواعد على الأقل حول العالم، ويسمح ذلك لشخص جالس في مكتب مكيّف الهواء في ولاية نيفادا مستخدماً أجهزته بضرب الأهداف أو نقل التحكّم في العمليات إلى أحد المنفّذين بالقرب من الهدف. لكن هذا يعني كذلك أن الولايات المتحدة بحاجة إلى الحفاظ على علاقات جيدة مع أي دولة تستضيف المقر الإقليمي للطائرات بدون طيار. قد تحتاج الإشارة المرسلة من نيفادا مثلاً إلى

السفر عبر كابل تحت الماء إلى ألمانيا ثم تُرسل إلى قمر صناعي تابع لدولة ثالثة تبيع عرض النطاق الترددي[75] إلى البنتاغون. وهذا تذكير بالخريطة المفاهيمية لقوة الولايات المتحدة اللازمة لفهم الجغرافيا السياسية اليوم فهماً كاملاً.

تم استخدام ضربات الطائرات بدون طيار لخلق تأثير مدمر ضد الأهداف الفردية. من عام 2014 إلى عام 2019، ساهمت كثيراً في استعادة عدة آلاف من الأميال المربعة من الأراضي في العراق من داعش، حتى عندما كانت داعش ما زالت تتحكّم في مساحات شاسعة من المناطق التي كان يسيطر عليها السنّة في البلاد.

من ناحية أخرى فإن المقاتلين الإسلامويين السنّة من جميع أنحاء العالم، استفادوا من الانقسام الثلاثي بين الأكراد والسنة والشيعة في العراق. وهم يقدمون للعرب السنّة مزيجاً قوياً من الوعد بإعادتهم إلى مكانهم «الشرعي» كقوة مهيمنة في المنطقة، وإعادة إنشاء «الخلافة» التي تعيش فيها نسختهم من جميع المؤمنين الحقيقيين (أي المسلمين السنّة) تحت ظل حاكم واحد.

إن التعصّب الشديد لمعتقداتهم وممارساتهم هو الذي يفسّر عدم تمكنهم من تحقيق أوهامهم الطوباوية.

أولاً، هناك بعض العشائر العراقية السنية فقط هي التي يمكن أن تدعم الأهداف الجهادية، وهي تقوم بذلك لتحقيق أهدافها الخاصة

---

75. عرض النطاق الترددي Bandwidth: سعة حاسوبية تمكّن من نقل البيانات من جهاز إلى آخر في شبكة واحدة، أو من مكرز إلى طرف.

لا غير، وهي أهداف لا تشمل العودة إلى القرن السادس، أي إنهم ما أن يحصلوا على ما يريدون فسوف ينقلبون على الجهاديين أنفسهم، وخاصة الأجانب منهم.

ثانياً، أثبت الجهاديون أنه لا رحمة لمن يعارضهم، وأن كونك غير سنّي هو بمثابة حكم بالإعدام، لذا فإن كل المسلمين غير السنة، وكل الأقليات في العراق من المسيحيين والكلدان واليزيديين وغيرهم، يقفون ضدهم، وكذلك عشرات الدول الغربية والإسلامية.

السنّة العراقيون غير الجهاديين في موقف صعب، ففي حالة وجود عراق مجزأ أو فدراليّ قانونياً، فإنهم يظلّون عالقين، محاطين بالرمال في منطقة تُعرف باسم المثلث السنّي الذي تقع إحداثياته شرقَ بغداد وغرب الرمادي وشمال تكريت، وغالباً ما يكون لدى السنة الذين يعيشون هنا قواسم مشتركة مع قبائلهم ذات الصلة بسوريا أكثر مما لديهم مع الأكراد في شمال العراق أو مع الشيعة في جنوبه.

لا يوجد تنوع اقتصادي كافٍ في حدود المثلث السنّي للحفاظ على كيان واحد. لقد أورث التاريخُ «العراقَ» النفطَ لكن تقسيم البلاد فعلياً يعني أن النفط موجود في الغالب في المناطق الكردية والشيعية، وإذا لم يكن هناك عراق قوي موحّد، فإن أموال النفط تتدفق عائدة إلى حيث يوجد النفط. لا يمكن وضع الأراضي الكردية تحت سيطرتهم، فالمدن الواقعة جنوب بغداد مثل النجف

وكربلاء ذات أغلبية شيعية، وموانئ البصرة وأم قصر بعيدتان عن الأراضي السنيّة. هذه المعضلة تجعل السنّة يقاتلون من أجل حصة متساوية في بلد حكموه ذات مرة، ويتلاعبون أحياناً بفكرة الانفصال، لكن معرفة أن مستقبلهم ربما يكون حكماً ذاتياً لن يعني الكثير.

إذا حدث الانقسام فإن الشيعة هم في أفضل مكان من الناحية الجغرافية يستطيعون الاستفادة منه، ففي المنطقة التي يسيطرون عليها حقول نفط، و35 ميلاً من الساحل، وممر شط العرب المائي، وبعض الموانئ، ومنفذ إلى العالم الخارجي، وحليف ديني واقتصادي وعسكري في الجوار هو إيران.

يتمثّل الوهم الجهادي في هيمنة الإسلام السلفي على العالم. فالجهاديون -في لحظاتهم الأكثر وضوحاً، والتي لا تزال متوحّشةً- يخطّطون ويقاتلون من أجل هدف أكثر محدودية هو الخلافة في جميع أنحاء الشرق الأوسط. إن أحد هتافات الجهاديين القتالية هو «من الموصل إلى القدس! »، ما يعني أنهم يأملون في السيطرة على المنطقة من الموصل في العراق إلى بيروت في لبنان، وعمان في الأردن والقدس في إسرائيل. ومع ذلك، فإن الحجم الحقيقي للخلافة الجغرافية للدولة الإسلامية محدودٌ بقدراته.

لا يعني هذا التقليل من حجم المشكلة، أو حجم ما يمكن أن تكون عليه النسخة العربية من حرب الثلاثين عاماً في أوروبا (1618-1648). إنها ليست مشكلة شرق أوسطية فحسب،

فالعديد من الجهاديين الأجانب الذين نجوا الآن يحاولون العودة إلى ديارهم في أوروبا وأمريكا الشمالية وإندونيسيا والقوقاز وبنغلاديش، ومن غير المرجح أن يُقبلوا في بلدانهم ويهنؤوا بحياة هادئة. إن أجهزة المخابرات في لندن تعتقد أنه مع حلول عام 2015 كان هناك عدد أكبر من المسلمين البريطانيين الذين يقاتلون في منطقة الشرق الأوسط الأوسع لصالح الجماعات الجهادية أكثر مما كانوا يخدمون في الجيش البريطاني. لقد تعرفوا على حوالي 500 منهم، لكنهم اعتقدوا كذلك أنه قد يكون هناك بين 200 و300 آخرين، أي إن برنامج التطرف الذي ينفذه الإسلاميون بدأ قبل عدة عقود من مبادرات القضاء على التطرف التي تجري الآن في الدول الأوروبية.

تواجه معظم دول المنطقة نسختها الخاصة من هذا الصراع بين الأجيال بدرجة أكبر أو أقل. مثال ذلك أنها سيطرت على خلايا القاعدة على مدى العقد الماضي، ولكن بعد تفكيك معظمها، فإنها تواجه الآن تحديات متجددة من الجيل القادم من الجهاديين، بالإضافة إلى انفجار مشكلة في اليمن التي تشهد أحداثاً مليئة بالعنف والحركات الانفصالية دون أن تخلو من عنصر جهادي قوي، وهناك أيضاً حركة إسلامية مستعرة في الأردن، خاصة في مدينة الزرقاء، في الشمال الشرقي باتجاه الحدود السورية والعراقية، وهي ملجأ بعض الآلاف من أنصار الجماعات المنظّمة مثل القاعدة وداعش، وتخشى السلطات هناك من وصول جماعة جهادية من العراق أو سوريا بقوتها وعتادها إلى الحدود الهشة حالياً وتعبر إلى

الأردن. يُعتقد أن الجيش الأردني الذي دربته بريطانيا هو أحد أقوى الجيوش في الشرق الأوسط، لكنه قد يواجه صعوبة في التأقلم إذا نزل الإسلامويون المحليون والمقاتلون الأجانب إلى الشوارع في حرب من حروب العصابات. إذا أحجم الأردنيون الفلسطينيون عن الدفاع عن البلاد، فليس من غير الواقعي الاعتقاد بأنها ستنحدر إلى نوع من الفوضى التي نراها الآن في سوريا، وهذا آخر ما يريده الحكام الهاشميون، وكذلك الإسرائيليون.

أدّت المعركة من أجل مستقبل الشرق الأوسط العربي إلى حد ما إلى تسليط الضوء على الصراع العربي-الإسرائيلي، ورسوخ مسألة «إسرائيل- فلسطين» ينعكس على ما يجري في بعض الأحيان، لكن جسامة ما يجري في أماكن أخرى مكّن أخيراً بعض المراقبين على الأقل من فهم أن مشاكل المنطقة لا تعود إلى وجود إسرائيل. كانت تلك كذبة روجها الديكتاتوريون العرب وهم يسعون إلى صرف الانتباه عن وحشيتهم، وقد صدقها كثير من الناس في جميع أنحاء المنطقة، والكثير من أغبياء الغرب الذين يفيدون الطغاة. ومع ذلك، فإن المأساة الإسرائيلية/ الفلسطينية المشتركة مستمرة، وكذلك الهوس بتلك القطعة الصغيرة من الأرض التي سيستمر بعضهم في اعتبارها أكثر الصراعات إلحاحاً في العالم.

كان العثمانيون يرون المنطقة الواقعة غرب نهر الأردن حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط جزءاً من إقليم سوريا، وأطلقوا

عليها اسم فلسطين[76]. بعد الحرب العالمية الأولى، ثم أصبحت تحت الانتداب البريطاني.

عاش اليهود في ما كان يُطلق عليه اسم إسرائيل لآلاف السنين، لكن ويلات التاريخ شتتهم في جميع أنحاء العالم. بقيت إسرائيل بالنسبة لهم «أرض الميعاد»، وكانت القدس على وجه الخصوص أرضاً مقدسة. وبحلول عام 1948، كان المسلمون والمسيحيون العرب يشكلون أغلبية واضحة في الأرض لأكثر من ألف عام.

في القرن العشرين، مع بدء الانتداب على فلسطين، نمت الحركة اليهودية وانضمت لها الأقلية الدينية من اليهود، ثم بدأ المزيد من اليهود يستقرون هناك، وخاصة بعد المذابح التي تعرضوا لها في أوروبا الشرقية. ونظر البريطانيون بشكل إيجابي إلى إنشاء «الوطن اليهودي» في فلسطين وسمحوا لليهود بالانتقال إلى هناك وشراء الأراضي من العرب. بعد الحرب العالمية الثانية والمحرقة، حاول اليهود الوصول إلى فلسطين بأعداد أكبر. وصلت التوترات بين اليهود وغير اليهود إلى نقطة الغليان، وسلمت بريطانيا المنهكة المشكلة إلى الأمم المتحدة عام 1948، التي صوتت على تقسيم المنطقة إلى دولتين. وافق اليهود، ورفض العرب. وكانت النتيجة هي الحرب التي أوجدت الموجة الأولى من اللاجئين الفلسطينيين

---

76. يعود اسم فلسطين إلى السجلات الأشورية بهذه الصيغة (فلستيا)، ويعود أول ذكر لها إلى 800 ق.م. ثم ذكرها هيرودوت، أما في العهد الروماني فصار الاسم يشمل كل الأرض المقدسة، وكذلك استمر في العهد الإسلامي الذي جعلها جزءاً من بلاد الشام. يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: «فلسطين آخر كور الشام من ناحية مصر، قصبتها بيت المقدس».

الفارين من المنطقة واللاجئين اليهود القادمين من جميع أنحاء الشرق الأوسط."[77]

احتل الأردن منطقة الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية، واحتلت مصر غزة وجعلتها امتداداً لأراضيها. لم يهتم أي منهما بمنح الناس الذين يعيشون هناك جنسية فلسطينية أو يدعم كيانهم المستقل، كما لم يكن هناك أي تحرك مهم من قبل السكان يدعو إلى إقامة دولة فلسطينية، وفي غضون ذلك تعاملت سوريا مع المنطقة بأكملها بوصفها جزءاً من سوريا الكبرى، ورأت في سكانها مجرد مواطنين سوريين.

---

77. يعرض المؤلف الأحداث بطريقة مخلة يوجّهها إلى غايته، ويغفل عن عمد ما حدث من مذابح ومجازر قام بها الصهاينة قبل إعلان قيام إسرائيل عام 1948، ونفذتها عصابات الإتسل (الأرغون) وليحي (شتيرن) والهاغاناه والبالماخ في القرى والمدن الفلسطينية، منذ حيفا عام 1937، وهو يعمّم حالات معدودة من بيع الأراضي ويجعل احتلال فلسطين كأن شعباً بأسره باع أرضه وفرّ هارباً من هول الحرب. كما يلاحظ القارئ ليست هذه هي الحالة الوحيدة التي يلوي فيه المؤلف عنق الحقائق ليقدّم ما يتفق مع وجهة النظر الغربية (البريطانية أصلاً). والأسوء من كل ذلك أنه ينتقل في ما بعد من اعتبار الحدود بين الدول العربية حدوداً مصطنعة وضعها الغربيون، ينتقل إلى التسليم بها ويتحدث عنها كأنها جزء من طبيعة الأرض والسكان.



لا تزال مرتفعات الجولان والضفة الغربية وغزة أراضٍ متنازع علها منذ حرب الأيام الستة عام 1967.

تشكّ مصر وسوريا والأردن، حتى يومنا هذا، في استقلال فلسطين، وإذا اختفت إسرائيل يوماً ما وحلّت فلسطين محلها، فقد يطالب الثلاثة بأجزاء من أراضيها. ومع ذلك، يسود في هذا القرن شعور وطنيّ قوي بين الفلسطينيين، وسوف تواجه أي ديكتاتورية عربية تسعى لانتزاع جزء من الدولة الفلسطينية، مهما كان شكلها أو حجمها، معارضةً كبيرة. إن الفلسطينيين يدركون جيداً أن معظم الدول العربية التي فرّ إليها بعضهم في القرن العشرين ترفض منحهم الجنسية، فهذه الدول تصرّ على أن يبقى وضع أبنائها

وأحفادها «لاجئين»، وتعمل على ضمان عدم اندماجهم في البلاد."[78]

خلال حرب الأيام الستة عام 1967، نجح الإسرائيليون في السيطرة على كل القدس والضفة الغربية وغزة، ثم غادروا غزة عام 2005، لكن مئات الآلاف من المستوطنين بقوا في الضفة الغربية.

تعتبر إسرائيل القدس عاصمتها الأبدية التي لا تقبل التجزئة. تقول الديانة اليهودية أن الصخرة التي أعدها إبراهيم ليضحّي عليها بإسحاق موجودة هناك فوق قدس الأقداس مباشرة، أي هيكل الملك سليمان. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين، فللقدس صدى ديني عميق في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فهي ثالث مدن مقدسة في الإسلام لأن النبي محمد أُسري به إلى السماء من نفس الصخرة الموجودة في موقع ما هو الآن المسجد الأقصى، أي «الأبعد» لغةً. تعدّ المدينة من الناحية العسكرية، ذات أهمية جغرافية استراتيجية متوسطة، إذ ليس لديها صناعة حقيقية يمكن الحديث عنها، وهي لا تطل على نهر، ولا يوجد بها مطار، لكنها ذات أهمية عظيمة من الناحية الثقافية والدينية. إن الحاجة الأيديولوجية التي يمثّلها هذا المكان أكبر أهميةً من موقعه، والسيطرة على القدس والتحكّم بها ليست قضية يمكن تسويتها بحل وسط.

---

78. كالمعتاد في إساءة التفسير وتوجيه الأحداث وجهةً مسبقة، يقدّم المؤلف عدم منح الفلسطينيين جنسيات الدول العربية الأخرى، بطريقة ماكرة، دون الإشارة إلى أن القرار العربي الجماعي يهدف إلى التشبّث بالجنسية الفلسطينية وعدم تشتيت انتماء الفلسطينيين في دول أخرى.

قال الرئيس ترامب في ديسمبر 2017 إن الولايات المتحدة ستعترف بالقدس عاصمةً لإسرائيل، وكان الكونغرس قد أيّد مثل هذه السياسة عام 1995، وصوت بالإيجاب على نقل اعتمادات مالية خُصّصت للسفارة الأمريكية- إلا أن كلاً من الرؤساء كلينتون وبوش وأوباما وقّعوا قرارات أدّت لتأجيل تلك الخطوة، وكان ترامب سيفعل الأمر نفسه لولا أن غيّر رأيه فجأةً. نُقلت السفارة رسمياً في مارس 2018، وأشار البيت الأبيض إلى أنها لا تزال محايدة في النزاع الفلسطيني/ الإسرائيلي، وأن نقل المقر ليس أكثر من اعتراف بما هو كائن، كما قالت أيضاً إن هذه الخطوة لا تستبعد أن تصبح القدس الشرقية يوماً ما عاصمةَ دولة فلسطينية. إلا أن الفلسطينيين لم يروا الأمر على هذا النحو، إذ إنه يؤكّد بالنسبة إلى الكثيرين منهم، شكوكاً دامت عدة عقود في أن الولايات المتحدة فضّلت إسرائيل عليهم، خاصة عندما اعترف ترامب في أوائل 2019 كذلك بضم إسرائيل لمرتفعات الجولان، لكن اللافت أنه على الرغم من إدانة العالم العربي لكلا العملين، إلا أنه سرعان ما وقع التسليم به.

مقارنةً بالضفة الغربية، كان من الأسهل على الإسرائيليين التخلي عن غزة (رغم أنها كانت لا تزال صعبة). ومع ذلك، فإن معرفة ما إذا كان السكان القاطنين هناك قد ربحوا الكثير من رحيل الإسرائيليين عنها أم لا يظلّ أمراً قابلاً للنقاش.

إن غزة هي الأسوأ بين «الكيانين» الفلسطينيين الحاليين، حيث

يبلغ طولها 25 ميلاً فقط، وعرضها 7.5 ميلاً، وقد حُشر في هذا الفضاء 1.8 مليون شخص، فهي في الواقع «دولة-مدينة» فقيرة بصورة مريعة، ويعدّ مواطنوها -بسبب الصراع مع إسرائيل- محاصرين من ثلاث جهات بواسطة جدار أمني أنشأته إسرائيل ومصر، بالإضافة إلى البحر من ناحية الغرب، فلا يمكنهم البناء إلا ضمن مسافة معينة من الحدود مع إسرائيل، لأن الإسرائيليين يحاولون الحدّ من قدرة إطلاق الصواريخ من غزة على الوصول إلى عمق إسرائيل. لقد شهد العقد الماضي تسارعاً غير متكافئ في سباق التسلح، حيث يسعى المسلّحون في غزة إلى الحصول المزيد من الصواريخ التي يمكن إطلاقها، في الوقت الذي طوّرت فيه إسرائيل نظامها الدفاعي المضاد للصواريخ.

تشكّل غزة بسبب كثافتها الحضرية، ساحة قتال جيدة بالنسبة إلى المدافعين عنها، لكنها كابوس بالنسبة إلى المدنيين الذين يعيشون فيها، إذ ليس لديهم مأوى مناسب يلوذون به من الحرب ولا صلة لهم بالضفة الغربية، على الرغم من أن المسافة بين الاثنين لا تتجاوز 25 ميلاً عند أقرب نقطة من حدودهما. وحتى يتم التوصّل إلى اتفاق سلام، فإن سكان غزة ليس لديهم مكان يلجؤون إليه، وليس أمامهم سوى القليل مما يمكن أن يفعلوه في غزة نفسها.

من ناحية أخرى، تبلغ مساحة الضفة الغربية سبعة أضعاف مساحة غزة، ولكنها محاطةٌ برّاً ولا تشرف على الساحل، ويتألف جزء كبير منها من سلسلة من التلال الجبلية التي تمتد من الشمال إلى

الجنوب. من الناحية العسكرية، يعطي هذا لمن يتحكم بالأرض المرتفعة القدرة على السيطرة على السهل الساحلي على الجانب الغربي من التلال، ووادي الأردن من الشرق. إذ تركنا جانباً أيديولوجية المستوطنين اليهود الذين يدّعون حقاً توراتياً في العيش في ما يسمونه يهودا والسامرة، فإن وجهة النظر الإسرائيلية - من منظور عسكري- هي أنه لا يمكن السماح لقوة غير إسرائيلية بالسيطرة على هذه المرتفعات، حيث يمكن استخدام الأسلحة الثقيلة وقصف السهل الساحلي الذي يعيش فيه 70 في المائة من سكان إسرائيل. إن السهل يشمل أيضاً أنظمة الطرق الأكثر أهمية، والعديد من شركات التكنولوجيا الفائقة، والمطار الدولي ومعظم الصناعات الثقيلة.

يكمن هذا السبب وراء مطالبة الجانب الإسرائيلي بـ«الأمن» والإصرار على أنه -حتى في وجود دولة فلسطينية مستقلة- لا يمكن أن يكون لتلك الدولة جيش بأسلحة ثقيلة على التلال، وأن إسرائيل يجب أن تحتفظ أيضاً بالسيطرة على الحدود مع الأردن. ولأن إسرائيل صغيرة جداً، لا عمق استراتيجي حقيقي لها، ولا مكان تلجأ إليه إذا تم اختراق دفاعاتها، فإنها تركّز عسكرياً على محاولة ضمان عدم تمكّن أي أحد من الاقتراب منها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن أقرب مسافة من حدود الضفة الغربية إلى تل أبيب تبلغ حوالي 10 أميال، ويمكن لأي عمل عسكري من تلال الضفة الغربية أن يقسم إسرائيل إلى قسمين. وبالمثل، فإن إسرائيل تمنع، في حالة الضفة الغربية، أي جماعة من أن تصبح قوية بما يكفي لتهديد

وجودها.

تواجه إسرائيل في ظل الظروف الحالية، تهديدات تمس أمنها وحياة مواطنيها من خلال الهجمات الإرهابية وإطلاق الصواريخ من جيرانها المباشرين، ولكن ذلك لا يهدّد وجودها في حد ذاته. إن مصر في إلى الجنوب الغربي لا تمثّل تهديداً، وهناك معاهدة سلام تناسب الطرفين حالياً، كما تعمل شبه جزيرة سيناء المنزوعة السلاح جزئياً حاجزاً بينهما. وإلى الشرق من ذلك، عبر البحر الأحمر حيث العقبة في الأردن، فإن الصحراء تحمي إسرائيل كذلك، وهو ما تفعله معاهدة السلام مع عمان أيضاً. أما إلى الشمال فهناك خطر محتمل من لبنان وهو آخذ في الازدياد، كما إن الوجود الإيراني في جارتها سوريا قد منح طهران «جسراً برياً» عبر الشرق الأوسط يمتد من عاصمتها إلى بيروت، وهو الجسر الذي استخدمته لزيادة شحناتها من الأسلحة إلى ميليشيا حزب الله الشيعية الضخمة. يشير المحللون هنا إلى أن لدى حزب الله الآن ترسانة تصل إلى 150 ألف صاروخ، بعضها موجّه وبعضها الآخر بعيد المدى، وإذا استخدم حزب الله في لبنان صواريخه الأكبر والأبعد مدى للوصول إلى عمق إسرائيل على نطاق واسع، فإن الرد سيكون هائلاً.

هناك تهديد خطير آخر محتمل يأتي من جار لبنان الأكبر، أي سوريا. تاريخياً، تريد دمشق أن تتمكن من الوصول إلى الساحل مباشرةً، ولطالما اعتبرت لبنان جزءاً من سوريا (كما كانت بالفعل)، ولا تزال تشعر بالمرارة من إجبار قواتها على المغادرة عام 2005. إذا

تم إغلاق هذا الطريق المؤدي إلى البحر، فإن البديل هو عبور مرتفعات الجولان والنزول إلى منطقة جبلية حول بحيرة طبريا في طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط، لكن إسرائيل استولت على المرتفعات خلال حرب الأيام الستة عام 1967، وكان الأمر يتطلب هجوماً كبيراً ينفّذه الجيش السوري لاقتحام السهل الساحلي المؤدي إلى المراكز السكانية الإسرائيلية الرئيسية. لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال في المستقبل، أما على المدى المتوسط فيظل بعيد الاحتمال تماماً.

يترك هذا التحليل مسألة إيران تبدو أكثر جديةً لأنها ترتبط بقضية التسلّح النووي. إن إيران بلد غير عربي، وتتحدث أغلبية سكانها اللغة الفارسية، وهي أكبر مساحةً من فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة مجتمعةً، ولكن بينما يبلغ عدد سكان تلك البلدان 215 مليون نسمة، فإن عدد سكان إيران يبلغ 81 مليوناً فقط، ومع وجود مساحة محدودة صالحة للسكن، فإن الغالبية يعيشون في الجبال، ولا تعد الصحاري الكبرى وسهول الملح في الداخل الإيراني مكاناً مناسباً لتوطّن البشر، بل إن مجرّد عبور هذه المناطق قد يؤدي إلى التهلكة، أما القلة القليلة التي تعيش هناك فإنها تخوض صراعاً مريراً معها.

هناك سلسلتان جبليتان ضخمتان في إيران، هما زاغروس والبورز. يمتد زاغروس من الشمال على بعد 900 ميل على امتداد حدود إيران مع تركيا والعراق، وينتهي تقريباً عند مضيق هرمز في

الخليج. في النصف الجنوبي من هذا النطاق يوجد سهل يمتدّ إلى الغرب حيث يفصل شطّ العرب بين إيران والعراق، وهذا هو المكان الذي يحتوي على حقول النفط الإيرانية الرئيسية، وتقع الحقول الأخرى في الشمال والوسط، ويُعتقد أنها تشكل معاً رابع أكبر احتياطي في العالم. إلا أن إيران، على الرغم من ذلك، لا تزال بلداً فقيراً نسبياً بسبب سوء الإدارة والفساد والتضاريس الجبلية التي تعيق روابط النقل والعقوبات الاقتصادية التي منعت جزئياً تحديث قطاعات صناعية معينة.

تبدأ سلسلة جبال إلبورز هي الأخرى من الشمال، على امتداد الحدود مع أرمينيا، وتمتد هذه السلسلة بمحاذاة الشاطئ الجنوبي من بحر قزوين حتى الحدود مع تركمانستان قبل أن تنعطف جنوباً عند وصولها إلى أفغانستان. يمكن رؤية هذه السلسلة الجبلية من العاصمة طهران، وهي تعلو بارتفاعها الشاهق فوق المدينة من جهة الشمال، وتضفي على المنطقة مناظر خلابة، كما تظل ظروف التزلج هناك ممتازةً لعدة أشهر من كل عام.

لقد دافعت هذه الجغرافيا عن إيران، حيث تحيطها الجبال من ثلاث جهات، والمستنقعات والمياه من الجانب الرابع. عندما نشبت الحرب العراقية الإيرانية عام 1980، استخدم العراقيون ستة فرق لعبور شط العرب في محاولة لضم محافظة خوزستان الإيرانية. لم يتمكنوا حتى من الخروج من السهول التي تغمرها المستنقعات بلهَ دخول سفوح جبال زاغروس. وأودت الحرب التي استمرت ثماني

سنوات بحياة ما لا يقل عن مليون شخص.

تعني تضاريس إيران الجبلية أنه من الصعب عليها إنشاء اقتصاد مترابط، وأن لديها العديد من الأقليات التي يتميز كل منها بخصائص جدّ مختلفة، فخوزستان مثلاً، تضمّ أغلبية عرقية من العرب، وفي أماكن أخرى هناك الأكراد والأذريون والتركمان والجورجيون، وغيرهم. إن 60 في المائة من سكان البلاد يتحدثون الفارسية، وهي لغة الأغلبية الفارسية المهيمنة، ونتيجة لهذا التنوع، تتمتع إيران تقليدياً بسلطة مركزية وتستخدم القوة وشبكة استخبارات مخيفة للحفاظ على الاستقرار الداخلي. وتعرف طهران أن لا أحد قد يُقدم على غزو إيران، ولكنها تعلم أيضاً أن القوى المعادية يمكنها أن تستخدم أقلياتها لإثارة المعارضة والانشقاق، وبالتالي تعريض ثورتها الإسلامية للخطر.

تمتلك إيران كذلك صناعة نووية تعتقد العديد من الدول، ولا سيما إسرائيل، أنها تستخدمها استعداداً لبناء أسلحة نووية، وهذا مما يزيد حدّة التوترات في المنطقة. إن الإسرائيليين يشعرون بالتهديد من احتمال وجود أسلحة نووية إيرانية، ولا يقتصر الأمر على قدرة إيران على منافسة ترسانتها الخاصة والقضاء على إسرائيل بقنبلة واحدة فحسب، إذ لو أن إيران أنتجت القنبلة الذرية، فمن المحتمل أن تصاب الدول العربية بالذعر أيضاً، وتسعى بدورها إلى الحصول على أسلحتها الخاصة. فهم يخشون أن آيات الله ينوون الهيمنة على المنطقة، وإخضاع كل الشيعة العرب إلى حكمهم، وقد يكون لديهم

خطط للسيطرة على مكة والمدينة المقدستين. إن إيران المسلحة نووياً ستصبح قوة إقليمية عظمى بامتياز، ولمواجهة هذا الخطر، ربما يحاول بعض العرب الذين تربطهم بباكستان علاقات وثيقة شراء أسلحة نووية منها، وقد تحذو مصر وتركيا حذوها.

يعني هذا أن التهديد بضربة جوية إسرائيلية على المنشآت النووية الإيرانية متوقع باستمرار، ولكن هناك العديد من العوامل التي تعيق ذلك، أولها أن إيران على بعد 1000 ميل من إسرائيل، وسيحتاج سلاح الجو الإسرائيلي إلى عبور حدود سيادية، هي حدود الأردن والعراق، ومن المؤكد أن هذا الأخير سيقول لإيران أن هجوماً في طريقه إليها. هناك عامل آخر هو أن أي مسار آخر يتطلّب القدرة على التزود بالوقود قد لا تكون بمكنة إسرائيل، وإذا كانت ستستخدم مساراً شمالياً فإنها ستطير أيضاً فوق أراض أخرى ذات سيادة. أما السبب الأخير فهو أن إيران تمتلك ما قد يكون ورقة رابحة تتمثل في قدرتها على إغلاق مضيق هرمز في الخليج الذي يمر عبره يومياً، بالنظر إلى حجم المبيعات، حوالي 20 في المائة من احتياجات النفط في العالم. لا يزيد المضيق الذي يعتبر الأكثر استراتيجية في العالم عن 21 ميلاً فقط عند أضيق النقاط، ويخشى العالم الصناعي من تأثير إغلاق مضيق هرمز لأشهر متتالية، مع ما يترتب على ذلك من ارتفاع في الأسعار، وهذا أحد الأسباب التي تجعل العديد من الدول تضغط على إسرائيل كي لا تبادر بفعل شيء.

كان الإيرانيون في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، يخشون من أن يطوّقهم الأمريكيون، فالبحرية الأمريكية كانت في الخليج، وكانت القوات الأمريكية تنتشر في العراق وأفغانستان. ومع انسحابها عسكرياً من كلا البلدين، تلاشت المخاوف الإيرانية الآن، وتُركت إيران تحتلّ مركزاً مهيمناً مع خط مباشر مع حلفائها الشيعة الذين يهيمنون في العراق، كما إن جنوب العراق كذلك جسر تستخدمه إيران للوصول إلى حلفائها العلويين في دمشق، ثم إلى حلفائها الشيعة في حزب الله في لبنان على ساحل البحر الأبيض المتوسط. لقد هيمنت الإمبراطورية الفارسية من القرن السادس إلى القرن الرابع ق. م. على امتداد الطريق من مصر إلى الهند، ولا تمتلك إيران المعاصرة مثل هذه الحضور الإمبراطوري، لكنها تسعى إلى توسيع نفوذها، والاتجاه الواضح أمامها يمرّ عبر الأراضي المنبسطة إلى الغرب، أي العالم العربي والأقليات الشيعية. وقد حقّقت تقدماً في العراق منذ أن دعم الغزو الأمريكي الحكومة العراقية ذات الأغلبية الشيعية، وذلك ما أثار قلق المملكة العربية السعودية وهي دولة سنية، وساعد في تأجيج نسخة الشرق الأوسط من الحرب الباردة متمحورةً على طبيعة العلاقات السعودية - الإيرانية. إن المملكة العربية السعودية أكبر من إيران، وأكثر ثراءً منها بعدة أضعاف نظراً لما لديها من صناعات متقدمة جداً في النفط والغاز، ولكن قد تنتهي علاقتهما إلى المواجهة إذا اشتدت الحرب الباردة بينهما وتواجه قواتهما بعضها بعضاً مواجهةً مباشرة. إن كليهما يطمح إلى أن يصبح القوة المهيمنة إقليمياً، ويعدّ كل طرف نفسه أحقّ

بتمثيل الإسلام. لقد كان العراق في السابق منطقة عازلة قوية فصلت بين المملكة العربية السعودية وإيران، ومع اختفاء صلابة ذلك الحاجز، صار الجانبان يتربّصان لبعضهما بعضاً عبر الخليج. إن الاتفاق الذي تقوده أمريكا بشأن المنشآت النووية الإيرانية الذي تم إبرامه في صيف 2015، لم يطمئن دول الخليج بأي حال من الأحوال على أن التهديد الإيراني الذي تتعرض له من قبل إيران قد تضاءل، وفي الأثناء تستمر حرب ديبلوماسية شرسة بين المملكة العربية السعودية وإيران، جنباً إلى جنب مع حروب تنشب بالوكالة في أماكن أخرى، وعلى الأخص في اليمن التي ينوب فيها الحوثيون عن إيران بينما تقود فيها السعودية تحالفاً عربياً.

استمرت حرب اليمن الأهلية التي بدأت عام 2011 عدة سنوات. في عام 2019، قدّرت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة أن ما يقرب من 7000 مدني قتلوا، على الرغم من أن العديد من المراقبين يعتقدون أن الرقم الفعلي أعلى من ذلك بكثير، كما نزح مئات الآلاف من الأشخاص، ووصفت الأمم المتحدة الوضع بأنه «أسوأ كارثة إنسانية في العالم». كانت التغطية الإعلامية سطحيّة ومتقطّعة، فقد أصبح من الخطورة بمكان تغطية الصراع لدرجة أنه بحلول عام 2018 لم يكن هناك سوى القليل من المؤسسات الإعلامية على استعداد للمخاطرة بعناصرها والسماح لهم بالذهاب إلى اليمن.

غرب إيران بلد أوروبي وآسيوي. تقع تركيا على حدود الأراضي

العربية ولكنها ليست عربية، وعلى الرغم من أن معظم أراضيها جزء من منطقة الشرق الأوسط الأوسع، إلا أنها تحاول أن تنأى بنفسها عن الصراعات الدائرة هناك.

جيران تركيا في الشمال والشمال الغربي لم يعترفوا بها جزءاً من أوروبا. إذا كانت تركيا أوروبية، فإن حدود أوروبا تقع على الجانب البعيد من سهل الأناضول الشاسع، ما يعني أنها تتوقف عند سوريا والعراق وإيران. هذا مفهومٌ يمكن أن توافق عليه قلّة قليلة من الناس. إذا لم تكن تركيا جزءاً من أوروبا، فأين تكون؟ إن أكبر مدنها، أي إسطنبول، كانت مدينة الثقافة الأوروبية عام 2010، وهي عضو منافس في مسابقة الأغنية الأوروبية (يوروڤيجن)، وفي بطولة الاتحاد الأوروبي لكرة القدم (يوفا)، وقد تقدمت منذ سبعينيات القرن العشرين بطلب للحصول على عضوية ما يعرف الآن بالاتحاد الأوروبي، ومع ذلك، فإن أقل من 5 في المائة من أراضيها تقع في أوروبا. إن معظم الجغرافيين يعتبرون المنطقة الصغيرة من تركيا الواقعة غرب البوسفور في أوروبا، كما يعتبرون بقية البلاد، جنوب وجنوب شرق البوسفور، جزءاً من الشرق الأوسط (بمعناه الأوسع).

هذا أحد أسباب عدم قبول تركيا ضمن الاتحاد الأوروبي. أما العوامل الأخرى فهي سجلها في حقوق الإنسان، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأكراد، أو يتعلق باقتصادها. يبلغ عدد سكان تركيا 79 مليون نسمة، وتخشى الدول الأوروبية أن تؤدي عضوية الاتحاد

الأوروبي، في ظل التفاوت في مستويات المعيشة، إلى تدفق أعداد كبيرة من العمالة. ما قد يكون أيضاً أحد العوامل الأخرى، وإن لم يكن معلناً داخل الاتحاد الأوروبي، هو أن تركيا دولة ذات أغلبية مسلمة، حيث تصل نسبتها إلى 98 في المائة. الاتحاد الأوروبي ليس منظمة علمانية ولا مسيحية، ولكن كان هناك نقاش صعب حول «القيم»، وكلّ حجة تقبل عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي تقابلها حجة أخرى مضادّة، وقد تضاءلت في العقد الماضي احتمالات انضمام تركيا، وأدى ذلك بالبلد إلى التفكير في خيارات أخرى قد تراها مناسبة أكثر.

كان الأمر مختلفاً في عشرينيات القرن الماضي، عندما لم يكن هناك سوى خيار واحد أمام مصطفى كمال أتاتورك. إنه الجنرال التركي الوحيد الذي خرج من الحرب العالمية الأولى بسمعة طيبة، وبعد أن قسّمت القوى المنتصرة تركيا، تمكّن من أن يصبح رئيساً متمسّكاً بمقاومة الشروط التي فرضها الحلفاء، ولكنه عمل في الوقت نفسه على تحديث تركيا وإلحاقها بأوروبا. هكذا تم تبنّي الرموز القانونية الغربية والتقويم الغريغوري وحُظرت المؤسسات العامة الإسلامية. صار اعتمار الطربوش ممنوعاً، وحلّت الأبجدية اللاتينية محل العربية، حتى أنه منح النساء حقّ التصويت (كان ذلك قبل عامين من إسبانيا وقبل خمسة عشر عاماً من فرنسا). وعندما تبنّى الأتراك ألقاباً ملزمة قانوناً عام 1934، أُطلق على كمال اسم «أتاتورك»، أي «أبُ الأتراك». توفي في عام 1938 لكن القادة الأتراك اللاحقين واصلوا العمل على ربط تركيا بأوروبا الغربية،

أما أولئك الذين لم يفعلوا فقد وجدوا أنفسهم على الطرف المقابل من الانقلابات العسكرية التي كانت مصمّمة على استكمال إرث أتاتورك.

بحلول أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، أدى الرفض المستمر من جانب أوروبا، والرفض العنيد الذي أبداه العديد من الأتراك العاديين لأن يصبحوا أقل تديناً، إلى ظهور جيل من السياسيين الذين بدأوا يفكرون في ما لا يمكن تصوّره، إذ ربما تكون تركيا في حاجة إلى خطة بديلة. في 1989 تولّى تورغوت أوزال، وهو رجل متدين، منصب الرئاسة وبدأ التغيير. شجّع الأتراك مرة أخرى على اعتبار بلادهم جسراً برياً عظيماً بين أوروبا وآسيا والشرق الأوسط، ودولة يمكن أن تكون مرة أخرى قوة عظمى في المناطق الثلاث. ولدى الرئيس الحالي، رجب طيب أردوغان، طموحات مماثلة، وربما أكبر، لكنه واجه عقبات مماثلة في تحقيقها، وهي جزئياً عقبات جغرافية.

سياسياً، لا تزال الدول العربية متشككة في أن أردوغان يريد إعادة إنشاء الإمبراطورية العثمانية اقتصادياً، وتقاوم العلاقات الوثيقة التي تربطها بتركيا. أما الإيرانيون فينظرون إلى تركيا على أنها أقوى منافس عسكري واقتصادي لهم في ساحتهم الخلفية. لقد توترت العلاقات التي لم تكن جيدة قط، بسبب وجودهم على طرفي نقيض أثناء دعم الفصائل المتورطة في الحرب الأهلية السورية. كان دعم تركيا القوي لحكومة الإخوان المسلمين في مصر سياسةً أدت

إلى نتائج عكسية عندما شن الجيش المصري انقلابه الثاني وتولى السلطة، وتبدو العلاقات بين القاهرة وأنقرة متجمّدة الآن.

الأسوأ من ذلك هو العلاقات بين أنقرة وموسكو. فقد كان الأتراك والروس على طرفي نقيض منذ 500 عام، لكنهم تعلّموا على مدى القرن الماضي كيفية التواصل وتجنّب الصدام تقريباً، إلى أن غيرت الحرب الأهلية السورية ذلك، حيث دعمت روسيا الرئيس الأسد وعملت تركيا جاهدة للمساعدة على الإطاحة به واستبداله بحكومة يقودها السنة، ووصلت الأمور إلى ذروتها في أواخر 2015 بعد تدخل الروس عسكرياً في سوريا، وأسقطت تركيا مقاتلة روسية من طراز سوخوي 24، زعمت أنها ضلّت طريقها إلى مجالها الجوي، وتبع ذلك حرب كلامية ضارية، مبطّنة بتهديد غامض يمكن أن يحوّلها إلى حرب فعلية، لكن كلا الجانبين استقر على استخدام العقوبات الاقتصادية والقسوة الديبلوماسية. لم يكن هذا الخلاف العنيف حول سوريا والطائرة الروسية فحسب، بل كان حول التنافس بين تركيا وروسيا على النفوذ في البحر الأسود وبحر قزوين، وبين الشعوب التركية في بلدان مثل تركمانستان. كلاهما يعرف أنه مع استمرار تركيا في النمو، فإنها ستسعى إلى منافسة روسيا في دول «الستانات» [الدول التي تنتهي أسماؤها بمقطع «ستان»]، ولا يفكر أي منهما في التراجع عن قضايا السيادة و«الشرف».

لقد تعلّمت النخبة التركية أن إحراز الرضى إسلامياً عن طريق

مواجهة إسرائيل سيؤدي إلى تعاون إسرائيل مع قبرص واليونان لإنشاء تحالف حول الطاقة بين الدول الثلاث يسعى إلى استغلال حقول الغاز قبالة سواحل كل منها. النظرة القاتمة التي تميّز الحكومة المصرية إزاء تركيا تدفع في المقابل إلى اهتمام القاهرة بأن تكون زبوناً رئيسياً لمصدر الطاقة الجديد هذا. وفي الوقت نفسه، لا تزال تركيا التي كان من الممكن أن تستفيد من الطاقة الإسرائيلية، تعتمد إلى حد كبير على خصمها القديم روسيا لتتزوّد باحتياجاتها من الطاقة، بينما تعمل مع روسيا أثناء ذلك على تطوير خطوط أنابيب جديدة لتوصيل الطاقة إلى دول الاتحاد الأوروبي.

إن الأمريكيين الذين يشعرون بالقلق من الحرب الباردة الجديدة بين تركيا وإسرائيل، وهما الاثنان من حلفائهم، يعملون على جمعهما مرة أخرى. تريد الولايات المتحدة إقامة علاقة أفضل بينهما من أجل تعزيز موقع الناتو في شرق البحر المتوسط. فتركيا من منظور الناتو تعدّ دولة رئيسية لأنها تتحكم في الدخول إلى البحر الأسود والخروج منه عبر مضيق البوسفور بمنفذه الصغير، فإذا أغلق المضيق الذي يبلغ عرضه أقل من ميل في أضيق نقاطه، لن يتمكن أسطول البحر الأسود الروسي[79] من اختراق البحر الأبيض المتوسط ثم المحيط الأطلسي، بل إن عبور مضيق البوسفور يؤدي إلى بحر مرمرة فقط، ولا يزال يتعين بعد ذلك عبور مضيق الدردنيل

79 . أسطول البحر الأسود Black Sea Fleet: وحدة ضخمة في البحرية الروسية، يشمل نطاق عملها البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، وترسو سفنه في عدة موانئ على البحر الأسود وبحر آزوف.

للوصول إلى بحر إيجه في الطريق إلى البحر الأبيض المتوسط.

بالنظر إلى كتلة تركيا الأرضية، فإنها لا تُرى في كثير من الأحيان على أنها قوة بحرية، ولكنها مع ذلك تقع على حدود ثلاثة بحار، وقد جعلتها سيطرتها الدائمة على هذه المياه قوة لا يستهان بها، وهي كذلك جسر للتجارة والنقل يربط أوروبا بالشرق الأوسط والقوقاز ودول آسيا الوسطى التي تشترك معها في التاريخ وفي بعض المناطق العلاقات العرقية.

إن تركيا عازمة على أن تكون على مفترق طرق التاريخ حتى لو كان التدافع على هذه الطرق خطِراً في بعض الأحيان. تؤكد صفحة الويب الخاصة بوزارة الخارجية التركية ذلك في قسم بعنوان «ملخص السياسة الخارجية»: «تعد الجغرافيا الأفرو-أوراسية حيث تقع تركيا في المركز، منطقةً تتفاعل فيها هذه الفرص والمخاطر بأكثر الطرق كثافةً». كما تقول: «تركيا عازمة على أن تصبح عضواً كامل العضوية في الاتحاد الأوروبي، وذلك جزء من جهدها الذي تَواصلَ مائتي سنة لكي تصل إلى أعلى مستوى عرفته الحضارة المعاصرة».

يبدو أن ذلك غير مرجح أبداً على المدى القصير والمتوسط. لقد كانت تركيا حتى سنوات قليلة ماضية، تعتبر مثالاً للكيفية التي تستطيع بها دولة شرق أوسطية، بخلاف إسرائيل، أن تتبنّى الديمقراطية، لكن هذا المثال تلقّى بعض الضربات الكبيرة مع تفاقم المشكلة الكردية المستمرة، والصعوبات التي تواجه بعض

المجتمعات المسيحية الصغيرة، والدعم الضمني للجماعات الإسلاموية في معركتها ضد الحكومة السورية. كما فتح الانقلاب الفاشل الذي وقع عام 2016 الطريق أمام حكومة أردوغان لقمع كل المعارضة، حيث أُعتقل أكثر من 50.000 شخص وفُصل حوالي 150.000 من وظائفهم.

في عام 2018، فاز أردوغان في انتخابات منحته سلطات تنفيذية متزايدة، في محاولة لترسيخ مكانته بوصفه أحد «الرجال الأقوياء» من قادة العالم. وقد سعى إلى استخدام ذلك لإنشاء تركيا ذات نزعة قومية متزايدة، تتطلع إلى توسيع نفوذها في البلقان والشرق الأوسط وآسيا الوسطى. ومع ذلك، فقد جلب له شهر أبريل من عام 2019 انتكاسة جديدة، حيث فشل حزبه، حزب العدالة والتنمية، في الفوز بالانتخابات المحلية على الرغم من سيطرته على الكثير من وسائل الإعلام التركية. وطالب أردوغان الذي صدمه احتمال فقدان السيطرة على إسطنبول، بإعادة فرز أوراق الاقتراع، مشيراً إلى أن عصابات «الجريمة المنظمة» تدخّلت في نتائج الانتخابات! لكن النتائج كانت هي نفسها، لذلك قال بعد ذلك أنه يجب إعادة التصويت بالكامل. إذاك سرعان ما انتشرت نكتة في جميع أنحاء المدينة حول أربعة أشياء لا يمكن للناس أن يختاروها في الحياة: مكان الميلاد والعائلة والعرق ورئيس بلدية إسطنبول. هذه الفكاهة السوداء تخفي مدى القلق والغضب الذي شعر به كثير من الناس أمام استبداد الرئيس المتزايد.

إن تصريحات الرئيس أردوغان حول اليهود والعرق والمساواة بين الجنسين، وهي من تأثير الأسلمة الزاحفة نحو تركيا، قرعت كذلك جرس إنذار آخر. ومع ذلك، فإن تركيا مقارنةً بغالبية الدول العربية، تعدّ أكثر تطوراً، ويمكن تمييزها من حيث ديمقراطيتها. ربما كان أردوغان قد ألغى بعض أعمال أتاتورك، لكن أحفاد «أب الأتراك» يعيشون بحرية أكبر من أي شخص آخر في الشرق الأوسط العربي. ولأن الدول العربية لم تشهد انفتاحاً مشابهاً وعانت من الاستعمار، فإنها لم تكن مستعدة لتحويل الانتفاضات العربية (موجة الاحتجاجات التي بدأت عام 2010) إلى «ربيع عربي» حقيقي، وبدلاً من ذلك فقد ازدادت توتراً وغلبت عليها أعمال الشغب والحرب الأهلية الدائمة.

إن «الربيع العربي» تسمية خاطئة اخترعتها وسائل الإعلام، وهي تشوش فهمنا لحقيقة ما يحدث. لقد اندفع عدد كبير من المراسلين لإجراء مقابلات مع الشباب الليبراليين الذين كانوا يقفون في ساحات المدينة حاملين لافتات مكتوبة باللغة الإنجليزية، معتقدين خطأً أنها صوت الشعب وأنها الاتجاه الذي قدّره التاريخ، وقد فعل بعض الصحفيين الشيء نفسه خلال «الثورة الخضراء»، واصفين طلاب شمال طهران بأنهم «شباب إيران»، متجاهلين بذلك الشباب الإيرانيين الآخرين الذين كانوا ينضمون إلى ميليشيا «البسيج»[80] الرجعية والحرس الثوري.

80. البسيج: قوات تطوّعية إيرانية شبه عسكرية أسسها الخميني سنة 1979.

في عام 1989، كان هناك شكل واحد من أشكال الشمولية في أوروبا الشرقية هي الشيوعية. لم يكن في أذهان غالبية الناس آنذاك سوى اتجاه واحد يجب أن يسيروا فيه هو التوجّه إلى الديمقراطية التي كانت مزدهرة على الجانب الآخر من الستار الحديدي. إن الشرق والغرب كان يشتركان في ذاكرة تاريخية عن فترات الديمقراطية والمجتمع المدني، أما العالم العربي فلم يحظى عام 2011 بأي من هذه الأشياء، وواجه العديد من الاتجاهات المختلفة. كانت هناك - ولا تزال - توجّهات نحو الديمقراطية والديمقراطية الليبرالية (وهما مختلفتان)، ونحو القومية وتمجيد القائد القوي، مثلما كان هناك توجّه يصاحب الناس طوال الوقت هو الإسلام بصيغه المختلفة، بما في ذلك «الإسلاموية».

تتدفق القوة في الشرق الأوسط بالفعل من فوهة البندقية. قد يرغب بعض مواطني مصراتة الجيدين في ليبيا في تطوير حزب ديمقراطي ليبرالي، وقد يرغب بعضهم حتى في القيام بحملة من أجل حقوق المثليين، لكن خيارهم سيكون محدوداً إذا أطلقت سلطة الأمر الواقع المحلية النار على الديمقراطيين الليبراليين والمثليين. العراق كذلك مثال آخر، فالديمقراطية ليست سوى مجرد اسم بعيد كل البعد عن الليبرالية، وهي مكان يُقتل فيه الناس بشكل روتيني لمجرد كونهم مثليين جنسياً.

لقد قطعت المرحلة الثانية من الانتفاضة العربية شوطاً طويلاً. هذا هو الصراع الداخلي المعقّد داخل المجتمعات حيث تكون

المعتقدات الدينية والأعراف الاجتماعية والروابط القبلية والبنادق أقوى بكثير من المثل العليا «الغربية» في المساواة وحرية التعبير والاقتراع العام. إن البلدان العربية محاصرة بأحكام مسبقة متحيزة، بل هي في الواقع أحقاد وضغائن لا يعرف عنها الغربيون العاديون سوى القليل، إلى درجة أنهم لا يميلون إلى تصديقها حتى وهي أمام أعينهم ويستطيعون قراءتها. إننا على دراية بأحكامنا المسبقة، وهي كثيرة، لكننا غالباً ما نغض الطرف عن تلك الموجودة في الشرق الأوسط.

يعدّ التعبير الروتيني عن كراهية الآخرين أمراً شائعاً في العالم العربي حتى أنه لا يكاد يستثير التعليقات، بخلاف الأقلية الليبرالية في المنطقة التي غالباً ما تكون قد تلقّت تعليمها في الغرب، وليس لديها سوى إمكانات بسيطة لاستخدام وسائل الإعلام العامة. مثال ذلك الرسوم الكاريكاتورية المعادية للسامية التي تكرر ما نشرته الصحيفة النازية الدعائية «دير شتورمر» (المهاجم) من رسوم شائعة، كما إن الأئمة الاستفزازيين المتحمسين تُخصّص لهم أفضل الأوقات في البرامج التلفزيونية.

إن المدافعين الغربيين عن هذا النوع من السلوك يكبّلهم في بعض الأحيان خوفهم من أن يوصفوا بأنهم من «المستشرقين» الذين وصفهم إدوارد سعيد. إنهم يخونون قيمهم الليبرالية من خلال إنكار عالميتها، بينما يقول آخرون بسذاجة، إن هذه التحريضات على القتل ليست منتشرة، ولا بد من النظر إليها في سياق اللغة العربية

التي يمكن أن تشي بأبعاد بلاغية أخرى. لكن هذا يدلّ على جهلهم بـ«الشارع العربي»، ودور وسائل الإعلام العربية السائدة، ورفضهم الاقتناع بأن الأشخاص الذين تسيطر عليهم الكراهية عندما يقولون شيئاً ما، فإنهم يقصدونه.

عندما تمت الإطاحة بحسني مبارك رئيس مصر، كانت قوة الشعب هي التي أسقطته حقاً، لكن ما فشل العالم الخارجي في رؤيته هو أن الجيش كان ينتظر منذ سنوات فرصة التخلص منه ومن نجله جمال، وأن مسرح الشارع قد وفّر لهم الغطاء الذي كانوا يحتاجونه. إلا أن هذا الغطاء لم يظهر إلى عندما استنفر الإخوان المسلمون مؤيديهم. لم يكن هناك سوى ثلاث مؤسسات في مصر: الحزب الوطني الديمقراطي بقيادة مبارك والجيش والإخوان. دمر الاثنان الأخيران الأولَ، ثم فاز الإخوان في الانتخابات، وبدأوا تحويل مصر إلى دولة إسلامية، ثم دفعوا الثمن بأنفسهم بعد أن أطاحت بهم السلطة الحقيقية في الأرض، أي الجيش.

يظل الإسلامويون هم القوة الثانية، وإن كانوا الآن يعملون في الخفاء. عندما كانت المظاهرات المناهضة لمبارك في أوجها، استقطبت التجمعات في القاهرة مئات الآلاف من الناس. وبعد سقوط مبارك، عندما عاد داعية الإخوان المسلمين الراديكالي يوسف القرضاوي من المنفى في قطر، خرج ما لا يقل عن مليون شخص لاستقباله، لكن قلة قليلة من العاملين في وسائل الإعلام الغربية أطلقت على ذلك اسم «صوت الشعب». لم يكن أمام

الليبراليين فرصة آنذاك، ولا فرصة لديهم الآن، لا لأن شعوب المنطقة متطرفة، بل لأنك إذا كنت جائعاً وخائفاً، وعُرض عليك إما الخبز والأمن أو مفهوم الديمقراطية، فإن الخيار ليس صعباً!

تؤول السلطة في المجتمعات الفقيرة إلى العصابات المتنكرة بزي «ميليشيات» و«أحزاب سياسية»، وبينما تقاتل من أجل السلطة وهي تتلقى، في بعض الأحيان، ما يبديه بعض المتعاطفين الغربيين السذّج من ترحيب وتهليل، فإن العديد من الأبرياء يموتون. يبدو أن الوضع سيكون على هذا النحو في ليبيا وسوريا واليمن والعراق، وربما دول أخرى، لسنوات قادمة.

يحرص الأمريكيون على تقليص استثماراتهم السياسية والعسكرية في المنطقة بسبب انخفاض متطلبات وارداتهم من الطاقة. وإذا انسحبوا، قد تضطر الصين، والهند بدرجة أقل، إلى التعويض بنسبة تعادل الخسائر الأمريكية. للصينيين حضور كبير في اقتصاديات المملكة العربية السعودية والعراق وإيران، ولكن ذلك السيناريو على المستوى العالمي سيتم تحديده في عواصم القوى الكبرى؛ أما على الأرض، فإن خيال الناس ورغباتهم وآمالهم واحتياجاتهم وحياتهم هي التي تتحّمل العبء فعلاً.

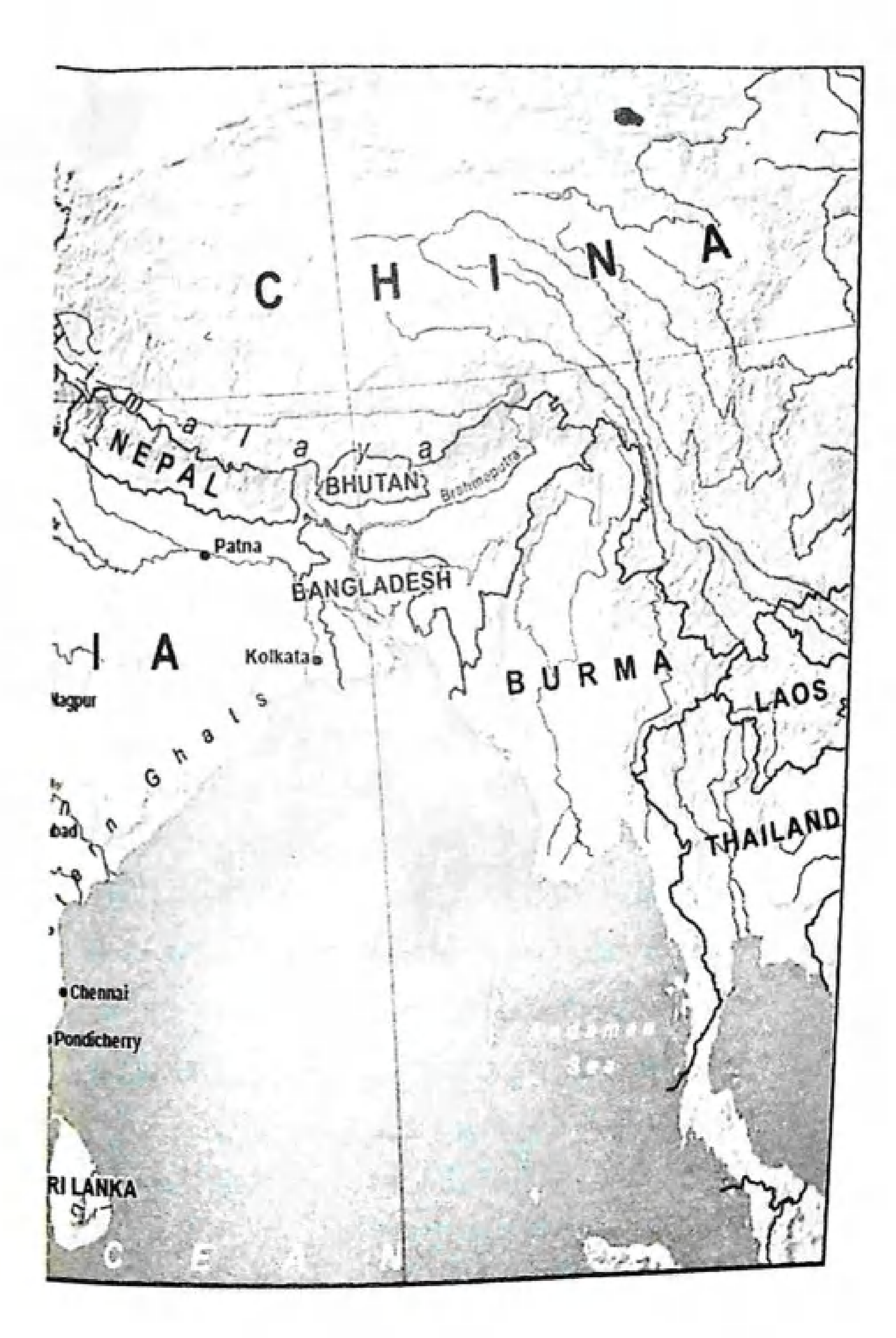
إن خرائط سايكس-بيكو تتكسر، وإعادة تجميعها معاً، وإن على نحو مختلف، سيكون تجربة دامية تستغرق مدى طويلاً.

الفصل السابع

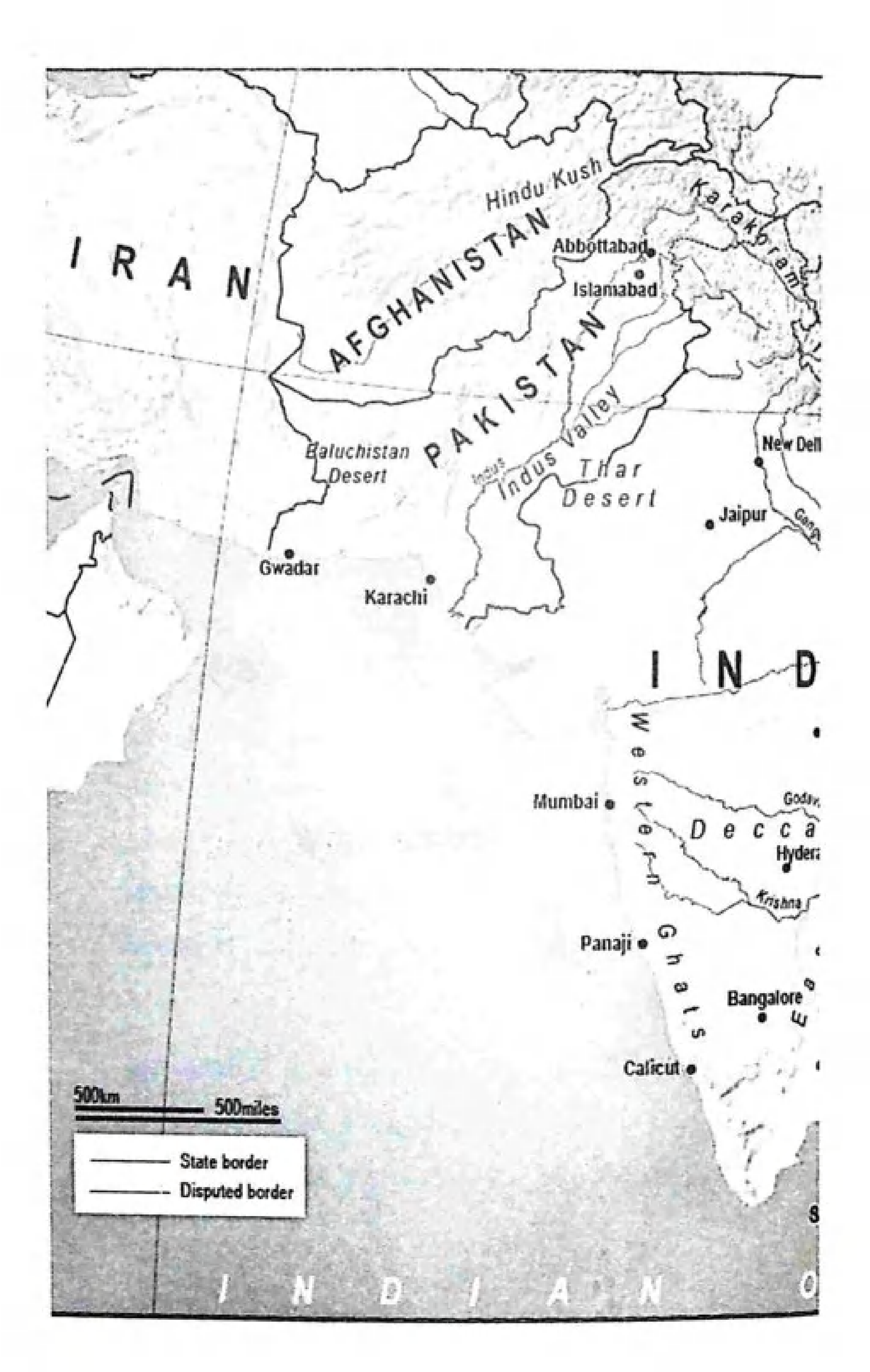
الهند وباكستان

«ليست الهند أمةً، ولا هي بلدٌ، بل شبهُ قارّة من جنسيات متنوعةً».

محمد على جناح



C H I N A
NEPAL
BHUTAN
Brahmaputra
Patna
BANGLADESH
Kolkata
BURMA
LAOS
THAILAND
Nagpur
Chennai
Pondicherry
RI LANKA


IRAN
AFGHANISTAN
Hindu Kush
Karakoram
Abbottabad
Islamabad
PAKISTAN
Indus Valley
Indus
Baluchistan Desert
Thar Desert
New Del
Jaipur
Gwadar
Karachi
IND
Western Ghats
Mumbai
Decca
Hyder
Krishna
Panaji
Bangalore
Calicut
500km
500miles
State border
Disputed border
INDIAN O



يمكن للهند والباكستان أن تتفقا على شيء واحد يتلخّص في أنْ لا أحد منهما يريد الآخر. هذه مشكلة عويصة إلى حد ما نظراً لأنهما يشتركان في حدود طولها 1900 ميل. إن كليهما يتوجّس شراً من العداء والأسلحة النووية، لذا فإن كيفية إدارتهما لهذه العلاقة غير المرغوب فيها تعدّ مسألة حياة أو موت بمقياس عشرات الملايين من البشر.

يبلغ عدد سكان الهند 1.3 مليار نسمة، بينما يبلغ عدد سكان باكستان حوالي 200 مليون نسمة. تبدو باكستان، الفقيرة والمتقلبة والمنقسمة، كأنها تعرّف نفسها عن طريق معارضتها للهند، في حين أن الهند، على الرغم من هوسها بباكستان، تعرّف نفسها بعدة طرق، بما في ذلك كونها قوة عالمية صاعدة ذات اقتصاد متنام وطبقة وسطى آخذة في الاتساع. ومن وجهة النظر هذه، فإنها تنظر إلى باكستان وترى كيف تتفوق عليها في جميع المؤشرات الاقتصادية والديمقراطية تقريباً.

لقد خاضت الدولتان أربع حروب كبرى والعديد من المناوشات، وما زالتا متربّصتين ببعضهما. في أواخر عام 2014، اقتبس المحلل العسكري د. أمارجيت سينغ في مجلة «الدفاع الهندي»

ملاحظةً ذكرها ضابط باكستاني مفادها أن باكستان ستجعل الهند تنزف من آلاف الجراح، كتب يقول: «أياً كان ما قد يعتقده الآخرون، فإن رأيي ببساطة أنه من الأفضل بالنسبة إلى الهند أن تواجه بشجاعة هجوماً نووياً مكلفاً تشنه باكستان، وأن تتجاوزه حتى لو كان ذلك على حساب عشرات الملايين من الوفيات، بدلاً من الهوان ومعاناة الألم يوماً بعد يوم بسبب آلاف الجراح، والطاقة المهدرة على إمكانات لا تتحقق». إن هذا لا يعكس سياسة الحكومة الرسمية، لكنه مؤشر على عمق الشعور على مستويات عديدة في كلا المجتمعين. لقد وُلدت باكستان والهند الحديثتين في مهد تشب فيه النيران، ومن الممكن أن تقضي عليهما هذه النيران في المرة القادمة.

كلاهما مرتبطتان معاً في جغرافية شبه القارة الهندية، وهو ما يخلق إطاراً طبيعياً يجمعهما معاً. يقع خليج البنغال والمحيط الهندي وبحر العرب على التوالي إلى الجنوب الشرقي والجنوب والجنوب الغربي، وجبال هندو كوش إلى الشمال الغربي، وجبال الهيمالايا إلى الشمال. بالحركة في اتجاه عقارب الساعة، سنجد هضبة صحراء بلوشستان تمتد إلى أن تندمج في الجبال التي تمثّل حدوداً شمالية غربيةً ثم ترتفع مكوّنةً جبال هندو كوش، ويتصل انعطافها شرقاً بسلسلة جبال كاراكورام التي تؤدي بعد ذلك إلى جبال الهيمالايا. إن هذه التضاريس تمتدّ مباشرة على مدى الحدود مع الصين طوال المسار باتجاه ميانمار، ومن هناك، مع انحناء الهند حول بنغلاديش، تنحدر التضاريس جنوباً إلى خليج البنغال.

يحتوي الجزء الداخلي من الإطار على ما يُعرف اليوم بالهند وباكستان وبنغلاديش ونيبال وبوتان. والأخيرتان دولتان فقيرتان غير ساحليتين يهيمن عليهما جاراهما العملاقان، أي الصين والهند. لا تكمن مشكلة بنغلاديش في افتقارها إلى منفذ على البحر، بل في أن البحر لديه منفذ شاسع جداً على بنغلاديش، فالفيضانات التي تسببها مياه خليج البنغال تصيب الأراضي المنخفضة باستمرار، وتتمثل مشكلتها الجغرافية الأخرى في أن الهند تحيط بها بالكامل تقريباً، لأن الحدود التي جرى الاتفاق عليها عام 1974، ويبلغ طولها 2545 ميلاً، جعلت الهند تلتفّ حول بنغلاديش، تاركةً لها حدوداً قصيرة مع ميانمار، وهي طريقها البري الوحيد إلى العالم الخارجي.

إن بنغلاديش دولة مضطربة، وهي تحتوي على مقاتلين متشدّدين إسلاميين يزعجون الهند؛ لكن أياً من هذه البلدان الثلاثة الصغيرة داخل شبه القارة الهندية لا يمكنها أن تهدّد أمن الهند، وما كان لباكستان أن تمثل تهديداً للهند لو لم تتمكن من تطوير الأسلحة النووية في العقود التي أعقبت تقسيم المنطقة عام 1947.

على الرغم من أن المنطقة منبسطةٌ نسبياً داخل هذا الإطار، إلا أنه كانت على الدوام شاسعة جداً ومتنوعة بحيث لا يكون لها حكم مركزي قوي. حتى «السادة» المستعمرون البريطانيون، بيروقراطيتهم الشهيرة ونظام سككهم الحديدية، سمحوا لها بالحكم الذاتي الإقليمي، ولكنهم استخدموه في الواقع للتلاعب

بالزعماء المحليين ضد بعضهم بعضاً. يرجع التنوع اللغوي والثقافي جزئياً إلى اختلافات المناخ، فالشمال المتجمّد في الهيمالايا، مثلاً، على عكس أدغال الجنوب، ولكن الاختلاف يعود أيضاً إلى وجود أنهار شبه القارة ودياناتها.

نشأت حضارات مختلفة على امتداد هذه الأنهار، مثل نهر الغانج وبراهمابوترا ونهر السند، وتنتشر المراكز السكانية حتى يومنا هذا على ضفاف هذه الأنهار، وعلى هذه التقسيمات الجغرافية تستند المناطق التي تختلف كثيراً عن بعضها بعضاً، كالبنجاب الشمالية بأغلبيتها من السيخ، ومتحدثي التاميل في ولاية تاميل نادو الجنوبية، على سبيل المثال.

لقد غزت قوى مختلفة شبه القارة على مر القرون، لكن أياً منها لم يقهرها حقاً، بل إن نيودلهي لا تسيطر حتى الآن على الهند فعلاً، وكما سنرى، فإن إسلام أباد كذلك لا تسيطر على باكستان إلى حد كبير. وقد حقّق المسلمون نجاحاً أكبر في توحيد شبه القارة الهندية تحت قيادة واحدة، لكن حتى الإسلام لم يستطع التغلب على الاختلافات اللغوية والدينية والثقافية.

وقع الغزو الإسلامي[81] الأول في وقت مبكر من القرن الثامن الميلادي، عندما وصل العرب أثناء الخلافة الأموية إلى منطقة البنجاب في باكستان الحالية، ومنذ ذلك الحين حتى القرن الثامن

81 . قد يفضل القراء العرب المسلمون عبارة «الفتح الإسلامي»، ولكننا حافظنا على النص الأصلي بحرفيته.

عشر، جلبت الغزوات الأجنبية المختلفة الإسلام إلى شبه القارة الهندية. ومع ذلك، قاومت غالبية السكان الهندوس في شرق وادي نهر السند اعتناق الإسلام، وهكذا زُرعت آنذاك بذور تقسيم الهند نهائياً.

جاء البريطانيون ورحلوا، وعندما رحلوا لم يستطع المركز الصمود، وانهار كل شيء. حقيقة الأمر أنه لم يكن هناك مركز فعلي، فقد كانت المنطقة منقسمة دائماً بسبب التباينات القديمة في لغات البنجاب وغوجارات، والجبال والصحاري، والإسلام والهندوسية. بحلول عام 1947، قسّمت قوى ما بعد الاستعمار من قوميين وانفصاليين دينيين شبه القارة إلى جزأين رئيسين، ثم إلى ثلاثة في ما بعد: الهند وباكستان وبنغلاديش. بريطانيا التي كانت منهكة بعد حربين عالميتين، إدراكاً منها أن أيام الإمبراطورية تقترب من نهايتها، لم تتستر بـ«أمجادها» بينما كانت على وشك المغادرة، ففي 3 يونيو 1947 أُعلن في مجلس العموم انسحاب البريطانيين، وتقسيم الهند إلى إدارتين مستقلتين هما الهند وباكستان، وبعد ثلاثة وسبعين يوماً، أي في 15 أغسطس، كانوا قد رحلوا جميعاً.

تبع ذلك انتقال الناس على نحو غير عادي، فقد فرّ ملايين المسلمين عبر حدود الهند الجديدة متجهين غرباً إلى باكستان، بينما جاء ملايين الهندوس والسيخ في الاتجاه الآخر. كانت هناك أفواج من الناس لا يقل قوام كل منها عن 30000 شخص تتحرّك على الطرق. كانت مجتمعات بأسرها تنتقل، وامتلأت القطارات

باللاجئين، وعبرت شبه القارة لتُنزل الناس في المدن، وتمتلئ رحلة العودة بالذين يذهبون إلى الاتجاه الآخر.

عمّت أعمال الشغب كلا البلدين، وثار المسلمون والهندوس والسيخ وغيرهم ضدّ بعضهم بعضاً في حالة من الذعر والخوف. لقد كانت مذبحةً دموية، بينما غسلت الحكومة البريطانية يديها ورفضت المناشدات التي أرسلها القادة الهنود والباكستانيين الجدد إلى القوات القليلة المتبقية في البلاد لكي تساعدها على حفظ النظام. إن تقديرات عدد القتلى تختلف، لكن ما لا يقل عن مليون شخص لقوا مصرعهم مع نزوح 15 مليون شخص. المناطق ذات الأغلبية المسلمة في الغرب، منطقة وادي السند غرب صحراء «طهار»[82] وحوض نهر الغانج، أصبحت باكستان الغربية بينما أصبحت المناطق الواقعة شرق كلكتا باكستان الشرقية.

بماذا خرجت باكستان من كل هذا؟ أقل بكثير من الهند. لقد ورثت حدود الهند الأكثر إزعاجاً، وهي الحدود الشمالية الغربية مع أفغانستان، وكانت دولة منقسمة إلى منطقتين غير متجاورتين مع القليل مما يوحدهما، حيث فصلت 1000 ميل من الأراضي الهندية باكستان الغربية عن باكستان الشرقية. لقد تمكنت ألاسكا وبقية الولايات المتحدة الأمريكية من معالجة مشكلة المسافة غير المتجاورة دون صعوبة، لكنهما مرتبطتان ثقافياً ولغوياً واقتصادياً،

---

82 . صحراء طهار Thar: تعرف أيضاً باسم الصحراء الهندية الكبرى، منطقة قاحلة في الجزء الشمالي الغربي من شبه القارة الهندية تغطي مساحة قدرها 200000 كيلومتر مربع تفصل بين الهند وباكستان.

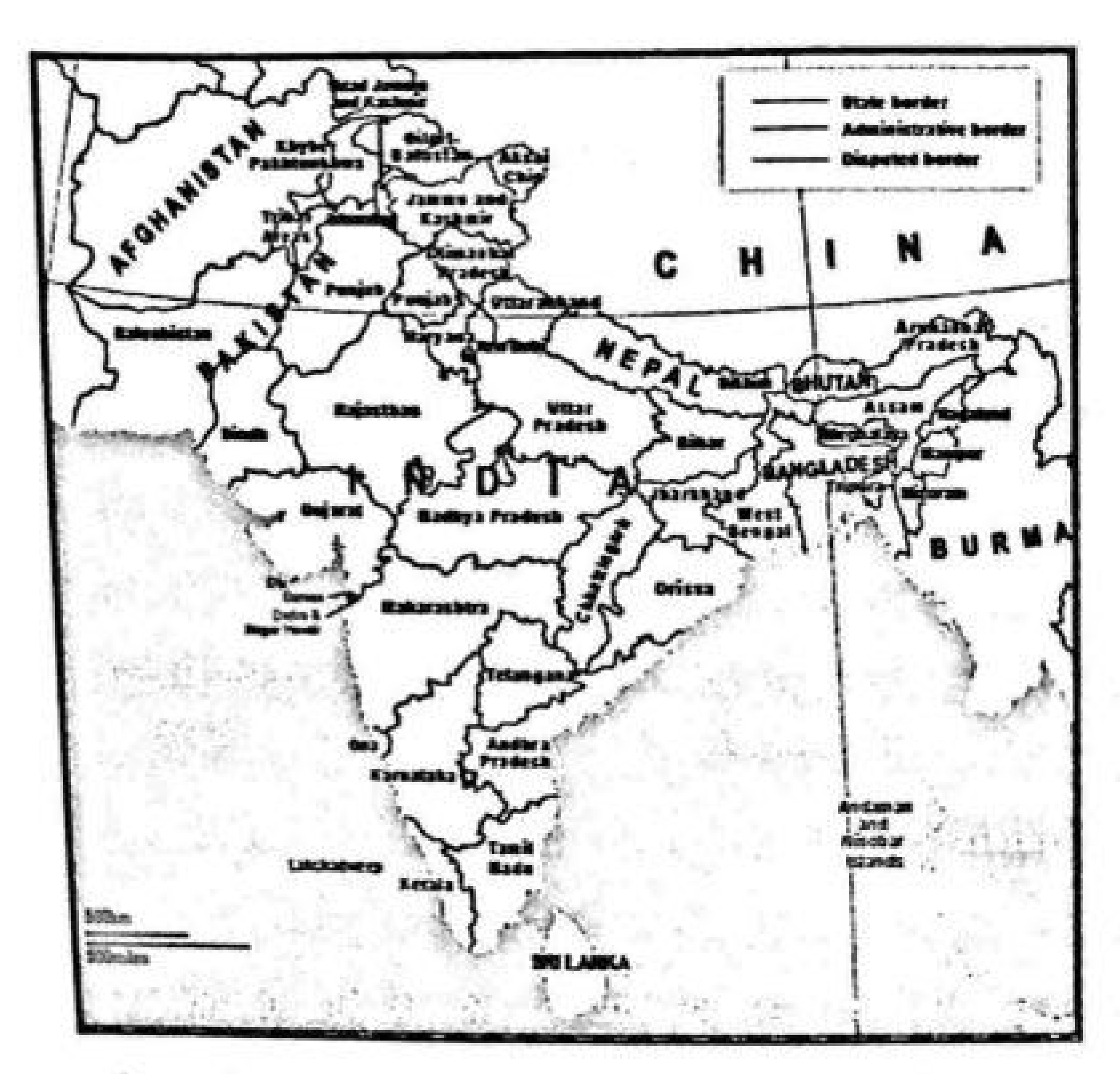
وتعملان في بيئة مستقرة. أما الاتصال الوحيد بين شطري باكستان فكان الإسلام. لم يجتمعا معاً قط، لذلك لم يكن من المفاجئ أن ينفصلا. وهكذا تمردت باكستان الشرقية عام 1971 على هيمنة باكستان الغربية، وتدخلت الهند، وبعد الكثير من إراقة الدماء، انفصلت باكستان الشرقية وأصبح بنغلاديش. ومع ذلك، بالعودة إلى عام 1947، بعد خمسة وعشرين عاماً من نهاية الإمبراطورية العثمانية، كان محمد علي جناح وقادة آخرون في باكستان الجديدة يدّعون، وسط ضجة كبيرة ووعود بمستقبل مشرق، أنهم أنشأوا وطناً مسلماً موحداً.

باكستان أضعف من الهند جغرافياً واقتصادياً وديموغرافياً وعسكرياً، كما إن هويتها الوطنية ليست قوية بالمثل. أما الهند، على الرغم من حجمها وتنوعها الثقافي والحركات الانفصالية، فقد بنت ديمقراطية علمانية صلبة مع إحساس موحد بالهوية الهندية. باكستان دولة إسلامية لها تاريخ من الدكتاتورية والسكان الذين غالباً ما يكون ولائهم لمنطقتهم الثقافية أكثر من ولائهم للدولة. لقد خدمت الديمقراطية العلمانية الهند جيداً، لكن تقسيم عام 1947 منحها السبق، فضمن حدود الهند الجديدة كانت الغالبية العظمى من صناعات شبه القارة، ومعظم قاعدة الدخل الخاضع للضريبة، وكذلك أغلبية المدن الكبرى، ومنها كلكتا مثلاً، بمينائها وقطاعها المصرفي، وقد التحقت بالهند، فحرمت باكستان الشرقية بالتالي من مصدر دخل كبير وقدرة على الاتصال بالعالم الخارجي.

حصلت باكستان على 17 في المائة فقط من الاحتياطيات المالية التي كانت تسيطر عليها حكومة ما قبل التقسيم، وتُركت بقاعدة زراعية، دون أموال تنفقها على التنمية، مع حدود غربية متقلبة، ودولة منقسمة في الداخل بأكثر من طريقة.

يعطينا اسم باكستان دلائل حول هذه الانقسامات، فـ«باك» تعني «نقي» أو «طاهر»، و«ستان» تعني «أرض» بلغة الأوردو، لذلك فهي «أرض الأطهار»، ولكنها تعني أيضاً على الاختصار: حرف الباء من البنجاب، والألف من أفغانستان (منطقة البشتون على الحدود الأفغانية)، والكاف من كشمير، والسين من السند والتاء تعني «تان»، كما في اسم بلوشستان، ومن هذه المناطق الخمس المتميزة، ولكل منها لغتها الخاصة، تم تشكيل دولة واحدة، دون أن تكوّن أمةً. تحاول باكستان جاهدة خلق شعور بالوحدة، لكن يبقى من النادر أن يتزوج البنجابي من البلوش، أو السندي من البشتون.

يشكل البنجاب 60 في المائة من السكان، والسند 14 في المائة، والبشتون 13.5 في المائة، والبلوش 4.5 في المائة. وتظل التوترات الدينية حاضرة دائماً، لا في العداء الذي يظهر أحيانًا ضد الأقليات المسيحية والهندوسية في البلاد، ولكن بين الأغلبية السنية والأقلية الشيعية كذلك. إن باكستان عدةُ أمم في دولة واحدة.



العديد من المناطق التي تكوّن الهند وباكستان لها هوياتها ولغاتها المميزة.

اللغة الرسمية هي الأوردو، وهي اللغة الأم لدى مسلمي الهند الذين فروا عام 1947، واستقر معظمهم في البنجاب. هذا لم يجعل اللغة محبوبةً في بقية البلاد، فلطالما اغتاظ سكان منطقة السند مما يشعرون به من هيمنة بنجابية، ويعتقد العديد منهم أنهم يعامَلون باعتبارهم مواطنين من درجة ثانية. أما البشتون في الحدود الشمالية الغربية فلم يقبلوا حكم الغرباء مطلقاً، وهناك أجزاء من المنطقة الحدودية سُمّيت بـ«المناطق القبلية التابعة للإدارة الفيدرالية»، ولكن إدارتها في الواقع لم تخضع لإسلام أباد قط. كما لا تزال كشمير

منقسمة بين باكستان والهند، وعلى الرغم من أن غالبية الكشميريين يريدون الاستقلال، فإن الشيء الوحيد الذي يمكن أن تتفق عليه الهند وباكستان هو أنهم لن يستقلوا أبداً، ولدى بلوشستان كذلك حركة استقلال تثور بين حين وآخر ضد الدولة.

تحظى بلوشستان بأهمية كبرى، ففي حين أنها لا تحتوي سوى على أقلية صغيرة من سكان باكستان، إلا أن باكستان لا توجد بدونها. إنها تكوّن ما يقرب من 45 في المائة من البلاد، وتحتوي على الكثير من الغاز الطبيعي والثروة المعدنية. مصدر دخل آخر يغري بالطرق البرية المقترحة لجلب النفط من إيران وبحر قزوين عبر باكستان إلى الصين، وجوهرة هذا التاج بالذات هي مدينة غوادر الساحلية، ويعتقد العديد من المحللين أن هذا المخطط الاستراتيجي كان هدف الاتحاد السوفيتي على المدى الطويل عندما غزا أفغانستان عام 1979، فغوادر كانت ستحقق حلم موسكو الطويل في إنشاء ميناء لها على المياه الدافئة. كما جذبت هذه الجوهرة الصينيين كذلك، واستثمروا مليارات الدولارات في المنطقة، حيث افتُتح ميناء عميق المياه عام 2007، ويعمل البَلَدان الآن على ربطه بالصين. كما ترغب الصين على المدى الطويل، في استخدام باكستان طريقاً برياً لتوريد احتياجاتها من الطاقة، وهذا من شأنه أن يسمح لها بتجاوز مضيق ملقا وهي -كما رأينا في الفصل الخاص بالصين- نقطة اختناق يمكنها أن تؤثر على نمو الاقتصادي الصيني.

في ربيع 2015، اتفق البَلَدان على صفقة قيمتها 46 مليار دولار

لبناء طريق سريع من الطرق والسكك الحديدية وخطوط الأنابيب يمتد مسافة 1800 ميل من غوادر إلى منطقة شينجيانغ الصينية. «المسار الاقتصادي الصيني-الباكستاني»، كما يسمّى، سوف يمنح الصين منفذاً مباشراً إلى المحيط الهندي وما وراءه. وفي أواخر عام 2015، وقعت الصين كذلك عقد إيجار مدته أربعين عاماً تستثمر بوجبه 2300 فدان من الأراضي في منطقة الميناء، لتطوير «منطقة اقتصادية خاصة» ضخمة وإنشاء مطار دولي، كل ذلك جزء من المسار الاقتصادي الصيني-الباكستاني، ولأن الجانبين يعلمان أنه من المرجح أن تظل بلوشستان متقلبةً، يقومان بتكوين قوة أمنية تصل إلى 25000 رجل مهمتها حماية المنطقة.

من شأن الاستثمار الصيني الضخم في بناء طريق بري مثل هذا أن يجعل باكستان سعيدة تماماً، وهذا أحد الأسباب التي تجعل باكستان تسعى دائماً إلى سحق أي حركات انفصالية تنشأ في الإقليم. ومع ذلك، فإلى أن تستعيد بلوشستان المزيد من الثروة التي صنعتها وتستخدمها في التنمية، من المتوقع أن تظل المنطقة مضطربة وعنيفة من حين إلى آخر.

الإسلام والكريكيت وأجهزة المخابرات والجيش والخوف من الهند، هذا ما يربط باكستان ببعضها بعضاً، ولن يكون أي من هذه الأشياء كافياً وحده لمنع تفككها إذا نما الانفصاليون وازدادوا قوةً. لقد شهدت باكستان في الواقع حرباً أهلية دامت أكثر من عقد من الزمان، بعد حروب دورية خاضتها مع جارتها العملاقة الهند.

كانت الحرب الأولى عام 1947، بعد فترة وجيزة من التقسيم، ودارت حول كشمير التي انتهت عام 1948 بالانقسام على طول «خط السيطرة»[83] (المعروف أيضاً باسم جدار برلين الآسيوي). ومع ذلك، فإن كلا من الهند وباكستان يواصل المطالبة بالسيادة على المنطقة.

بعد قرابة عشرين عاماً، أخطأت باكستان تقدير قوة الجيش الهندي بسبب أدائها الضعيف في الحرب التي نشبت عام 1962 بين الهند والصين. تصاعدت التوترات بين الهند والصين بسبب الغزو الصيني للتبت، وهو الذي أدى إلى منح الهند ملجأً للدالاي لاما، وقد أظهر الجيش الصيني خلال هذا الاشتباك القصير تفوقه واندفع إلى مشارف ولاية آسام بالقرب من مجال الهند الحيوي. في الأثناء، راقب الجيش الباكستاني ما يحدث بابتهاج، وإذ بالغ في تقدير قوته، فقد ذهب إلى الحرب مع الهند عام 1965 وخسر المعركة.

في عام 1984، خاضت باكستان والهند مناوشات عسكرية على ارتفاع 22000 قدم على نهر سياشين المتجمّد، وهو ما يُعتقد أنه أعلى ساحة معركة في التاريخ، ثم اندلع المزيد من القتال في أعوام 1985 و1987 و1995، وواصلت باكستان تدريب المسلحين للتسلل عبر «خط السيطرة»، واندلعت معركة أخرى حول كشمير

---

83 . خط السيطرة Line of Control: خط عسكري يشرف على الأجزاء التي تسيطر عليها الهند وباكستان من كشمير، دون أن يمثل حدوداً دولية معترفاً بها. أنشئ في نهاية الحرب الهندية الباكستانية عام 1971.

عام 1999. بحلول ذلك الوقت كان كلاً من البلدين مسلحاً بأسلحة نووية، وساد بينهما تهديد غير معلن دام عدة أسابيع بتصعيد الصراع إلى حرب نووية، إلا أن الدبلوماسية الأمريكية تدخّلت وهدّأت الطرفين. في عام 2001 اقتربت الهند وباكستان من الحرب مرة أخرى، ولا يزال إطلاق النار يندلع بشكل متقطع على امتداد الحدود بين حين وآخر.

الهند وباكستان في مواجهة بعضهما بعضاً من الناحية العسكرية، وكل منهما يقول إن موقفه دفاعي، لكن لا أحد منهما يصدّق الآخر، ولذا يواصلان حشد القوات على الحدود، متخبّلان معاً في رقصة موت محتملة.

لن تكون العلاقة بين الهند وباكستان ودية أبداً، ولكن لولا شوكة كشمير في خاصرة كلا الجانبين لكان من المحتمل أن تكون العلاقة أكثر تناغماً. وكما هو الوضع الآن، فإن الهند راضية عن رؤية باكستان مقسّمة من داخلها، وستعمل على الحفاظ على هذا الوضع، كما ستسعى باكستان لتقويض الهند، حتى أن عناصر داخل الدولة تدعم الهجمات الإرهابية داخل الهند، كما حدث في مذبحة مومباي[84] التي وقعت عام 2008.

إن قضية كشمير في جزء منها هي قضية كبرياء وطني، لكنها

---

84. سلسلة هجمات وتفجيرات استهدفت فنادق ومركبات سكنية ومحطات قطارات نُسبت إلى منظمة مجهولة تطلق على نفسها (حسب صحيفة The times of india) اسم «ديكان مجاهدين» (مجاهدي الجنوب)، راح ضحيتها 151 قتيلا ونحو 327 جريحا، وكان من بين القتلى رئيس قسم مكافحة الإرهاب في شرطة مومباي.

قضية استراتيجية كذلك، فالسيطرة الكاملة على كشمير ستمنح الهند نافذة على آسيا الوسطى وحدوداً مع أفغانستان، كما أنه ستحرم باكستان من حدودها مع الصين، وتقلّل بالتالي من جدوى العلاقات الصينية الباكستانية. تحبّ الحكومة الباكستانية أن تعلن أن صداقتها مع الصين «أطول من الجبال وأعمق من المحيطات». هذا بالطبع ليس صحيحاً، لكنه مفيد أحياناً في إثارة قلق الأميركيين من قطع المساعدات المالية الهائلة التي تتلقاها باكستان من واشنطن.

أما إذا كان لباكستان سيطرة كاملة على كشمير، فإن ذلك سيعزز خيارات السياسة الخارجية التي تنتهجها إسلام أباد ويحرم الهند من بعض الفرص، كما أنه سيدعم أمن باكستان المائي، حيث ينبع نهر السند من التبت في جبال الهيمالايا، ويمر عبر الجزء الخاضع للسيطرة الهندية من كشمير قبل أن يدخل باكستان ثم يمتد على طول البلاد ويصب في بحر العرب في كراتشي.

يوفّر نهر السند وروافده المياه لثلثي البلاد، وبدونه ستنهار صناعة القطن والعديد من الدعائم الأساسية الأخرى في الاقتصاد الباكستاني المتعثر، وبموجب معاهدة جرى احترامها في كل حروبهما، اتفقت الهند وباكستان على تقاسم المياه، لكن تعداد السكان في كليهما ينمو بمعدل ينذر بالخطر، ويمكن أن يؤدي الاحترار العالمي إلى تقليل تدفق المياه. إن ضم كشمير بالكامل سيؤمن إمدادات المياه لباكستان، ولكن بالنظر إلى المخاطر، فإن أياً منهما لن يتهاون، وإلى أن يتفقا على كشمير، لا يمكن العثور على

مفتاح لفكّ العداء بينهما، إذ يبدو أن كشمير قُدّر لها أن تظل مكاناً تجري فيه حرب متقطّعة بالوكالة بين مقاتلين درّبتهم باكستان وبين الجيش الهندي. إنه صراع يهدّد بالانتقال إلى حرب شاملة مع خطر محدق يتمثّل في استخدام الأسلحة النووية، كما سيستمر البلدان في خوض حرب أخرى بالوكالة تدور رحاها في أفغانستان، خاصة في هذا الوقت بعد رحيل معظم قوات الناتو.

تفتقر باكستان إلى «عمق استراتيجي» داخلي، وهو المكان الذي يمكن الانسحاب إليه إذا اجتاحت الهند شرق البلاد. تشمل الحدود الباكستانية-الهندية مستنقعات الجنوب وصحراء ثار وجبال الشمال، وجميعها مناطق يصعب تماماً عبورها بالنسبة إلى الجيش، ولكن يمكن القيام بذلك، ولدى الطرفين خطط حربية حول كيفية القتال في تلك المناطق. تتضمّن خطة الجيش الهندي حصار ميناء كراتشي ومستودعات تخزين الوقود فيه عن طريق البر والبحر، ولكن طريق الغزو الأسهل يقع بين الجنوب والشمال، أي في المركز، في منطقة البنجاب الأكثر ملاءمةً، وفي البنجاب توجد العاصمة الباكستانية: إسلام أباد.

تقلّ المسافة من الحدود الهندية إلى إسلام أباد عن 250 ميلاً، معظمها أرض مستوية. وفي حالة وقوع هجوم تقليدي كبير وساحق، يمكن للجيش الهندي أن يكون في العاصمة في غضون أيام قليلة، وعدم إعلان الهنود عن عدم رغبتهم في القيام بذلك ليس هو الهدف، فهم من وجهة نظر باكستان قد يفعلون ذلك،

والإمكانات الجغرافية كافية بالنسبة إلى باكستان كي تضع خطتين (أ) و(ب) لمواجهة المخاطر المحتملة.

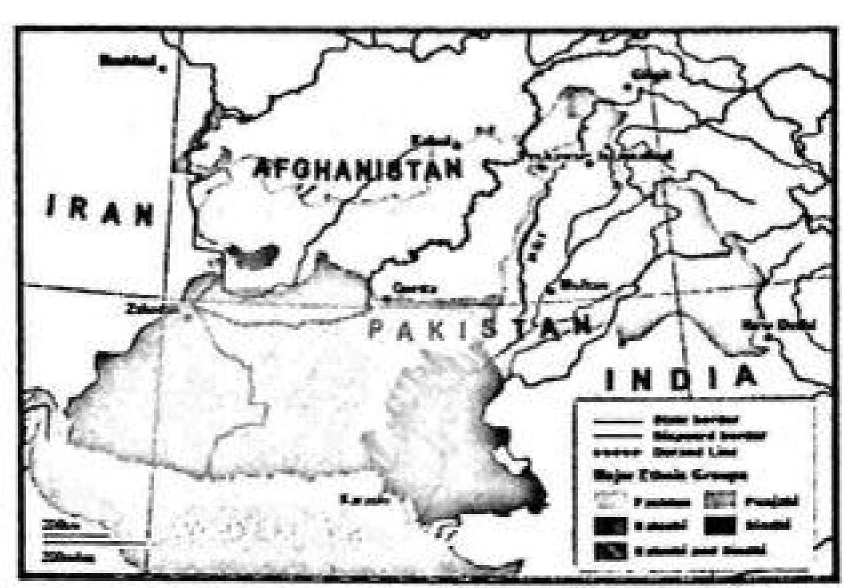
تتمثل الخطة (أ) في وقف التقدم الهندي في البنجاب، مع احتمال شن هجوم مضاد عبر الحدود وقطع الطريق الهندي السريع المعروف باسم (أ-1)، وهو طريق إمداد حيوي يستخدمه الجيش الهندي. يعدّ الجيش الهندي أكثر من مليون جندي، أي ضعف حجم الجيش الباكستاني، ولكن إذا لم يتم إمداده، فإنه لن يتمكن من القتال. الخطة (ب) هي التراجع عبر الحدود الأفغانية إذا لزم الأمر، وهذا يتطلب حكومة متعاطفة في كابول. ومن هنا، فرضت الجغرافيا أن تتدخل باكستان في أفغانستان، وكذلك فعلت الهند، ولإحباط بعضهما بعضاً، يسعى كل جانب إلى تشكيل حكومة أفغانستان حسب رغبته، أو بعبارة أخرى، فإن كل جانب يريد أن تكون كابول عدوَّ عدوِّه.

عندما غزا السوفييت أفغانستان عام 1979 دعمت الهند موسكو دبلوماسياً، لكن باكستان سارعت إلى مساعدة الأمريكين والسعوديين في تسليح الأفغان وتدريبهم ودعمهم لمواجهة الجيش الأحمر، وما أن تراجع السوفييت حتى ساعدت المخابرات الباكستانية على تأسيس ودعم حركة طالبان الأفغانية التي سيطرت بعد ذلك على البلاد.

كان لباكستان «علاقة» طبيعية مع حركة طالبان الأفغانية، فمعظمهم من البشتون، وهم من العرق نفسه الذي ينتمي له غالبية

الباكستانيين من الحدود الشمالية الغربية (المعروفة الآن باسم خيبر باختونخوا)، والبشتون لا يفكرون في أنفسهم بوصفهم شعبين، بل يعتبرون الحدود بينهم مجرد اختراع غربي، وهو كذلك من بعض النواحي.

تُعرف الحدود الأفغانية الباكستانية بخط دوراند الذي رسمها السير مورتيمر دوراند، وزير خارجية الحكومة الاستعمارية في الهند، عام 1893، ووافق عليها حاكم أفغانستان آنذاك. ومع ذلك، فقد «ألغت» الحكومة الأفغانية الاتفاقية عام 1949، معتقدةً أنها بقايا مصطنعة من الحقبة الاستعمارية، ومنذ ذلك الحين حاولت باكستان إقناع أفغانستان بتغيير رأيها، وترفض أفغانستان، بينما يحاول البشتون على كل جانب من الجبال الاستمرار كما فعلوا طوال قرون عديدة تجاهلوا فيها الحدود وحافظوا على ما بينهم من روابط قديمة.



لا يتواءم وجود المجموعات العرقية الرئيسية في المنطقة الأفغانية الباكستانية مع الحدود التي فرضها خط دوراند عام 1893، وتواصل هذه المجموعات التواصل مع قبائلها خارج الحدود أكثر مما ترتبط بكيان الدولة.

مركز هذه المنطقة، التي تسمى أحياناً باشتونيستان، هي مدينة بيشاور الباكستانية، وهي نوع من المركّب الحضري أنشأت فيه طالبان صناعتها العسكرية، ومنها يتدفق المقاتلون وبنادق الكلاشينكوف المقلّدة وتقنية صنع القنابل، بينما يتدفق إليها الدعم من أقسام مختلفة من الدولة. هذه المدينة هي أيضاً مركز عمليات كان ينطلق منه ضباط المخابرات الباكستانية في طريقهم إلى أفغانستان بأموال وتعليمات لمجموعات طالبان عبر الحدود. لقد ظلت باكستان متورطة عسكرياً في أفغانستان منذ عقود، لكنها تجاوزت حدودها، وعضّها النمر الذي كانت تقوده.

في عام 2001، كانت حركة طالبان التي أسستها باكستان تستضيف المقاتلين الأجانب من تنظيم القاعدة على مدى عدة سنوات. وفي 11 سبتمبر عندما ضربت القاعدة الولايات المتحدة على أراضيها في عملية خُطّط لها في أفغانستان، طردت القوة العسكرية الأمريكية طالبان والقاعدة من المدينة، وتحركت القوات الأفغانية المناهضة لطالبان والتابعة للتحالف الشمالي، بهدف السيطرة على البلاد، ولحقت بها قوة استقرار تابعة لحلف شمال الأطلسي.

في اليوم التالي لأحداث 11 سبتمبر، بدأ الأمريكيون عبر الحدود تركيز جهودهم الدبلوماسية، مطالبين الباكستانيين بمشاركتهم في «الحرب على الإرهاب» وإنهاء دعمهم للإرهابيين. كان وزير الخارجية آنذاك، كولين باول، قد اتصل هاتفياً بالرئيس مشرّف

وطلب منه الخروج من اجتماع كان يرأسه لتلقي المكالمة، وخاطبه قائلاً: «إما أن تكون معنا أو ضدنا».

لم يتم تأكيد ذلك من قبل الجانب الأمريكي، لكن مشرّف كتب قائلاً إن المكالمة تمت متابعتها من قبل نائب باول ريتشارد أرميتاج الذي اتصل برئيس المخابرات الباكستانية، وأخبره «إذا اخترنا الإرهابيين، فعلينا أن نكون مستعدين لتقبّل القصف الذي سيعيدنا إلى العصر الحجري». تعاونت باكستان، وكان الأمر كذلك، باستثناء أنها لم تتعاون تماماً، ولم يكن ذلك كذلك! لقد أُجبرت إسلام أباد على اتخاذ موقف وفعلت، لكن لم يكن كل من في النظام الباكستاني موافقاً على ذلك، لقد حظرت الحكومة العديد من الجماعات المسلحة وحاولت كبح جماح الجماعات الدينية التي اعتبرتها متطرفة، وبحلول عام 2004، اشتبكت عسكرياً مع تلك الجماعات على الحدود الشمالية الغربية، وقبلت بشكل خاص السياسة الأمريكية المتمثلة في توجيه ضربات الطائرات بدون طيار على أراضيها بينما كانت تشجبها علناً.

كانت تلك قرارات صعبة، وكان على الجيش الباكستاني وجهاز المخابرات الباكستاني أن ينقلبوا على قادة طالبان الذين درّبوهم وجمعتهم بهم علاقات صداقة في التسعينيات. جماعات طالبان بدورها ردّت بغضب، وسيطرت سيطرة كاملة على عدة مناطق من الأراضي القبيلة، واستهدفت مشرّف بثلاث محاولات اغتيال فاشلة، وقتلت خليفته المرتقبة بنازير بوتو، ووسط فوضى حملات

القصف والهجمات العسكرية قُتل قرابة 50 ألف مدني باكستاني.

عملية الناتو الأمريكية في أفغانستان، والتدابير الباكستانية عبر الحدود، ساعدت على تشتيت مقاتلي تنظيم القاعدة من العرب والشيشان والأجانب الآخرين في أرجاء الأرض، حيث جرى تعقّب قياداتهم وقتلهم. لكن مقاتلي طالبان لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه، فقد كانوا أفغاناً وباكستانيين، وكما أخبروا أولئك الغزاة الأجانب المتقدمين تقنياً من أمريكا وأوروبا: «قد يكون لديكم الساعات التي تحسب الوقت، لكن الوقت لدينا نحن». لقد كانوا في انتظار الأجانب بغض النظر عما أُلقي عليهم من قنابل، وفي الأثناء كانت تساعدهم عناصر في باكستان.

أصبح من الواضح في غضون عامين أن طالبان لم تُهزَم، وأن مقاتليها كانوا يندمجون مع السكان البشتون حيثما ذهبوا، ثم عادوا إلى الظهور مرة أخرى في الأمكنة والأوقات التي اختاروها.

جاء الأمريكيون باستراتيجية «المطرقة والسندان». كانوا يضربون طالبان الأفغانية على سندان العملية الباكستانية على الجانب الآخر من الحدود. ولكن تبيّن أن «السندان» في المناطق القبلية لم يكن سوى إسفنجة تمتصّ كل ما يُلقى عليها، وضمن ذلك كان انسحاب طالبان الأفغانية من تحت ضربات المطرقة الأمريكية.

في عام 2006، قرّر البريطانيون أنهم سيعملون على تحقيق الاستقرار في ولاية هلمند في الجنوب، حيث لم يكن نفوذ الحكومة الأفغانية بعيداً عن العاصمة الإقليمية لَشْكَرغاه. كانت هذه منطقة

حيوية بالنسبة إلى البشتون الأفغان. دخل البريطانيون بنوايا حسنة، وكانوا يعرفون تاريخهم، لكن يبدو أنهم تجاهلوا هذا التاريخ فجأة، ويبدو أن السبب سيبقى غامضاً. نُقل تصريح عن وزير الدفاع البريطاني آنذاك جون ريد بطريقة خاطئة، وأُلقي عليه اللوم لقوله في ذلك الصيف أنه «كان يأمل ألا يتم إطلاق رصاصة في حالة الغضب»، لكنه كان قد قال في الواقع: «نحن في الجنوب لحماية الشعب الأفغاني ومساعدته على إعادة بناء اقتصاده وديمقراطيته. سنكون سعداء تماماً للمغادرة في غضون ثلاث سنوات دون إطلاق رصاصة واحدة».

ربما كان ذلك طموحاً جيداً، لكن هل كان ممكناً على الإطلاق؟ في ذلك الصيف، بعد أن ألقى وزير الدفاع إفادته في وزارة الخارجية في لندن، تبادلتُ معه الحوار التالي:

– «لا تقلق يا تيم. نحن لا نلاحق طالبان، نحن هناك لحماية الناس».

– «لا تقلق يا وزير الخارجية. إن طالبان سوف تلاحقك».

لقد كان حواراً ودياً أُجري قبل مقتل أكثر من 450 جندياً بريطانياً، لكنني لا أعرف حتى يومنا هذا ما إذا كانت الحكومة البريطانية تعمل على تليين الرأي العام قبل نشر القوات بينما توقعت سراً أن الأمر سيكون صعباً، أو ما إذا كانت –بطريقة غامضة– ساذجةً بشأن ما ينتظرها.

هكذا استنزفت طالبان البريطانيين، واستنزفت الأمريكيين، واستنزفت الناتو، وانتظرت خروج الناتو، وبعد ثلاثة عشر عامًا خرج معظم حلف الناتو، ولم يتبق بحلول عام 2019، سوى 14000 جندي أمريكي في البلاد، إلى جانب حوالي 8500 جندي أوروبي وأجنبي آخر. كان هذا أقل من الذروة التي بلغت 130 ألفاً عام 2011. ومع حرص الرئيس ترامب على إنهاء تورط الولايات المتحدة في «أطول حروبها»، بدأت المفاوضات مع طالبان بشأن خطة انسحاب جميع القوات الأجنبية في غضون خمس سنوات من اتفاق الحكومة في كابول على تقاسم السلطة مع طالبان.

طوال الفترة التي سبقت ذلك، كان أعضاء من أعلى المستويات في المؤسسة الباكستانية يلعبون لعبة مزدوجة. قد يكون لأمريكا استراتيجيتها، لكن باكستان كانت تعلم ما تعلمه طالبان من أن الأمريكيين سوف يرحلون في يوم من الأيام، وعندما يغادرون، ستظل السياسة الخارجية الباكستانية تعمل على وجود حكومة صديقة لباكستان في أفغانستان. استمرت الفصائل داخل جيش باكستان وحكومتها في تقديم المساعدة لطالبان، مراهنين على عودة النصف الجنوبي من أفغانستان على الأقل إلى هيمنة طالبان بعد انسحاب الناتو، وبالتالي ضمان أن كابول ستحتاج إلى التفاوض مع إسلام أباد.

في عام 2011، كُشف عن الغدر الذي أضمرته باكستان عندما وجد الأمريكيون في نهاية المطاف زعيم القاعدة، أسامة بن لادن،

مختبئاً على مرأى من الحكومة في بلدة أبوت آباد العسكرية. عند هذه النقطة، زاد عدم ثقة الأمريكيين في «حلفائهم» الباكستانيين إلى درجة أنهم لم يخبروا إسلام أباد مسبقاً عن فريق القوات الخاصة الذي طار لقتل بن لادن. كان هذا خرقاً للسيادة أهان الجيش والحكومة في باكستان، وكذلك كانت الحجة التي قيلت لهم: «إذا كنتم لا تعلمون أنه كان هناك، فأنتم غير أكفاء، وإذا كنتم تعلمون فأنتم متواطئون».

لطالما أنكرت الحكومة الباكستانية أنها تلعب تلك اللعبة المزدوجة التي أسفرت عن مقتل أعداد كبيرة من الأفغان والباكستانيين، فضلاً عن أعداد صغيرة نسبياً من الأمريكيين. وبعد مهمة أبوت آباد، واصلت إسلام أباد الإنكار، لكن الذين يصدقون ذلك الآن ليسوا سوى قلة قليلة، وإذا كانت هناك عناصر من المؤسسة الباكستانية على استعداد لنجدة أكثر الأشخاص المطلوبين في أمريكا، أي أسامة بن لادن، على الرغم من أنه كان في ذلك الوقت ذا قيمة محدودة بالنسبة إليهم، فمن الواضح أنهم كانوا يدعمون الجماعات التي عزّزت طموحاتهم للتأثير على الأحداث في أفغانستان. كانت المشكلة أن هذه المجموعات لديها نظرائها في باكستان وأنها أرادت التأثير على الأحداث هناك. لقد انعكس السحر على الساحر.

طالبان الباكستانية نتيجة طبيعية أنتجتها النسخة الأفغانية. كلاهما يغلب عليهما البشتون ولا يقبل أي منهما هيمنة أي قوة غير

بشتونية، سواء كان ذلك الجيش البريطاني في القرن التاسع عشر أو الجيش الباكستاني الذي كان تهيمن عليه البنجاب في القرن الحادي والعشرين.

كان هذا مفهوماً ومقبولاً من طرف إسلام أباد على الدوام. تظاهرت الحكومة الباكستانية بأنها تحكم الدولة بأكملها، وتظاهر الباشتون على الحدود الشمالية الغربية بأنهم موالون للدولة الباكستانية، وقد استمرت هذه العلاقة حتى 11 سبتمبر 2001.

السنوات التي مرت منذ ذلك الحين كانت قاسية على باكستان بطريقة استثنائية. سقط عدد هائل القتلى المدنيين، وتضاءل الاستثمار الأجنبي، ما جعل الحياة العادية أكثر صعوبة، وفقد الجيش الذي أُجبر على مواجهة من كانوا حلفاءه ما يصل إلى 5000 رجل، كما عرّضت الحرب الأهلية وحدة الدولة الهشة للخطر.

ساءت الأمور إلى الدرجة التي أدت بالجيش والحكومة إلى إعطاء المخابرات العسكرية الأمريكية الإحداثيات تسمح لهم بشن ضربات بطائرات بدون طيار ضد أهداف طالبان الباكستانية في الحدود الشمالية الغربية. في الوقت نفسه، بعدما صارت الضربات واضحةً، كان على إسلام أباد أن تتظاهر بإدانتها ووصفها بأنها انتهاك للسيادة الباكستانية نتج عنه مقتل مئات المدنيين بسبب أخطاء ارتكبتها الولايات المتحدة.

سُيّرت معظم الطائرات بدون طيار من قاعدة في أفغانستان، لكن يعتقد أن بعضها أُطلق من قاعدة سرية داخل باكستان. ومن حيثما

أتت فقد كان هناك الكثير منها. زادت ضربات الطائرات بدون طيار في أفغانستان وباكستان بكثرة واضحة أثناء رئاسة أوباما عن عددها إبان فترة جورج بوش.

بحلول ربيع 2015، أصبحت الأمور أكثر صعوبة. كان الناتو قد غادر أفغانستان وأعلن الأمريكيون إنهاء مهامهم القتالية، تاركين وراءهم قوة قليلة. كان هذا من الناحية الرسمية ما يتعلق بالقوات الخاصة من حيث الإجراءات والمهام التدريبية، أما من الناحية غير الرسمية فكانت محاولة لضمان عدم سقوط كابول في أيدي طالبان. ودون أن يهاجم الناتو طالبان على الجانب الأفغاني من الحدود، أصبحت مهمة باكستان في هزيمة طالبان الباكستانية أكثر صعوبة. واصلت واشنطن الضغط على إسلام أباد للتحرك بقوة، ولكن الجيش الباكستاني من ناحية أخرى كان ينتظر الأمريكيين، لأنه كان يخسر بعض عناصره في معركة كان يعلم أنه لن يفوز بها على الأغلب. فقبائل الحدود الشمالية الغربية لم تهزمها أي قوة أجنبية قط، ويعتبر الجيش الباكستاني الذي يضم البنجاب والسند والبلوش والكشميريين (وبعض البشتون) قوةً أجنبية من قبل الكثيرين في المناطق القبلية.

مع تضاؤل هوس الولايات المتحدة بـ«الحرب على الإرهاب»، انخفض الضغط على إسلام أباد لاستئصال طالبان من الحدود الشمالية الغربية. الأمريكيون لديهم اهتمام محدود بأفغانستان طالما أن طالبان تتعهّد بهدوء ألا تستضيف جماعة جهادية دولية مرة

أخرى، كما إن الباكستانيين سيحافظون على صلات كافية مع طالبان الأفغانية لضمان أن الحكومات في كابول ستستمع إلى إسلام أباد وتصدّ باب الهند، ويمكنهم عندما ينتهي ما يتعرضون له من ضغوط أن يعقدوا صفقة مع طالبان الباكستانية.

لم يكن أي من هذا ضرورياً إذا لم تكن حركة طالبان الأفغانية، التي أنشأتها المخابرات الباكستانية جزئياً، غبيةً إلى الحد الذي تستضيف فيه عناصر عربية من تنظيم القاعدة الذي يقوده بن لادن، وإذا لم تتراجع ثقافة كرم الضيافة البشتونية بعد 11 سبتمبر، فيرفضون الانصياع عندما جاء الأمريكيون مطالبين بهم. آنذاك، وبعد عقد ونصف من القتال، ظل الوضع سيئاً تماماً حتى أن حكومة الولايات المتحدة اضطرت إلى استبدال سياستها والاحتفاظ بآلاف من القوات في أفغانستان أكثر مما كانت قد خطّطت له، فعلى الرغم من رغبة الأمريكيين في مغادرة البلاد، إلا أنهم لا لم يكونوا يستطيعون التخلي عنها كلياً، لا لأن طالبان ستضم المزيد من الأراضي التي كانت تتحكّم بها فعلاً في أفغانستان فحسب، بل لأن تنظيم الدولة الإسلامية نجح في الحصول على موطئ قدم هناك. وفي حالة سقوط العاصمة، فإن الولايات المتحدة لن تتمكن بعد ذلك من التظاهر بأن الدم الذي سكبته والثروات التي أنفقتها كانت ثمناً مستحقاً. إن احتمال هذه الهزيمة الدعائية الضخمة هو ما أبقاهم متورطين في أطول حروبهم، وهو السبب الذي دفع إدارة ترامب إلى انتهاج سياسة متماسكة عند توليه الرئاسة.

أما بالنسبة إلى الهند، فيمكنها القيام بمهام متعددة، بل يجب عليها ذلك فعلاً، بالنظر إلى أن لديها الكثير لتفكر فيه أكثر من علاقتها مع باكستان، حتى لو كان ذلك أولوية في سياسة نيودلهي الخارجية. إن وجود دولة نووية معادية في الجوار يستدعي كل التركيز، لكن على الهند أن تركّز كذلك على إدارة 1.3 مليار شخص بينما تظهر في الوقت نفسه بوصفها قوة عالمية محتملة.

سوف تهيمن علاقة الهند مع الصين على سياستها الخارجية، ولكن لسبب واحد هو جبال الهيمالايا، ولولا وجود أعلى سلسلة جبال في العالم بينهما، لربما كانت علاقاتهما فاترة لا تثير أحداً. إن نظرة خاطفة إلى الخريطة تشير إلى دولتين ضخمتين متجاورتين، لكن نظرة فاحصة تظهر أن جداراً يفصل بينهما على امتداد 1،652 ميلًا من الحدود، كما يقول كتاب «حقائق العالم» الذي تصدره وتوزّعه وكالة المخابرات المركزية.

هناك قضايا تثير الخلاف، أوّلها التبت، وهي أعلى منطقة على وجه الأرض. وكما ألمحنا سابقاً، فقد أرادت الصين أن تمنع التبتُ الهندَ من امتلاكها، وأن تمتنع التبت المستقلّة -وهذا أمر بالسوء نفسه من وجهة نظر بكين- عن السماح للهند بوضع قواتها العسكرية هناك، أي الحيلولة دون منحها تلك المواقع القيادية المرتفعة.

كان رد الهند على ضم الصين للتبت هو منح الدالاي لاما ملاذاً يحمي حركة استقلال التبت في دارامشالا بولاية هيماشال براديش. كانت تلك بوليصة تأمين طويلة الأجل، دفعت الهند ثمنها دون أن

ترجو الحصول على قيمتها على الإطلاق. وكما تبدو الأمور الآن، فإن استقلال التبت يبدو مستحيلاً، ولكن إذا حدث المستحيل، حتى في غضون عدة عقود قادمة، فستكون الهند في وضع يمكّنها من تذكير حكومة التبت بأصدقائها إبان سنوات المنفى.

الصينيون بدورهم يفهمون أن هذا السيناريو غير مرجح أبداً، لكنهم لا يزالون منزعجين من دارمشالا، أما ردّهم فيظهر في نيبال التي تضمن بكين تأثيرها على الحركة الماوية (الهندية) هناك.

لا تريد الهند أن ترى نيبال التي يهيمن عليها الماويون قد سيطرت عليها الصين في نهاية المطاف، لكنها تعلم أن أموال بكين وتجارتها تشتري النفوذ هناك. قد لا تهتم الصين كثيراً بالماوية هذه الأيام، لكنها تهتم بما يكفي بالتبت لإبلاغ الهند بأنها قادرة أيضاً على تحمل نفقة بوليصة تأمين طويلة الأجل. إن أي «تدخل» في التبت قد يقابله «تدخل» في نيبال، وكلما زاد تركيز الهند على الولايات الأصغر في جوارها، قلّ تركيزها على الصين.

ركّزت الهند والصين في منتصف 2017، على دولة بوتان الأصغر التي لديها حدود مع كل منهما، وأدى ذلك إلى مواجهة طفيفة على هضبة دوكلام في بوتان. تطالب الصين بجزء من المنطقة وبدأت بناء طريق سريع هناك، لكن سرعان ما ظهرت القوات الهندية وسدّت هذه الطريق. في حالة سيطرة الصين على منطقة الحدود الثلاثية، فإنها ستتغاضى عن المواقع العسكرية الهندية، ولكن الأهم من ذلك أن سيطرتها هذه ستسمح لها بجلب الدروع

الثقيلة وتركيزها بالقرب من الهند، لا سيما ممر سيليغوري، المعروف أيضاً باسم «رقبة الدجاجة»، وهو امتداد رقيق من الأرض يربط ولايات الهند الشمالية الشرقية ببقية البلاد، ويمكن عزله بسهولة.

كانت هناك توترات أخرى عام 2019، فقد أظهرت صور الأقمار الصناعية أن الصين تزيد من نشاطها الإنشائي، حيث أطالت إحدى الطرق الممهّدة، وشوهدت عدة مبان «شبه دائمة»، كان من بينها ما يعتقد أنه حظائر خاصة بالطائرات المروحية. هناك حوار يتردّد بين نيودلهي وبكين حول الهضبة، لكن من المرجح أن تستمر الشكوك المتبادلة بينهما وستظل المنطقة نقطة اشتعال محتملة.

ثمة قضية أخرى ذات صلة بالعملاقين هي ولاية أروناتشال براديش في شمال شرق الهند، وتدعي الصين أنها «جنوب التبت». مع نمو ثقة الصين، تزداد كذلك مساحة الأراضي التي تقول إنها صينية. وقد طالبت الصين حديثاً، بمنطقة تاوانغ في أقصى غرب الولاية. ومع ذلك، قرّرت بكين في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أن أروناتشال براديش بأكمله أرض صينية، وكان ذلك خبراً جيداً بالنسبة إلى الهنود الذين بسطوا سيادتهم عليها منذ 1955. إن الادعاء الصيني جغرافي جزئياً ونفسياً كذلك، لأن أروناتشال براديش تقع على حدود الصين وبوتان وميانمار، ما يجعلها مفيدة من الناحية الإستراتيجية، لكن هذه القضية مهمة أيضاً بالنسبة إلى الصين لتذكير التبت بأن بداية الاستقلال ليست قريبةً كما قد يُظن.

هذه رسالة على الهند أيضاً أن ترسلها بشكل دوري إلى العديد من أقاليمها. هناك العديد من الحركات الانفصالية، بعضها أكثر نشاطاً من الآخر، وبعضها خامد، لكن لا يبدو أن أياً منها قد حقق أهدافه. حركة السيخ مثلاً، وكانت تدعو إلى إقامة دولة للسيخ تضم جزءاً من البنجاب الباكستاني والهندي، خمدت في الوقت الحالي، ولكنها قد تعود لتنشط ثانيةً. ولاية آسام الهندية تضم أيضاً عدداً من الحركات المتنافسة، بما في ذلك الناطقين باللغة البودو الذين يطمحون إلى إنشاء دولتهم الخاصة، وكذلك «حركة نمور تحرير آسام الإسلامية المتحدة» الذين يريدون دولة منفصلة يتم إنشاؤها داخل ولاية آسام خاصة بالمسلمين.

هناك أيضاً حركة «مجلس ناغالاند الوطني» التي تدعو لإنشاء دولة مسيحية مستقلة في ولاية ناغالاند، حيث 75 في المائة من السكان من المعمدانيين، ومع ذلك فإن احتمال تحقيق هذا الهدف بعيد بعد الأرض التي يسعى المجلس إلى السيطرة عليها، ويبدو أن هذا ينسحب على جميع الحركات الانفصالية الأخرى.

على الرغم من هذه الجماعات وغيرها من الجماعات التي تسعى إلى الاستقلال، يبلغ تعداد السيخ في الهند 21 مليون نسمة، مع أقلية مسلمة[85] ربما تبلغ 172 مليوناً، إلا أن الهند يسودها إحساس قوي بالوحدة ضمن التنوع، ويتوافق ذلك مع مكانتها في المشهد العالمي.

---

85. الهندوسية هي الديانة الأكبر بنسبة 79.8%، يليها الإسلام 14.2%، فالمسيحية 2.3% فالسيخية 1.7%، أما باقي الديانات والمجموعات فلا تزيد عن 2%.

لقد اندهش العالم من ظهور الصين المذهل بهذه القوة، حتى أن صورتها طغت على جارتها، لكن الهند قد تنافس الصين من ناحية قوتها الاقتصادية في هذا القرن، فهي سابع أكبر الدول في العالم، والثانية في تعداد السكان، وتجمعها الحدود الدولية مع ست دول (سبعٌ إذا أضفنا أفغانستان)، ولديها 9000 ميل من الممرات المائية الداخلية الصالحة للملاحة مع إمدادات المياه المتدفقة من جبال الهيمالايا، كما إن لديها مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة، وهي منتج رئيسي للفحم مع مخزون اقتصادي من النفط والغاز، وإن كانت تستورد هذه المواد الثلاثة على نحو دائم بسبب دعمها لتكاليف الوقود والتدفئة الذي يستنزف مواردها المالية.

لا تضاهي الهند نموّ الصين، على الرغم من ثرواتها الطبيعية، ولأن الصين دائمة الحركة في العالم الآن، فقد يصطدم البَلَدان ببعضهما بعضاً، لا على امتداد حدودهما البريّة، بل في البحر.

كان من الممكن عبر آلاف السنين أن تتجاهل المنطقتان اللتان تعرفان في العصر الحديث باسم الصين والهند، بعضهما بعضاً بسبب التضاريس، ذلك أن احتمال توسّع إحداهما في أراضي الأخرى يعدّ مستحيلاً بسبب جبال الهيمالايا التي تفصل بينهما، كما أن لكل منهما، إلى جانب ذلك، أكثر من حاجتها من الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة.

أما الآن، فإن ظهور التكنولوجيا يعني أن كل بلد يتطلب قدراً هائلاً من الطاقة لم تَجُد به الجغرافيا عليهما، لذلك اضطر البلدان إلى

توسيع آفاقهما وخوض المغامرات في المحيطات، وهناك بالذات اصطدما ببعضهما بعضاً.

لقد شرعت الهند قبل خمسة وعشرين عاماً في سياسة «التوجّه شرقاً»، جزئياً من حيث توقّعها لصعود الصين الوشيك، فاهتمت بزيادة التبادل التجاري مع الصين (معظمه من الواردات)، بينما أقامت في الوقت نفسه علاقات استراتيجية مع ما تعتبره الصين فناءها الخلفي! فقد وثّقت الهند روابطها مع ميانمار والفلبين وتايلاند، ولكن الأهم من ذلك أنها تعمل مع فيتنام واليابان لكبح هيمنة الصين المتزايدة على بحر الصين الجنوبي، ولديها في هذا التوجّه حليف جديد، وإن كانت تبقيه على مسافة منها، هو الولايات المتحدة. لقد كانت الهند متشكّكة طوال عقود من الزمان في أن الأمريكيين هم البريطانيون الجدد، وإن كانوا يتحدّثون لهجة مختلفة ويحوزون مالاً أكثر. في القرن الحادي والعشرين، وجدت الهند في عالم متعدد الأقطاب -بعد أن صارت أكثر ثقة- سبباً جيداً للتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية. وعندما حضر الرئيس أوباما العرض العسكري في «يوم الجمهورية الهندية» عام 2015، حرصت نيودلهي على إظهار طائراتها النقليّة الجديدة اللامعة من طراز «س-130 هيركوليز» و«سي-17 غلوبماستر»، التي زودتها بها الولايات المتحدة، بالإضافة إلى دباباتها الروسية. إن «الديمقراطيتان» العملاقان تقتربان من بعضهما ببطء كما اتضح من حرارة الاحتضان الذي تبادله رئيس الوزراء مودي والرئيس ترامب في اجتماعهما الأول.

تمتلك الهند أسطولاً بحرياً حديثاً كبيراً، ومجهزاً تجهيزاً جيداً، يتضمن حاملة طائرات، لكنها لن تكون قادرة على التنافس مع البحرية الزرقاء الضخمة التي تخطّط الصين لتطويرها. وعوضاً عن ذلك، فإن الهند تنحاز إلى أطراف أخرى مهتمة حتى يتمكنوا معاً من الظهور بشكل لائق ينافس أو يطغى على مشهد البحرية الصينية وهي تمخر بحار الصين، عبر مضيق ملقا وخليج البنغال وحول أطراف الهند إلى داخل بحر العرب باتجاه الميناء الودود الذي بنته بكين في غوادر في باكستان.

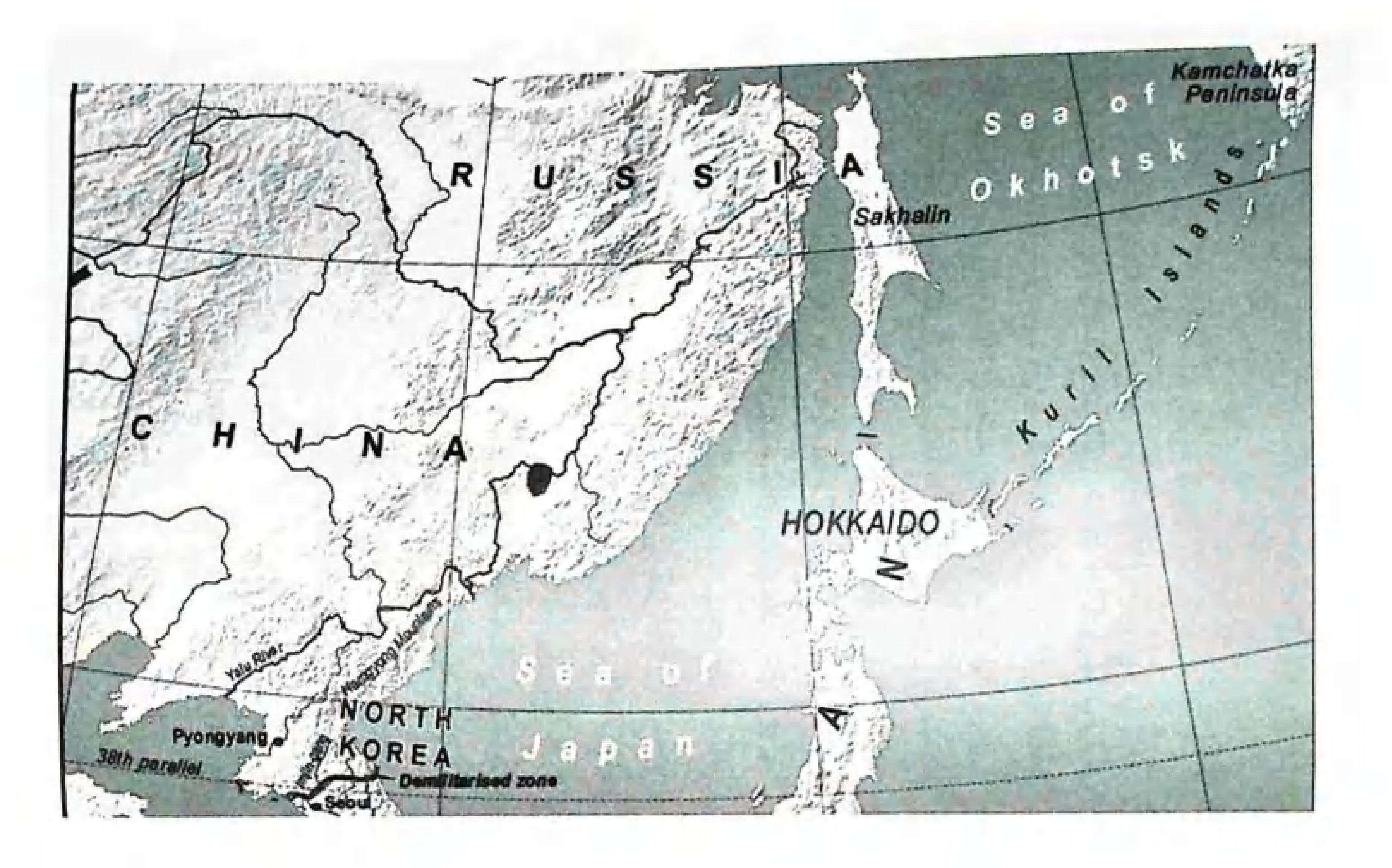
الفصل الثامن

كوريا واليابان

«بدأتُ الحديث ببعض التورية عن كيم جونغ إيل قائلاً «أوه عزيزي القائد»، لكن الكلمات ماتت على شفتي».

كريستوفر هيتشنز، الحب والفقر والحرب: رحلات ومقالات

Yellow Sea
SOUTH KOREA
Dokdo/Takeshima Islands
HONSHU
Tokyo
Hiroshima
Cheju-do
Nagasaki
SHIKOKU
KYUSHU
JAPAN
PACIFIC OCEAN
Ryuku Islands
250miles
250km
State border
Disputed border



RUSSIA
CHINA
Sakhalin
Sea of Okhotsk
Kamchatka Peninsula
Kuril Islands
HOKKAIDO
JA
Sea of Japan
Yalu River
NORTH KOREA
Pyongyang
Seoul
38th parallel
Demilitarised zone



كيف تَحُلُّ مشكلةً مثل كوريا؟ أنت لا تحلّها، بل تقوم بإدارتها فقط! ففي نهاية الأمر، هناك الكثير من الأشياء الأخرى التي تحدث في جميع أنحاء العالم وهي في حاجة إلى اهتمام فوري. إن المنطقة بأكملها من ماليزيا حتى ميناء فلاديفوستوك الروسي تنظر بقلق إلى مشكلة كوريا الشمالية/ الجنوبية. ويعلم جميع الجيران أن هذه المشكلة قد تنفجر في وجوههم ذات يوم، وتؤدي إلى جرّ بلدان أخرى وتدمّر اقتصاداتها. الصينيون من جانبهم لا يريدون القتال نيابة عن كوريا الشمالية، لكنهم لا يريدون كوريا موحّدة تحتوي على قواعد أمريكية قريبة من حدودهم. الأمريكيون بدورهم لا يريدون القتال حقاً من أجل الكوريين الجنوبيين، لكنهم لا يقبلون وصفهم بأنهم تخلّوا عن أحد أصدقائهم. أما اليابانيون، بتاريخهم الطويل من التورّط في شبه الجزيرة الكورية، فيجب أن يُنظر إليهم ببعض الانتباه، لأنهم يعلمون أن كل ما يحدث سوف يشملهم أيضاً.

الحل هو التسوية، لكن الرغبة في ذلك محدودة بالنسبة إلى كوريا الجنوبية، كما لم يظهر أي شيء من ذلك على الإطلاق لدى قادة كوريا الشمالية. إن الطريق إلى الأمام ليس واضحاً أبداً، ويبدو كأنه ليس في الأفق المنظور.

لقد «رقصت» الولايات المتحدة وكوبا بهدوء على مدى عدة سنوات حول بعضيهما، وألمحتا إلى أنهما ترغبان في التعامل بسلاسة دون حاجة إلى الاشتباك، ما أدى أخيراً إلى الانفراج وإعادة العلاقات الدبلوماسية في يوليو 2015. أما كوريا الشمالية فإنها تنظر شزراً إلى أي دعوة يُعرب عنها أي طرف تشكّ في نواياه.

إن كوريا الشمالية بلد يعاني من الفقر ويقدّر عدد سكانه بنحو 25 مليون نسمة، تقودهم موناركية شيوعية فاسدة أخلاقياً ومفلسة، تدعمها الصين، ربما بسبب خوفها من تدفق ملايين اللاجئين شمالاً عبر نهر يالو.

الولايات المتحدة، وهي تشعر بالقلق من أن الانسحاب العسكري من شأنه أن يرسل إشارة خاطئة ويشجع المغامرة الكورية الشمالية، تواصل نشر ما يقرب من 30 ألف جندي في كوريا الجنوبية، ولا يزال الجنوب، الذي تنتابه مشاعر مختلطة حول احتمال المخاطرة بازدهاره، يواصل الاكتفاء بفعل أقل ما يمكن من أجل إعادة توحيد الكوريتين.

جميع الأطراف الفاعلة في هذه الدراما من شرق آسيا تعرف أنها إذا حاولت فرض إجابة ما على السؤال في غير توقيته الصحيح، فإنها تخاطر بجعل الأمور تزداد سوءاً، وربما تكون أسوأ بكثير مما هي عليه الآن. هكذا... ليس من غير المعقول أن تخشى أن تكون نهاية المطاف وجود عاصمتين في أنقاض يعلوها الدخان، وتسودها حرب أهلية، وتعاني من كارثة إنسانية، وصواريخ تهبط على طوكيو

وحولها، وتشهد مواجهة عسكرية صينية-أمريكية أخرى على شبه جزيرة مقسّمة لدى قسم منها فقط أسلحة نووية. أما إذا انهارت كوريا الشمالية من الداخل، فقد تنفجر كذلك، ما يؤدي إلى عدم الاستقرار عبر الحدود في شكل حرب أو إرهاب أو طوفان من اللاجئين، أو كل ذلك معاً، وبالتالي فإن الأطراف الفاعلة تظلّ عالقةً هنا. هكذا يُترك الحل للجيل القادم من القادة، ثم الجيل الذي يليه.

إذا تحدث قادة العالم بصراحة عن الاستعداد لليوم الذي تنهار فيه كوريا الشمالية، فإنهم يخاطرون بالتعجيل بذلك اليوم، وبما أنه أحداً لم يخطط لذلك، فمن الأفضل أن يلتزم الجميع الصمت. إنها معضلة لا يبدو لها حلّ واضح.

تواصل كوريا الشمالية لعب دورٍ مختلٍّ يعمل بقوة على إضعاف أي أثر جيّد. إن سياستها الخارجية تتضمن أساساً التشكك في الجميع باستثناء الصينيين، بل حتى بكين لا يمكن الوثوق بها تماماً على الرغم من أنها توفّر 84.12 في المائة من واردات كوريا الشمالية، وتشتري 84.48 في المائة من صادراتها، حسب إحصائيات 2014 التي أصدرها «مرصد التعقيد الاقتصادي». إن كوريا الشمالية تبذل الكثير من الجهد في مواجهة كل الغرباء وجعلهم يعملون ضد بعضهم بعضاً، والصينيون من بينهم، كأنها تنشئ جبهة موحدة ضد نفسها.

تقول كوريا الشمالية لسكانها الأسرى إنها دولة قوية وسخيّة

ورائعة تقف في وجه كل الصعاب وضد الأجانب الأشرار، وهي تطلق على نفسها اسم جمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية، ولديها فلسفة سياسية فريدة من نوعها اسمها «جوتشي» تمزج فيها بين القومية الشرسة والشيوعية والتعويل على الذات القومية.

واقعياً، كوريا الشمالية أقلُّ دولةٍ ديمقراطيةً في العالم، فهي لا تدار من أجل الشعب، ولا هي جمهورية. إنها سلالة مشتركة بين عائلة واحدة وحزب واحد، وتنطبق عليها كل سمات الديكتاتورية: الاعتقال التعسفي، التعذيب، المحاكمات الصورية، معسكرات الاعتقال، الرقابة، الترهيب، الفساد، وجميع أنماط الرعب على نطاق لا نجد مثيلاً له في القرن الحادي والعشرين. تشير صور الأقمار الصناعية وشهادات الشهود إلى أن ما لا يقل عن 150 ألف سجين سياسي محتجزون في معسكرات العمل الضخمة و«إعادة التأهيل». كوريا الشمالية وصمة عار في ضمير العالم، ومع ذلك فإن قلة من الناس تعرف جيداً حجم الفظائع التي تُرتكب هناك.

لم تُؤكَّد القصص الإخبارية حول إعدام أفراد النخبة المطهَّرين بمدفع مضاد للطائرات أو إطعامهم لمجموعة من الكلاب الجائعة. ومع ذلك، سواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، فليس هناك شك في سلسلة الفظائع التي ارتكبتها الديكتاتورية ضد الشعب، حيث أسفرت السيطرة الكاملة على الدولة عن الضرب والتعذيب ومعسكرات الاعتقال والقتل دون حكم قضائي.

إنها عزلة مفروضة ذاتياً على البلاد، وسيطرة الدولة شبه الكاملة

على المعرفة، فلا نستطيع إلا تخمين ما قد يشعر به الناس تجاه بلدهم ونظامهم وقادتهم، وما إذا كانوا يدعمون نظام الحكم أم لا. إن تحليل ما يحدث من الناحية السياسية وأسبابه، أشبه بالنظر من نافذة غير شفافة مع ارتداء نظارات شمسية. قال لي مساعد سابق لبيونغ يانغ ذات مرة: «يبدو الأمر كأنك على الجانب الآخر من زجاج النافذة، وتحاول فتحها، ولكن لا شيء تستطيع الإمساك به من الداخل لكي تفعل ذلك».

تقول أسطورة تأسيس كوريا أنها نشأت عام 2333 ق.م. بتدبير سماوي، حيث أرسل رب السماء ابنه هوانونغ إلى الأرض، فنزل على جبل بايكتو (بايكدو) وتزوج من امرأة كانت دباً في الأصل، وأنجبا ابنهما دانغون الذي شرع في بناء الأمة.

تعود أقدم نسخة مدوّنة من أسطورة الخلق هذه إلى القرن الثالث عشر، وهي قد تفسر من بعض النواحي لماذا صار لدى الدولة الشيوعية قيادة تتوارثها عائلة واحدة ذات مكانة مقدّسة. فكيم جونغ إيل، على سبيل المثال، وُصف في آلة الدعاية في بيونغ يانغ بأنه «القائد العزيز، والتجسيد المثالي للمظهر الذي يجب أن يكون عليه القائد»، و«شعاع الشمس المرشد»، و«نجم جبل بايكتو اللامع»، و«زعيم العالم في القرن الحادي والعشرين»، و«الرجل العظيم الذي هبط من السماء»، وكذلك «الحضن الأبدي حيث الحب الدافئ»، كما كان لوالده ألقاب مماثلة تماماً، وكذلك ابنه.

كيف يشعر عامة الناس إزاء مثل هذه العبارات؟ عندما تنظر إلى

لقطات من الهستيريا الجماعية التي أظهر بها الكوريون الشماليون الحداد على كيم جونغ إيل الذي توفي عام 2011، من المثير ملاحظة أنه بعد الصفوف القليلة الأولى من الناس الذين ينوحوم ويصرخون يبدو أن مستوى الحزن يتضاءل. هل لأن أولئك الموجودين في المقدمة يعرفون أن الكاميرا مثبتة عليهم، ويجب أن يقوموا بما هو مطلوب منهم لأجل سلامتهم؟ أم أن أتباع الحزب المخلصين هم الذين كانوا في المقدمة؟ أم أنهم أناس عاديون يعانون من حزن حقيقي، وأن المشهد تضخيم كوري شمالي لنوع من الانفعالات العاطفية التي رأيناها في المملكة المتحدة بعد وفاة الأميرة ديانا؟

كيفما كان الأمر، فإن جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية لا تزال تشهد هذه التصرفات الجنونية الخطيرة والأقل خطراً. إنها خدعة حقاً، وهي تعود بجذورها جزئياً إلى موقع وتاريخ كوريا المحاصرة بين عملاقين هما الصين واليابان.

اكتسبت كوريا اسم «مملكة الناسك» في القرن الثامن عشر بعد أن حاولت عزل نفسها بعد مضي قرون من كونها هدفاً للسيطرة والاحتلال والنهب، أو ببساطة أكثر، لكونها مجرد ممرّ يقود إلى مكان آخر. إننا إذا أتينا من الشمال، وصرنا فوق نهر يالو، نرى عدداً قليلاً من الخطوط الدفاعية الطبيعية الرئيسية على امتداد الطريق وصولاً إلى البحر، وإذا تمكنّا من الهبوط من البحر، فإن العكس هو الصحيح. لقد جاء المغول وذهبوا، وكذلك فعلت أسرة تشينغ

الصينية واليابانيون عدة مرات. لذا فضلت البلاد لفترة من الوقت ألا تتعامل مع العالم الخارجي، وقطعت العديد من روابطها التجارية على أمل تركها وحيدةً بمفردها.

لم يكن ذلك ناجحاً، فقد عاد اليابانيون في القرن العشرين، وضموا البلاد بأكملها عام 1910، وشرعوا عقب ذلك في تدمير ثقافتها، حيث تم حظر اللغة الكورية، وتدريس التاريخ الكوري، وأصبحت العبادة في أضرحة الشنتو إلزاميةً. لقد تركت عقود القمع إرثاً يؤثر حتى اليوم على العلاقات بين اليابان وكلا الدولتين الكوريتين.

أدت هزيمة اليابان عام 1945 إلى تقسيم كوريا على خط العرض 38. صار شمالها نظاماً شيوعياً أشرف عليه السوفييت أولاً ثم الصين الشيوعية بعد ذلك، وصار جنوبها ديكتاتورية موالية لأمريكا تسمى جمهورية كوريا. كانت تلك بداية حقبة الحرب الباردة عندما تم التنازع على كل شبر من الأرض، بينما كان كل جانب يتطلع إلى مدّ نفوذه أو سيطرته حول العالم، دون أن يسمح للطرف الآخر بأن يستأثر وحده بالمشهد.

كان اختيار خط العرض 38 لجعله خط التقسيم مؤسفاً من نواح كثيرة، وحسب المؤرخ الأمريكي دون أوبيردورفر فإنه كان قراراً تعسفياً، وهو يقول عن ذلك إن واشنطن كانت تركز بشدة على استسلام اليابان في 10 أغسطس 1945 بحيث لم يكن لديها استراتيجية حقيقية بشأن كوريا، وبينما كانت القوات السوفيتية

تتحرّك في شمال شبه الجزيرة، وكان البيت الأبيض يعقد اجتماعاً طارئاً مطوّلاً، اختار ضابطان صغيران، مسترشديْن بخريطة من مجلة «ناشيونال جيوغرافيك»، خطّ العرض 38 مكاناً رأيًا أن السوفييت يجب أن يتوقفوا عنده، على أساس أن هذا الخط يقع في منتصف الطريق باتجاه جنوب البلاد. أحد هذين الضابطين كان «دين راسك» الذي سيصبح وزيراً للخارجية خلال حرب فيتنام.

لم يكن هناك كوريون أثناء التقسيم، ولم يشهده أي خبير كوري. لو حدث ذلك، لكان بإمكانهم إخبار الرئيس ترومان ووزير خارجيته آنذاك، جيمس فرانسيس بيرنز، أن الخط كان هو نفسه الذي ناقشته روسيا واليابان حول مجالات نفوذ كل منهما قبل نصف قرن، في أعقاب الحرب الروسية اليابانية عام 1904- 1905. يمكن التسامح مع موسكو التي لم تكن تعلم بأن الأمريكيين كانوا ينتهجون سياسة متسرّعة دون تروّ، لاعتقادها بأن خط التقسيم كان اعترافاً واقعياً من الولايات المتحدة، وأنها بالتالي تقبل بالتقسيم وبوجود الشمال الشيوعي. لقد عُقدت الصفقة؛ قُسّمت كوريا، وقُضي الأمر!

سحب السوفييت قواتهم من الشمال عام 1948 وحذا الأمريكيون حذوهم في الجنوب عام 1949. في يونيو 1950، استخفّت القوات المسلحة الكورية الشمالية بالاستراتيجية الجيوسياسية الأمريكية في الحرب الباردة، وعبرت خط العرض 38، عازمةً على إعادة توحيد شبه الجزيرة تحت حكومة شيوعية

واحدة. توغلت القوات الشمالية في البلاد مسرعةً حتى طرف الساحل الجنوبي تقريباً، وقُرِع جرس الإنذار في واشنطن.

أدركت القيادة الكورية الشمالية، وداعموها الصينيون، بشكل صحيح، أن كوريا لم تكن حيوية بالنسبة إلى الولايات المتحدة، بالمعنى العسكري البحت. لكن ما فشلوا في فهمه هو أن الأمريكيين كانوا يعرفون أنهم إذا لم يقفوا إلى جانب حليفهم الكوري الجنوبي، فإن حلفاءهم الآخرين في جميع أنحاء العالم لن يثقوا بهم، وإذا بدأ حلفاء أمريكا، في ذروة الحرب الباردة، يحتاطون من رهاناتهم أو يصطفون مع الجانب الشيوعي، فإن استراتيجيتها العالمية بأكملها ستكون في مأزق. هناك أوجه تشابه هنا مع سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في شرق آسيا وأوروبا الشرقية، فبولندا ودول البلطيق واليابان والفلبين، مثلاً، في حاجة إلى أن تثق بأن أمريكا تدعمها فعلياً عندما يتعلق الأمر بعلاقاتها مع روسيا والصين.

في سبتمبر من ذلك العام (1950)، توغلت الولايات المتحدة في كوريا، وهي تقود قوة تابعة للأمم المتحدة، ودفعت القوات الشمالية إلى ما وراء خط العرض 38، ثم صعوداً إلى نهر يالو والحدود مع الصين تقريباً.

جاء دور بكين لكي تعلن قرارها، فوجود القوات الأمريكية في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة أمر يختلف تماماً عن وجودها شمال خط العرض (شمال الجبال بعد مدينة هامهونغ فعلياً)، أي على مسافة قريبة من الصين نفسها. هكذا تدفّقت القوات الصينية عبر

نهر يالو، وأعقب ذلك ستة وثلاثون شهراً من القتال العنيف مع خسائر فادحة في جميع الأطراف قبل أن تتوقف على امتداد الحدود الحالية وتوافق على عقد هدنة، لا على توقيع معاهدة. هكذا علق الجميع بخط عرض 38، وظلوا عالقين منذ ذلك الوقت.

إن جغرافيا شبه الجزيرة الكورية غير معقدة إلى حد ما، وتذكّر بما في التقسيم بين الشمال والجنوب من اصطناع وتعسّف. إن الانقسام الحقيقي، بشكل عام، واضح بين الغرب والشرق (لا الشمال والجنوب)، فغرب شبه الجزيرة أكثر انبساطاً من الشرق، وهو الجزء الذي يعيش فيه غالبية السكان، أما الشرق فتوجد فيه سلسلة جبال هامغيونغ في الشمال وسلاسل أدنى في الجنوب، والمنطقة المنزوعة السلاح التي تقسم شبه الجزيرة إلى نصفين، تتبع في أجزاء منها مسار نهر إمجين-غانغ، ولكن هذا ليس حاجزاً طبيعياً بين الكيانين، بل مجرد نهر ضمن مساحة جغرافية موحدة يرتادها الأجانب على نحو متكرّر.

لا تزال الكوريتان من الناحية الافتراضية في حالة حرب، وبالرغم من التوترات الشديدة السائدة بينهما، إلا أن الصراع الأكبر الذي تقدمان عليه لا يتعدّى بضع قذائف مدفعية فقط.

تشعر اليابان والولايات المتحدة وكوريا الجنوبية بالقلق من الأسلحة النووية التي تمتلكها كوريا الشمالية، لكن كوريا الجنوبية بالذات تواجه تهديداً آخر، فقدرة كوريا الشمالية على خفض تقنيتها النووية بنجاح وتصنيع رؤوس حربية غير مؤكدة، ولكنها قادرة

على ذلك بالتأكيد، وهو ما أظهرته فعلياً عام 1950، عندما شنّت عليها هجوماً تقليدياً مفاجئاً.



قرب سيول والمناطق الحضرية المحيطة بها من حدود كوريا الشمالية، يمثّل مصدر قلق كبير لكوريا الجنوبية. فموقع سيول يجعلها عرضة لهجمات مفاجئة من جارتها التي تقع عاصمتها على مسافة أبعد بكثير وتحميها تضاريس جبلية.

تقع عاصمة كوريا الجنوبية، مدينة سيول الضخمة، على بعد 35 ميلاً فقط جنوب خط العرض 38 والمنطقة المنزوعة السلاح، ويعيش ما يقرب من نصف سكان كوريا الجنوبية البالغ عددهم 51 مليون نسمة، في منطقة سيول الكبرى التي يوجد بها الكثير من المراكز الصناعية والمالية. كل ذلك يقع ضمن نطاق المدفعية الكورية الشمالية.

في التلال التي تحاذي المنطقة المنزوعة السلاح البالغ طولها 148

ميلاً، يمتلك الجيش الكوري الشمالي ما يقدّر بـ 10.000 قطعة مدفعية. تم نصبها جيداً، وبعضها في مخابئ وكهوف حصينة، وإذا لم تكن كلها قادرة على الوصول إلى وسط مدينة سيول، فإن بعضها يستطيع، أما جميعها فقادر على الوصول إلى منطقة سيول الكبرى. ما من شكّ تقريباً في أن القوة المشتركة التي كوّنتها القوات الجوية الكورية الجنوبية والأمريكية ستدمّر الكثير من تلك الترسانة المدفعية في غضون يومين أو ثلاثة، ولكنها إذا فعلت ذلك فإن سيول ستدمّر أيضاً في الوقت نفسه. لنتخيل تأثير قذيفة واحدة من 10000 قطعة مدفعية على المناطق الحضرية وشبه الحضرية، ثم نضاعف ذلك عشرات المرات!

قدّر خبيران في شؤون كوريا الشمالية، هما فيكتور تشا وديفيد تشانغ، في مقال لهما بمجلة «فورين بوليسي»، أن قوات كوريا الشمالية يمكنها أن تطلق ما يصل إلى 500 ألف قذيفة باتجاه المدينة في الساعة الأولى من بدء الصراع. يبدو هذا تقديراً مبالغاً فيه، ولكن حتى إذا تحدثنا عن خمس ذلك، فستظل النتائج مدمّرة فعلاً. ستجد حكومة كوريا الجنوبية نفسها تخوض حرباً كبرى بينما تحاول في الوقت نفسه إدارة فوضى الملايين من الأشخاص الذين يفرّون إلى الجنوب وتحاول في الوقت نفسه تعزيز الحدود بتركيز قواتها جنوب العاصمة.

إن التلال التي تقع شمال المنطقة المنزوعة السلاح ليست مرتفعة، وهناك الكثير من مهاد الأرض المنبسطة بينها وبين سيول. ويمكن

لجيش كوريا الشمالية أن يتقدم بسرعة كبيرة في هجوم مفاجئ، بمساعدة القوات الخاصة التي ستدخل عبر أنفاق تحت الأرض يعتقد الكوريون الجنوبيون أنها بُنيت بالفعل، كما يُعتقد أن خطط كوريا الشمالية في إدارة المعركة تشمل الغواصات التي يمكنها أن تنزل القوات جنوب سيول، بالإضافة إلى تفعيل الخلايا النائمة المتغلغلة بين سكان الجنوب، حيث تشير التقديرات إلى أن لدى كوريا الشمالية 100،000 عنصر هناك تعتبرهم من القوات الخاصة.

لقد أثبتت كوريا الشمالية بالفعل أنها تستطيع الوصول إلى طوكيو بصواريخ باليستية عن طريق إطلاق العديد منها فوق بحر اليابان وفي المحيط الهادئ، وهو مسار يضعها مباشرة فوق الأراضي اليابانية، كما يبلغ قوام قواتها المسلحة من ناحية أخرى أكثر من مليون جندي، وهي إحدى أكبر الجيوش في العالم، وبافتراض أن أعداداً كبيرة منها ليست متدربةً تدريباً عالياً، إلا أنها ستكون مفيدة لبيونغ يانغ إذا أرادت توسيع دائرة الصراع.

سوف يقاتل الأمريكيون إلى جانب كوريا الجنوبية، وسيكون الجيش الصيني في حالة تأهب قصوى ويقترب من نهر يالو، وسيراقب الروس واليابانيون ما سيحدث بقلق.

هذه السيناريوهات -في وقت كتابة هذا الفصل- هي ما منع الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين من القيام بعمل عسكري متواصل لتعطيل برنامج كوريا الشمالية النووي. إن إطلاق كوريا الشمالية

التجريبي للصواريخ الباليستية العابرة للقارات عام 2017، وإمكانية خفض قدراتها نووي، وعملها المستمر على تصنيع الغواصات، كل ذلك يعني أننا نقترب بسرعة من نهاية اللعبة، فإما أن تصبح قوة مسلحة نووياً متكاملة تستطيع إطلاق صواريخ نووية على مدى طويل. أو أن يتدخل الأمريكيون لمنعها.

في صيف 2018، قام الرئيس ترامب بما لم يفعله أسلافه، أي اللقاء بزعيم كوريا الشمالية، وبسبب هذا لحقته انتقادات كثيرة. كان الرؤساء السابقون قد نظروا إلى فكرة مثل هذا الاجتماع وفكروا مرتين، دون أن يرغبوا في «تكريم» الديكتاتورية بإحداث «انقلاب دعائي». ندّ ترامب كان كيم جونغ أون الذي غمرته الأضواء العالمية، وكانت التغطية التلفزيونية في كوريا الشمالية شيئاً يستحق المشاهدة فعلاً، فقد ظهر «الزعيم العظيم» وهو يتجول على قدم المساواة مع الرئيس الأمريكي، بينما تلمّح التعليقات إلى أن الشخصية الأقوى في الواقع هو كيم.

مع ذلك، يمكن إثبات أن ما حدث لم يكن نهجاً جديداً أكثر ليونة، فترامب وهو يهدّد بـ«النار والغضب»[86] سمح بعقد القمة، بينما كان يرسل المزيد من القوات الأمريكية على مقربة من شبه الجزيرة الكورية. كان يُعتقد في بداية ذلك العام (2018)، أن احتمال شن هجوم أمريكي أمرٌ جاد، وأن القمة ساعدت على بناء

---

86 . نار وغضب Fire and Fury: عنوان كتاب من تأليف مايكل وولف، انتقد فيه ترامب خلال السنة الأولى من رئاسته.

جسر بين البلدين، وخلقت طريقاً محتملاً بعيداً عن المواجهة، وقد انخفضت التوترات بشكل واضح لفترة طويلة، ما أدى إلى عقد اجتماع ثان في أوائل 2019. ومع ذلك، لم يتم إحراز تقدم يُذكر، فأي من الجانبين لم يكن يثق بالآخر، وكان يمكن أن تسوء الأمور أكثر وتنهار. وإذا حدث ذلك، ستنتهي إلى حالة أخرى أكثر خطورة، لأن ترامب إذا كان قد حاول بالفعل اختبار العقوبات ودبلوماسية القمة دون نتائج، فقد يشعر بأن الخيار العسكري هو الخيار الوحيد المتبقي.

يُبقي هذا الوضع الكثير من الناس متيقظين دائماً. فحلفاء الولايات المتحدة في المنطقة يخشون الخيار العسكري، لكنهم قلقون أيضاً من أن ترامب قد يستيقظ ذات صباح ويقرر سحب القوات الأمريكية من كوريا الجنوبية وحتى اليابان. أما على الجانب الآخر، فلا يريد الصينيون أن تكون كوريا الشمالية مسلحة نووياً، لكنهم لا يطمئنون كذلك لاحتمال أن تخوض الولايات المتحدة حرباً لمنع كوريا الشمالية من التسلّح نووياً، وأن ترسل قواتها بالتالي إلى نهر يالو على حدود الصين مع كوريا الشمالية كما فعلت في خمسينيات القرن العشرين. إن العالم يشعر بالقلق من التأثير العالمي على التبادل التجاري إذا اندلع مثل هذا الصراع، لكن الرئيس الجديد جرب شيئاً جديداً، وسيستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تكون لدينا صورة واضحة عن مدى النجاح الذي حقّقه تغيير هذه التكتيكات والخطط.

ليس من مصلحة أحد أن تكون تنشب حرب كبرى أخرى في كوريا يتعرّض فيه الجانبان للدمار، لكن هذا التوجّه لم يمنع نشوب الحروب في الماضي. في عام 1950، عندما عبرت كوريا الشمالية خط العرض 38، لم تكن تتوقع حرباً مدتها ثلاث سنوات مع قرابة أربعة ملايين قتيل، ثم انتهت بحالة من الجمود. قد يكون صراع واسع النطاق في وقتنا هذا أكثر كارثية. إن اقتصاد كوريا الجنوبية أقوى بثمانين ضعفاً من اقتصاد كوريا الشمالية، ويبلغ عدد سكانها ضعف الحجم، ومن شبه المؤكد أن القوات المسلحة الكورية الجنوبية والأمريكية المشتركة تستطيع أن تقهر كوريا الشمالية في نهاية المطاف، هذا بافتراض أن الصين لم تقرر المشاركة في الحرب مرة أخرى.

ماذا بعد؟ كان هناك مخطط جاد محدود لمثل هذا السناريو، إذ يُعتقد أن الجنوب قام ببعض النمذجة الحاسوبية لمحاكاة ما تتطلبه الأحداث، لكن من المقبول عموماً أن الوضع سيكون فوضوياً، فالمشاكل التي يمكن أن تنشأ عن انفجار كوريا من الداخل سوف تتضاعف إذا حدثت نتيجةَ الحرب، وسوف تتأثر العديد من البلدان ويكون لديها قراراتها الخاصة بشأن ما يجب أن تفعل، وحتى إذا لم ترغب الصين في التدخّل أثناء القتال، فقد تقرر عبور الحدود وتأمين الشمال للاحتفاظ بالمنطقة العازلة بينها وبين القوات الأمريكية، أو قد تقرر أن كوريا الموحّدة، المتحالفة مع الولايات المتحدة، المتحالفة بدورها مع اليابان، ستمثّل تهديداً خطيراً محتملاً لن تسمح به.

سيتعين على الولايات المتحدة أن تقرر إلى أي مدى تستطيع الاندفاع عبر المنطقة المنزوعة السلاح، وما إذا كان ينبغي عليها السعي لتأمين جميع مواقع كوريا الشمالية التي تحتوي على موادنووية وأسلحة دمار شامل أخرى. سيكون لدى الصين مخاوف مماثلة أيضاً، خاصة وأن بعض المنشآت النووية على بعد 35 ميلاً فقط من حدودها.

أما على الجبهة السياسية، فيتعين على اليابان.أن تقرر ما إذا كانت تريد كوريا قوية وموحدة ترتاد بحر اليابان، ونظراً للعلاقات الهشة بين طوكيو وسيول، فإن لدى اليابان أسبابها التي تجعلها متوترة بشأن ذلك، ولكن نظراً لأن لديها مخاوف أكبر بكثير في ما يتعلق بالصين، فمن المرجح أن تنحاز إلى جانب دعم إعادة التوحيد، على الرغم من السيناريو المحتمل الذي يُطلب فيه مساعدتها المالية بسبب احتلالها الطويل لشبه الجزيرة في القرن الماضي. بالإضافة إلى ذلك، فإنها تعرف ما تعرفه سيول، وهو أن تتحمل كوريا الجنوبية معظم ما تتطلبه إعادة التوحيد من تكاليف اقتصادية تفوق إعادة توحيد ألمانيا. ربما كانت ألمانيا الشرقية متخلفة كثيراً عن ألمانيا الغربية، لكن كان لها تاريخ من التطور وقاعدة صناعية وسكان متعلمون، أما تطوير شمال كوريا فسوف يجري بناؤه من نقطة الصفر، وستعيق التكاليف اقتصاد شبه الجزيرة المتحدة لعقد من الزمان. بعد ذلك من المتوقع أن تبدأ فوائد الثروات الطبيعية الغنية في الشمال، مثل الفحم والزنك والنحاس والحديد وعناصر الخام النادرة، ومن المتوقع أن يبدأ برنامج التحديث، ولكن هناك مشاعر

مختلطة حول المخاطرة بازدهار واحدة من أكثر دول العالم تقدماً في هذه الأثناء، أي كوريا الجنوبية.

هذه القرارات/ القراءات خاصة بالمستقبل، أما في الوقت الحالي فإن كل طرف يواصل الاستعداد للحرب، وكما هو الحال مع باكستان والهند، فإن الكوريتين محاطتان بخوف وشك متبادلين.

لقد أصبحت كوريا الجنوبية عضواً حيوياً مندمجاً في العالم، ولديها سياسة خارجية تناسبها. ومع مياهها المفتوحة في اتجاهات الغرب والشرق والجنوب، وما لديها من موارد طبيعية قليلة، حرصت على بناء بحرية حديثة في العقود الثلاثة الماضية، قادرة بها على الخروج إلى بحر اليابان وبحر الصين الشرقي لحماية مصالحها. وهي مثل اليابان، تعتمد على مصادر أجنبية لتوفير احتياجاتها من الطاقة، لذا تراقب من كثب الممرات البحرية في المنطقة بأكملها، وقد أمضت وقتاً في ترتيب رهاناتها، واستثمرت رأس مالها الدبلوماسي في علاقات أوثق مع روسيا والصين، الأمر الذي يثير انزعاج بيونغ يانغ دون شك.

يمكن أن يؤدي سوء التقدير من قبل أي من الجانبين إلى نشوب حرب يمكن أن تدمر اقتصادات المنطقة، بالإضافة إلى آثارها المدمرة على سكان شبه الجزيرة، مع تأثيرات هائلة على الاقتصاد الأمريكي. لقد تطوّر ما بدأ بدفاع الولايات المتحدة عن موقفها في الحرب الباردة ضد روسيا، وأصبح قضية ذات أهمية استراتيجية لاقتصادها واقتصاد العديد من البلدان الأخرى.

لا تزال لدى كوريا الجنوبية مشاكل مع طوكيو في ما يتعلق بملف الاحتلال الياباني، وحتى عندما تكون العلاقات بينهما في أفضل حالاتها، وهو أمر نادر الحدوث، فإنها تظل مجرد علاقات ودية. عندما توصل الأمريكيون والكوريون الجنوبيون واليابانيون في أوائل 2015 إلى تفاصيل اتفاقية لتبادل المعلومات العسكرية التي تجمّعت لديها بشأن كوريا الشمالية، قالت سيول إنها ستنقل كمية محدودة فقط من المعلومات السرية إلى طوكيو عبر واشنطن، أي إنها لن تتعامل مباشرة مع اليابانيين.

لا يزال هناك نزاع إقليمي بين البلدين حول ما تسميه كوريا الجنوبية جزر دوكدو، وتسميها اليابان جزر تاكيشيما، ويسيطر الكوريون الجنوبيون حالياً على النتوءات الصخرية الموجودة في مناطق صيد جيدة، وقد يكون هناك احتياطيات غاز في المنطقة. على الرغم من هذه الشوكة في خاصرة كل منهما، وذكريات الاحتلال التي لا تزال حية، فإن لكل منهما ما يكفي من الأسباب للتعاون والتخلي عن ماضيهما المضطرب.

يختلف تاريخ اليابان كثيراً عن تاريخ كوريا، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى جغرافيتها.

اليابانيون من الأعراق التي عاشت في الجزر، حيث يعيش غالبية السكان البالغ عددهم 127 مليون نسمة في الغالب على الجزر الأربع الكبيرة التي تواجه كوريا وروسيا عبر بحر اليابان، وتعيش أقلية في بعض الجزر الصغيرة البالغ عددها 6848 جزيرة. هونشو

هي أكبر الجزر الرئيسية، وتضم أكبر مدينة في العالم هي طوكيو التي يبلغ عدد سكانها 39 مليون نسمة. تقع اليابان في أقرب نقاطها على بعد 120 ميلاً من كتلة اليابسة الأوراسية، وهذا من بين الأسباب التي تفسر عدم غزوها بنجاح. يبعد الصينيون حوالي 500 ميل على امتداد بحر الصين الشرقي، وعلى الرغم من وجود أراض روسية أقرب بكثير، إلا أن القوات الروسية عادة ما تكون بعيدة بسبب المناخ البالغ القسوة وقلة عدد السكان الموجودين على امتداد بحر أوخوتسك.

حاول المغول في القرن الثالث عشر الميلادي غزو اليابان بعد اجتياح الصين ومنشوريا وجنوب كوريا، فهُزموا في المرة الأولى، ودمّرت العواصف أسطول سفنهم في محاولتهم الثانية. يقول اليابانيون أن البحار التي تلتقي في المضيق الكوري سفعتها «الرياح الإلهية» التي يسمونها «كاميكازي».

كان التهديد القادم من الغرب والشمال الغربي محدوداً، ولم يكن هناك شيء في الجنوب الشرقي والشرق سوى المحيط الهادئ، ولعل الأخير هو السبب الذي جعل اليابانيين يطلقون على أنفسهم اسم «نيبون» أو «أصل الشمس»، إذ بالنظر إلى الشرق لا شيء يحول بينهم وبين الأفق الذي ترتفع فيه الشمس كل صباح. لقد استمروا على هذا النحو منطوين على أنفسهم، بصرف النظر عن غزوهم كوريا أكثر من مرة، إلى أن وصل العالم الحديث الذي لطالما دفعوه بعيداً، وعندما حدث ذلك، خرجوا لمواجهته.

تختلف الآراء حول الوقت الذي أخذت فيه تلك الجزر اسم اليابان، ولكن هناك رسالة مشهورة أرسلت مما نعرفه باليابان إلى إمبراطور الصين عام 617 م كتب فيها أحد النبلاء اليابانيين البارزين يقول: «هنا أنا إمبراطور البلد تشرق فيه الشمس أرسل رسالة إلى إمبراطور البلد التي تغرب فيه الشمس. هل أنت بخير؟». يسجل التاريخ أن الإمبراطور الصيني غضب مما تصوّره وقاحةً، فقد كانت إمبراطوريته شاسعة، بينما كانت الجزر اليابانية الرئيسية لا تزال متحدة اتحاداً هشاً، وهو وضع لم يتغير حتى القرن السادس عشر تقريباً.

تشكل أراضي الجزر اليابانية دولة أكبر من الكوريتين مجتمعتين، أو بالمعايير الأوروبية أكبر من ألمانيا. ومع ذلك، فإن ثلاثة أرباع الأرض غير صالحة للسكنى، خاصة في المناطق الجبلية، كما إن 13 في المائة فقط من الأراضي صالح للزراعة المكثفة، وهذا ما جعل اليابانيين يعيشون على مقربة من بعضهم بعضاً على امتداد السهول الساحلية وفي مساحات داخلية محدودة، حيث يمكن أن توجد بعض حقول الأرز المتدرجة في التلال. تعني جبال اليابان أن بها مياه غزيرة، لكن الافتقار إلى مهاد الأراضي المنبسطة يعني أيضاً أن أنهارها غير مناسبة للملاحة، وبالتالي التجارة، وهي مشكلة تفاقمت بسبب أن القليل من الأنهار متصبة ببعضها. لذلك كان اليابانيون شعباً بحرياً، يتصلون ويتاجرون على امتداد سواحل جزرهم الكثيرة، ويقومون بالغارة على كوريا، وبعد عزلة دامت قروناً اندفعوا محاولين السيطرة على المنطقة بأكملها.

أصبحت اليابان بحلول بداية القرن العشرين، قوة صناعية تمتلك ثالث أكبر قوة بحرية في العالم، وفي عام 1905 هزمت الروس في حرب خاضتها براً وبحراً. ومع ذلك، فإن جغرافيا دولة الجزر التي ساعدتها على البقاء معزولة لم تعطها بعد ذلك أي خيار سوى الالتحام بالعالم، إلا أن المشكلة أنها اختارت الالتحام به عسكرياً.

خاضت اليابان حربها الأولى ضد الصين، ثم ضد روسيا، لإحباط النفوذ الصيني والروسي في كوريا، فقد كانت تعتبر كوريا، بتعبير مستشارها العسكري البروسي الرائد كليمنس ميكل: «خنجرًا موجّهًا إلى قلب اليابان». أدت السيطرة على شبه الجزيرة إلى التخلّص من التهديد، وأدّت سيطرتها على منشوريا إلى جعل يد الصين، وإلى حد أقل روسيا، قاصرةً عن الوصول إلى «مقبض الخنجر»، بالإضافة طبعاً إلى أن الفحم والحديد الخام في كوريا كان مفيداً كذلك.

كانت اليابان تفتقر إلى الموارد الطبيعية اللازمة لكي تصبح دولة صناعية، لم يكن لديها سوى إمدادات محدودة ومنخفضة الجودة من الفحم، وقليل جداً من النفط، وكميات ضئيلة من الغاز الطبيعي، وإمدادات محدودة من المطاط، مع نقص في الكثير من المعادن. ويظلّ هذا الوضع صحيحاً الآن مثلما كان قبل 100 عام، فعلى الرغم مما اكتُشف من حقول الغاز البحرية، ورواسب المعادن الثمينة تحت سطح البحر، إلا أنها لا تزال أكبر مستورد للغاز الطبيعي في العالم وثالث أكبر مستورد للنفط.

كان التعطش لهذه المنتجات هو الذي تسبب في انقضاض اليابان على الصين في ثلاثينيات القرن العشرين، ثم جنوب شرق آسيا في أوائل الأربعينيات. كانت قد احتلت تايوان بالفعل عام 1895، وأعقب ذلك ضم كوريا عام 1910، كما احتلت منشوريا عام 1932، ثم قامت بغزو الصين عام 1937. ومع سقوط كل قطعة دومينو، كان توسع الإمبراطورية وازدياد عدد السكان اليابانيين يتطلب المزيد من النفط والفحم والمعادن والمطاط، والمزيد من الطعام.

مع انهماك القوى الأوروبية في الحرب في أوروبا، واصلت اليابان غزو الهند الصينية[87] الشمالية. في نهاية المطاف، وجّه لها الأمريكيون الذين كانوا في ذلك الوقت يزودونها بمعظم احتياجاتها من النفط، إنذاراً نهائياً؛ إما الانسحاب أو فرض حظر على النفط. رد اليابانيون بالهجوم على بيرل هاربور ثم اجتاحوا جنوب شرق آسيا، واكتسحوا ميانمار وسنغافورة والفلبين، من بين مناطق أخرى.

مثّل ذلك تحدياً كبيراً، لا على مستوى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية فحسب، ولكن بسبب استيلائها على الموارد الطبيعية التي كانت تغذي صناعات الولايات المتحدة، مثل المطاط. حشد عملاق القرن العشرين قواته لخوض حرب شاملة، ثم لعبت

87 . شبه الجزيرة التي تضم جنوب شرق آسيا، شرق الهند وجنوب الصين، وتشمل فيتنام وميانمار وكمبوديا ولاوس وتايلاند.

جغرافيا اليابان دوراً في وقوع أكبر كارثة لها: هيروشيما وناغازاكي.

شقّ الأمريكيون طريقهم عبر المحيط الهادئ، من جزيرة إلى أخرى، بتكلفة باهظة، وفي الوقت الذي استولوا فيه على أوكيناوا التي تقع في سلسلة جزر ريوكيو بين تايوان واليابان، واجهوا عدواً لا يزال متعصباً على استعداد للدفاع عن جزره الأربع الرئيسية ضد الغزو البرمائي، وكان من المتوقع أن تُمنى الولايات المتحدة بخسائر ضخمة. لو أن التضاريس الجغرافية اليابانية كانت أسهل، فلربما كان الخيار الأمريكي مختلفاً، وربما شق الجيش الأمريكي طريقه إلى طوكيو، لكنهم فضّلوا الخيار النووي، وهكذا ألقوا رعب العصر الجديد على اليابان، وعلى ضمير العالم.

بعد أن انقشع الغبار الذري المشع عن استسلام ياباني استسلاماً كاملاً، ساعدهم الأمريكيون على إعادة البناء، وكان ذلك تحوطاً جزئياً ضد الصين الشيوعية، ثم أظهرت اليابان الجديدة قدرتها القديمة على الابتكار، وأصبحت في غضون ثلاثة عقود قوة اقتصادية عالمية.

مع كل ذلك، فإن تطلعاتها العدوانية السابقة ونزعتها العسكرية لم تختف تماماً. لقد دُفنت للتو تحت أنقاض هيروشيما وناغازاكي نفسية وطنية محطمة. لم يسمح دستور اليابان ما بعد الحرب بأن يكون لها جيش أو قوة جوية أو بحرية، وأمكنها أن تحتفظ بـ«قوات الدفاع الذاتي» التي كانت لعقود مضت ظلاً شاحباً لجيش ما قبل الحرب. حددت اتفاقية ما بعد الحرب التي فرضتها الولايات

المتحدة إنفاق اليابان الدفاعي بنسبة 1 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي، وأبقت عشرات الآلاف من القوات الأمريكية على الأراضي اليابانية، ولا يزال 32000 من قواتها هناك حتى الآن.

لكن بحلول أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، يمكن تلمّس ظهور النزعة القومية اليابانية مرة أخرى على نحو خافت. كان هناك جزء من الجيل الأكبر سناً لم تقبل جسامة جرائم الحرب اليابانية قط، وجزء من الشباب ليس مستعداً لقبول الذنب عن خطايا آبائهم. كما أراد العديد من أطفال أرض الشمس المشرقة مكانهم «الطبيعي» تحت أشعة الشمس في عالم ما بعد الحرب.

أصبحت النظرة المرنة إلى الدستور هي المعيار، وتحولت قوات الدفاع الذاتي اليابانية ببطء إلى وحدة قتالية حديثة. حدث هذا عندما أصبح صعود الصين واضحاً بشكل متزايد، وبالتالي فإن الأمريكيين الذين أدركوا أنهم بحاجة إلى حلفاء عسكريين في منطقة المحيط الهادئ، صاروا على استعداد لقبول اليابان المعاد تسليحها.

في القرن الحالي، غيرت اليابان سياستها الدفاعية بحيث سمحت لقواتها بالقتال جنباً إلى جنب مع حلفائها في الخارج، ومن المتوقع أن يتبع ذلك تغييرات في الدستور لتنظيم هذا التحول على أساس قانوني أكثر صلابة. وفي هذا الإطار، أصدرت اليابان «الوثيقة الاستراتيجية الأمنية» لعام 2013، وهي الأولى التي أسمت فيها عدوها المحتمل، قائلة: «لقد أقدمت الصين على إجراءات يمكن وصفها بأنها محاولات لتغيير الوضع الراهن بالإكراه».

بلغت ميزانية الدفاع اليابانية عام 2015 رقماً قياسياً قدره 42 مليار دولار أمريكي، وزادت مرة أخرى في العام الذي يليه لتصل إلى 44 مليار دولار أمريكي. خُصّص معظم ذلك للمعدات البحرية والجوية، بما في ذلك ست غواصات جديدة وستة مقاتلات «اف35 ستيلث» أمريكية الصنع. وفي ربيع 2015، كشفت طوكيو أيضاً عن «مدمرةٍ حاملةٍ مروحيات»، كما أسمتها. ولم يتطلب الأمر خبيراً عسكرياً لكي يلاحظ أن السفينة كانت كبيرة بحجم حاملات الطائرات اليابانية في الحرب العالمية الثانية، وهي نوع تحظره شروط الاستسلام عام 1945. هذه السفينة يمكن تكييفها لحمل الطائرات ذات الأجنحة الثابتة، ولكن وزير الدفاع أصدر بياناً قال فيه إنهم «لا يفكرون في استخدامها كحاملة طائرات». إن هذا يشبه شراءك دراجة نارية ثم تقول إنك لن تستخدمها كدراجة نارية، لأنها دراجة هوائية. النتيجة هي أن اليابانيين لديهم الآن حاملة طائرات.

إن الأموال التي أُنفقت على ذلك، وعلى مجموعة أخرى من «الأدوات» الجديدة اللامعة بيانٌ واضح النوايا، فالبنية التحتية العسكرية في أوكيناوا، وهي التي تحرس مداخل الجزر الرئيسية، يجري الآن تحديثها، وسيسمح هذا لليابان من ناحية أخرى بقدر أكبر من المرونة للقيام بدورياتها في «منطقة الدفاع الجوي» التي يتداخل جزء منها مع منطقة الدفاع الصينية بعد أن أعلنت بكين عن توسيعها عام 2013.

تغطي منطقتا الدفاع الجزر المسماة سينكاكو (باللغة اليابانية) أو دياويو (باللغة الصينية)، وهي التي تسيطر عليها اليابان وتطالب بها الصين، كما أنها تشكل جزءاً من سلسلة جزر ريوكيو التي تعتبر حساسة بشكل خاص، لأن أي قوة معادية يجب أن تمر بالجزر في طريقها إلى المناطق الجيوية اليابانية. إنها تمنح اليابان الكثير من المساحة البحرية الإقليمية، وقد تحتوي على حقول غاز ونفط تحت الماء قابلة للاستغلال، وبالتالي فإن طوكيو تعتزم التمسك بها بكل الوسائل الضرورية.

تغطي «منطقة الدفاع الجوي» الصينية الموسّعة في بحر الصين الشرقي الأراضي التي تطالب بها الصين واليابان وتايوان وكوريا الجنوبية. عندما قالت بكين إن أي طائرة تحلق عبر المنطقة يجب أن تحدّد هويتها أو «تواجه إجراءات دفاعية»، ردّت اليابان وكوريا الجنوبية والولايات المتحدة بالتحليق عبرها دون أن تقوم بذلك. لم يكن هناك رد فعل عدائي من الصين، لكن هذه قضية بالإمكان تحويلها إلى إنذار نهائي في الوقت الذي تختاره بكين.

تطالب طوكيو كذلك بالسيادة على جزر الكوريل في أقصى شمال اليابان، قبالة هوكايدو، وهي الجزر التي خسرتها أمام الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ولا تزال تحت السيطرة الروسية حتى الآن، وبينما تفضل روسيا عدم مناقشة الأمر، فإن نقاشه بالنسبة إلى اليابان ليس بالأهمية نفسها التي نراها في نزاعاتها مع الصين. يوجد في جزر الكوريل ما مجموعه 19000 نسمة تقريباً،

وعلى الرغم من أن الجزر تقع في مناطق صيد خصبة، إلا أن المنطقة ليست ذات أهمية استراتيجية مهمة، ويضمن هذه الوضع أن تحافظ روسيا واليابان معاً على علاقة فاترة بينهما، لكن في ظل هذا الفتور اضمحلّت قضية الجزر إلى حد كبير.

إن الصين هي التي تُبقي القادة اليابانيين متوجسين طوال الوقت، وتجعلهم أكثر اقتراباً من الولايات المتحدة، دبلوماسياً وعسكرياً. وإذا كان العديد من اليابانيين، خاصة في أوكيناوا، يشعرون بالاستياء من الوجود العسكري الأمريكي، فإن قوة الصين، بالإضافة إلى انخفاض عدد السكان اليابانيين، من الأمور التي ترجّح ضمان استمرار العلاقة بين الولايات المتحدة واليابان، وإن كان ذلك على أسس أكثر تعادلاً بينهما. إن خبراء الإحصاء اليابانيين يخشون أن يتقلص عدد السكان إلى أقل من 100 مليون بحلول منتصف القرن، وإذا استمر معدل المواليد الحالي، فمن الممكن أن ينخفض عدد السكان بحلول عام 2110 إلى أقل من 50 مليوناً عما كان عليه في عام 1910. وتحاول الحكومات اليابانية أن تقوم بمجموعة متنوعة من الإجراءات تغيير مسار هذا التراجع. هناك مثال حديث يتلخص في استخدام ملايين الدولارات من أموال دافعي الضرائب لتمويل خدمة التعارف والتوفيق بين الأزواج الشباب، ويجري ترتيب حفلات «كونكاتسو» المدعومة تشجيعاً لغير المتزوجين من الرجال والنساء للقاء وتناول الطعام والشراب، والهدف في النهاية: إنجاب الأطفال. الهجرة كذلك، حلّ آخر ممكن، ولكن اليابان لا تزال مجتمعاً منعزلاً نسبياً، والهجرة

مسألة لا يرحب بها السكان. وبالنظر إلى أن الصين التي تبدو حازمة بشكل متزايد، يصل عدد سكانها إلى 1.4 مليار نسمة، فإن اليابان، وهي تعيد تسليح نفسها دون أن تتخلى عن نظرتها المتشددة إلى حد ما، في حاجة إلى أن تحيط نفسها بالأصدقاء. وهكذا فإن الأمريكيين باقون في كل من كوريا واليابان، وتوجد الآن علاقة ثلاثية تجمعهم، وهو ما أكّدته اتفاقية الاستخبارات المشار إليها. إن لدى اليابان وكوريا الجنوبية الكثير مما يتجادلان بشأنه، لكنهما تتفقان على أن قلقهما المشترك بشأن الصين وكوريا الشمالية يتغلب على مشاكلهما الخاصة، وحتى إذا استمرتا قدماً في حل مشكلة مثل كوريا، فإن قضية الصين ستظل قائمة، وهذا يعني أن الأسطول الأمريكي السابع سيبقى في خليج طوكيو، وأن مشاة البحرية الأمريكية سيبقون في أوكيناوا، لحراسة الممرات البحرية من/ إلى المحيط الهادئ وبحر الصين. إنها المياه التي من المتوقع أن تصبح قاسية خشنةً.

الفصل التاسع

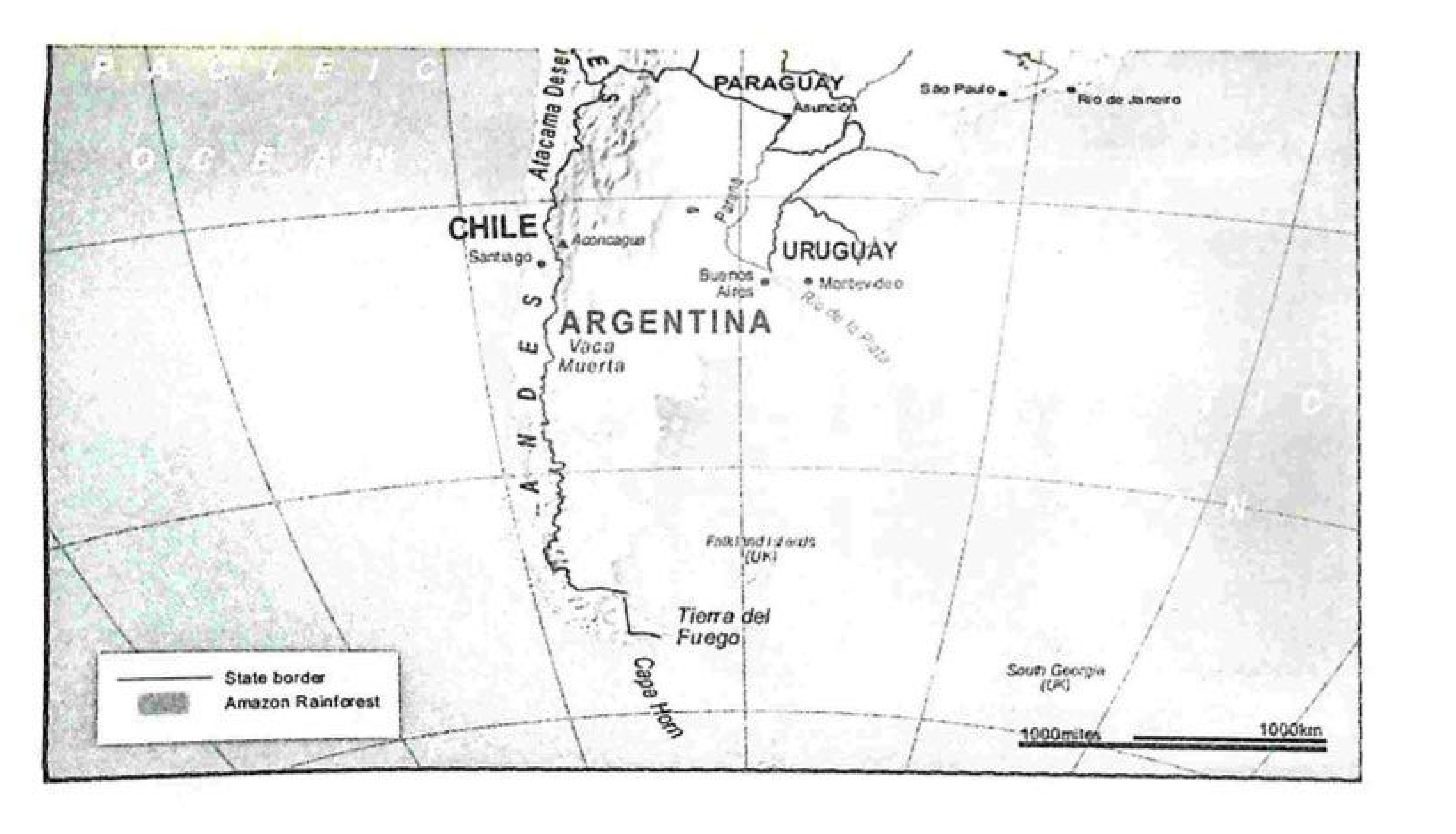
أمريكا الجنوبية

«نحب أن نُسمَّى «قارة الأمل»...

هذا الأمل أشبه بوعد السماء،

إنه دينٌ مؤجّل الدفع دائماً».

بابلو نيرودا


PARAGUAY
Asunción
São Paulo
Rio de Janeiro
Atacama Desert
CHILE
Santiago
Aconcagua
Paraná
URUGUAY
Buenos Aires
Montevideo
Río de la Plata
ARGENTINA
Vaca Muerta
ANDES
Falkland Islands (UK)
Tierra del Fuego
Cape Horn
South Georgia (UK)
State border
Amazon Rainforest
1000miles
1000km



ATLANTIC OCEAN
Caribbean Sea
Caracas
VENEZUELA
Georgetown
Paramaribo
Cayenne
GUYANA
SURINAM
FRENCH GUIANA (FRANCE)
Bogota
COLOMBIA
Galapagos Islands (ECUADOR)
Quito
ECUADOR
ANDES
Amazon
Amazon Rainforest
BRAZIL
Cerrado
PERU
Lima
Lake Titicaca
La Paz
BOLIVIA
Sucre
Brasilia


مكتبة العولقي
– شبوة اليمن –

أمريكا «اللاتينية»[88]، ولا سيما جنوبها، دليل على أنه يمكنك جلب معرفة العالم القديم وتقنياته إلى العالم الجديد، ولكن إذا كانت الجغرافيا ضدك، فلن تحظى سوى بنجاح محدود، خاصةً إذا انتهجت سياسة خاطئة. ومثلما أن جغرافيا الولايات المتحدة ساعدتها على أن تصبح قوة عظمى، فإن الدول العشرين الواقعة في الجنوب تؤكّد أن لا أحد منها سينهض متحدياً عملاق أمريكا الشمالية على نحو جاد خلال هذا القرن، كما أنها لن تجتمع معاً لتقوم بذلك جماعياً.

تدخّلت حدود المجالات الجغرافية في أمريكا الجنوبية منذ البداية في تشكيل دولها القومية. في الولايات المتحدة، بمجرد انتزاع الأرض من السكان الأصليين، بيع جزء كبير منها أو مُنح لصغار الملاك، وعلى النقيض من ذلك، فُرضت في أمريكا الجنوبية ثقافة العالم القديم حيث ملاك الأراضي الأقوياء وحيث الأقنان، ما أدى

88. يستخدم المؤلف مصطلح «أمريكا اللاتينية» معظم الأحيان و«أمريكا الجنوبية» في بعض الأحيان، ولكنه يقصد «أمريكا الجنوبية» في كل الأحوال، والأخير هو المصطلح الذي نفضل استخدامه في هذه الترجمة، فأمريكا اللاتينية كيان ثقافي يضم مجموعة دول أمريكا الجنوبية التي تتحدث لغات تنحدر من اللغة اللاتينية، بينما يدل مصطلح «أمريكا الجنوبية» على جميع البلدان التي تقع جنوب أمريكا الشمالية، سواء كانت لغاتها ذات أصول لاتينية (مثل الإسبانية والبرتغالية والفرنسية) أو غير لاتينية (مثل الهولندية والإنجليزية ولغات السكان الأصلية).

إلى ظهور التفاوت عدم المساواة. بالإضافة إلى ذلك، تسبّب المستوطنون الأوروبيون في مشكلة جغرافية أخرى تمنع العديد من البلدان حتى يومنا هذا من تطوير إمكاناتها الكاملة، حيث لازموا السواحل، خاصة في المناطق التي كان ينتشر فيها البعوض والأمراض (كما رأينا سابقاً في إفريقيا). لذلك كانت معظم المدن الكبرى في تلك البلدان، وهي العواصم غالباً، قريبة من السواحل، كما طُوّرت جميع الطرق في الداخل لكي تكون متصلةً بالعواصم، لا ببعضها بعضاً.

في بعض الحالات، كما في بيرو والأرجنتين مثلاً، تضم المنطقة الحضرية الكبرى في العاصمة أكثر من 30 في المائة من سكان البلد. لقد ركز المستعمرون على إخراج ثروة كل منطقة إلى الساحل وإلى الأسواق الخارجية، وحتى بعد الاستقلال، فإن النخب الساحلية ذات الغالبية الأوروبية فشلت في الاستثمار في المناطق الداخلية، وتبقى المراكز السكانية الموجودة في الداخل مرتبطة ببعضها على نحو سيئ.

في بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، كان من المألوف بين العديد من قادة الأعمال والأساتذة ومحللي وسائل الإعلام أن يجادلوا بعاطفة واضحة بأن العالم الآن في فجر «عقد أمريكا الجنوبية»، لكن الفجر لم يسطع. إنها تحتوي على الكثير من الإمكانات التي لم تتحقّق بعد، ولسوف تواصل صراعها ضد تأثيرات الطبيعة والتاريخ.

تنمو المكسيك لتصبح قوة إقليمية، لكنها ستظل دائماً كما هي: أراضيها الصحراوية القاحلة في الشمال، وجبالها في الشرق والغرب، وغاباتها في الجنوب، وكل ذلك يحد فعلياً من نموها الاقتصادي. البرازيل في الطرف الآخر ظهرت على المسرح العالمي، لكن مناطقها الداخلية ستبقى معزولة عن بعضها بعضاً. أما والأرجنتين وتشيلي، فعلى الرغم من ثرواتهما من الموارد الطبيعية، ستظلان بعيدتان عن نيويورك وواشنطن أكثر من باريس أو لندن.

بعد مائتي عام من بدء النضال من أجل الاستقلال، ظلت دول أمريكا الجنوبية متخلفة كثيراً عن أمريكا الشمالية وعن أوروبا. إن إجمالي عدد سكانها (بما في ذلك منطقة البحر الكاريبي) يبلغ أكثر من 600 مليون نسمة، ومع ذلك فإن ناتجها المحلي الإجمالي يعادل الناتج المحلي الإجمالي لفرنسا والمملكة المتحدة اللتين تعدّان معاً حوالي 133 مليون نسمة. لقد قطعت أمريكا الجنوبية شوطاً طويلاً منذ الاستعمار والرق، وما زال أمامها طريق طويل يجب أن تعبره.

تبدأ أمريكا الجنوبية عند الحدود المكسيكية مع الولايات المتحدة الأمريكية وتمتد جنوباً لمسافة 7000 ميل عبر أمريكا الوسطى، ثم أمريكا الجنوبية، قبل أن تنتهي في تيرا ديل فويغو في كيب هورن حيث يلتقي محيطا العالم العظيمان، المحيط الهادئ والمحيط الأطلسي، وتبلغ مساحتها في أوسع نطاق لها، من الشرق إلى الغرب، أي من البرازيل إلى بيرو، 3200 ميل. وعلى جانبها الغربي يوجد المحيط الهادئ، وعلى الجانب الشرقي خليج المكسيك والبحر

الكاريبي والمحيط الأطلسي. ولا يوجد على امتداد سواحلها الكثيرة أي من الموانئ الطبيعية العميقة، الأمر الذي يحدّ من التبادل التجاري.

أمريكا الوسطى منطقة جبلية بها وديان عميقة، ولا يتجاوز عرضها في أضيق نقاطها 120 ميلاً، وتمتد فيها بالتوازي مع المحيط الهادئ أطول سلسلة جبال مستمرة في العالم، هي جبال الأنديز، على مسافة 4500 ميل، وتتساقط الثلوج على امتدادها بالكامل ما يجعلها متعذرة العبور في الغالب، وهو ما يؤدي إلى فصل العديد من مناطق غرب القارة عن شرقها. توجد أكثر النقاط ارتفاعاً في نصف نطاقها الغربي، في جبل أكونكاغوا الذي يصل إلى 22،843 قدماً، وتعدّ المياه المنسابة من سلسلة الجبال هذه مصدر الطاقة الكهرومائية في دول الأنديز: تشيلي وبيرو والإكوادور وكولومبيا وفنزويلا. وأخيراً ينحدر مستوى الأرض، فتظهر الغابات والأنهار الجليدية، وصولاً إلى أرخبيل التشيلي، وهناك ينتهي امتدد الأرض. تهيمن البرازيل على الجانب الشرقي من أمريكا الجنوبية الذي يعبره نهر الأمازون، وهو ثاني أطول نهر في العالم بعد نهر النيل.

أحد الأشياء القليلة التي تشترك فيها بلدان أمريكا الجنوبية هي اللغة الإسبانية، وهي لغة لاتينية الأصل يتحدثها معظمهم، ولكن لغة البرازيل الرسمية هي البرتغالية، ولغة غويانا-الفرنسية هي

الفرنسية. لكن هذا الارتباط اللغوي[89] يخفي ما في القارة من اختلافات تهيمن على خمس مناطق مناخية مختلفة، فمهاد الأراضي المنبسطة النسبيّة شرق جبال الأنديز والمناخ المعتدل في الثلث الأدنى من أمريكا الجنوبية، المعروف باسم المخروط الجنوبي، تتناقض بوضوح مع الجبال والغابات المنتشرة شمالاً، وتمكّن من خفض تكاليف الزراعة والبناء، ما يجعلها جزءاً من المناطق الأكثر ربحيةً في القارة بأكملها، بينما تواجه البرازيل، كما سنرى، صعوبة في نقل البضائع عبر سوقها المحلي.

يميل الأكاديميون والصحفيون إلى الكتابة عن أن القارة «على مفترق طرق»، كأن الأوان قد حان أخيراً لتبدأ صنع مستقبلها العظيم. أود أن أزعم هنا، أنها من الناحية الجغرافية ليست «على مفترق طرق» بقدر ما هي «في قاع العالم». هناك الكثير مما يحدث في جميع أنحاء مساحتها الشاسعة، ولكن المشكلة هي أن ذلك لا يعود بالنفع على القارة نفسها. يمكن اعتبار هذا وجهة نظر نصف الكرة الشمالي، لكنه أيضاً وجهة نظر المكان الذي توجد فيه القوى الاقتصادية والعسكرية والدبلوماسية الرئيسية.

على الرغم من بُعدها عن المراكز السكانية الرئيسية في التاريخ، كانت هناك أمم تعيش منذ حوالي 15000 عام جنوب ما يُعرف

---

89 . ليس تماماً، ولكن نستطيع الحديث عن ذلك في قسمين، إذ بينما يتحدث الأسبانية 214 مليوناً، فإن البرتغالية يتحدثها 212 مليوناً. هذا بالإضافة إلى لغات رسمية أخرى مثل الهولندية في سورينام، والإنجليزية في غيانا وجزر فوكلاند وجورجيا الجنوبية.

الآن بحدود المكسيك والولايات المتحدة. يُعتقد أن أصولهم تعود إلى روسيا وأنهم عبروا مضيق بيرينغ سيراً على الأقدام في وقت لم يكن فيه المضيق قد غمره الماء. أي إن سكان القارة اليوم هم مزيج من الأوروبيين والأفارقة والقبائل الأصلية والسكان المستيزو الذين ينحدرون من أصول أوروبية وأمريكية، ويمكن تتبع هذا المزيج في التاريخ وصولاً إلى «معاهدة توردِيسيلاس» التي وقعتها إسبانيا والبرتغال عام 1494، وهي واحدة من الأمثلة المبكرة عن قيام المستعمرين الأوروبيين برسم خطوط حدودية على خرائط الأماكن البعيدة التي لم يكونوا قد عرفوا عنها سوى القليل، أو ربما لا شيء، كما في هذه الحالة. عندما انطلقت القوتان البحريتان الأوروبيتان العظيمتان غرباً لاستكشاف المحيطات، اتفقتا على أن أي أرض يتم اكتشافها خارج أوروبا سيتم تقاسمها بينهما، ووافق البابا على ذلك... بقية القصة تاريخٌ مأساوي تم فيه القضاء على الغالبية العظمى من سكان الأراضي التي تسمى الآن أمريكا الجنوبية.

بدأت حركات الاستقلال في أوائل القرن التاسع عشر، بقيادة سيمون بوليفار من فنزويلا، وخوسيه دي سان مارتين من الأرجنتين. إن بوليفار تحديداً اسم نُقش في الوعي الجماعي في أمريكا الجنوبية، وقد سميت بوليفيا باسمها هذا تكريماً له، وترتبط البلدان ذات الميول اليسارية في القارة بشكل عام بأيديولوجيا «بوليفارية» ضد الولايات المتحدة، وهي مجموعة متذبذبة من الأفكار التي تناهض الاستعمار وتؤيد الاشتراكية وغالباً ما تتلاشى

في القومية عندما يحبذ ذلك السياسيون الذين يتبنونها.

في القرن التاسع عشر، تفككت العديد من الدول المستقلة حديثاً، إما بسبب الصراع الأهلي أو بسبب الحروب مع دول مجاورة، ولكن بحلول نهاية ذلك القرن، تم تعيين حدود مختلف الدول تقريباً. ثم انطلقت أغنى ثلاث دول، أي البرازيل والأرجنتين وتشيلي، في سباق تسلح بحري مكّلف ومدمّر، ما أعاق تطور الدول الثلاث. لا تزال هناك خلافات حدودية في جميع أنحاء القارة، لكن نمو الديمقراطية يعني أن معظمها إما مجمّد أو أن هناك محاولات لحله دبلوماسياً.

إن العلاقة بين بوليفيا وتشيلي متأزمة جداً، وهي تعود إلى حرب المحيط الهادئ عام 1879، وفيها فقدت بوليفيا جزءاً كبيراً من أراضيها، بما في ذلك 250 ميلاً من سواحلها، وصارت منذ ذلك الحين محاطة باليابسة لا ساحل لها، ولم تتعاف من هذه الخسارة قط، وهو ما يفسر جزئياً سبب كونها من بين أفقر دول أمريكا الجنوبية. كما أدى هذا بدوره إلى تفاقم الانقسام الحاد بين سكان الأراضي المنخفضة ومعظمهم من الأوروبيين، والسكان الأصليين الذين يعيشون غالباً في المرتفعات.

لم يشف الزمن الجراح التي بينهم، ولا التي بين البلدين. وعلى الرغم من حقيقة أن بوليفيا لديها ثالث أكبر احتياطيات الغاز الطبيعي في أمريكا الجنوبية، فإنها لن تبيع شيئاً منها لتشيلي التي تحتاج إلى مزوّد موثوق. لقد طُرد اثنان من الرؤساء البوليفيين من

منصبيهما بعد أن تلاعبا بالفكرة، أما الرئيس الحالي، إيفو موراليس، فينتهج سياسة «الغاز في مقابل الساحل» باعتبارها محور صفقة تصدير الغاز إلى تشيلي، ولكن تشيلي ترفض ذلك على الرغم من حاجتها للطاقة. إن الكبرياء الوطني وحاجة البلدين الجغرافية تفوقان حاجتهما للتسوية الدبلوماسية.

ثمة نزاع حدودي آخر يعود إلى القرن التاسع عشر يشير إلى حدود إقليم بليز البريطاني وغواتيمالا المجاورة. إنها مثلما رأينا في إفريقيا والشرق الأوسط، خطوط مستقيمة رسمها البريطانيون. تطالب غواتيمالا بمنطقة بليز جزءاً من أراضيها السيادية، لكنها - على عكس بوليفيا- غير مستعدة للدفع بهذه القضية. وتتنازع تشيلي والأرجنتين حول الطريق المائي لقناة بيغل، وتطالب فنزويلا بنصف مساحة غيانا، ولدى الإكوادور مطالب تاريخية في بيرو، وهذا المثال الأخير أحد أخطر النزاعات على الأراضي في القارة، وقد أدى إلى نشوب ثلاث حروب حدودية على مدى السنوات الخمس والسبعين الماضية، كان آخرها عام 1995، ولكن نمو الديمقراطية أدى مرة أخرى إلى خفض حدة التوترات.

شهد النصف الثاني من القرن العشرين تحول أمريكا الوسطى والجنوبية إلى ساحة قتال بالوكالة للحرب الباردة مصحوبة بانقلابات وديكتاتوريات عسكرية وانتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان، كما في نيكاراغوا على سبيل المثال. ثم سمحت نهاية الحرب الباردة للعديد من الدول بالاتجاه إلى الديمقراطية، ومقارنة

بأحداث القرن العشرين، فإن العلاقات بين هذه الدول أصبحت مستقرة نسبياً في الوقت الحالي.

أغلب الأمريكيين الجنوبيين، أو بدءاً بجنوب بنما على الأقل، يعيشون في الغالب على السواحل الغربية والشرقية أو بالقرب منها، مع كثافة سكانية قليلة في المناطق الداخلية الباردة أقصى الجنوب. أمريكا الجنوبية هي في الواقع قارة جوفاء ديموغرافياً، وغالباً ما يُشار إلى خطها الساحلي باسم «الحافة المأهولة». هذا ليس صحيحاً تماماً بالنسبة إلى أمريكا الوسطى، وكذلك المكسيك بشكل خاص، حيث يتوزع السكان بنسب متعادلة، لكن المكسيك تحديداً تغطيها تضاريس صعبة، ما يحدّ من طموحاتها وسياساتها الخارجية.

لدى المكسيك في أقصى الشمال حدود مع الولايات المتحدة يصل طولها إلى 2000 ميل، وكلها صحراوية تقريباً، والأرض هناك جافّة شظِفة معظمها غير مأهول، وهي تقوم بدور المنطقة العازلة بينها وبين جارتها الشمالية العملاقة، لكنها منطقة عازلة أكثر فائدة للأمريكيين من المكسيكيين، نظراً لما بين الجانبين من تفاوت تكنولوجي. أما من الناحية العسكرية فإن القوات الأمريكية وحدها هي القادرة على شنّ غزو كبير عبر هذه الصحراء، بينما ستُدمّر أي قوة قادمة من الاتجاه الآخر. وهي مفيدة أيضاً من حيث هي حاجز يحول دون الدخول إلى الولايات المتحدة بطريقة غير قانونية، إلا أنها ليست مستحيلة الاختراق، وهذه مشكلة يتعين على الإدارات الأمريكية المتعاقبة التعامل معها. وقد وصل الرئيس

ترامب إلى السلطة بعد أن عمد جزئياً إلى إثارة مخاوف الأمريكيين من الهجرة غير الشرعية، مع الوعد ببناء جدار على امتداد الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك[90]، ولكن خططه لتنفيذ للجدار كانت معيبة، حيث تظلّ هناك طرق للالتفاف أو مسالك تحت سطح الأرض أو حتى عبر الجدار، كما يظل هناك خيار آخر هو رشوة الحراس، أو مجرد اجتياز الحدود لقضاء العطلة وعدم العودة. ولكن الجدار لن يساعد على تقليل التدّفق إلى الداخل فحسب، بل سيكون رمزاً عدائياً يفصح عن النوايا يوجه رسالة واضحة: «لا تأتوا»:

يعلم جميع المكسيكيين أن الأرض التي أصبحت الآن تكساس وكاليفورنيا ونيو مكسيكو وأريزونا، كانت جزءاً من المكسيك قبل حرب 1846-1848 التي دارت بينهم وبين الولايات المتحدة، حيث أدى الصراع إلى التنازل عن نصف أراضي المكسيك للولايات المتحدة. ومع ذلك، لا توجد الآن حركة سياسية جادة لاستعادة المنطقة، كما لا يوجد نزاع حدودي ملح بين البلدين. لقد تنازعتا طوال معظم القرن العشرين، على قطعة صغيرة من الأرض بعد أن غيّر نهر «ريو غراندي» مساره في خمسينيات القرن التاسع عشر، ولكنهما اتفقتا عام 1967 على أن المنطقة تعدّ قانونياً جزء من

---

90 . ألغي العديد من من عقود بناء الجدار الحدودي في أكتوبر 2021، وأعادت الحكومة بعض الأراضي إلى مالكها. وفي يوليو 2022، أعلنت إدارة بايدن أنها ستملأ أربع فجوات واسعة في أريزونا، بالقرب من يوما، وهي منطقة تحتوي على بعض أنشط الممرات العبور غير القانوني.

المكسيك.

من المرجح بحلول منتصف القرن الحادي والعشرين أن يكون ذوي الأصول الإسبانية[91] أكبر مجموعة عرقية في الولايات الأمريكية الأربع المذكورة أعلاه، وسيكون الكثير منهم من أصل مكسيكي، وقد تكون هناك في نهاية المطاف حركات سياسية ناطقة بالإسبانية على جانبي الحدود الأمريكية-المكسيكية تدعو إلى إعادة التوحيد، ولكن الحقيقة هي أن الكثير من الأمريكيين- اللاتينيين (ذوي الأصول الإسبانية) لن يكون لديهم تراث مكسيكي، كما أن المكسيك على الأرجح لن يكون لديها أي شيء يماثل معايير الحياة السائدة في الولايات المتحدة. كما إن الحكومة المكسيكية تكافح من أجل السيطرة على أراضيها الحالية، ولن تكون في وضع يمكّنها من السيطرة على المزيد في المستقبل المنظور. إن قدر المكسيك هو أن تعيش في ظل الولايات المتحدة، وعلى هذا النحو ستلعب دائماً دور الطرف التابع في العلاقات الثنائية بينهما، فهي تفتقر إلى قوة بحرية قادرة على تأمين خليج المكسيك أو الاندفاع باتجاه المحيط الأطلسي، ومن هنا فإنها تعتمد على البحرية الأمريكية لضمان بقاء الممرات البحرية مفتوحة وآمنة.

لقد أقامت شركات خاصة من كلا البلدين مصانع إلى الجنوب مباشرة من الحدود، لخفض تكاليف العمالة والنقل، لكن المنطقة

---

91 . الهسبانو Hispanics: المنحدرين من أصول أسبانية، وسكان المستعمرات الأسبانية السابقة.

ذات طبيعة عدائية وغير مناسبة للتوطّن، وستظل أرضاً عازلة يواصل الكثيرون من فقراء أمريكا اللاتينية عبورها ساعين إلى الدخول، بشكل قانوني أو غير قانوني، إلى أرض الميعاد.

إن سلاسل الجبال الرئيسية في المكسيك، سييرا مادريس، تهيمن على غرب البلاد وشرقها بينما تمتد هضبة بينهما. أما العاصمة، مكسيكو سيتي، فهي في الجنوب، في وادي المكسيك، وتعدّ إحدى كبريات العواصم في العالم بتعداد سكاني يبلغ حوالي 21 مليون نسمة.

على المنحدرات الغربية من المرتفعات والوديان، تكون التربة فقيرة، والأنهار ذات فائدة محدودة في نقل البضائع إلى السوق. أما على المنحدرات الشرقية، فالأرض أكثر خصوبة، لكن التضاريس الوعرة لا تزال تمنع المكسيك من تحقيق التطور الذي تطمح إليه، وإلى الجنوب تقع الحدود مع بليز وغواتيمالا. إن المكسيك لا تهتم بالتوسع جنوباً لأن الأرض ترتفع بسرعة لتصبح نوعاً من التضاريس الجبلية التي يصعب غزوها أو السيطرة عليها، ولن يؤدي التوسع إلى أي من البلدين إلى زيادة الكمية المحدودة من الأراضي المربحة التي تمتلكها المكسيك بالفعل، وهي ليست ذات طموحات أيديولوجية إقليمية، وتركز بدلاً من ذلك على محاولة تطوير صناعتها النفطية المحدودة وجذب المزيد من الاستثمارات إلى مصانعها. والمكسيك، إلى جانب ذلك، لديها ما يكفي من المشاكل الداخلية التي تحاول معالجتها، دون التطلّع إلى الدخول في أي

مغامرات خارجية... ربما ليست هناك مغامرة أكبر من دورها في إشباع شهية الأمريكيين الشرهة للمخدرات.

لطالما كانت الحدود المكسيكية ملاذاً للمهربين، لكنها لم تكن أكثر مما كانت عليه في السنوات العشرين الماضية، وهذه كانت نتيجة مباشرة لسياسة الحكومة الأمريكية في كولومبيا، على بعد 1500 ميل إلى الجنوب.

كان الرئيس نيكسون في السبعينيات هو أول من أعلن «الحرب على المخدرات» التي ظلّت، مثلها مثل «الحرب على الإرهاب»، مفهوماً غامضاً إلى حد ما لا يمكن تحقيق النصر فيه. ومع ذلك، كانت أوائل التسعينيات هي التي قامت فيها واشنطن بنقل الحرب مباشرة إلى عصابات المخدرات الكولومبية عن طريق مساعدة علنية قدمتها للحكومة الكولومبية، كما نجحت في إغلاق العديد من طرق المخدرات الجوية والبحرية من كولومبيا إلى الولايات المتحدة.

كان ردّ عصابات المخدرات (الكارتلات) إنشاء طريق بري يمر عبر أمريكا الوسطى ثم المكسيك، ومنها إلى جنوب غرب الولايات المتحدة. يتبع المسار جزئياً الطريق السريع الذي يعبر القارتين، ويمتد من الجنوب إلى الشمال، وقد صُمّم في الأصل لنقل البضائع في الاتجاهين مروراً بعدد متنزع من البلدان، وهو الذي يستخدم الآن لنقل المخدرات باتجاه الشمال إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أدى ذلك بالمقابل إلى قيام عصابات المخدرات المكسيكية

بالتشارك وتنسيق العمل بتمهيد الطرق وتصنيع منتجاتهم، وأشعلت برامجهم التي تقدر بمليارات الدولارات حروباً محلية على النفوذ، حيث استخدم الفائزون قوتهم الجديدة وأموالهم للتسلل إلى قوات الشرطة والجيش المكسيكية وإفسادها، والتغلغل في النخب السياسية ورجال الأعمال.

هناك أوجه تشابه في ذلك مع تجارة الهيروين في أفغانستان، فقد ردّ العديد من المزارعين الأفغان الذين يزرعون الخشخاش على محاولات الناتو لتدمير طرقهم التقليدية في كسب العيش إما بحمل السلاح أو دعم طالبان. ربما كانت سياسة الحكومة أن تشن «حربا على المخدرات»، لكن هذا لا يعني أن الأوامر تنفذ على المستوى الإقليمي، وهو ما اخترقه أباطرة المخدرات الأفغان. وكذلك كان الحال في المكسيك.

لم يكن للحكومات المتعاقبة في مكسيكو سيتي، عبر التاريخ قبضة قوية على البلاد. وقد أصبح لخصومها من عصابات المخدرات في الوقت الحالي أجنحة شبه عسكرية مسلحة جيداً أشبه بتسليح قوات الدولة، وغالباً ما تكون ذات رواتب أفضل وأكثر تحفيزاً، وفي العديد من المناطق تعتبر مصدراً لتوظيف الأفراد من عموم الناس. إن المبالغ الهائلة من الأموال التي تجنيها العصابات تتحرّك الآن في جميع أنحاء البلاد، ويغسل الكثير منها عن طريق ما يبدو ظاهرياً أنها أعمال مشروعة.

إن المكسيك الآن في قبضة ما يشبه الحرب الأهلية؛ تحاول

الكارتلات السيطرة على الأراضي من خلال الترهيب، وتحاول الحكومة التظاهر بأنها مسؤولة عن سيادة القانون، بينها يُقتل مئات المدنيين العالقين في الوسط. ومن بين أكثر الأحداث ترويعاً قتل ثلاثة وأربعين طالباً معلّماً (حسب التقديرات) على يد إحدى العصابات عام 2014، وهو فعل أصاب البلاد بصدمة كبيرة وحفّز السلطات، لكنه يبدو في النهاية «مجرد» علامة فظيعة أخرى على ما سيكون صراعاً طويلاً.

لقد تم ترسيخ مسار الإمداد البري، ولا يظهر الطلب في الولايات المتحدة سوى القليل من علامات التقلّص، إن جميع الحكومات المكسيكية تحاول البقاء على موقف صحيح من جارتها القوية، كما استجابت للضغط الأمريكي بشأن شنّ حربها الخاصة على المخدرات. هنا تكمن الأحجية، فالمكسيك تستفيد من توفير السلع الاستهلاكية لأمريكا، وطالما أن الأمريكيين يستهلكون المخدرات، فسيوفرها المكسيكيون تباعاً، والفكرة هنا هي صنع أشياء رخيصة لإنتاجها وبيعها بأسعار أعلى من تلك توفرها التجارة المشروعة. بدون وجود المخدرات ستكون البلاد أفقر مما هي عليه الآن، لأن كمية هائلة من الأموال الأجنبية سيتم اقتطاعها، أما مع المخدرات، فسيكون الأمر خلاف ذلك وأكثر عنفاً أيضاً، وينطبق الشيء نفسه على بعض البلدان التي تقع جنوب المكسيك.

ليس لدى أمريكا الوسطى سوى القليل مما تتيحه لها الجغرافيا، ولكنه هناك شيء يؤخذ بالاعتبار، هو مساحتها الضيقة. وقد كانت

الدولة الوحيدة التي استفادت من ذلك هي بنما، أما مع وصول أموال جديدة من الصين فإن ذلك على وشك أن يتغير.



يمكن أن تشهد أمريكا الوسطى العديد من التغييرات في المناطق التي تتلقى استثمارات صينية، مثل تطوير قناة نيكاراغوا الكبرى.

تعني التكنولوجيا الحديثة أن الصينيين إذا ألقوا نظرة واحدة على صور الأقمار الصناعية يستطيعون رؤية الفرص التجارية التي يمكن أن يجلبها هذا الامتداد الضيق من الأرض.

اضطر المستكشف الإسباني فاسكو نونيز دي بالبوا عام 1513 إلى الإبحار عبر المحيط الأطلسي والنزول في ما يعرف الآن باسم بنما، ثم قام برحلة عبر الأدغال وفوق الجبال قبل أن يرى أمامه محيطاً شاسعاً آخر جهة المحيط الهادئ. كانت مزايا الربط بين المحيطين واضحة، ولكن مرت أربعمائة سنة وسنة قبل أن تلتحق

التكنولوجيا بالجغرافيا. في عام 1914، تم افتتاح قناة بنما التي بُنيت حديثاً، وهي بطول 50 ميلاً، وتسيطر عليها الولايات المتحدة، ما يوفر رحلة طولها 8000 ميل من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ ويؤدي إلى نمو اقتصادي في منطقة القناة.

كانت بنما قد تحكّمت في القناة منذ 1999، لكنها تعتبر ممراً مائياً دولياً محايداً تحت حراسة البحرية الأمريكية والبنميّة، وهنا تكمن مشكلة بالنسبة إلى الصينيين.

دولتا بنما والولايات المتحدة صديقتان في الواقع، وقد دفعت علاقتهما الوثيقة فنزويلا إلى قطع علاقاتها مع بنما لفترة وجيزة عام 2014، واصفة إياها بـ«خادم الولايات المتحدة المطيع». إن تأثير خطاب الحقبة الثورية البوليفارية في البلد المحاصر بشكل متزايد تخفّ حدّته بمعرفة أن الولايات المتحدة هي الشريك التجاري الأكثر أهمية لفنزويلا، وأن فنزويلا تزوّد الولايات المتحدة بحوالي 10 في المائة من وارداتها النفطية. ومع ذلك، فإن القمع الوحشي الذي مارسته فنزويلا ضد المظاهرات المناهضة للحكومة عام 2017 دفع الولايات المتحدة إلى فرض عقوبات على الأصول الكبيرة التي يمتلكها الرئيس مادورو، وأصول عدد من المسؤولين رفيعي المستوى الذين جعلتهم تطبيقاتهم الخاصة من الاشتراكية البوليفارية إلى إعادة توزيع مبالغ كبيرة من الأموال على أنفسهم. في ربيع 2019، وصل الوضع إلى ذروته مع محاولة المعارضة إقناع الجيش بتغيير مواقفه وسط مظاهرات حاشدة مناهضة للحكومة.

الصين، كما رأينا في الفصل الثاني، لديها خططها التي تلائم مكانتها كقوة عالمية، ولكي تصل إلى هدفها، فإنها تحتاج إلى إبقاء الممرات البحرية مفتوحة أما تجارتها وقواتها البحرية. قد تكون قناة بنما ممراً محايداً، ولكنها المرور عبرها يعتمد أخيراً على حسن النوايا الأمريكية. لذا، لماذا لا تبني الصين قناتها الخاصة عبر نيكاراغوا؟ إذ ماذا تساوي 50 مليار دولار في حساب قوة عظمى متنامية؟

في 2013 تم الإعلان عن مشروع «قناة نيكاراغوا الكبرى»،[92] وموّل المشروع رجل أعمال من هونغ كونغ يدعى وانغ جينغ كان قد حقق الكثير من المال في مجال الاتصالات، ولكنه لم يكن ذا خبرة في مجال الهندسة، ناهيك عن تنظيم وإدارة أحد أكثر مشاريع البناء طموحاً في تاريخ العالم. يصرّ السيد وانغ على عدم مشاركة الحكومة الصينية في المشروع، ومثل هذا الأمر غير معتاد في السابق، نظراً لطبيعة ثقافة إدارة الأعمال السائدة في الصين، ومشاركة الحكومة في جميع جوانب الحياة.

تقدير تكلفة المشروع الذي من المقرر مبدئياً الانتهاء منه في أوائل عام 2020 بلغ 50 مليار دولار،[93] وهذا أربعة أضعاف حجم اقتصاد نيكاراغوا إجمالاً، ويشكل جزءاً من استثمار الصين الكبير في

---

92. تعود فكرة إنشاء قناة نيكاراغوا إلى القرن التاسع عشر، وكان نابليون بونابرت قد اقترحها، ثم خططت الولايات المتحدة لإنشائها، ولكنها فضلت شراء قناة بنما من فرنسا في بداية القرن العشرين. (المحرر)

93 . كانت تكلفة المشروع وتاريخ الانتهاء من تنفيذه تقديراً سابقاً، وقد صرح وانغ أن المشروع محاط بمخاطر مالية وسياسية وهندسية، وأن تكلفته ترقى إلى 100 مليار دولار.

أمريكا الجنوبية، وهي تحلّ ببطء ولكن بثبات محلّ الولايات المتحدة الأمريكية التي تعدّ الشريك التجاري الرئيسي لدول القارة. وقع رئيس نيكاراغوا دانيال أورتيغا على الخطة متحمّساً، دون أن يلقي بالاً لأكثر من 30.000 شخص قد يُطلب منهم الانتقال من أراضيهم بسبب المشروع.

يجد الاشتراكي الثوري الساندينى[94] السابق نفسه الآن متهماً بالوقوف إلى جانب الشركات الكبرى. وإذا حدث أن اكتمل تنفيذ القناة فسوف تقسم الدولة إلى قسمين، ويعاد تقسيم البلديات، مع تخطيط جسر واحد فقط لعبور القناة على امتداداها، ولكن المشروع لا يسير على ما يرام، وقد خسر وانغ ما يقدر بنحو 85 في المائة من ثروته في انهيار سوق الأسهم الصينية في سبتمبر 2015. دانييل أورتيغا من جانبه كان لا يزال مصراً في أواخر 2018 على أن المشروع مستمر قدماً، وفقاً للدراسات البيئية، لكن معظم أعمال البناء توقّفت، وبدا أن المضي في تنفيذه كان مجرّد ادعاء لا صحة له.

أما في حالة اكتمال التنفيذ غير المحتملة، فستكون قناة نيكاراغوا أطول من بنما، وأوسع وأعمق بكثير، ما سيسمح للناقلات وسفن الحاويات الضخمة بالمرور، فضلاً عن السفن البحرية الصينية الكبيرة. ومع ذلك، فإن الرئيس أورتيغا لم يعد يتشدّق بهذه «الخطة التي ستغير العالم»، ويبدو أن السيد وانغ لم يعد يتحدّث عن ذلك.

94 . الساندينى (ساندنيستا) هو عضو الجبهة الساندينية للتحرير الوطني في نيكاراغوا. اشتق اسمها من اسم أغوستو سيزار ساندينو قائد المقاومة الشعبية النيكاراغوية ضد الاحتلال الأمريكي في ثلاثينات القرن العشرين.

بالنظر إلى خطة توسيع قناة بنما بإضافة بضع مئات من الأميال إلى الجنوب، يتساءل المشككون عن سبب اعتبار النسخة النيكاراغوية ضروريةً، وما إذا كان من الممكن أن تكون مثمرةً فعلاً، ولكن يبدو أن المشروع بأكمله كان على الأقل يتعلق بمصالح الصين الوطنية من حيث الاستثمار وأرباحه التجارية.

كانت فكرة حفر رابطٍ بين المحيطين عبر إحدى دول القارة علامة على اهتمام الصين واستثماراتها المتزايدة في أمريكا الجنوبية. لقد اعتدنا على رؤية الصينيين لاعبين رئيسيين في أفريقيا، لكنهم صاروا منذ عشرين عاماً يتحركون بهدوء جنوب نهر ريو غراندي.

بالإضافة إلى استثمار مشاريع البناء، فإن الصين تقرض حكومات أمريكا الجنوبية مبالغ ضخمة، ولا سيما الأرجنتين وفنزويلا والإكوادور. وفي المقابل، تتوقع الصين من هذه الدول أن تدعم في الأمم المتحدة مطالبها الإقليمية، بما في ذلك قضية تايوان.

لقد تم اختيار دول أمريكا الجنوبية واحدة تلو الأخرى من قبل الولايات المتحدة التي تفضل التبادل التجاري الثنائي للتعامل مع المنطقة بأكملها، كما هو الحال مع الاتحاد الأوروبي. ويفعل الصينيون الشيء نفسه إذ يقدمون أنفسهم بديلاً عن الأمريكيين، ما يقلّل من اعتماد المنطقة على الولايات المتحدة باعتبارها سوقاً لها. فالصين، على سبيل المثال، الصين الآن محلّ الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها الشريك التجاري الرئيسي للبرازيل، وقد تفعل الشيء نفسه مع العديد من دول القارة الأخرى. ليس لدول أمريكا

الجنوبية روابط طبيعية مع الولايات المتحدة، وتهيمن المواقف الأمريكية على العلاقات التي تجمعهم بها، وهي المنصوص عليها في «مبدأ مونرو» عام 1823 (كما رأينا في الفصل الثالث). ففي خطاب «حالة الاتحاد» الذي ألقاه الرئيس مونرو حذّر هذا المبدأ الأوروبيين قائلاً إن أمريكا الجنوبية هي فناء الولايات المتحدة الخلفي ودائرة نفوذها. ومنذ ذلك الحين، صارت واشنطن تنظم الأحداث في القارة، ولكن الكثير من الأمريكيين الجنوبيين يعتقدون أن النتائج النهائية لم تكن إيجابيةً دائماً.

بعد ثمانية عقود من «مبدأ مونرو»، قام رئيس آخر بـ«إعادة بعث مونرو»، حيث قال تيودور (تيدي) روزفلت في خطاب ألقاه عام 1904: «في نصف الكرة الغربي، قد تكون الولايات المتحدة مجبرة على الالتزام بمبدأ مونرو، وقد تمارس على مضض دور شرطي العالم، في حالات متفاقمة من المخالفة أو العجز». وبعبارة أخرى، يمكن للولايات المتحدة أن تتدخل عسكرياً متى شاءت في نصف الكرة الغربي. دون أن يتضمن ذلك تمويل الثورات وتسليح الجماعات وتوفير المدرّبين العسكريين. لقد استخدمت الولايات المتحدة القوة في أمريكا الجنوبية حوالي خمسين مرة بين عام 1890 ونهاية الحرب الباردة.

بعد ذلك، انخفض التدخل العلني بسرعة، وفي عام 2001 كانت الولايات المتحدة من الدول التي وقعت على «الميثاق الديمقراطي للبلدان الأمريكية» الذي ضمّ 34 دولة وصاغته

«منظمة الدول الأمريكية»، وهو ينص على أن «شعوب الأمريكيتين لها الحق في الديمقراطية، وعلى حكوماتها الالتزام بتعزيزها والدفاع عنها». ومنذ ذلك الحين، ركزت الولايات المتحدة على ربط دول أمريكا اللاتينية بنفسها اقتصادياً عن طريق عقد مواثيق تجارية مثل «رابطة التجارة الحرة في أمريكا الشمالية»، وتقديم أخرى مثل «اتفاقية أمريكا الوسطى للتجارة الحرة».

إن الافتقار إلى الدفء الذي نشأ في العلاقات التاريخية والاقتصادية بين الجنوب والشمال يعني بالتالي أن الصينيين عندما يطرقون الأبواب، فإنها تُفتح بسرعة. وها هي بكين الآن تبيع أو تتبرع بالأسلحة إلى أوروغواي وكولومبيا وتشيلي والمكسيك وبيرو، وتعرض عليها تبادلات عسكرية أخرى. إنها تحاول بناء علاقة عسكرية مع فنزويلا، وتأمل أن تصمد هذه العلاقة حتى إذا انهارت الثورة البوليفارية.[95] إن إمدادات الأسلحة إلى أمريكا الجنوبية صغيرة نسبياً، ولكنها تكمل سياسة القوة الناعمة التي تنتهجها الصين. في عام 2011 زار المنطقة مستشفاها العائم الوحيد «سفينة السلام»، وهي سفينة بسعة 300 سرير، تعتبر قزماً أمام السفن الأمريكية التي تعمل بسعة 1000 سرير وهي تزور المنطقة أيضاً، لكن زيارة السفينة الصينية كانت مجرد إشارة عن النوايا للتذكير بأن بكين صارت تستخدم القوة الناعمة بشكل متزايد.

---

95 . الثورة البوليفارية: الحركة اليسارية الاشتراكية التي قادها رئيس فنزويلا هوغو شافيز، مؤسس حركة الجمهورية الخامسة، وما يتصل بها من سياسات داخلية وخارجية.

بالرغم من كل ذلك، سواء مع التجارة الصينية أو بدونها، فإن دول أمريكا الجنوبية محاصرة بشكل لا فكاك منه في أقاليمها الجغرافية، ما يعني أن الولايات المتحدة ستظل دائماً هب اللاعب الرئيسي في المنطقة. إن البرازيل التي تشكل ثلث أراضي أمريكا الجنوبية، هي المثال الأفضل لذلك. فهي بحجم الولايات المتحدة الأمريكية تقريباً، ومساحة ولاياتها الفيدرالية السبع والعشرين أكبر من دول الاتحاد الأوروبي الثمانية والعشرين مجتمعةً، لكنها على تفتقر إلى البنية التحتية التي تؤهلها لتكون على القدر نفسه من الغنى.

يتكون ثلث مساحة البرازيل من الغابات، حيث يكون اقتطاع أراضٍ صالحة للسكنى الحديثة مكلفاً وجدّ مؤثّر، كما إنه غير قانوني في بعض المناطق. ويعدّ تدمير غابات الأمازون المطيرة مشكلة بيئية طويلة الأمد تؤثر في العالم بأسره، ولكنها أيضاً مشكلة متوسطة الأمد بالنسبة إلى البرازيل، حيث تسمح الحكومة للمزارعين بقطع وحرق الغابات ثم استخدام الأرض من أجل الزراعة، لكن التربة فقيرة جداً لدرجة أنه في غضون سنوات قليلة لا يمكن الاستمرار في زراعة المحاصيل، فينتقل المزارعون إلى قطع المزيد من الغابات المطيرة التي لا تنمو مرة أخرى بعد قطعه وحرقها. إن المناخ والتربة يجهضان تنمية الزراعة.

قد يكون نهر الأمازون صالحاً للملاحة، لكن ضفافه موحلة، ومن الصعب البناء على الأرض المحيطة به. هذه المشكلة تحدّ بشكل

خطير من مساحة الأراضي النافعة المتاحة. أما جنوب منطقة الأمازون مباشرة، في المرتفعات، فتوجد السافانا، وهي على النقيض من ذلك، تعدّ قصة من قصص النجاح. حيث كانت هذه المنطقة قبل خمسة وعشرين عاماً، غير صالحة للزراعة، لكن التكنولوجيا البرازيلية حولتها إلى واحدة من أكبر منتجي فول الصويا في العالم، ما يعني أن البلاد، مع نموها في إنتاج الحبوب، أصبحت منتجاً زراعياً رئيسياً.

إلى الجنوب من السافانا توجد الأراضي الزراعية البرازيلية التقليدية. نحن الآن في المخروط الجنوبي من أمريكا الجنوبية، وفيه تشترك البرازيل مع الأرجنتين وأوروغواي وتشيلي. القسم البرازيلي الصغير نسبياً هو المكان الذي عاش فيه المستعمرون البرتغاليون الأوائل، كان من المفترض -منذ 300 عام- أن يكون السكان قد تمكنوا من الخروج من هذه المنطقة وتوطّنوا مختلف أرجاء البلاد الأخرى. ولكن غالبية السكان، حتى يومنا هذا، لا تزال تعيش بالقرب من المناطق الساحلية، على الرغم من القرار المثير الذي اتّخذ في أواخر خمسينيات القرن العشرين بنقل العاصمة (ريو دي جانيرو سابقاً) عدة مئات من الأميال إلى مدينة برازيليا التي بُنيت لهذا الغرض في محاولة لتطوير وسط البرازيل.

تبلغ مساحة الأراضي الحيوية الزراعية في الجنوب حجم إسبانيا والبرتغال وإيطاليا مجتمعةً، وهي أكثر انبساطاً من بقية البلاد. وهي تُسقَى المياه بشكل جيد نسبياً، ولكن معظمها يقع في المناطق

الداخلية من المنطقة، ويفتقر إلى طرق النقل المطورة والملائمة.

ينطبق الشيء نفسه على معظم أرجاء البرازيل، فإذا نظرنا إلى العديد من المدن الساحلية البرازيلية من البحر، عادة ما يكون هناك جرف ضخم يرتفع من الماء ليشرف على جانبي المنطقة الحضرية، أو خلفها مباشرة، يُعرف باسم «الجرف الكبير»، ويهيمن على جزء كبير من ساحل البرازيل. إنه نهاية الهضبة المسماة «الدرع البرازيلي» التي تشكّل معظم المناطق الداخلية من البرازيل.

نظرًا لأن البلاد تفتقر إلى سهل ساحلي، لربط مدنها الساحلية الرئيسية، فإنها في حاجة إلى بناء طرق أعلى الجرف، على امتداد المنطقة الحضرية التالية ثم إلى الأسفل. ويتضاعف الافتقار إلى الطرق الحديثة اللائقة بوجود نقص مماثل في مسارات السكك الحديدية، وهو وضع لا يلائم التبادر التجاري المفيد، ولا يدعم توحيد تلك المساحة الشاسعة سياسياً.

تزداد الأمور سوءاً بالنسبة إلى البرازيل، فهي لا تحظى بإمكان الوصول مباشرةً إلى أنهار منطقة «ريو دي لا بلاتا»، حيث يصب نهر بلاتا[96] في المحيط الأطلسي في الأرجنتين، ما يعني أن التجار ظلوا على مدى قرون ينقلون بضائعهم عبر بلاتا إلى بوينس آيرس، بدلاً من حملها صعوداً وهبوطاً على الجرف الكبير للوصول إلى

96 . يتكون من التقاء نهر أوروغواي ونهر «بارانا» في «بونتا غوردا»، ويصب في المحيط الأطلسي. جغرافياً يمكن اعتباره نهراً أو مصباً أو خليجاً أو بحراً هامشياً. إذا عدّ نهراً فهو في هذه الحالة أكثر الأنهار اتساعاً في العالم (عرضه الأقصى 220 كيلو متراً).

موانئ البرازيل غير المتطورة.

لهذه الأسباب تفتقر البرازيل إلى حجم التجارة الذي تصبو إليه، وبالقدر نفسه، فإن معظم سلعها تُنقل على امتداد طرقها غير الملائمة بدلاً من استخدام النقل النهري، ما يؤدي إلى ارتفاع التكاليف. أما على الجانب الإيجابي، فإن البرازيل تعمل على تطوير البنية التحتية للنقل، وستساعد احتياطيات الغاز البحرية المكتشفة حديثاً على دفع النفقات، وتقليل الاعتماد على واردات الطاقة من بوليفيا وفنزويلا، وتخفيف حدة التردي الاقتصادي الجارف الذي تعاني منه جميع الدول. ومع كل ذلك، تظلّ البرازيل في حاجة إلى بذل جهد خرافي للتغلب على عيوبها الجغرافية.

يُعتقد أن حوالي 25 في المائة من البرازيليين يعيشون في أحياء قصديرية عشوائية فقيرة (معروفة باسم فاڤيلا)، وعندما يكون واحد من بين كل أربعة من سكان الدولة في حالة فقر مدقع، فمن الصعب أن تطمح هذه الدولة إلى الغنى. هذا لا يعني أن البرازيل ليست قوة صاعدة، إلا أن صعودها سيكون محدوداً.

يمكن أن تكون القوة الناعمة طريقاً مختصراً إلى النمو، ومن هنا جاءت جهود البرازيل للحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، كما كانت عادتها في بناء تحالفات اقتصادية إقليمية مثل تجمّع «ميركوسور» الذي يربط على نحو هشّ بين البرازيل والأرجنتين وباراغواي وأوروغواي وفنزويلا. ومع مرور بضع سنوات، تعود حكومات أمريكا الجنوبية، بقيادة البرازيل

غالباً، إلى الإعلان عن نسختهم الخاصة من الاتحاد الأوروبي، وأحدث تجسيد لذلك هو «اتحاد أمم أمريكا الجنوبية» UNASUR الذي تضم عضويته اثنتا عشرة دولة من أمريكا الجنوبية، ويقع مقره الرئيسي في الإكوادور، لكن البرازيل تحتفظ فيه بأقوى الأصوات، وهو على هذا النحو يشبه الاتحاد الأوروبي الذي يقع مقره الرئيسي في بلجيكا، بينما القوة الرائدة فيه هي ألمانيا، ولكن المقارنة تتوقف هنا! يتمتع اتحاد أمم أمريكا الجنوبية بحضور على الإنترنت يثير الإعجاب، ولكنه يظل موقعاً افتراضياً أكثر منه اتحاداً اقتصادياً. دول الاتحاد الأوروبي تمتلك أنظمة سياسية واقتصادية متشابهة ويشترك معظم الأعضاء في عملة واحدة، في حين يختلف الأمريكيون اللاتينيون في السياسة والاقتصاد والعملات ومستويات التعليم وقوانين العمل، كما إن عليهم أن يتغلبوا أيضاً على قيود المسافة، وعلى الجبال المرتفعة والغابات الكثيفة التي تفصل بينهم.

لكن البرازيل سوف تواصل العمل على المساعدة في إنشاء مركز قوة في أمريكا الجنوبية باستخدام قوتها الدبلوماسية والاقتصادية المتزايدة. إن البلد بطبيعته غير صدامي، وسياسته الخارجية ترفض التدخل في البلدان الأخرى، ونشوب حرب بينها وبين أي من جيرانها مستبعدٌ تماماً، كما إنها تمكّنت من الحفاظ على علاقات جيدة مع جميع دول أمريكا الجنوبية الإحدى عشرة الأخرى، على الرغم من وجود حدود لها مع تسعة منهم.

هناك نزاع حدودي واحد مع أوروغواي، ولكن لا يبدو أنه سيحتدم، ومن غير المرجح أن يصبح التنافس بين البرازيل والأرجنتين في أي مجال من الناحية السياسية أكثر جديةً من مباراة في كرة القدم. في السنوات الأخيرة، نقلت البرازيل وحدات من الجيش بعيداً عن حدودها مع الأرجنتين، وشهدت جارتها الناطقة بالإسبانية تستجيب بالمثل، كما رحّبت البرازيل بسفينة بحرية أرجنتينية رست في أحد موانئها، بينما منعت قبل بضع سنوات سفينة تابعة للبحرية الملكية البريطانية من الرسو، الأمر الذي أبهج الأرجنتينيين في معركتهم الدبلوماسية المستمرة مع المملكة المتحدة حول جزر فوكلاند.

لقد تم تضمين البرازيل في مجموعة البريكس، وهي مجموعة من البلدان الرئيسية التي توصف بالصاعدة من الناحية الاقتصادية والسياسية، ولكن في حين أن كل واحدة قد تصعد بشكل فردي، فإن الفكرة تكمن في الصورة التي تُضفى على المجموعة وعضويتها أكثر مما ترتبط بواقعها الفعلي، فالبرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب إفريقيا لا تمثّل مجموعة سياسية أو جغرافية مترابطة بطريقة ذات مغزى، ولديها القليل جداً من القواسم المشتركة، حتى إن هذه الحروف (بريكس – BRICS) لو لم تأخذ شكل كلمة كاملة، لما لوحظت فكرة مجموعة البريكس ذاتها. تعقد هذه المجموعة مؤتمراً سنوياً، وتقوم البرازيل أحياناً بالتنسيق مع الهند وجنوب إفريقيا بشأن القضايا الدولية في نوع من الصدى الغامض لحركة عدم الانحياز أثناء الحرب الباردة، لكن البرازيل لا تنضم إلى روسيا

والصين في موقفهما العدائي أحياناً تجاه الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد اختلف عمالقة أمريكا الشمالية والجنوبية عام 2013 بشأن قضية لا تزال مزعجة بالنسبة إلى البرازيل، فقد أدى خبر تجسّس وكالة الأمن القومي الأمريكية على الرئيسة البرازيلية آنذاك، ديلما روسيف، إلى إلغاء زيارتها المتوقعة إلى واشنطن، وكان عدم تقديم اعتذار من إدارة أوباما دليلاً على حقيقة أن الأمريكيين منزعجين من أن الصين قد حلّت محلهم بوصفها شريك البرازيل التجاري الأساسي، ويُعتقد أن قرار البرازيل اللاحق بشراء طائرات مقاتلة سويدية لقواتها الجوية بدلاً من طائرات بوينج الأمريكية قد كان نتيجة ذلك الخلاف. ومع ذلك، فإن العلاقة بين الدولتين قد تعافت الآن تقريباً. إن المواجهة والصدام ليس أسلوب البرازيل، على عكس فنزويلا في عهد الرئيس الراحل تشافيز، ومع وصول الرئيس جايير بولسونارو إلى السلطة عام 2019، أصبحت الحكومة أكثر تأييداً للولايات المتحدة من أي وقت مضى. ويُطلق على بولسونارو أحياناً لقب «ترامب المناطق المدارية»، فهو قد انضمّ في غضون أسابيع من توليه الرّئاسة إلى سياسة إدارة ترامب بشأن التخلص من رئيس فنزويلا مادورو. ويعرف البرازيليون أن العالم يعتقد أنهم قوة قادمة، لكنهم يعلمون أيضاً أن قوتهم لن تضاهي قوة الأمريكيين أبداً، ولا الأرجنتين كذلك؛ فهذه الأخيرة، من بعض النواحي، في وضع أفضل من البرازيل يؤهلها لتكون دولة من دول العالم الأول، وبالرغم من أنها تفتقر إلى المساحة والسكان لكي تصبح القوة الإقليمية الرئيسية في أمريكا الجنوبية، وهو ما

يبدو قدر البرازيل، ولكنها تتمتع بنوعية الأرض التي تؤهلها لخلق مستوى معيشي يضاهي مثيله في الدول الأوروبية، على إن هذا لا يعني أنها ستحقق ذلك ببساطة، إذا قامت الأرجنتين بتصحيح اقتصادها وتطويره، فإن جغرافيتها ستمكّنها من أن تصبح القوة لم تكن عليها في السابق قط.

لقد وُضعت أسس هذه الإمكانات في القرن التاسع عشر مع الانتصارات العسكرية التي حققتها ضد البرازيل وباراغواي، وأدت إلى سيطرتها على المناطق الزراعية المنبسطة في «ريو دي لا بلاتا»، ونظام النهر الصالح للملاحة، وبالتالي التجارة التي تتدفق نحو بيونس آيرس وموانئها، هذا بالإضافة إلى أكثر العقارات قيمة في القارة بأكملها، وهو ما منح الأرجنتين مباشرةً خصائص اقتصادية واستراتيجية تميزها عن البرازيل وباراغواي وأوروغواي، وهي خصائص لا تزال تحتفظ بها حتى يومنا هذا.

بالرغم من ذلك، لم تستخدم الأرجنتين مزاياها بالكامل على نحو دائم. فقبل مائة عام كانت من بين أغنى عشر دول في العالم، متقدمة بذلك على فرنسا وإيطاليا، لكن الفشل في التنوّع، ووجود مجتمع طبقي غير عادل، ونظام التعليم الضعيف، وسلسلة الانقلابات والسياسات الاقتصادية المتباينة بشدة في الفترة الديمقراطية في الثلاثين سنة الماضية، كل ذلك جعل مكانتها تشهد انخفاضاً حاداً عما كانت عليه.

لدى البرازيليين نكتة حول جيرانهم المتغطرسين، كما يرونهم:

«الشعب الوحيد المتطوّر جداً هو وحده من يستطيع إحداث فوضى بهذه الضخامة». تحتاج الأرجنتين إلى تصحيح الأمر، ولعلّ البقرة الميتة تساعدها على ذلك!

البقرة الميتة، أو Vaca Muerta، تكوين من الصخر الزيتي[97] يمكنه، إلى جانب مساحات أخرى من التكوينات الطفحيّة في البلاد، أن يوفر احتياجات الأرجنتين من الطاقة خلال الـ 150 عاماً القادمة مع زيادة التصدير، وهو يقع في منتصف الطريق جنوب الأرجنتين، في باتاغونيا، ويتاخم الحدود الغربية مع تشيلي. إنه بحجم بلجيكا، وقد يكون ذلك الحجم صغيراً نسبياً بالنسبة إلى بلد ما، ولكنه كبير بالنسبة إلى تكوينات الصخر الزيتي. كل شيء على ما يرام حتى الآن، ما لم تكن ضد الطاقة المنتجة من مثل هذه المصادر، ولكن هناك المزيد، فاستخراج الغاز والنفط من الصخر الزيتي يتطلب استثمارات أجنبية ضخمة، بينما لا تعدّ الأرجنتين من محبذي الاستثمار الأجنبي.

هناك في الواقع المزيد من النفط والغاز جنوباً، ففي أقصى الجنوب يقع مصدر آخر داخل جزر بعيدة عن الشاطئ وحولها، وهي جزر بريطانية وقد كانت كذلك منذ عام 1833. وهنا تكمن المشكلة التي لا يبدو أنها ستنتهي يوماً ما. إنها الجزر التي تسميها بريطانيا «فوكلاند»، بينما تسميها الأرجنتين «لاس مالفيناس»، والويل لأي

---

97. من مصادر النفط والغاز، وهو صخر رسوبي تكونه مواد عضوية تسمى كيروجين يمكن تحويلها إلى نفط. تمتلك الصين أكبر احتياطياته، تلها الولايات المتحدة.

أرجنتيني يستخدم الكلمة التي تبدأ بحرف الفاء! وتُعدّ طباعة خريطة تصف الجزر على أنها أي شيء آخر غير «جزر مالفيناس» مخالفة في الأرجنتين، ويتم تعليم الأطفال في جميع المدارس الابتدائية رسمَ الخطوط العريضة للجزيرتين الرئيسيتين، الغربية والشرقية. إن استعادة «الأخوات الصغيرات المفقودات» قضية وطنية بالنسبة إلى الأجيال المتعاقبة من الأرجنتينيين، وهي تحظى بدعم معظم جيرانهم في أمريكا الجنوبية.

في أبريل 1982، كان البريطانيون قد تخلوا عن حذرهم عندما أمر النظام الديكتاتوري العسكري الأرجنتيني بقيادة الجنرال غاليتيري بغزو الجزر[98]، وعُدّ ذلك نجاحاً كبيراً إلى أن وصلت قوة المهام البريطانية بعد ثمانية أسابيع. واستطاعت التغلب على الجيش الأرجنتيني، واستعادت الجزر، الأمر الذي ساهم لاحقاً في إسقاط النظام الديكتاتوري.

لو أن الغزو الأرجنتيني حدث في العقد الحالي، لما كانت بريطانيا في وضع يمكنها من استعادة الجزر، حيث لا حاملات طائرات عاملة لديها حالياً، وهو الوضع الذي سيتم علاجه بحلول عام 2020، وعندئذ سوف تفقد الأرجنتين الأمل في استعادة الجزر. ومع ذلك، على الرغم من إغراء النفط والغاز، فإن الغزو الأرجنتيني لجزر فوكلاند غير مرجح لسببين.

أولاً: أصبحت الأرجنتين الآن دولة ديمقراطية وتعلم أن

98. انظر تعليق المحرر في مقدمة الكتاب.

الغالبية العظمى من سكان جزر فوكلاند يرغبون في البقاء تحت السيطرة البريطانية.

ثانياً: إذا أزعجت البريطانيين تجربة ما فإنهم يصبحون متوجسين حذرين. قد يفتقرون مؤقتاً إلى حاملة طائرات للإبحار بها مسافة 8000 ميل إلى جنوب المحيط الأطلسي، لكن لديهم الآن عدة مئات من القوات المقاتلة على الجزر، مع أنظمة رادار متقدمة، وصواريخ أرض-جو، وأربع طائرات يوروفايتر، وربما غواصة هجوم نووي كامنة في مكان قريب معظم الوقت. إن البريطانيين عازمون على منع الأرجنتين من التفكير حتى في قدرتهم على الوصول إلى شواطئ الجزر، بله الاستيلاء عليها.

تستخدم القوات الجوية الأرجنتينية طائرات متأخرة بعقود زمنية عن يوروفايتر، وقد ضمنت الدبلوماسية البريطانية إلغاء محاولة الأرجنتين شراء طرازات حديثة من إسبانيا، أما الشراء من الولايات المتحدة الأمريكية فغير مرجّح نظراً للعلاقة المتميزة بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وهي في بعض الأحيان متميزة حقاً، لذا فإن فرص الأرجنتين في أن تكون في وضع يمكنها من شن هجوم آخر قبل 2020 تبقى فرصاً ضئيلة.

بالرغم من ذلك، فإن الحرب الدبلوماسية بين الجانبين لم تهدأ، وقد شحذت الأرجنتين أسلحتها على تلك الجبهة. حيث حذرت بوينس آيرس من أن أي شركة نفطية تقوم بالتنقيب في جزر فوكلاند/ مالفيناس لا يمكنها التطلع إلى الحصول على ترخيص

لاستغلال النفط والغاز الصخري في حقل «فاكا مويرتا» في باتاغونيا، كما أصدرت قانوناً يهدّد بالتغريم أو السجن بالنسبة إلى الأفراد الذين يستكشفون جرف فوكلاند القاري دون إذن منها. لقد أدى هذا إلى نفور العديد من شركات النفط الكبرى، لكنها ليست بريطانيّة بالطبع. ومع ذلك، أياً كان من يبحث عن الثروة المحتملة تحت مياه جنوب المحيط الأطلسي، سوف يعمل في واحدة من أكثر البيئات تحدياً، فالمناخ هناك يصبح بارداً وعاصفاً، والبحار مضطربةً.

لقد سافرنا إلى الجنوب بأقصى ما يمكن الذهاب، قبل الوصول إلى الأراضي القاحلة المتجمدة في القطب الجنوبي. وبينما ترغب الكثير من البلدان في فرض سيطرتها هناك، إلا أن مزيجاً من البيئة الصعبة إلى أبعد الحدود، و«معاهدة القطب الجنوب»[99]، ونقص الموارد الممكنة والقيمة، يمنع المنافسة العلنية إلى حد كبير، أو في الوقت الحاضر على الأقل. لا يمكن قول الشيء نفسه عن نظيره القطب الشمالي، وبالتوجه مباشرة من القارة القطبية الجنوبية إلى أقصى الجزء الشمالي من الكرة الأرضية، نصل إلى مكان قُدّر له أن يكون ساحة معركة دبلوماسية في القرن الحادي والعشرين حيث تتنافس الدول الكبيرة والصغيرة على الوصول هناك... إلى موقع القطب الشمالي.

---

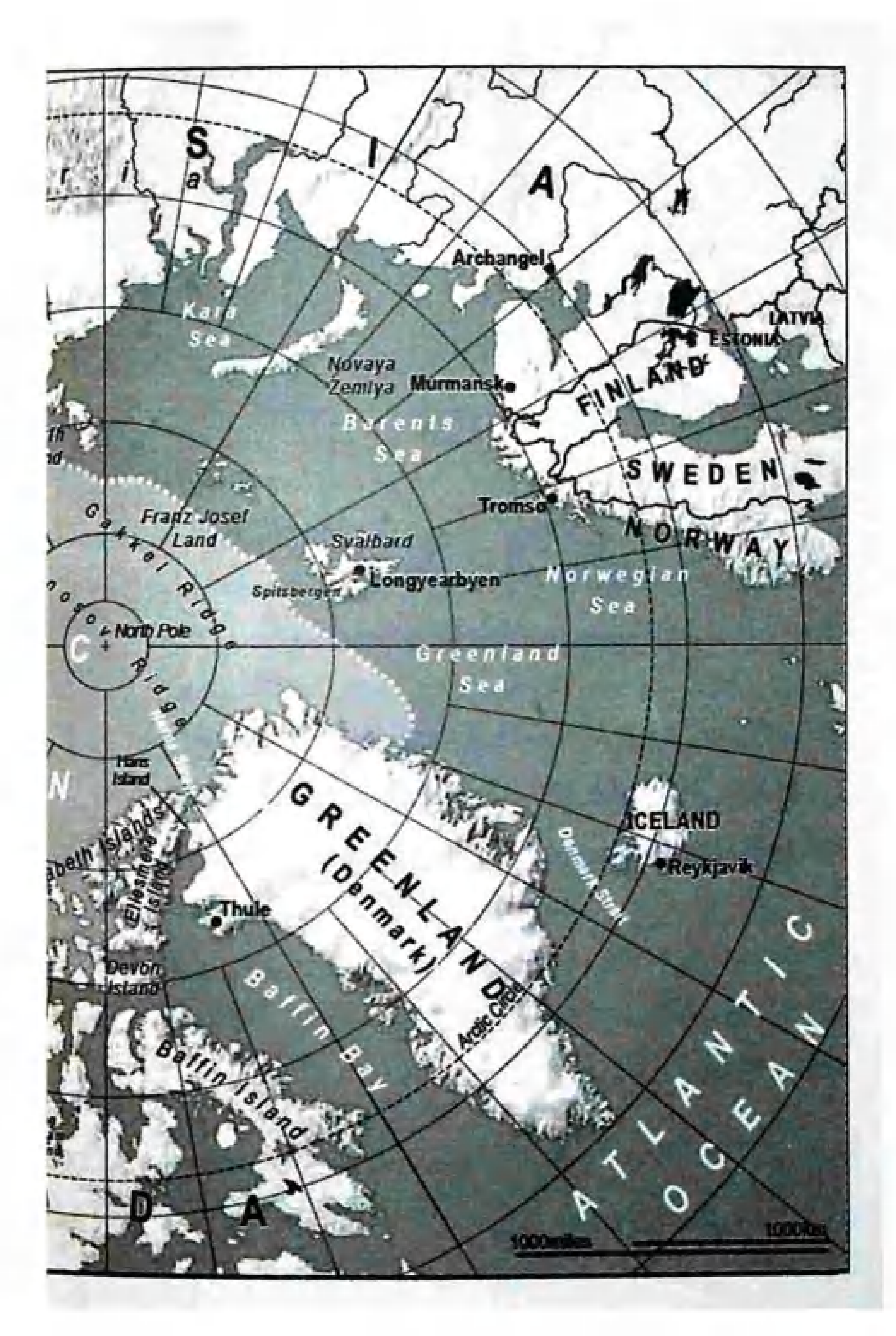
99 . معاهدة الدائرة القطبية الجنوبية، أو معاهدة أنتاركتيكا Antarctic Treaty: اتفاقية أبرمت أثناء الحرب الباردة، للحد من التسلح وحظر النشاط العسكري في القارة القطبية وجعلها محمية علمية عالمية.

الفصل العاشر

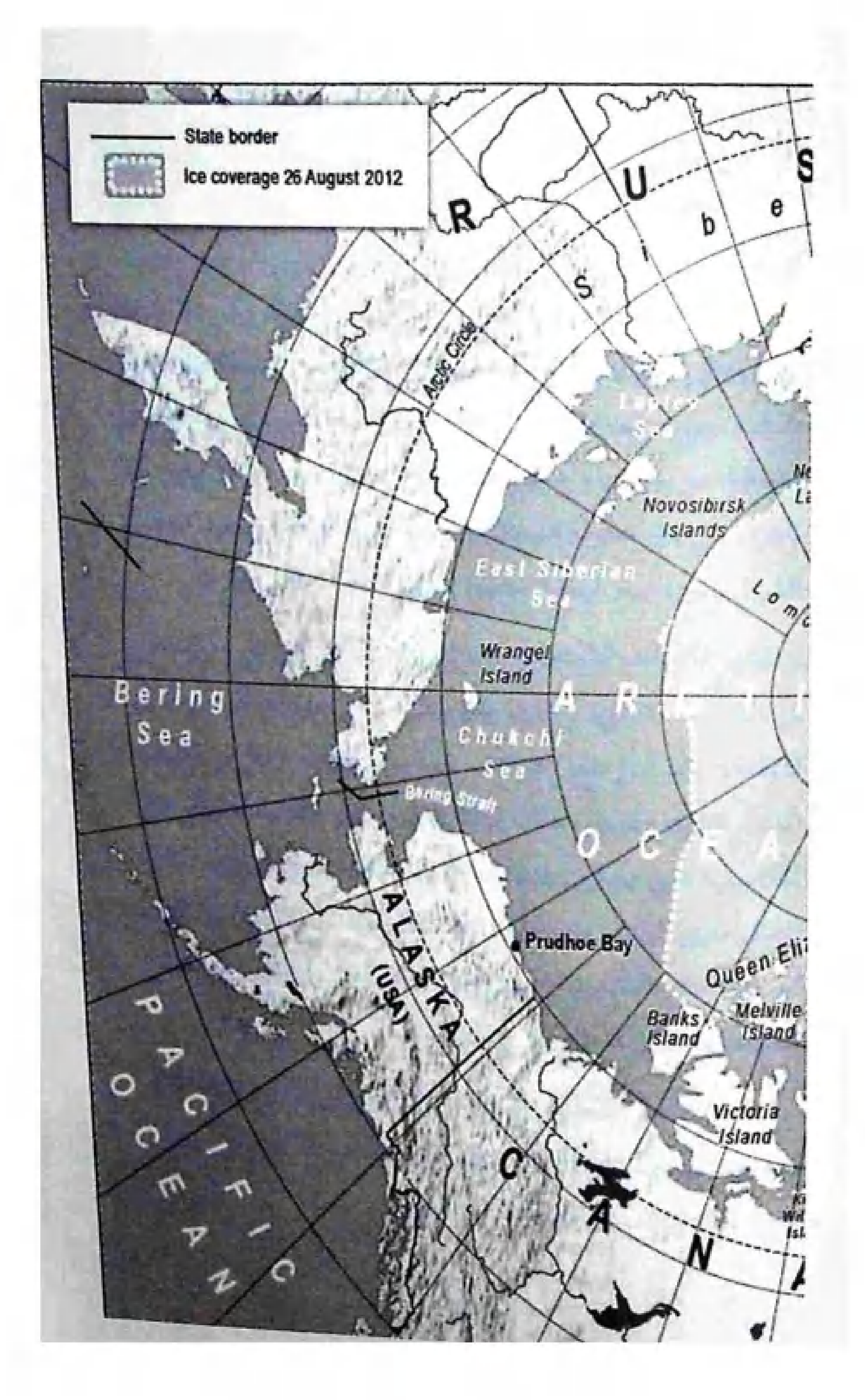
القطب الشمالي

«ثمة نوعان من المشكلات في القطب الشمالي، خيالية وواقعية. وبين هذين النوعين، فإن المشاكل الخيالية هي الأكثر واقعية».

فيلهمير ستيفانسون، القطب الشمالي بين الحقيقة والخرافة



Archangel
LATVIA
ESTONIA
Kara Sea
Novaya Zemlya
Murmansk
FINLAND
Barents Sea
SWEDEN
Tromso
NORWAY
Franz Josef Land
Svalbard
Gakkel Ridge
Longyearbyen
Spitsbergen
Norwegian Sea
North Pole
Greenland Sea
GREENLAND (Denmark)
ICELAND
Reykjavik
Denmark Strait
Thule
Devon Island
Baffin Bay
Arctic Circle
Baffin Island
ATLANTIC OCEAN


State border
Ice coverage 26 August 2012
Arctic Circle
Novosibirsk Islands
East Siberian Sea
Wrangel Island
Bering Sea
Chukchi Sea
Bering Strait
Prudhoe Bay
ALASKA (USA)
PACIFIC OCEAN
Banks Island
Melville Island
Victoria Island

تبلغ مساحة المحيط المتجمد الشمالي 5.4 مليون ميل مربع، وقد يجعله هذا أصغر محيط في العالم، لكنه لا يزال مع ذلك بحجم روسيا تقريباً، وهو أكبر من حجم الولايات المتحدة بضعف ونصف. وتحتل الجروف (أو الرفوف) القارية على قاع المحيط مساحةً أكبر نسبياً من أي محيط آخر، وهو أحد الأسباب التي تجعل من الصعب الاتفاق على مناطق السيادة.

تشمل منطقة القطب الشمالي أراض في أجزاء من كندا وفنلندا وغرينلاند وأيسلندا والنرويج وروسيا والسويد والولايات المتحدة الأمريكية (ألاسكا). إنها أرض الحدود القصوى، حيث يمكن لدرجة الحرارة أن تصل في فترات وجيزة من الصيف إلى 26 درجة مئوية في بعض الأماكن، ولكنها تنخفض لفترات طويلة في الشتاء إلى أقل من 45 درجة تحت الصفر. وتُرى هناك مساحات من الصخور التي صقلتها الرياح المتجمدة، والمضايق الرائعة والصحاري القطبية وحتى الأنهار. إنه مكان يتّسم بالعداء الشديد والجمال الأخاذ الذي أسرَ الناس منذ آلاف السنين.

كانت أول رحلة استكشافية مدوّنة عام 330 ق.م. قام بها بحّار يوناني يدعى بيثياس المسيلي، وجد أرضاً غريبة تسمى «ثولي»[100]، وعندما عاد إلى وطنه في البحر الأبيض المتوسط، صدق عدد قليل حكاياته المذهلة عن المناظر الطبيعية البيضاء النقية والبحار المتجمّدة والمخلوقات الغريبة، بما في ذلك الدببة البيضاء الكبيرة.

---

100 . ثولي Thule: أبعد الأمكنة في اتجاه الشمال في الأدب اليوناني والروماني القديم.

كان بيثياس أول شخص دوّن عجائب القطب الشمالي على مر القرون، واستسلم للمشاعر التي يثيرها، من بين كثيرين آخرين، لكن كثيرين غيرهم حُرموا من ذلك، لا سيما أولئك الذين سافروا إلى حافة العالم المعروف بحثاً عما قال المشككون أنه الممر الشمالي الغربي «الأسطوري» عبر المحيط المتجمد الشمالي، وأنه يربط المحيط الأطلسي بالمحيط الهادئ. أحد الأمثلة لذلك هو هنري هدسون الذي أطلق اسمه على ثاني أكبر خليج في العالم، ولعله كان يفضّل عام 1607 أن يعيش شيخوخته بهدوء بدلاً من الإبحار على غير هدى، ولكن من المؤكد تقريباً أنه أرسل إلى حتفه آنذاك بعد أن سئم بحارته المتمرّدون من رحلاته الاستكشافية.

أما بالنسبة إلى أول شخص يصل إلى «القطب الشمالي»، فإن ذلك يصعب تحديده، فعلى الرغم من وجود نقطة ثابتة على الكرة الأرضية تشير إلى موقعه، إلا أن الجليد الذي يمكن أن نقف عليه هناك يتحرك تحتنا، وبدون جهاز تحديد المواقع العالمي، سيكون من الصعب علينا أن نحدد موقعنا تماماً. لقد حاول السير إدوارد باري عام 1827، بدون جهاز تحديد المواقع العالمي، لكن الجليد كان يتحرك جنوباً أسرع مما يستطيع هو التحرك شمالاً، وانتهى به الأمر بأن قفل راجعاً، لكنه نجا على الأقل.

كان حظ القبطان السير جون فرانكلين أقل من ذلك عندما حاول عبور آخر قسم غير مستكشف من الممر الشمالي الغربي عام 1845. فقد علقت سفينته في الجليد بالقرب من جزيرة الملك

ويليام في الأرخبيل الكندي، ومات جميع أفراد البعثة البالغ عددهم 129 شخصاً، بعضهم على متن السفن، وبعضهم الآخر بعد أن هجروا السفن واتجهوا جنوباً. وقد أرسلت عدة بعثات بحثاً عن ناجين منهم، لكن لم يُعثر سوى على عدد قليل من الهياكل العظمية، كما سُمعت قصص من صيادي الإنويت عن عشرات الرجال البيض الذين لقوا حتفهم وهم يسيرون في تلك التضاريس المتجمدة. أما السفن فقد اختفت تماماً، إلى أن كان عام 2014 عندما وُظّفت التقنيات الحديثة لأغراض جغرافية، وتمكّن فريق بحث كندي باستخدام مسبار الصدى (السونار) من تحديد موقع إحدى السفن، وهي اتش.ام.اس إيريبوس، في قاع البحر في الممر الشمالي الغربي، ولم يتمكن الفريق سوى من انتشار جرس السفينة.

لم يمنع مصير الذي انتهت إليه رحلة فرانكلين كثيراً من المغامرين من محاولة شق طريقهم عبر الأرخبيل، ثم كان عام 1905 الذي شهد مغامرة المستكشف النرويجي العظيم رولد أموندسن وهو يشق طريقه بسفينة أصغر من سابقاتها يرافقه طاقم من خمسة ملاحين فقط. مرّ بجزيرة الملك ويليام، ثم عبر مضيق بيرينغ إلى المحيط الهادئ. وعلم أموندسن أن رحلته قد نجحت عندما رأى سفينة صيد حيتان من سان فرانسيسكو قادمة من الاتجاه الآخر. اعترف في مذكراته أن عواطفه طغت عليه، وهو حدث ربما يكون نادراً ندرة إنجازه العظيم ذاك. كتب يقول: «انتهيت من عبور الممر الشمالي الغربي. لقد تحقّق حلم طفولتي في تلك اللحظة. إن شعوراً غريباً يخالجني. كنت منهكاً ومنهاراً إلى حد ما، وكان ذلك ضعفاً

تلبّسني، لكنني شعرت بالدموع في عيني».

بعد عشرين عامًا قرّر أن يكون أول رجل يطير فوق القطب الشمالي، وهو وإن كان أسهل من المشي عبره، إلا أنه عمل لا يستهان به. وهكذا، مع الربان الإيطالي أومبرتو نوبيل وطاقمه المكون من أربعة عشر شخصاً، طار بمنطاد نصف جاسئ فوق الجليد، وأسقط أعلاماً نرويجية وإيطالية وأمريكية من ارتفاع 300 قدم. ربما كان ذلك عملاً بطولياً، ولكن لم يُنظر إليه في القرن الحادي والعشرين على أنه أعطى أساساً قانونياً يمكن أن تدعم أي ادعاءات بملكية المنطقة من قبل تلك البلدان الثلاثة.

ينطبق هذا أيضاً على الجهد الرائع الذي قام به الياباني شينجي كازاما الذي أصبح عام 1987 أول شخص يصل إلى القطب الشمالي على دراجة نارية. كان السيد كازاما ثابت الجأش فلم يعتمد على صفحة جليدية متقلّصة، وكان من قبيل المغامرين الذين يستطيعون اجتياز عاصفة ثلجية من أجل تذكره كتب التاريخ، ولكن لا شكّ في أن الجليد الآن صار أقلّ من ذي قبل إذ قرّر أحدهم عبوره.

إن انحسار الجليد ليس موضع تخمين، فالتصوير عبر الأقمار الصناعية على مدى العقد الماضي يظهر بوضوح أن الجليد قد تقلّص، ولكن سبب ذلك هو موضع التساؤل. إن معظم العلماء مقتنعون بأن الإنسان هو المسؤول، لا مجرد دورات المناخ الطبيعية، وأن الاستغلال المقبل لما يتم اكتشافه سيسّرع من وتيرة ذلك، وقد

تم بالفعل إعادة توطين القرى الواقعة على امتداد سواحل بيرنغ وتشوكشي التي تحاتّت أطرافها وفقدت مواقع الصيد. كما إن هناك تعديل بيولوجي يحدث الآن، حيث تنأى الدببة والثعالب القطبية، وتجد حيوانات الفظ نفسها تتنافس على الأمكنة، وتتحرّك الأسماك شمالاً بعد أن لم تعد تدرك تخومها الإقليمية، ما يؤدي إلى استنزاف المخزونات في بعض البلدان بينما تستقر في مياه بعضها الآخر. وبالمثل، يُعثر الآن على الماكريل وسمك القد الأطلسي في شباك الصيد بالقطب الشمالي.

لن يتم الشعور بآثار ذوبان الجليد في القطب الشمالي فحسب، فبلدان بعيدة مثل جزر المالديف وبنغلاديش وهولندا معرضة لخطر الفيضانات المتزايدة مع ذوبان الجليد وارتفاع مستويات سطح البحر. إن هذه الآثار غير المباشرة هي السبب الذي يجعل القطب الشمالي قضية عالمية، لا مجرد قضية إقليمية.

من المحتمل مع ذوبان الجليد وانكشاف التندرا أن يحدث شيئان لتسريع عملية تفتّت الغطاء الثلجي؛ الرواسب المتبقية من الأعمال الصناعية ستسقط على الثلج والجليد، ما سيقلل بمستوى أكبر من مساحة المنطقة العاكسة للحرارة. وستمتص الأرض التي صار لونها غامقاً والمياه المفتوحة بعد ذلك حرارة أكثر من الجليد والثلج اللذين تحلّ محلهما، ما يزيد من حجم المنطقة المظلمة. وهم ما يُعرف

بتأثير «ألبيدو»[101]، وعلى الرغم من وجود جوانب سلبية في هذا التأثير، فإن له جوانب إيجابية أيضاً، لأنه ارتفاع درجات الحرارة في التندرا سيسمح بنمو النباتات الطبيعية بوتيرة أكبر ويؤدي إلى ازدهار المحاصيل الزراعية، وهو ما يساعد السكان المحليين في سعيهم للبحث عن مصادر غذائية جديدة. ولكن لا مفر مع ذلك من احتمال أن واحدة من آخر مناطق العالم العظيمة غير الملوثة مقبلة على التغيير. تقول بعض نماذج التنبؤ بالمناخ إن القطب الشمالي سيكون أثناء الصيف خالياً من الجليد بحلول نهاية القرن، وهناك بعض الباحثين الذين يتوقعون حدوث ذلك في وقت أقرب بكثير. ما هو مؤكد هو أنه بغض النظر عن السرعة التي يحدث بها هذا الانحسار الدراماتيكي، فإنه قد بدأ.



توضح صور الأقمار الصناعية أن الجليد في القطب الشمالي ينحسر، ويؤدي ذلك إلى جعل الممرات البحرية عبر المنطقة أكثر سهولة لفترات أطول من العام.

---

101 . ألبيدو Albedo تعبير عن قدرة الأسطح على عكس ضوء الشمس والحرارة، كلما كان السطح فاتح اللون أعاد جزءا من أشعة الشمس إلى الغلاف الجوي، وكلما كا داكناً امتص الأشعة.

يتيح ذوبان الغطاء الجليدي لسفن الشحن أن تعبر الممر الشمالي الغربي من الأرخبيل الكندي على مدى عدة أسابيع صيفية في السنة، فتقلّص زمن العبور من أوروبا إلى الصين أسبوعاً على الأقل. وقد مرت أول سفينة شحن دون أن ترافقها كاسحة جليد عام 2014، حيث حملت نونافيك 23000 طن من خام النيكل من كندا إلى الصين. كان الطريق القطبي أقصر بنسبة 40 في المائة واستخدم مياهاً أعمق مما لو كان قد مر عبر قناة بنما، فسمح ذلك للسفينة بنقل حمولة أكبر، مع توفير عشرات الآلاف من الدولارات من تكاليف الوقود، وخفض انبعاثات الدفيئة من السفينة بمقدار 1300 طن متري.

من المتوقع بحلول عام 2040 أن يكون هذا الطريق مفتوحاً لمدة تصل إلى شهرين من كل عام، ويعني ذلك تحويل الروابط التجارية عبر «أعالي الشمال» متسبّباً في آثار غير مباشرة في أماكن بعيدة مثل مصر وبنما من حيث الإيرادات التي تجنيها قناة السويس وقناة بنما. بالإضافة إلى أن الطريق الشمالي الشرقي، أو طريق البحر الشمالي كما يسميه الروس، وهو يلاصق الساحل السيبيري، مفتوح الآن كذلك لعدة أشهر في السنة، وقد أصبح طريقاً بحرياً سريعاً يتزايد الإقبال عليه.

يكشف ذوبان الجليد عن ثروات أخرى محتملة، حيث يُعتقد أن كميات هائلة من الغاز الطبيعي واحتياطيات النفط غير المكتشفة قد تكون في القطب الشمالي ضمن مناطق يمكن الوصول إليها

واستغلالها. وقد قدرت هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية عام 2008 أن القطب الشمالي يحتوي على 1670 تريليون قدم مكعب من الغاز الطبيعي، و44 مليار برميل من سوائل الغاز الطبيعي و90 مليار برميل من النفط. وكلما أصبح الوصول إلى المزيد من الأراضي متاحاً، قد يتم اكتشاف احتياطيات إضافية من الذهب والزنك والنيكل والحديد الموجودة بالفعل في جزء من القطب الشمالي. ومن بين الشركات الكبرى التي تقدمت للحصول على تراخيص التنقيب والحفر الاستكشافي اكسونموبيل وشل وروسنفت. وسيتعين على الدول والشركات المستعدة لبذل الجهود من أجل استغلال الثروات الطبيعية أن تتحلى بالشجاعة في مناخ تكون فيه الأيام طوال معظم أيام السنة ليالٍ لا نهاية لها، حيث يتجمد البحر بعمق يزيد عن ستة أقدام، وحيث يمكن أن يصل ارتفاع الأمواج في المياه المفتوحة إلى ستة عشر قدماً... سيكون عملاً قذراً وشاقاً وخطراً، خاصة بالنسبة إلى مَن يأمل الإنهماك في العمل على مدار العام، وسيتطلب ذلك استثمارات ضخمة.

لن يكون تشغيل خطوط أنابيب الغاز ممكناً في العديد من الأماكن، كما أن بناء بنية تحتية معقدة للإسالة في البحر، خاصة في الظروف الصعبة، مكلّف جداً. ومع ذلك، فإن المكاسب المالية والاستراتيجية التي يُتوقّع تحقيقها تعني أن اللاعبين الكبار سيحاولون المطالبة بالمناطق والبدء في الحفر، وأنه من غير المرجح أن توقفهم العواقب البيئية المحتملة.

لا تستند مطالبات السيادة إلى الأعلام التي نصبها المستكشفون الأوائل، ولكن على «اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار»، ويؤكد هذا أن الموقّع على الاتفاقية له الحق في التمتع بـ«منطقة اقتصادية خالصة» (EEZ) من شاطئه إلى تخوم 200 ميل بحري (ما لم يتعارض هذا مع حدود دولة أخرى)، ويمكنه إعلانها «منطقة اقتصادية خالصة». لذلك يعتبر النفط والغاز في المنطقة ملكاً للدولة، ويمكن لهذه الدولة في ظروف معينة، رهناً بالأدلة العلمية المتعلقة بالجرف القاري لبلد ما، أن تتقدّم بطلب لمدّ سيطرتها حتى 350 ميلاً من ساحلها، فإذا قُبل ذلك، فإن التمديد يسري على قاع البحر ويستبعد حقوق الصيد.

يؤدي ذوبان الجليد في القطب الشمالي إلى تشديد مواقف الأعضاء الثمانية في «مجلس القطب الشمالي»[102]، وهو المنتدى الذي تتحول فيه الجغرافيا السياسية (جيوبوليتكا) إلى جغرافية سياسية قطب-شمالية (جيوبولاركتيكا).[103]

إن دول القطب الشمالي الخمسة هي تلك الدول التي لها حدود على المحيط المتجمد الشمالي، وهي كندا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية والنرويج والدنمارك (بسبب مسؤوليتها عن غرينلاند).

---

102 . منتدى حكومي دولي يعالج القضايا التي تواجهها حكومات القطب الشمالي، حيث تمارس ثماني دول السيادة على الأراضي الواقعة داخل الدائرة القطبية الشمالية، وهي كندا والدنمارك وفنلندا وأيسلندا؛ ونرويج وروسيا والسويد والولايات المتحدة.

103 . يشتق لها المؤلف مصطلحاً جديداً هو geopolarctics في مقابل الجغرافيات السياسية geopolitics.

وقد انضمت إليها أيسلندا وفنلندا والسويد، وهي أعضاء كاملة العضوية أيضاً. وهناك اثنتا عشرة دولة أخرى تتمتع بصفة مراقب دائم اعترفت «بسيادة دول القطب الشمالي» وحقوقها السيادية وولايتها على المنطقة، من بين معايير أخرى، حيث منح مجلس القطب الشمالي عام 2013 صفة مراقب لليابان والهند اللتان رعتا بعثات علمية في القطب الشمالي، وكذلك الصين التي لديها قاعدة علمية في جزيرة نرويجية بالإضافة إلى كاسحة جليد حديثة.

ومع ذلك فإن هناك دول لا تتمتع بعضوية المجلس ولكنها تقول بأن لها مصالح مشروعة في المنطقة، وهي تجادل بأن القطب الشمالي يجب أن يكون مفتوحاً أمام الجميع، بموجب نظرية «تراث البشرية المشترك».

يوجد حالياً ما لا يقل عن تسعة نزاعات وادعاءات قانونية بشأن السيادة في المحيط المتجمد الشمالي، وكلها معقّدة قانونياً، كما يمكن لبعضها أن يتسبب في توترات خطيرة بين الدول. واحدة من أكثر هذه الادعاءات صفاقةً جاءت من روسيا، حيث أرسلت موسكو عام 2007 غواصتين اتجهتا بعمق 13980 قدماً إلى قاع البحر في القطب الشمالي، وهناك زرعت علماً روسياً من التيتانيوم مقاوماً للصدأ، إعلاناً عن طموحها، وبقدر ما نعرف فإن العلم ما زال «يرفرف» هناك، ثم طالب مركز بحثي روسي أن بإعادة تسمية القطب الشمالي، وبعد أن لم يفكروا طويلاً، توصلوا إلى بديل جديد: «المحيط الروسي».

في مكان آخر، تجادل روسيا بأن سلسلة جبال «لومونوسوف» الواقعة قبالة ساحلها السيبيري هي امتداد لجرف سيبيريا القاري، فهي بالتالي تتبع روسيا حصرياً، ويمثل هذا مشكلة بالنسبة إلى البلدان الأخرى، نظراً إلى أن سلسلة الجروف تمتد طوال الطريق إلى القطب الشمالي.

من ناحية أخرى، فإن روسيا والنرويج تواجهان إشكالاً خاصاً في بحر «بارنتس»، حيث ادّعت النرويج أن سلسلة حيد جاكل[104] في بحر بارنتس[105] تعدّ امتداداً «للمنطقة الاقتصادية الخالصة» (EEZ) الخاصة بها، لكن الروس اعترضوا على ذلك، وكان نزاعهم يتعلق بجزر «سفالبارد»، وهي أقصى نقطة في الشمال على الأرض يأهَلُها سكان مستقرون، ثم توصل الطرفان إلى اتفاق عام 2011 يقضي بتقاسم المنطقة، ولكنها لا تزال مصدر توتر بينهما حتى الآن. وتعترف معظم الدول والمنظمات الدولية بأن هذه الجزر تخضع للسيادة النرويجية (المحدودة)، لكن أكبرها، وهي جزيرة «سبيتسبيرغن» يأهلها عدد متزايد من المهاجرين الروس الذين تجمعوا حول صناعة تعدين الفحم هناك، وبالرغم من أن المناجم ليست مربحة، إلا أن روسيا تستخدمها أداةً مفيدة في تعزيز مطالباتها بجميع جزر سفالبارد. وفي الوقت الذي تختاره (أي

---

104 . حيد جاكل Gakkel Ridge: حيد وسط المحيط القطبي الشمالي بين غرينلاند وسيبيريا، يبلغ طوله 1,800 كيلو متر تقريباً. يعود اسمه إلى المستكشف السوفيتي ياكوف جاكل الذي كان أول من اشار إليه.

105 . بحر بارنتس Barents Sea: بحر هامشي في المحيط المتجمد الشمالي منقسم بين المياه الإقليمية النرويجية والروسية.

روسيا)، فإنها تستطيع إثارة التوترات حول هذه المسألة، وتبرّر أفعالها باستخدام الادعاءات الجيولوجية وحقيقة وجود السكان الروس على الأرض. وقد عرّف وزير دفاع موسكو سفالبارد عام 2017 بأنها «منطقة محتملة لنزاع مستقبلي» مع النرويج، وتباعاً فإن ذلك يعني أيضاً أنها منطقة نزاع محتمل مع الناتو. وفي أبريل 2019، وقع حادث كوميدي خطير عندما واجهت النرويج حوتاً من حيتان بيلوغا[106] اشتبهت في استخدامه من قبل روسيا لغرض التجسس. كان يحيط بالحوت حزام غريب روسي الصنع يمكن أن تُثبَّت فيه آلات تصوير، وكانت على الحزام عبارة «معدّات سان بطرسبرغ»، وقد علّق عقيد روسي على ذلك قائلاً: «هل تعتقدون حقاً أننا سوف نرفق به رقم هاتف محمول مع رسالة تقول: الرجاء الاتصال بهذا الرقم؟».

سواء كان ذلك حوت تجسّس أم لا، فإن النرويج تعرف ما قد يحدث، وقد جعلت أعالي الشمال من أولويات سياستها الخارجية، كما تعترض قواتها الجوية بانتظام طائرات مقاتلة روسية تقترب من حدودها، وقد تسببت التوترات المتصاعدة في نقل مركز عملياتها العسكرية من جنوب البلاد إلى الشمال، وتقوم ببناء كتيبة في القطب الشمالي. أما كندا فتعزّز قدراتها العسكرية الخاصة بالعمل في الطقس البارد، كما ردّت الدنمارك أيضاً على استعراض العضلات الذي

106 . حوت بيلوغا beluga whale: من الحيتان القطبية وشبه القطبية، ويُعرف أيضاً باسم الحوت الأبيض، كما يسمى «كناري البحر» بسبب الأصوات عالية النبرة التي يصدرها.

تقوم به موسكو عن طريق إنشاء «قوة الرّكْس القطبية».[107]

في غضون ذلك، تقوم روسيا ببناء «الجيش القطبي» أو «جيش القطب الشمالي»، حيث بُنيت ست قواعد عسكرية جديدة، وفعّلت العديد من منشآت الحرب الباردة المعطَّلة، مثل تلك الموجودة في جزر «نوفوسيبيرسك» فأعادت افتتاحها، وجُدّدت مدارج الطائرات فيها، وجُهزت لها قوة لا تقلّ عن 6000 جندي مقاتل لمنطقة «مورمانسك»، وسوف تضيف لواءي مشاة ميكانيكيين مجهزين بعربات ثلجية وحوامات.

ليس من قبيل المصادفة أن يُطلق على «مورمانسك» الآن اسم «بوابة الطاقة الروسية الشمالية»، وأن يقول الرئيس بوتين إنه في ما يتعلق بإمدادات الطاقة، فإن «الحقول البحرية، خاصة في القطب الشمالي، تقع -دون أي مبالغة- في احتياطاتنا الاستراتيجية للقرن الحادي والعشرين».

سوف تكون «كتائب مورمانسك» هي قوة موسكو القطبية الدائمة، لكن روسيا أظهرت قدرتها القتالية الكاملة في الطقس البارد عام 2014 عن طريق تمرين شارك فيه 155.000 رجل وآلاف الدبابات والطائرات والسفن. وقالت وزارة الدفاع الروسية إنها أكبر من التدريبات التي كانت قد أجرتها إبان الحرب الباردة.

كُلِّفت القوات الروسية خلال المناورات الحربية بصدّ غزو تنفذه

107 . الرّكس لغةً: ردٌّ وفعل. والقوة المشار إليها هي Arctic Response Force.

قوة أجنبية تسمّى «ميزوري»، وتعني بها الولايات المتحدة كما هو واضح. كان السيناريو يتلخص في أن قوات «ميزوري» هبطت في تشوكوتكا وكامتشاتكا وجزر الكوريل وساخالين، لدعم قوة آسيوية لم تذكر اسمها كانت قد اشتبكت مع روسيا. القوة غير المسمّاة هي اليابان، وقد أثار الصراع كما حدّده السيناريو نزاعاً إقليمياً قال محللون إنه يدور حول جزر الكوريل الجنوبية. ثم أكّد العرض العسكري نوايا موسكو من الناحية السياسية، عندما أضاف الرئيس بوتين لأول مرة منطقة القطب الشمالي بوصفها مجالاً من مجالات النفوذ الروسي في عقيدة سياستها الخارجية الرسمية.

على الرغم من تقلص القوة الاقتصادية الروسية، ما أدى تبعاً إلى خفض ميزانية العديد من الإدارات الحكومية، إلا أن ميزانيتها الدفاعية قد زادت، ويعدّ هذا جزئياً للإنفاق على تعزيز القدرات العسكرية في القطب الشمالي حتى عام 2020. إن لدى موسكو خطط للمستقبل، وبنية تحتية من الماضي، وميزة يتيحها لها الموقع. وكما قالت ميليسا بيرت، قبطان خفر السواحل الأمريكية، لمركز الدراسات الدولية والاستراتيجية في واشنطن العاصمة: «إن لديهم مدنٌ في القطب الشمالي، أما نحن فلدينا قرًى فقط».

يعدّ كل هذا من نواح كثيرة استمرار، أو إحياء على الأقل، لسياسات روسيا في القطب الشمالي إبان الحرب الباردة. يعرف الروس أن الناتو يمكنه عرقلة أسطولهم في البلطيق عن طريق

محاصرة مضيق «سكاغيراك» [108]. وهذا الحصار المحتمل معقّد بسبب حقيقة أن أسطولهم الشمالي في القطب الشمالي ليس أمامه سوى 180 ميلاً من المياه المفتوحة من ساحل كولا حتى يصل إلى الكتلة الجليدية في القطب الشمالي، ومن هذا الممر الضيق، يجب أن ينزل أيضاً عبر البحر النرويجي، ثم يعبر فجوة «جي يو كي» (GIUK)[109] التي لا يأمن فيها المخاطر، وصولاً إلى المحيط الأطلسي. لقد كانت هذه المساحة تُعرف من قبل الناتو إبان الحرب الباردة باسم «منطقة القتل»، حيث كان من المتوقع آنذاك أن تقع قطع الأسطول السوفييتي في قبضة سفن وغواصات وطائرات الناتو.

مع التقدّم بخطوات سريعة نحو الحرب الباردة الجديدة تظلّ الاستراتيجيات كما هي، حتى لو سحب الأمريكيون الآن قواتهم من أيسلندا حليفتهم في الناتو. إن آيسلندا لا تمتلك قوات مسلحة خاصة بها، ووصفت الحكومة الأيسلندية الانسحاب الأمريكي بأنه «قصير النظر». قال وزير العدل الأيسلندي بيورن بيارناسون في خطاب ألقاه أمام «المجلس الأطلسي السويدي»: «يجب الحفاظ على وجود عسكري معيّن في المنطقة، لإرسال إشارة حول مصالح وطموحات الدولة، لأن الفراغ العسكري يمكن أن يفسّر على أنه غياب المصلحة والأولوية وطنية».

---

108 . خليج سكاجيراك Skagerrak Strait: خليج يحيط بالجنوب الغربي من السويد والجنوب الشرقي من النروج، بمساحة تبلغ 32000 كيلومتر مربع.

109 . انظر التعريف السابق بهذه الفجوة.

ومع ذلك، أصبح من الواضح، منذ أكثر من عقد من الزمان، أن القطب الشمالي يمثل أولوية بالنسبة إلى الروس بطريقة مختلفة عن تعامل الأمريكيين معه، وقد انعكس هذا على درجة الاهتمام الذي توليه الدولتان للمنطقة، ويظهر ذلك في حالة الولايات المتحدة، في عدم اهتمامها النسبي منذ انهيار الاتحاد السوفيتي. إن بناء كاسحة جليد واحدة يستغرق عشر سنوات ويكلّف ما يصل إلى مليار دولار، ومن الواضح أن روسيا هي القوة القطبية الرائدة في هذا المجال حيث لديها أكبر أسطول من كاسحات الجليد في العالم، يضم في مجموعه 44 كاسحة، وفقاً لنشرة خفر السواحل الأمريكية الصادرة عام 2013، وتعمل خمسة من هذه المجموعة بالطاقة النووية، وهي الوحيدة من نوعها في العالم. وقد وصلت عام 2018 كاسحة الجليد الأكثر تقدماً حتى الآن «إليا مورروميتس»، في مهمة عمل إلى «مورمانسك»، وتستطيع هذه السفينة كسر جليد بسُمْك متر، قد قادت في مهمتها الأولى تلك غواصة نووية خارج الميناء وعبر حقل جليدي. تقول موسكو أنه بحلول عام 2035 سيكون لديها ثلاثة عشر كاسحة جليد ثقيلة، بما في ذلك تسعٌ منها تعمل بالطاقة النووية.

على النقيض من ذلك، كان لا يزال لدى الولايات المتحدة، حتى عام 2019، كاسحة جليد ثقيلة واحدة فقط، وهي «يو.اس.اس پولار ستار»، بعد أن كانت تمتلك ثمانٍ منها في ستينيات القرن الماضي. وحدث في فبراير 2019 أن اشتعلت النيران في السفينة البالغة من العمر 43 عاماً أثناء عودتها من مهمة إعادة إمداد إلى

القارة القطبية الجنوبية؛ تعطّلت الطاقة في محركات السفينة، وانكسر مبخر تصنيع مياه الشرب، وتلف عمود دوران المروحة. بعد أيام قليلة من ذلك، وافق الكونغرس والرئيس ترامب على تمويل كاسحة جليد ثقيلة جديدة، ويجري بالفعل تجديد «پولار ستار» لتشغيلها مدة عشر سنوات أخرى، أي حتى عام 2023، لكن من غير المرجح أن تكون السفينة الجديدة جاهزة في الوقت المناسب لتولي المهمة. وحتى عندما تدخل الخدمة، فقد يظل من المطلوب الذهاب إلى القطب الجنوبي، لا القطب الشمالي. كما يقدر خفر السواحل الأمريكي أنه يحتاج إلى ستة كاسحات جليد ثقيلة جديدة على الأقل بحلول عام 2029، لتلبية مطالبه «على نحو كافٍ»، وقد اقترح تقرير موجّه إلى الكونغرس أن تُسلّم السفينة الأولى بحلول عام 2023، ثم سفينة أخرى كل عام، ولكن من غير المرجح الإيفاء بذلك على النحو المطلوب، طالما أن الرئيس ترامب يفكر في إمكان الاستعانة بالأموال المخصصة لهذا المشروع في بناء جداره المثير للجدل على الحدود المكسيكية.[110]

تخاطر الولايات المتحدة بأن تكون في موقف حرج بسبب افتقارها للقدرات من عدة طرق. ففي عام 2012، كان عليها الاعتماد على سفينة روسية لإعادة إمداد قاعدتها البحثية في القطب الجنوبي، وهو ما مثّل انتصاراً في تعاون القوى العظمى، ولكنه برهان في الوقت نفسه على مدى تراجع الولايات المتحدة. لا توجد

110 . انظر الملاحظة السابقة حول جدار ترامب.

دولة أخرى تواجه تحدياً مماثلاً، ففي كندا يوجد سبع كاسحات جليد ثقيلة ومتوسطة الحجم، ولدى فنلندا ثماني كاسحات، ولدى السويد سبع كاسحات، ولدى الدنمارك أربعٌ، ولدى كل من الصين وألمانيا والنرويج كاسحة واحدة. وقد أعلنت الصين عام 2019 أنها بصدد بناء سفينة عملاقة تعمل بالطاقة النووية، وهي خطوة تشير إلى مصالحها في المياه الغنية بالطاقة في القطب الشمالي.

قام الرئيس أوباما في خريف 2015 برحلة إلى ألاسكا دعا خلالها إلى بناء المزيد من كاسحات الجليد الأمريكية. ومع ذلك، فإن هذه الملاحظة ظلت عابرة تقريباً في رحلة كانت تتمحور حول قضية تغير المناخ، فلم يُذكر تقريباً ما يتعلق بجوانب الأمن والطاقة في القطب الشمالي، ولا تزال واشنطن متخلفة في هذا المجال، وهو أمر لم يغيره انتخاب الرئيس ترامب.

لدى الولايات المتحدة مشكلة أخرى، فهي لم تصدّق على «اتفاقيّة الأمم المتحدة لقانون البحار»، وتنازلت فعلياً عن 200.000 ميل مربع من الأراضي الواقعة تحت البحر في القطب الشمالي، لأنها لم تطالب بـ«منطقة اقتصادية خالصة» (EEZ) حسب الاتفاقية.

مع هذا، هناك خلاف مع كندا حول حقوق النفط البحرية المحتملة، وحول إمكان الوصول إلى المياه في الأرخبيل الكندي الذي تقول عنه كندا إنه «ممر مائي داخلي»، بينما تقول الولايات المتحدة إنه مضيق للملاحة الدولية لا يحكمه القانون الكندي. في

عام 1985، أرسلت الولايات المتحدة كاسحة جليد عبر المياه الأرخبيل دون إبلاغ كندا مسبقاً، ما تسبب في اندلاع نزاع غاضب بين الجارتين اللتين تتسم علاقتهما بالود والتوجّس في الوقت نفسه.

الولايات المتحدة من ناحية أخرى في نزاع مع روسيا حول بحر بيرنغ والمحيط المتجمد الشمالي وشمال المحيط الهادئ، كانت قد وقعت مع الاتحاد السوفيتي السابق اتفاقية الحدود البحرية عام 1990، وتنازلت موسكو بموجبها عن منطقة صيد. ومع ذلك، فإن البرلمان الروسي بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، رفض التصديق على الاتفاقية. أن الطرفين يعاملان المنطقة على أنها خاضعة للسيادة الأمريكية، لكن الروس يحتفظون بحق العودة إلى هذه القضية.

ثمة نزاعات أخرى، منها نزاع بين كندا والدنمارك حول جزيرة هانز الواقعة في مضيق ناريس الذي يفصل غرينلاند عن جزيرة إليسمير. تتمتع غرينلاند التي يبلغ عدد سكانها 56.000 نسمة بحكم ذاتي، لكنها لا تزال تحت السيادة الدنماركية، وقد تركت اتفاقية 1953 بين الدنمارك وكندا الجزيرةَ محل نزاع بينهما، ومنذ ذلك الحين، بذل كلا البلدين عناء الإبحار إليها ونصب أعلامه الوطنية عليها.

إن جميع قضايا السيادة تنبع من الرغبات والمخاوف نفسها؛ الرغبة في حماية طرق الشحن العسكري والتجاري، والرغبة في امتلاك الثروات الطبيعية التي تنطوي عليها المنطقة، وخوف الأطراف من أن يكسب الآخرون دونهم. لقد كانت الثروات

متصوَّرةً نظرياً حتى وقت قريب، لكن ذوبان الجليد جعل التصوّر محتملاً، ومؤكَّداً في بعض الحالات.

يغيّر ذوبان الجليد الجغرافيا والمخاطر، ولدى دول القطب الشمالي وشركات الطاقة العملاقة الآن قرارات يتعيّن عليها اتخاذها بشأن كيفية تعاملها مع هذه التغييرات ومقدار الاهتمام الذي توليه للبيئة وشعوب القطب الشمالي. يرجّح الجوع الدائم إلى الطاقة أن السباق أمر لا مفر منه في ما أطلق عليه بعض المتخصصين في القطب الشمالي «اللعبة الكبرى الجديدة». سيكون هناك المزيد من السفن في أعالي الشمال، والكثير من منصات النفط ومنصات الغاز... الكثير من كل شيء في الواقع، والروس لا يمتلكون كاسحات جليد تعمل بالطاقة النووية فحسب، بل يفكرون أيضاً في بناء محطة طاقة نووية عائمة قادرة على سحق ثقل جليدي يبلغ عشرة أقدام.

مع ذلك، هناك اختلافات بين هذا الوضع وبين «التكالب على إفريقيا» في القرن التاسع عشر، أو مكائد القوى العظمى في الشرق الأوسط والهند وأفغانستان في «اللعبة الكبرى» الأصلية، فلهذا السباق قواعد وصيغة ومنتدى لاتخاذ القرار. يتكون «مجلس القطب الشمالي» من دول ناضجة، معظمها ديمقراطية بدرجة أو بأخرى، ووهي ملتزمة بالقوانين الدولية التي تنظم النزاعات الإقليمية والتلوث البيئي وقوانين البحار ومعاملة الأقليات، كما إن معظم الأراضي المتنازع عليها لم يتم احتلالها إبان إمبريالية القرن التاسع عشر، أو من قبل دول قومية خاضت حرباً ضد بعضها

بعضاً.

إن دول القطب الشمالي تدرك أن جوارها صعبٌ، لا بسبب وجود فصائل متحاربة، ولكن بسبب التحديات التي تمثلها جغرافيتها. هناك خمسة ملايين ونصف مليون ميل مربع من المحيط في القطب الشمالي، ويمكن أن تكون فضاء مظلماً وخطيراً وقاتلاً. إنه ليس مكاناً جيداً يمكن ارتياده بدون أصدقاء، وتعلم تلك الدول أنها تحتاج إلى التعاون إذا أرادت النجاح، لا سيما في قضايا مثل مخزون الصيد والتهريب والإرهاب والبحث والإنقاذ والكوارث البيئية.

من المنطقي أن يتصاعد الخلاف حول حقوق الصيد إلى شيء أكثر خطورة، كما في مثال المملكة المتحدة وأيسلندا اللتين كادتا تتصادمان أثناء «حروب سمك القد» في الخمسينيات والسبعينيات من القرن الماضي. عمليات التهريب تحدث أيضاً حيثما وجدت طرق العبور، وليست هناك سبب للاعتقاد بأن القطب الشمالي سيكون مختلفاً، لكن ضبط الأمن سيكون صعباً بسبب الظروف السائدة هناك. ومع توجه المزيد من السفن التجارية والسفن السياحية إلى المنطقة، فإن قدرات البحث والإنقاذ ومكافحة الإرهاب في دول القطب الشمالي تحتاج بالتالي إلى النمو، وكذلك قدرتها على التعامل مع الكوارث البيئية في المياه التي تزدحم بشكل متزايد. في عام 1965 أُصيب مفاعل كاسحة الجليد «لينين» بعطل أثناء وجودها في البحر. بعد عودتها إلى الشاطئ، قُطعت أجزاء من المفاعل، ووُضعت مع

الوقود التالف في حاوية خرسانية ذات بطانة فولاذية، ثم أُلقيت في البحر. من المحتمل أن تحدث مثل هذه الحوادث بشكل متكرر مع انفتاح القطب الشمالي، وسيظل من الصعب إدارتها. ربما سيصبح القطب الشمالي في نهاية المطاف مجرد ساحة معركة تجوبها الدول القومية، فالحروب تبدأ عادةً بالخوف من الآخر وبسبب الجشع، لكن القطب الشمالي يظلّ مختلفاً، ولعل طريقة التعامل معه تكون مختلفة كذلك. لقد أظهر لنا تاريخنا أن اللعبة التي تنتهي بمحصلة صفريّة تمر عن طريق الجشع. يمكن القول هنا أن الاعتقاد الجزئي في الحتمية الجغرافية، مرتبطةً بالطبيعة البشرية، جعل من الصعب وجود أي طريقة أخرى. ومع ذلك، هناك أمثلة ترينا كيف ساعدتنا التقنية على الانعتاق من سجن الجغرافيا. يمكننا عبور الصحاري والبحار، مثلاً، بسرعات لم يكن من الممكن للأجيال السابقة أن تتخيلها. لقد كسرنا قيود الجاذبية الأرضية. وفي عالمنا المعولم حديثاً، يمكننا استخدام هذه التكنولوجيا لمنحنا جميعًا فرصة في القطب الشمالي، يمكننا التغلب على الجانب الجشع من طبيعتنا، والانخراط في «لعبة كبرى» تلائم مصلحة الجميع.

لقد انتهينا إلى بلوغ قمة العالم، لذا فإن الطريق الوحيد هو الصعود.

لطالما استدعت الحدود النهائية خيالنا، لكن عصرنا هو العصر الذي عاشت فيه البشرية الحلم واندفعت فيه إلى الفضاء «مليمتراً» واحداً صوب اللانهاية، على الطريق إلى المستقبل. إن روح الإنسانية

المضطرب يضمن ألا تقتصر حدودنا على ما أطلق عليه «كارل ساغان» الشهير «النقطة الزرقاء الباهتة».

لكن يجب أن نعود إلى الأرض، مع الارتطام بها أحياناً، لأننا لم نتغلب على جغرافيتنا بعد، ولا على نزوعنا إلى التنافس عليها.

لطالما كانت الجغرافيا سجناً من نوع ما؛ سجناً يحدّد ماهية الدولة أو ما يمكن أن تكون عليه، وسجناً ناضل قادة عالمنا كثيراً للتحرر منه.

ربما تكون روسيا أوضح مثال لذلك، فهي تتوسع بشكل طبيعي من منطقة صغيرة من مهاد الأرض المنبسطة كانت تسيطر عليها حتى غطت منطقتها الحيوية مساحة شاسعة تطوّق الجبال والبحار معظمها، مع نقطة ضعف واحدة فقط عبر السهل الأوروبي الشمالي. إذا أراد القادة الروس إنشاء دولة عظيمة، وهذا ما فعلوه، فلن يكون لديهم خيار سوى ما يجب فعله حيال نقطة الضعف تلك. وبالمثل، لم يتم اتخاذ قرار مدروس في أوروبا بأن تصبح منطقة تبادل تجاري ضخمة، ولكن شبكات الأنهار الطويلة والمستوية جعلت ذلك ممكناً، إلى حد ما، على مدى آلاف السنين.

مع تقدم القرن الحادي والعشرين، فإن العوامل الجغرافية التي ساعدت على تحديد تاريخنا ستستمر غالباً في تحديد مستقبلنا. ستظل روسيا، بعد قرن من الآن، تنظر بقلق نحو الغرب عبر ما سيظل أرضاً منبسطة (أي السهل الأوروبي الشمالي). وسوف تظل الهند والصين مفصولتين بجبال الهيمالايا؛ قد يتصادم الطرفان في نهاية

المطاف، فإذا حدث ذلك، ستحدّد الجغرافيا طبيعة القتال: إما أنهما سيحتاجان إلى تطوير تقنياتهما لتمكين قوى عسكرية ضخمة من العبور فوق الجبال، أو - إذا ظلّ ذلك مستحيلاً ولا يريد أي منهما الانزلاق إلى حرب نووية - فسوف يتواجهان في البحر. سوف تواصل فلوريدا حراسة مخارج ومداخل خليج المكسيك. إن موقع الخليج هو المفتاح، وليس من يسيطر عليه. لنأخذ سيناريو متطرفاً وغير مرجّح: لنتخيل أن أغلبية فلوريدا ذات الأصل الإسباني انفصلت عن الولايات المتحدة وتحالفت مع كوبا والمكسيك. هذا من شأنه أن يغير تدابير من يسيطر على الخليج فحسب، ولن يؤثر على أهمية الموقع.

إن الجغرافيا لا تملي مسار جميع الأحداث بالطبع. الأفكار العظيمة والقادة العظماء هم جزء من عملية دفعٍ وجذبٍ يقوم بها التاريخ، لكن يجب أن يعملوا جميعاً ضمن حدود الجغرافيا. قد يحلم قادة بنغلاديش بمنع المياه من الفيضانات في خليج البنغال، لكنهم يعلمون أن 80 في المائة من البلاد تقع في سهل فيضانيّ ولا يمكن نقلها. إنها نقطة ذكرها الزعيم الإسكندنافي والإنجليزي الملك كانوت لحاشيته من المتملقين في القرن الحادي عشر، عندما أمر الأمواج بالتراجع: الطبيعة، أو الله، أعظم من أي إنسان. في بنغلاديش، كل ما يمكن فعله هو الاستجابة لحقائق الطبيعة: بناء المزيد من الدفاعات ضد الفيضانات، وتأمّل أن تكون النمذجة الحاسوبية التي تجسّد ارتفاع المياه بسبب الاحتباس الحراري محاكاةً مبالغاً فيها.

تقدم الحقائق الجغرافية الجديدة مثل تغير المناخ فرصاً وتحديات جديدة. قد يؤدي الاحتباس الحراري إلى حركة البشر جماعياً. إذا كان مصير جزر المالديف والعديد من الجزر الأخرى أن تضيع بسبب الأمواج، فلن يكون التأثير على أولئك الذين غادروا قبل فوات الأوان فحسب، وبل وتلك البلدان التي يفرون إليها. إذا تفاقمت الفيضانات في بنغلاديش، فإن مستقبل البلاد وسكانها البالغ عددهم 164 مليون نسمة سيكون مريعاً، أما إذا ارتفعت مستويات المياه إلى أكثر من ذلك بكثير، فقد يغرق هذا البلد الفقير. وإذا استمر تصحّر الأراضي الواقعة جنوب منطقة الساحل الأفريقي مباشرة، فستشتد الحروب مثل حرب دارفور بالسودان وتنتشر (كان زحف الصحراء على البدو الرحّل في الشمال، سبباً جزئياً في الحرب، لأنه دفع البدو جنوباً نحو شعب الفور). [111]

حروب المياه هي مشكلة أخرى محتملة. وحتى إذا ظهرت ديمقراطيات مستقرة في الشرق الأوسط في العقود القادمة، مع تضاؤل مياه نهر مراد[112] إلى مستوى واضح، وهو يتدفق في تركيا قبل رَفْد نهر الفرات، فإن السدود التي ستبنيها تركيا لحماية أحد مصادرها الحيوية، يمكن أن تكون بسهولة سبباً للحرب مع سوريا والعراق؛ بلدا المصب.

---

111 . شعب الفور Fur people: مجموعة إثنية كبرى في غرب السودان، تقطن دارفور ويتحدثون لغة الفور من العائلة النيلوصحراوية.

112 . نهر مراد Murat River، ويعرف أيضاً باسم الفرات الشرقي، ينبع بالقرب من جبل أرارات شمال بحيرة فان، شرق تركيا، وهو من مصادر نهر الفرات.

إذا تطلّعنا قدماً، مع استمرارنا في الإفلات من سجن جغرافيتنا باتجاه الكون، سوف تستمر الصراعات السياسية في الفضاء؛ في المستقبل المنظور على الأقل.

لقد اخترق البشر الطبقة العليا من الستراتوسفير أول مرة عام 1961 عندما وصل رائد الفضاء السوفيتي يوري غاغارين، وكان في السابعة والعشرين، إلى الفضاء على متن المركبة الفضائية «فوستوك 1». إنه لانعكاس كئيب على وجه الإنسانية أن نرى اسم زميله الروسي «كلاشينكوف» أكثر انتشاراً وشيوعاً!

غاغارين وباز ألدرين وكثيرون غيرهما، هم من نسل ماركو بولو وكريستوفر كولومبوس وأولئك الرواد الذين تجاوزوا الحدود وغيروا العالم بطرق لم يتخيلوها في حياتهم. وسواءً أدى ما حدث إلى الأفضل أو إلى الأسوأ، فإنهم اكتشفوا فرصاً جديدة، ومساحات جديدة، تتنافس فيها الشعوب لتحقيق أقصى فائدة أرادتها الطبيعة. سوف يستغرق الأمر أجيالاً، ولكن ذلك سيحدث في الفضاء؛ سوف نغرس أعلامنا، و«نغزو» الأبعاد، ونطالب بالأمكنة، ونتغلب على الحواجز التي يضعها الكون في طريقنا.

يوجد الآن حوالي 1100 قمر صناعي يعمل في الفضاء، وما لا يقل عن 2000 قمر لا يعمل. أطلق الروس والأمريكيون ما يقرب من 2400 من إجمالي هذه «السواتل»[113]، وحوالي 100 من

---

113 . الساتل satellite (ج. سواتل)، ويبدو هذا التعريب موفقاً فالجذر العربي يلتقي مع الأصل اللاتيني satellus في معنى: تابع. ويُقدّر أن أصل الكلمة اللاتينية أتروسكاني بالمعنى نفسه.

اليابان، وعدد مماثل من الصين، تليها مجموعة من الدول الأخرى بعدد أقل بكثير. ويوجد أسفل هذه السواتل محطات فضائية، حيث يعيش رواد الفضاء ويعملون بشكل شبه دائم خارج حدود الجاذبية الأرضية. ويعتقد -بالإضافة إلى ذلك- أن خمسة أعلام أمريكية على الأقل لا تزال منتصبة على سطح القمر، والأبعد من ذلك أن أجهزتنا نجحت في اجتياز المريخ والمشتري، وما زال بعضها يتجه إلى أبعد مما يمكننا رؤيته ونسعى إلى فهمه.

من المغري التفكير في أن مساعينا في الفضاء تربط البشرية بمستقبل جماعي مشترك. ولكن قبل ذلك فإن المنافسة على التفوق في الفضاء الخارجي سوف تستمر. فالسواتل ليست موجودة هناك لكي تعكس صورنا التلفزيّة، أو تتنبأ بالطقس؛ إنها تتجسّس أيضاً على البلدان الأخرى، لمعرفة من يتحرّك وإلى أين وماذا يفعل. إلى جانب ذلك، تتشارك أمريكا والصين في تطوير تقنية الليزر التي يمكن استخدامها سلاحاً، ويسعى كلاهما لضمان امتلاك نظام صاروخي يمكنه العمل في الفضاء، كما تقوم العديد من الدول المتقدمة تقنياً في وقتنا هذا بإجراء الاستعدادات في حالة اضطرارها للقتال في الفضاء.

عندما نصل إلى النجوم، فإن التحديات التي أمامنا ستكون كبيرة إلى الدرجة التي ربما يتعين علينا أن نتكاتف لمواجهتها، أي أن نرتاد الكون لا بوصفنا روساً أو أميركيين أو صينيين، ولكن لأننا نمثّل البشرية جمعاء. إلا أننا حتى الآن، على الرغم من تحرّرنا من قيود

الجاذبية، ما زلنا سجناء أفكارنا، محاصرين بشكوكنا في «الآخر»، ويتنافسنا البدائي على الموارد... أمامنا طريق طويل يتعيّن علينا أن نجتازه.



المراجع

مراجع عامة:

-Diamond, Jared, Guns, Germs, and Steel (New York: W. W. Norton, 2005) Dodds, Klaus, Geopolitics: A Very Short Introduction (Oxford: Oxford University Press, 2007)

-Ikenberry, G. John, 'The Illusion of Geopolitics', Foreign Affairs (May/June 2014)

-Keegan, John, Atlas of World War Two (London: Harper Collins, 2006) Mackinder, Halford John, 'The Geographical Pivot of History', The Geographical Society, Vol. 23, No. 4 (April 1904), 421–37 Mackinder, Halford John, Democratic Ideals and Reality, 1919 Mead, Walter Russell, 'The Return of Geopolitics', Foreign Affairs (May/June 2014)

-Monmonier, M., How to Lie with Maps (Chicago: University of Chicago Press, 1996)

-Parry, Chris, Super Highway: Sea Power in the 21st Century (London: Elliott & Thompson, 2014)

-Pickles, John, A History of Spaces: Cartographic Reason, Mapping and the Geo-Coded World (London: Routledge, 2004)

-Roberts, S., Secor, A., and Sparke, M., 'Neoliberal Geopolitics', Antipode, Vol. 35, No. 5 (November 2003), 886–97.

-The Times Atlas of World History (London: Times Books, 2000)

-The Times Comprehensive Atlas of The World, 12th edition (London: Times Books, 2007)

-Weigley, Russell F., The American Way of War (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1973)

الفصل الأول: روسيا

-Eberstadt, Nicholas, 'Russia's Peacetime Demographic Crisis:

Dimensions, Causes, Implications' (National Bureau of Asian Research, 2010(

-Kennan, George F., 'The Sources of Soviet Conduct', Foreign Affairs (July 1947)

-'Russia's accusations – setting the record straight', NATO Fact Sheet (April 2014)

الفصل الثاني: الصين

-Beardson, Timothy, Stumbling Giant: The Threats to China's Future (New Haven, CT: Yale University Press, 2013)

-Boehm, Dana Carver, 'China's Failed War on Terror: Fanning the Flames of Uighur Separatist Violence', Berkley Journal of Middle Eastern and Islamic Law, Vol. 2, No. 1:3(2009)

-De Crespigny, Rafe, China This Century (Oxford: Oxford University Press, 1992)

-Holmes, James, 'When China Rules the Sea', Foreign Policy (September 2015)

-Kaplan, Robert D., The Revenge of Geography (London: Random House, 2012)

-Lewis, Martin, 'East Asia', Stanford University Global Geopolitics Lectures, East Asia (15 January 2008)

-Shaughnessy, Edward L. (ed.), China: Empire and Civilization (London: Duncan Baird Publishers, 2005)

-Theroux, Paul, Riding the Iron Rooster (London: Hamish Hamilton, 1988)

الفصل الثالث: الولايات المتحدة الأمريكية

-Commager, S., Documents of American History Volume 1: to 1898 (10th Edition) (New Jersey: Prentice Hall, 1988)

-Kagan, Robert, Dangerous Nation: America and the World, 1600–1898 (London: Atlantic Books, 2006(

-Pei, Minxin, 'How America and China See Each Other', Foreign Affairs (March/April 2014)

-'The Geopolitics of the United States, Part 1: The Inevitable Empire', Stratfor.com, 4 July 2014 (https://www.stratfor.com/analysis/ geopolitics-united-states-part-1-inevitable-empire)

-US Department of State, 'Rise to World Power, 1867—1913', A Short History of the Department of State (history.state.gov/ departmenthistory/short-history)

الفصل الرابع: أفريقيا

-Bloom, David E. and Sachs, Jeffrey D., 'Geography, Demography, and Economic Growth in Africa', Harvard Institute for International Development, Harvard University (October 1998)

-Chaves, Isaías, Engerman, Stanley L. and Robinson, James A., 'Reinventing the Wheel: The Economic Benefits of Wheeled Transportation in Early Colonial British West Africa', February 2012 (http://scholar.harvard.edu/files/jrobinson/files/the_ wheel_in_africa_february_2012.pdf)

-Kasperson, Roger E. and Minghi, Julian V., The Structure of Political Geography (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2011)

الفصل الخامس: أوروبا الغربية

-Kagan, Robert, Of Paradise and Power (New York: Random House, 2003)

-Ottens, Nick, ' "Too Big for Europe": The Recurring German Problem', Atlantic Sentinel, 28 April 2014

-Speck, Ulrich, 'Power and Purpose: German Foreign Policy at a Crossroads', 3 November 2014 (http://carnegieeurope.eu/ publications/?fa=57167)

-Simon, Luis and Rogers, James, 'The Return of European Geopolitics? All roads run through London', The RUSI Journal, Vol. 155, No. 3 (2010), 57—63

-Turchin, Peter, War and Peace and War (London: Plume Books, 2007)

الفصل السادس: الشرق الأوسط

-Fisher, Max, '40 Maps Which Explain The Middle East', Vox.com, 5 May 2014 (http://www.vox.com/a/ maps-explain-the-middle-east)

-Malinowski, Jon C. (ed.), 'Iraq: A Geography', United States Military Academy, West Point, New York, 2004 (http://www.usma.edu/gene/SiteAssets/SitePages/Publications/Iraq%20A%20 Geography.pdf?Mobile=1)

الفصل السابع: الهند وباكستان

-French, Patrick, India: A Portrait (London: Allen Lane, 2011) 'Geography of India', MapsofIndia.com, 12 November 2014 (http://www.mapsofindia.com/geography(/

-Institute for the Study of War, 'Pakistan and Afghanistan' (2009) Kreft, Dr. Heinrich, 'The Geopolitical Importance of

-Pakistan', Institut für Strategie- Politik- Sicherheits- und Wirtschaftsberatung (ISPSW), 15 February 2008

-Musharraf, Pervez, In The Line Of Fire: A Memoir (New York: Free Press, 2008)

الفصل الثامن: أمريكا الجنوبية

-Keen, Benjamin and Haynes, Keith, A History of Latin America, Volume 1 (Wadsworth: Cengage Learning, 2012)

-World Economic Forum on Latin America 2011 (http://www.weforum.org/events/world-economic-forum-latin-america-2011)

-Zovatto, Daniel, 'Elections in the Southern Cone: Citizens Chose Continuity', Brookings, 30 October 2014 (http://www.brookings.edu/research/opinions/2014/10/30-democracy-alternation-latin-america-zovatto)

الفصل التاسع: كوريا واليابان

-Chang, Gordon G., Nuclear Showdown: North Korea Takes On The World (London: Hutchinson, 2006)

-Kim, Seung-Young, American Diplomacy and Strategy Toward Korea

and Northeast Asia 1882–1950 and After (London: Palgrave Macmillan, 2009)

-Oberdorfer, Don, The Two Koreas (New York: Basic Books, 2001)

الفصل العاشر: القطب الشمالي

-Bjarnason, Björn, 'Climate Change and Iceland's Role in North Atlantic Security' (speech), Belfer Center, John F. Kennedy School of Government, Harvard, 26 November 2007

-Conant, Eve, 'Breaking the Ice: Russian Nuclear-Powered Ice-Breakers', Scientific American blog, 8 September 2012 (http://blogs.scientificamerican.com/guest-blog/2012/09/08/ breaking-the-ice/)

-Grydehøj, Anne, Grydehøj, Adam and Akrén, Maria, 'The Globalization of the Arctic: Negotiating Sovereignty and Building Communities in Svalbard, Norway', Island Studies Journal Vol. 7, No. 1 (2012), 99–119

-United Nations, 'Part V: Exclusive Economic Zone', UNCLOS Treaty (http://www.un.org/depts/los/convention_agreements/texts/unclos/part5.htm)

-Woods Hole Oceanographic Institution, 'The Arctic: Exploration Timeline, Polar Discovery', 2009 (http://polardiscovery.whoi.edu/arctic/330.html)


مكتبة العولقي
– شبوة اليمن –

تيم مارشال

سجناء الجغرافيا

يعدُّ تيم مارشال من أهمّ الصّحفيين إثارةً للجدلِ، فقد تنبَّأ منذُ سنواتٍ بالحربِ الرُّوسيَّة الأوكرانيَّة إضافة إلى الانسحاب الأمريكي من أفغانستان كما عاينَ عديد التَّحوُّلات في دولٍ عديدةٍ، مثل أفغانستان والعراق وشاركَ في تغطية حروبٍ أهليَّة كثيرة وحظي بمقابلاتٍ صحفيَّة كثيرة مع أهمّ الرُّؤساء والزّعماء من مختلف قارّات العالم.

كتابُ «سجناء الجغرافيا» هو ثمار تجربة تيم مارشال الصّحافيَّة المليئة بالتَّجارب والقراءات التي أثبتت وجاهتها في الدِّراسات الجيوسياسيَّة. ففي هذا الأثر، ستتبيَّنُ قوَّة الجغرافيا في تحديد العلاقات بينَ الدُّول وأهمّية التَّضاريس بوصفها سلاحًا لا يقلُّ أهمّيَّة عن أيّ سلاحٍ آخر.

حقَّق هذا الكتاب مبيعاتٍ هائلةٍ تجاوزت المليون نسخة في الولايات المتّحدة وحدها كما تُرجمَ إلى أكثر من ثلاثين لغةٍ إضافة إلى اعتمادهِ مرجعًا في الدِّراسات الجيوسياسيَّة المعاصرة.


ISBN: 978-603-8387-24-5
9 786038 387245


WWW.PAGE-7.COM

